

أغصان عارية^{٢٨}

دار النشر والتوزيع



الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

أغصان عارية :	اسم الكتاب
عبد الحميد بشاره :	اسم المؤلف
عمرو الحو :	الغلاف
خالد رجب عواد :	التصحيح اللغوي
الأولى :	الطبعة
٢٠١٦ / ٢٣٥٠٩ :	رقم الإيداع
٩٧٨ - ٩٧٧ - ٧٨٦ - ٠٨٨ - ٨ :	الترقيم الدولي

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠ - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

ghorabpublishing@hotmail.com

رواية

أغصانٌ عاريةٌ

عبد الحميد بشارة

دار النشر والتوزيع

إن كلمة «أحبُّك» هي عُمرُ المرأةِ
وتاريخُها المتجسّد في كلمة.
ولو كان من القدر قدر على المرأة
ألا تنطق في عمرها إلا بكلمة واحدة لكانت هذه.
فلتَنْظُرْ بأيِّ قلبٍ ستودعُ كلمتها الأبدية.

(١)

الغرفة غارقة في الظلام المصطنع، الستائر الكثيفة على الشرفة تمنع تسلل الضوء إليها، هكذا يتعهد غرفته قبل النوم إذا كان صباح اليوم التالي عطلة، أو إن سبق نومه سهرة ثقيلة تستدعي وقتاً أعمق في الراحة قبل النزول إلى الشركة متأخراً.

تسلل إليه صوت طفليه من الخارج فأيقظه، حاول التخلص منه فحوّل وجهه للجهة الأخرى، لكن حركته لم تمنع الصوت من الوصول إليه. ثم تحرك بضع حركات غاضبة متوترة أسفل غطاءه الخفيف، ووضع رأسه أسفل الوسادة، فمنعت صوت إزعاجهما إلى حدّ ما، وبعد برهة ضاقت نفسه لضغط الوسادة عليه، فرفعها عنه، ونظر إلى السقف متأففاً، وسكن قليلاً لربما سكتا لأي سببٍ، لكنها استمرّا في ضحكهما العابت الصارخ، فقام غاضباً إلى الصالة، كان طفلاه يلهوان ببعض الدمى المنتشرة على الأرض، يدوران حولها ويمسكانها فجأة، فتتعالى الضحكات الطفولية على أثرها، فصرخ فيهما غاضباً:

- يلعن أبوكم يا أولاد الكلب.

أحدث صوته الغاضب ضجة في الفيلا، وأشاعت في نفس
الولدين ذعراً فانكمشا وتقاربا كقطتين يابستين أسفل المطر، وحدّجهما
بنظرة غاضبة هنيئة كأن الزمن توقّف خلالها. جاءت يولاند مُسرعةً
من المطبخ يقطر الماء من يديها، فجثت على ركبتيها، واحتضنتهما،
وربتت على ظهرهما وهي تردد في هدوء:

- لا تخافا ..

بينما عيناها ثبّتتا في عينيهِ الحمرّوين المستدئبتين، فترك لوم عينيها
ودخل إلى سريرهِ من جديد، كلمات نابية لا تليق بمركزه ولا رُقيهِ
الظاهر، حتى وإن كان سيئ الخلق، فليعزل ذلك عن بيته، ومن ثمّ عن
أطفاله، لطالما قالت. فتبعته بعدما صرفت الطفلين إلى غرفتهما برفق،
فأضاءت الغرفة ونزعت عنه غطاءه بفضاضة ورّبت يديها ورفعت
حاجبها الأيسر:

- نبهتكَ مراراً ألا تُعامل الطفلين هذه المعاملة، أسلوبك يؤثّر
فيهما سلّياً.

فنظر نحوها مُتأفّفاً وهو يتحاشى النظر إلى النور، ثم قال مُحدّراً
بصوتٍ هادئٍ رصين:

- اخرجي وأطفئي النور، أريد أن أنام.

فضربت جنبها براحتيها بعنف وهي خارجة وقالت:

- حسبي الله ونعم الوكيل فيك.

فقام غاضباً وأمسكها من شعرها وضربَ رأسها بمكبس الكهرباء مرتين، فانطفأ نور الغرفة، وتركها تخرج وعاد لفراشه بهدوء. فأسرعت إلى المطبخ لتلتقط علبة البُنَّ وقبل أن تصل إلى الحمام كان الدم قد فاض عن كفِّها، وتسرب من بين أصابعها، فترك بُقعاً في الأرض وسُترة المطبخ البيضاء.

كان شَجًّا يستوجب ستَّ غرز فغسلت عنها الدم، ووضعت عليه البن حتى ملأته، ثم طأطأت رأسها حُزناً، فبيست شفتها، وقطَّبت جبينها المشجوج، تسلل إليها خورٌ مُتبخِّر من ضعف استسلمت له من زمن، ورقَّها شعور بالهزيمة ومرارة تشقُّ قلبها نصفين، وتجمَّعت برأسها أحداث كثيرة شبيهة مضت، وتتابعت بسرعة فائقة حتى ضغطت نفسها أكثر فانفجرت باكية، فانكمش وجهها وعُصر عصراً حتى تفصَّد الجرح دمًا، واتخذ طريقاً بين عينيها حتى تساقط من أعلى أرنبة أنفها في الحوض الأبيض.

- ماما، ماما، ما لك يا ماما؟!

مسحت عنها الدم بقطنة، ثم وضعت بعض البن على الجرح أسفل قطنة صغيرة، وعلتها بلاصقة طبية، وأراقت الماء حتى غمر الدم في الحوض تاركاً بقعة تخثرت، ولاحت لها نظرة في مرآتها، مرَّت برُهة وهي ثابتة جامدة النظر لوجهها، انتهت نظرتها إلى احتقار وازدراء لتلك التي تراها أمامها، وفتحت الباب فوجدتها كصنمين شاخصي

البصر نحوها، لا تندُّ عنهما حركةٌ ولا همسةٌ سوى دموعِ خوفٍ ورثاء
تملاً خدودهما بؤساً، فابتسمت لهما وقالت بوداعة مُتكلِّفة:

- ما لكما يا قلبي وروحي؟! امسحا دموعكما.

- كنتِ تبكين يا أُمي.

وقال عمر بحنق وهو يحدّق في لاصقة جبهتها ويمسك في عينيه
دمعة:

- أُمي مَنْ فعل بك ذلك.

- لا لا .. أبوكما رجل طيب وليس من الأزواج الذين يضرّيون
زوجاتهم، كل ما في الأمر أنني وقعتُ مِنْ فوق سُلّم المطبخ، وأنا أُحضر
بعض التوابل.

فقال نور بلهجةٍ تُكذِّبُها:

- التوابل بالأسفل ولا تستدعي ارتقاء السُّلم!

- نور .. هذا ما حدث، والآن اذهبا إلى الصالة، وشاهدا الكرتون،
وحذارِ من رفع صوتكما حتى لا تُزعجا أباكما.

أنهت كلامها بابتسامة، فبادلاها ابتسامة باهتة، واستندت بكفّيهما
على رخامة المطبخ ريثما تستعيد بعض توازنهما، ثم شرعت في تحضير
الطعام.

يشغلها أن العواقب سيئة دائماً لأي طفلٍ يسأل يشاهد أمه تُضرب،
رمز الحنو والعطف يُهان ويبيكي، فأين الأمان إذن؟ أقل ما يمكن أن
يحدث إمّا أن يسقط الرمز من عين الطفل ونفسه، أو يتحوّل الأب إلى
وحشٍ يُخدّره ويخافه ويكنّ له الضغائن سرّاً، أو تشوّه نفسه حتى وفاته،
ولكن الكذب لم يعد كافياً كونه علاجاً للمواقف الطارئة كما اعتادت،
فتنهدت وتمتّت مُستغفرةً.

أيقظته هذه المرة منبه هاتفه الذي أشار إلى العاشرة صباحاً، فأغلقه
وخبأ وجهه أسفل الوسادة، فرنّ مرةً أخرى فتأفّف.

- نعم يا سي زفت على الصبح .. والله .. متى .. ياه، الأربعاء
القادم! كنتُ أودُّ لو كان أقرب من ذلك، بيني وبينك أنا قر فان غاية
القرف ..

أطلق ضحكةً، ثم ردّ قائلاً:

أرجو أن تُصدّق هذه المرة ..

ضحك ثانيةً وأنهى مكالمته:

مع السلامة.

أشاعت أخبار "هشام" الصباحية بهجةً في نفسه فقام نشطاً سعيداً،
ولمّا خرج إلى الصالة خاف الطفلان وارتعبا، فاندھش، فاقترب منهما
يُطمئنهما، فصرخا يستنجدان بأمهما وهما يفرّان إلى غرفتيهما وأغلقاهما،
فعقد حاجبيه ناظرًا تجاه الباب مُتعبجاً، كانت تقف على باب المطبخ

تُراقِبُهُم، فاستدارت قبل أن يلمح وجهها وما أحدثه به، وعادت تكمل تجهيز السفرة بعد دخوله الحمام.

قارت بينها وبين الطفلين، فجعلت عمر عن يمينها ونور عن يسارها، وتركته بمفرده ليجلس على رأس السفرة.. خرج من الحمام وهو يحفُّ رأسه بالمنشفة حتى وقَفَ على رأس السفرة ليشرب، وقف الماء في فمه لما رفعت وجهه نحوه لما يفعل:

لا ينبغي أن تقف على الطعام والماء يتساقط من شعرك عليه.

قالتها مرارًا لكنه يرد بعجرفته المعتادة: "وأنتِ ما لك؟ أترينيني؟"

لم تذكره هذه المرة لوجود الأطفال أو خوفًا، فربما شجَّ رأسها أو ضربها بكوب الماء الزجاجي فشوّ وجهها الجميل. وقف نظره عند البقعة الحمراء في جبهتها، فتذكّر ما فعل، فجلس حسيّرًا يتردد بصره بينها وبين الطفلين.

أنها طعامهما على عجلٍ وهما ينظران نحوه بترقُبٍ، فأمرتها بغسل أيديهما والدخول إلى الغرفة، وأشغلت نفسها بعدم اكتراث لما تفعل بوضع الجبن في أرغفة الفينو حتى انتهى الطفلان لغرفتهما وأغلقا بابها.

- أنا آسف.

كأن شيئًا لم يقله أحدٌ، فردّد:

- يولا .. آسف لما حدث .. لم أكن أقصد .. آسف.

رفعت وجهها ونظرت نحوه بائسةً، ثم تقاطر من عينيها دمعٌ لم تنجح في منعه.

- يولا ..

قالها وهو يهيمُّ بالاقتراب منها، فأشارت بكفها بحزم:

- مكانك.

فعاد جلسته وقامت إلى غرفتها، وتناولت منديلًا مسحت به دموعها، ثم أبدلت ملابسها، كاد جرحها أن ينفجر مرةً أخرى وهي تخلع ملابس البيت، لكنها زمت شفيتها وتحملت الألم، ووقفت أمام مرآتها، وتوقفت يدها ممسكة بطلاء الشفاه برهةً، ثم ألقت به على التسريحة دونما اكتراث لوقوعه على الأرض وتمشُّمِه، وأخذت حقيبة يدها وهاتفها، وخرجت إلى الصالة فأحدث الباب صوتًا نبههُ وهو بالشُّرفة يتكلم في الهاتف، فأغلقه مسرعًا، نظرت إلى أطباق فُطوره فوجدتها فارغةً، فتحركت شفتها ساخرةً، بينما وقف يائسًا من أي كلمة اعتذارٍ قد تصلح ما كسره.

- يولاند .. أرجوك اقبلي اعتذاري.

- لست بحاجةٍ لأن تعتذر، فأنت (السيد) هنا، وعليّ أينما نكن ..

تشير إلى فعالة السابقة التي نالتها في أماكن متفرقة، فإهاناته كالسحاب المثلثل بهائه، لا يُعرف أين يمطر.

وأردفت قائلة:

- لا ذنب للولدين فيما بيننا، فلا تفسدهما بسلوكك.

نالت الكلمة "سلوكك" من عُنْجُيَّتِه، ونسي أنه في موقف اعتذار عن خطأ ارتكبه:

- "سلوكك"؟!

ثم أتبعها بضحكة ساخرة انتهت إلى ضحكةٍ مجلجلة، ثم جلس مكانه على كرسي السفرة، فحدقت فيه النظر ورفعت حاجبها ..

- لا يعجبك سلوكي! لا يهم، المهم ألا تضعي في نفس الولدين شيئاً من أمراضك وعُقدك، لا تزرعي الكُرهَ بيني وبينهما.

- أنا لا أزرعُ الكُرهَ، أنا أحاول نزعَه من البيت قَدْرَ استطاعتي لكنك ..

فقاطعها غاضباً وهو يُشعلُ سيجارةً:

- تتكلمين دائماً عن التأثير في نفس الولدين من سلوكي، فبِمَ تفسرين ضمَمَها إليك على السفرة وبُعدهما عني يا .. فرويد، هه؟ تحاولين قدر استطاعتك أن تفوزي بالولدين وحدك.

- "أفوز" أفوز بماذا وعلى مَنْ؟ أنت لستَ طبيعياً، يُستحسن أن تعرض نفسك على دكتور نفسي.

غلت أعصابه، فأطبق يده بشدة وعصرها، وبرزت عروقه في عنقه ويده، وبدت عيناه حمراوين ملتهبتين، فانصرفت من أمامه غير مكترثة بعصبيته المكتومة.

أما الطفلان فهما خلف الباب متلصصين يتابعان ما يحدث من فتحة المفتاح بالتناوب.

قال عمر في غضب طفولي:

- لا أدري لم يفعل بها كل ذلك؟

- أنا حزينة جدا عليها، يؤلمني ضربته وإهانته لها.

- ومع ذلك تُنكر دائما ما يفعل حتى أمام جدتنا.

- أخاف عليها فهي لا تستحق ذلك.

- أنا ذاهب إليه ..

- لا تذهب فهو غاضب وقد يضربك.

- ليكن ما يكون، يجب أن أدافع عنها.

كان لا يزال جالسا على السفرة يتكلم في هاتفه بصوت خفيض، فاجأه الطفل بصوته المرتفع

- لم ضربت أمي!

فأغلق الهاتف وصرخ في وجه الطفل:

- اذهبْ إلى غرْفَتِكَ، هو يوم أسود من أوله.
ففرَّ الطفلُ خائفاً مذعوراً، وصفق الباب خلفه، ووقف خلف
الباب يتنَفَّضُ وهو يتنفس الصعداء.

(٢)

توقفت سيارتها بمستشفى الهرم، وصعدت إلى الدكتور منير إبراهيم رئيس قسم الجراحة، وهو صديق عائلتها، كان مجنداً طيباً أثناء خدمته العسكرية بالجيش، وصادف أن كانت خدمته مع والدها، رآها أول مرة قبل زواجها وهي تزور والدها بالوحدة العسكرية لتأخير نُزوله.

أشاعت في نفسه فرحة وسعادة لما أخبرته السكرتيرة بوجود "مدام يولاند" تطلب الدخول، وقام مُرحباً:

- أهلاً وسهلاً مدام يولاند نورت المستشفى.

- شكراً يا منير، كيف حال ندى؟

- الحمد لله بخير (ثم وهو يجلس) رُزقنا بطفلة منذ أربعة أشهر.

- مبارك، ولو أنها متأخرة.

ابتسم وأشار بيده مُهَوِّناً من الأمر، فأردفت قائلةً:

- وما اسمها؟

- وهل هناك أجـ... أفضل من يولاند!

أسكتتها إجابته، ما زلت بداخله أيتها الجميلة، كذب من قال أن
الزمن يُنسي ..

لم يكن رفضها له منذ ذلك الوقت لحداثة سنّه ولا لمستقبله المبهم
ولا لكثير من الأسباب التي قالها بعد رفضه لعدد من صديقاتها
كمحاولات للتأثير على إرادتها، وقتها لم يفهم أن السبب غاية في
البساطة، لكنها لم تستطع الإفصاح عنه .. كانت تحبُّ مراد!

كان الحب بقلبها شمس في بداية نهار شتوي، ما كان أجمل ملمسها
بقلبها الغصّ، ودفتها بشرايينها العاشقة المستنامة.

أردف بصوتٍ مُتهدِّج:

- يولاند ..

- دكتور منير!

تنحرج الرجل وعاد أدراجه خائباً .. الطريق مسدود.

افتتح دفتر (الروشتات) وكتب الاسم والسن ..

- رقم هاتفك لو سمحت؟

- أعتذر .. يمكننا أيضًا الاستغناء عن الروشة.

يبدو أنه لا طريق أساسًا!

- طيب، تفضلي.

جلست على (الشيزلونج)، فنزع عنها الضمادة التقليدية، وتناول
قطنة ووضع عليها مطهرًا وقام بتنظيف الجرح ..

كان ينظر لعينيها مباشرةً، وتلمحه بطرف عينيها، لكنها لا تلتفت
إليه .. سنوات طويلة مضت وأنت كما أنت، كلما مرّ عليك الزمن زادك
جمالًا ودلالًا وبهاءً ..

تلك العينان البنيتان البراقتان اللتان وقع أسيرهما من أو مرة رآك
فيها مصادفةً، تركتا في قلبه أثر الطلقة الغاضبة في الجدار الهش.

فلما توقفت يده نظرت نحوه، فقال محرجًا:

- الجرح قطعي يستوجب الخياطة ..

- لذا أتيتُ.

- كيف حدث ذلك؟

- اختلّ توازني في الحمام فوقعتُ.

- أشعرت بعدها بتنميل فوق العين؟

- لا، شعرت بألم حادّ فقط.

- وماذا عن الرؤية؟

- لم يحدث أيُّ تغييرٍ وإن كانت عيني المتني بشدة بعض الوقت.

- الحمد لله، كاد العظم الجبهي أن ينكسر، احتسني من إصابات الوجه فهي خطيرة خاصة الجبهة.

ووضع فوق الجرح المخطط لاصقةً طبيةً، وتناول ورقة الروشته وكتبَ بعض الأدوية.

- بالنسبة لأثر الجرح بعد الشفاء ..

- لا تقلقي، الخياطة داخلية، ولو تركت أثرًا ظاهرًا يمكننا إجراء عملية تجميل بسيطة أو استخدام كريم تجميل، وسيعود كل شيء كما كان.

- شكرًا دكتور منير.

أحزنه التحفظ، وبدت أثاره في ملامحه وصوته، فناولها الروشته وهو يقول:

- نحتاج دائمًا لروشته مهما يكن الجرح بسيطًا.

- كم الحساب؟

زَمَّ شفتيه، وابتلع ريقه بصعوبة، ثم نزع نظارته ببطء:

- أنتِ دخلتِ هنا بصفةٍ ودية، فأرجو أن يدوم الودُ بيننا.

مكثت مكانها بعدما همّت بالقيام ورفعت حاجبها، وقالت بحِدَّة:

- "ود بيننا!" انتبه لكلامك يا دكتور.

قال بنبرة هادئة امتصّت انفعالها:

- يولاند .. أنت تفهمين أنني ما قصدتُ أي معني سيئ.

ليس هو من يستحق ثورتك، وليس ذنبه أنه أحبُّك يومًا، أو أنه احتفظ بحُبِّك في قلبه إلى الآن ..

خرجتُ من العيادة ولبست نظارتها الشمسية السوداء العريضة، استحوذت على أنظار رُواد المستشفى وهي خارجة تفرع الأرض الرخامية بحذائها، حتى مع مشيتها العسكرية المتحفظة. هاتفتها "جودي" فأخبرتها أنها بالمستشفى لمداواة جرح بسيط، وأوصتها بعدم إخبار أمها كي لا تقلق، ثم دلفت إلى سيارتها، وأدارت محركها، ونظرت برهةً إلى الجرح في المرأة أمامها، ثم أخرجت حبة (أنابرامين) وابتلعتها.

كم من الوقت مضى على تناول المهدئات؟ وكم من الوقت يجب أن أنتظر كي تُشفى الجراح وتعود زهرة الأيام لأول عهداها؟!

وصلتُ إلى فيلاتها بحدائق الأهرام، فتفاجأت بخُلُوها من أي أحد، فنادت على نور وعمر لكن أحداً لم يرد، فاتصلت بمراد على مَضِيٍّ، فأخبرها أنهم في النادي، والطفلان بكل خير وسعادة، حذرته

ورجته ألا ينزلا المسبح حتى يطمئن قلبها، فحوادث الغرق كثيرة هذه الأيام، فرد:

- كفاكِ نُصحًا، تودين لو لم ينزلا معي لأي سببٍ حتى تملئي آذانها بعُقدكِ أيتها المُعقّدة.

وأُنبى المكاملة بصورة مفاجئة، فأتسعت عيناها دهشةً، ثم انفعلت غاضبةً:

- الله يلعنك!

ودلفت إلى غرفتها، فأبدلت ملابسها، ولما تهدأ جمره غضبها حتى هاتفها من جديد ليخبرها أنهم سيتناولون غداءهم في النادي، لم تجد تفسيرًا لما يفعل، ذكّرتَه أنها اتفقا على تناول الغداء بالمنزل!
فقال بنبرة استفزازية:

- لا تنسي تسخين الجبن الرومي في أرغفة الفينو، كانت لذيذة في الصباح.

وأُنبى المكاملة فجأةً أيضًا، فصرخت غاضبة:

- إن شاء الله ستُسَخَّن في نار الجحيم.

وفركت رأسها ووجهها بكفّها، فاتّقدت حُمرة كوردة صباحية نديّة، وانتابها ثِقَلٌ كئيب جثم على قلبها، فخرجت إلى الشرفة تستنشق بعض الهواء، وتناولت رواية بجوارها أو شكت على نهايتها، لكنها لم

تكمل قراءة صفحة حتى قامت تاركة الرواية على المنضدة الخيزران، وتوجهت إلى المطبخ فأعدت كوب نسكافيه، وفتحت التلفيزيون على فيلم قديم لإسماعيل ياسين، كان مُضحكاً في حركاته وسكناته وتلقائياته في أدائه الكوميدي غير المتكلف. قامت مرة أخرى إلى مطبخها لتضيف بعض السكر إلى الكوب، ولما رجعت كان الفيلم قد انقطع، وسيل من الإعلانات يغزو الشاشة عن حبوب الفياجرا، فضحكت ساخرة من أفق المجتمع الضيق الذي يضع الجنس في مقدمة الاهتمامات والتفكير، كمراد زوجها الذي طالما وجدت بجيوبه تلك الحبوب بأنواعها وألوانها. فحوّلت القناة، ثم تابعت الانتقال من قناة إلى أخرى حتى ضجرت وشعرت بالملل، فانتهدت إلى فيلم قديم أيضاً، كانت راقصة تهتز على أنغام بدوية، فانتبهت لها، وأمعنت النظر في حركاتها، إنها نعيمة عاكف راقصتها المفضلة.

تعلمت منها الكثير قبل زواجها، حتى ظنت أنها تفوقت عليها بما كانت تراه في عيني "مراد" من إعجابٍ ودهشةٍ، كانت إذا تهيأت ورقصت بين يديه بدت كجمرّة مُتقدّة تطأ قلبه بقدميها فيئن لثقل فتنتها وحُسْنها عليه، وحينما تتمايل وتهتز، فإنما هي موجة شاردة بالقرب من شاطئ عذبته الشمس وشققته، فتقترب منه وتبتعد، فتزيده ظمأً ولوعةً، وكانت تتفنن في ارتداء أثوابها الراقصة، فمرة في قمصان نومها، ومرة في السراويل الضيقة، ومرة ... عارية.

لكن ... أين كل هذا الآن!؟

منذ زمن لم يهتز لها جسد، ولم يُداعِبْه نغمٌ.
أغلق هذا الجسد على أنوثته وفِتْنَتِهِ، فلم يعد يخرج منه شيءٌ..
تشتاق لأن تفض حافظة أنوثتها وتنشرها تحت ذكورة رجلٍ، وكم
تريد أن تُبدع وتتفنن .. لكن لمن؟

هزّت رأسها أسفاً وزمّت شفيتها بحُزنٍ، وأطلقت زفرةً حارقةً،
فأصعب الأوقات على نفسها، هي تلك الأوقات التي تمرُّ بها وهي تري
الناس أخلاطاً حولها، لا تكاد تُميّزُ وجهًا من وجه لكثرتهم، لكن في عالم
شعورها فهي وحدها كأنها بفلاةٍ مُهلكةٍ، وليسوا في عين القلب أكثر من
بقعٍ سرابيةٍ تراءت لعيني وحيد شريد، فحوّلت القناة مرةً أخرى،
وتناولت كتابًا من عدة كتب متراصةٍ عن يمينها فوق منضدة صغيرة،
ووضعت قدمًا على قدم، ثم وضعت عليها الكتاب، وتناولت ريموت
الراديو المُعدّ دائمًا على إذاعة الأغاني إن لم يَقم مراد بتحويلها.

قرأت سطرين أو ثلاثة، وتوقفت لتسلّل صوتِه الساخر: "اقرئي ..
فوهم الكتب دائمًا يريح المُعقّدين"

- غبي!

أخذت نظارة القراءة من فوق المنضدة الصغيرة، فنظفت عدساتها
ولبستها، فسمعت صوتَه يقول عندما رآها ترتديها لأول مرة وهي تقرأ:
"مبارك النظارة .. لا أدري لم تشغلين نفسك بالقراءة؟! ماذا قدّم لك
السباعي وعبد القدوس ومحفوظ وغيرهم إلا ضعف النظر! على

العموم القراءة واحة كل مُعَقَّد التي يجد فيها نفسه، ودائمًا تبدأ بضعف النظر وتنتهي بالجنون!"

أغلقت الكتاب، وطوت نظارتها، وقامت إلى الشرفة ويدها كوب النسكافيه، فاستندت على سورها الحديدي الأسود، وجالت ببصرها متأملَةً شجر الحديقة المتَّسخ وما عليه من طيور مُعششة بين أغصانه ..

في عالم الطيور كل زوجين متشابهان لهما همٌّ واحد وهدفٌ واحد في الحياة، يخرجان مع صوت الفجر الأول ليعودا بالطعام للصغار، لا يمين الذكر على الأنثى بأنه (ذكر)، ويكون أول من يفرد جناحيه في العُشِّ إذا نزل المطر ليقى الصغار وأنثاه البكّل، وليس هناك ذكر يضرب الأنثى ولا يُخَفِّر من شأنها، كأن صوتها واحد، نغمته واحدة، مستواه واحد، لا ينهر ذكر أنثاه بأن صوتها مرتفعٌ بينما صوته كطَرَقِ الحديد، وألفاظه كتساقُطِ الصخور .. فتمنت أن لو كانت طيرًا حرًّا حتى لو كانت كذاك الغراب الناعق بين طبقات السحاب، ربما لم يُخلق الغراب غرابًا بهيئته المشؤومة وصوته المنفّر، ربما كان شمعة تُضيءُ وجهًا جميلًا في غرفة مظلمة مفعمة بالحب والأمل والانتظار، أو وردة نضرة تُواجهُ الشمس صباح كل يوم، أو امرأة جميلة، لكن لطُف البدايات لا يعني دائمًا أن النهايات ستكون على نفس المنوال، فانطفأت الشمعة، وأظلم الوجه الجميل، واحترقت الوردة، وتساقطت أوراقُها تحت أشعة الشمس المتغيرة، وطارَت المرأة بجناحين سوداوين تلونا بقسوة الأيام ونكران الجميل.

رَنَّ هاتفها بالداخل فانتبهت له، فدلقت إلى الصالة ووضعت
كوبها.

تمت قبل أن ترد:

دكتور عادل عبد المقصود!

مضي وقتٌ لم يتهافتا أو تطمئنَّ على الرجل المسنَّ صديق أبيها
الوفاي، تفاجأت بقوله:

- نويتُ ترقيةكَ إلى نائب مدير الفرع.

ابتهجت وشاعت في وجهها فرحةٌ طفولية، لكن سرعان ما عادت
لطبيعتها المكتئبة، هي في إجازة منذ ستة أشهر، ولا تدري بعد أتستطيع
تخطي أسوار زوجها لتعود من جديد، أم ينتهي الأمر للاستقالة فعلياً
وليس كما أوهمت مراد أنها استقالت؟ فاعتذرت للرجل، فبادرها قائلاً
بحنو:

- لك الاختيار، صحيح أنك لست بحاجةٍ للمال، لكنك بحاجةٍ
إلى نفسك، اعذرني إن قلتُ لك إن أيامك هذه غائمة بعض الشيء،
أستطيع أن ألحظ ذلك في صوتك وانقطاعك عن الاتصال بي .. يولاند
العمل يقي الكثير من المتاعب، أما إذا فكرت في الركون فستشيخ
نفسك قبل أوانها وأنت شابةٌ جميلة.

- ليست هناك أية متاعب الحمد لله، ولكن ولديَّ بحاجة أكثر إلى
الاهتمام والرعاية و..

فقاطعها قائلًا:

- حينما تنتهين من كذبك الأبيض نبهيني لأضع الهاتف على أذني.

فتنهدت وقالت:

- انتهيتُ.

- الفترة القادمة مطلوب تعيين عدد من الموظفين في فروع البنك كافةً، وأنتِ تعرفين اللوائح، فانقطاعك عن العمل حتى ولو بشكل قانوني، لكن القانون أيضًا من حقّه أن يتساءل: لم يظل مكانها شاغراً طيلة إجازتها؟ أمامك أربعة أشهر فقط لتعودي إلى البنك نائبًا لي .. مع السلامة.

"لسنا بحاجة لنزولك للعمل، ولا تجادليني مجددًا، ستقدمين استقالتك وتتفرغين لبيتك وولديك وزوجك".

أخذت الكوب وتوجّهت إلى المطبخ فغسلته وعلّقه بجوار الأكواب الأخرى، وشغلت يدها في تنظيف المطبخ، ثم دخلت الحمام لتغسل يدها بالصابون المطهر، فنظرت بمرآتها نظرة طالت بها، تتبععت خطوط وجهها النابتة كسطور رقيقة باهتة تقرأ عليها ما مرّ بها من همٍّ وألمٍ، انطفأ بعضُ بريقها، كانت آية الحسن بين قريناتها في الجامعة وبين أقاربها، لكنها الآن بهتت بعض الشيء كما أخبرتها (صديقتها المرأة!) والتي تثق بها وحدها و"جودي" ..

تأكلت زهرتها هنا، وهي في طريقها إلى الانزواء والدُّبول منذ
استجابت له بتركها العمل كما أمرها، تتأمل تفانيها في خدمته، وما
يُقابلها به من تجاهل وإساءة خُلِقَ أحياناً ..

تتبع خيوطها بأناملها، ثم سحبتها برفقٍ على خدها ثم إلى
شفتيها، ورنيءُ صوته صارخاً في أذنها لا يهدأ بكلماته التي أنبتت في
نفسها الرفض له: "أتظنين نفسك امرأة، لو رأيت النساء في شركتي
كيف يكن لألقيت نفسك من فوق برج القاهرة .. أنتِ إنسانة زبالة ..
قسماً بالله إن تابعت الكلام في هذا الموضوع لأصفعك على وجهك
بالخذاء .."

لا تذكر ما الموضوع الذي استدعى تلك البذاءة التي لا تُحتمل،
لكن كلماته ظلت برأسها كغرابٍ ناعقٍ يصرخُ بنفسها بين الحين والحين.
لقد طعنها حتى تكسّر نصله، ورماها حتى تفتت قوسه.

كيف سكّت على كل ذلك؟!!

عمل على تجريف أنوثتها، وتجفيف منابعها كامراً حتى تفقد
القدرة على العطاء، ولا تصلح لشيء إلا لوجودها بجواره تنتظر عطفه
وإحسانه.

كانت قبل زواجها ترى الرجال بالأبيض والأسود، تتوجّس خيفةً
منهم كلما وُجدَ في محيطها أحدهم، فأغلب معرفتها بالرجال حصّلتها
من قراءة الروايات، ومن أحداثها كوّنت خبرتها، إضافة إلى ما أودعته
فيها بيئتها المتحفظة، وما سكّبه فيها أمها من نصائح ومحاذير.

فلما تزوجت تلوّنت عدساتها، فرأت الرجل بالألوان لأول مرة،
ولبست عدساتٍ أخرى، فواحدة ينعكس على سطحها صورة الرجل
الزوج، وأخرى صورة الرجل المحبوب، وأخرى أبي الأبناء وربّ
الأسرة.

وهذه الثلاث هي التي تخلق المرأة من جديد على يد الرجل، وهي
أيضا ثلاث طبقات صُلبة تزينها وتحميها.

لكن بمرور الوقت أخذت عدساتها تهترئ وتَضَعُفُ، وما لبث
الوقت يمضي حتى تكسرت وتهشمت واحدة بعد أخرى، فلم يبقَ منها
سوى "أبي الأبناء"، وتلك التي لا فِكَاكَ منها ولا مَهَرَبَ.

لو يرى نفسه الآن بعينيها لاحترق صاغراً خَجِلاً، ولأيقن أن المرأة
أتونٌ مُتَأَجِّجٌ تُطهى فيه الحياةُ لتَنْضِجَ ويُستَسَاغَ طَعْمُها في حلق الرجل،
وأحياناً لحرق الحياة وتدميرها إذا اعتدى الرجل على طبيعتها.

فُتِحَ البابُ، ودلفَ الولدان يَحْمِلَانِ حَقَائِبَ صغيرة خاصة
بمتعلقات النادي، فلوّحت إليهما بكفّهما مبتسمةً، فذهبا إليهما وقالا معاً:

- رأيت الورقة التي تركناها لك؟

- أي ورقة؟

- هذه ..

وأشار عمر خلفها فأخذتها:

"أحبُّك يا ماما".

فابتسمت وجثت على ركبتها وقالت:

- وأنا أعشقكما.

وقبلتهما واحتضنتهما، وأردفت قائلةً وهي تقوم:

- أخبراني: ماذا فعلتما في النادي؟

لمحت "مراد" بالصالة يمسك هاتفها ويرى سجلَّ المكالمات
الصادرة والواردة ..

- نزلنا إلى المسيح.

قاطعته نور:

- اسكتْ سأتكلمُ أنا ..

انقطعت عن الولدين، وسددت بصرها نحوه، فبهت صوت
الطفلين في أذنيها، وبدا بعيداً لا تستين منه كلمةً واحدة، أُخرج لما رأى
عينها تنظران إليه، فوضع الهاتف على المنضدة وأشعل سيجارة وخرج
للشرفة ..

شدَّ عمر يدها حتى تنتبه لهما، فأمرتها بالدخول لغرفتهما، وذهبت
إليه في الشُرْفة غاضبةً، ووقفت قُبالة مربيَّةً يديها رافعةً حاجبها:

- كم رجلاً رأيته اتصلت بهم أو اتصلوا بي؟ وكم رسالة غرام

قرأتها بيني وبينهم؟

- احترمي نفسك.

- أنا محترمة قبل أن أعرفك وأثناء معرفتك وبعد ذلك أيضًا.

ضيّق عينيه قائلاً:

- بعد ذلك! تُريدان الطلاق إذن؟

ودخل إلى الصالة فتبعته ..

- لم أذكر الطلاق، ولكنها عادتكَ .. حذارٍ أن تلمس هاتفي مرة أخرى.

- يا سلام، والله! وماذا أيضًا، لا أسألك أين ذهبتِ ولا مِنْ أين جئتِ!

- لا أدري لِمَ تُرغمُ نفسك على العيش مع امرأةٍ يأكلك الشُّكُّ تجاهها.

- إذن تريدان الطلاق!

فقالت بغضبٍ عارم:

- طلاق طلاق طلاق، إن كنتَ تريد أن تُطلّقني فطلّق وكفى قرعاً، كل ما أقصده أن تفوق وتنتبه لسلوكك معي.

فتناول هاتفها، وأشار بشاشته نحوها، وقال وهو ينفث دُخاناً كثيفاً من فمه:

- لماذا كَلَّمْتَ هذا الرجل؟

- كان يطمئنُ عليَّ.

- قلتُ مرارًا: اقطعي علاقتك به.

- لا يُمكنني قطع علاقتي به مهما تضغطُ عليَّ، هذا الرجل مِنْ أوفى الأصدقاء لوالدي الله يرحمه، ووصاهُ عليَّ وأنا ما زلتُ موظفةً صغيرةً بالبنك، حتى ابنته ندى وضعت منذ أشهر ولم أعرف، ولم أقدم لها التهنئة، ولم أبارك له لانعزالي في هذه الجزيرة، ومع ذلك لا ينساني.

- أنا مَنْ سيطلبه وسأعرِّفه مقامه.

فنزعت الهاتف من يده بسرعةٍ وأغلقتُه:

- ارحمني لوجه الله، ماذا تريد مني؟ كل ما تطلبه مني أفعله، قللتُ زيارتي لأمي، انقطعتُ عن العمل، قطعتُ صِلتي بأبناء خالي لغيرتك ..

كفكفتُ دموعها، ثم استطردت بصوتٍ مبحوح:

- الحمد لله أنني لم أستقل كما قلت.

- لم تستقيلي؟!

- لا .. قدّمتُ على إجازةٍ مدّة عامٍ فقط.

ثم أردفتُ بتحدٍّ رافعةً حاجبها الأيسر:

- وسأعود إلى عملي وأنا مُرَقَّاةٌ إلى منصب نائب مدير البنك.

فتناول الرواية التي كانت تقرأها، ورمى بها في وجهها بشدة وهو يقول:

- يا بنت الكلب.

وهَجَمَ عليها ليضربها، ففَرَّتْ نحو غرفة الولدين وهي تصرخ، وأغلقت الباب، فصرخ الولدان بشدة، وأصابتهما نوبة من الهلع والبكاء المستيري، واحتضنا أمهما واختبأ في حضنها.

- افتحي الباب وإلا كسرتَه .. افتحي الباب يا بنت ستين كلب، أقسم بالله سأريك سواد الليالي كيف يكون.

ثم أردف صارخاً وهو يزيد طرقاته على الباب:

- افتحي الباب .. افتحي .. طيب، ابقِي بالداخل، ابقِي بالداخل يا .. يا سيادة النائب .. اتفرو.

زفرة أخرى من ثورته كانت ستحمل معها كلمة "الطلاق"، فأطبق يده بعنفٍ ودار في الصالة جيئةً وذهاباً.

انخرطت عيونهم في البكاء، كانت مُنْهارةً، لكنها تماسكت قَدْرَ المُستطاع من أجل الولدين، فحاولت تهدئتهما، لكنها فشلت، حيث اختلطت كلماتها بدموعها ..

رنَّ هاتفه، فردَّ عليه، كان الصوتُ يصل إليهم في الداخل ضعيفاً، حتى ذاب الصوتُ وانقطع بغلق باب الفيلا الحديدي.

(٣)

سَحَبَتِ الغِطاءَ على الطفلين في غرفتهما، تصاحبها أناتٌ وأنفاسٌ
حارقة مغيظة ..

قضت وقتها الطويل تحاول نزع ما زُرع في نفسيهما مما حدث، ليس
من السهل تعرُّض الصغيرين لموقف هلع وخوفٍ بهذه الدرجة،
هستيريا البكاء لا تُحمد عقباها، عرفت كيف تتعامل مع الصغيرين قبل
إنجابهم من الكتب .. الكتب التي يسخر منها كلما رآها تقرأ!

حاولت تنظيف ما علق بنفسيهما مما رأيا، فما يحدث له تأثير بعيد
المدى قد يقودهما إلى العدوانية أو الانطوائية ..

لطالما ترجَّته وبالغت في رجائها أن يسويا مشكلاتهما في غرفة مغلقة
بعيداً عن الأبناء، لكنه لم يفهم ما ترمي إليه من تجنب الصغيرين
مشكلات نفسية ستصاحبهما لنهاية حياتهم، وظن أنها تخشى إخراجها
أمامهما، فبالغ في ذلك في حضورهما.

آخر مرة ناقشته قال لها:

- الولد يجب أن يكون رجلاً ويعرف كيف يقوم الخطأ في بيته
مُستقبلاً.

- وماذا عن البنت؟ أتريد لها أن تكون كأُمها في بيت زوجها
تُضرب وتُشتم وتُهان وتنزوي في ركن غرفتها تبكي بلا مُغيثٍ؟!
- سأخذ لها حقّها لو تجرأ عليها أحدٌ.

- وماذا بعد وفاتنا؟

سكت ولم يرد، بينما وقف الصغيران بالقرب منهما لا يفهمان شيئاً
مما يدور حولهما.

أعدت فنجان قهوة، وقعدت على كرسيها الخيزران في شرفتها،
وتناولت كتاباً تقرأه، وفي العاشرة والنصف حضر بنفس غضبته
وعدوانيته الأولى، ونادى بصوت مرتفع:
- أنتِ .. أنتِ.

بتجريدها من اسمها أراد تجديد عهدِها أنها لا شيء، فتركت
الكتاب بسرعة ليسقط على الأرض، فانسكب عليه فنجان القهوة
لارتطام ركبتيها بالمنضدة، كانت عيناه حمراوين متقدتين، يبدو أنه شرب
كثيراً فتحاشته قائلة:

- أرجوك اهدأ، الولدان ناما بصعوبة، كلما غفوا قاما مفزوعين
بيكيان.

ضغط على أضراسه حتى بدت حركتها في شديقه، وسأل بغلظة
عن العشاء، فأسرت بوجل إلى المطبخ وهي تردد: "حالا .. حالا".

فدلف إلى غرفته وأبدل ملابسه، ثم إلى الحمام فغسل وجهه ويديه
.. رَمَقَ بُقْعَةً دم في حوضِ الحمام باقيةً من نزف جبهتها قد تَحَثَّرَتْ،
فخرج يُجِفُّ يديه بمنشفته وهي تضع آخر طبقٍ على السفرة

- هناك بقعة دم نجسة في الحوض، لا تنسي إزالتها.

تعمد أن تخرج كلماته المهينة هادئةً تلقائية، ليصل إليها أن ذلك
طبيعي ولا عيب فيه، وما دام الولدان نائمين، فما المانع من وصف بقعة
دم تقاطرت منها على إثر اعتدائه عليها "بنجسة" أو أن توصف هي
كلها بالنجسة!

لم يُخرج لسانها وقت ذهولها بكلمة سوى "حاضر" بكل خضوع
وهي تنظر تلقاء غرفة الطفلين، أبدلاً من هدية واعتذارٍ أوصَفُ
بالنجسة؟! فتركته لتدلف لغرفتها وهي تستأذنه لتنام، فرد بغضبٍ:

- في ستين داهية.

- الله يكرمك.

- لمي لسانك أحسن أقطعه لك.

حرصاً على طفليها سكنت، على طفليها فقط، تستطيع أن تفعل به
ما تشاء، وتثار بكل إهانة وجَّهها لها، فهي ابنة لواءٍ بالجيش كان حَسَنَ

الصَّيِّتِ والسَّمْعَةِ، وعمُّها مستشار بمجلس الدولة، وأقاربها ضَبَّاطٌ بأجهزة الأمن المختلفة .. لكنه أبو ابنيها! تستطيع أن تستقلَّ بحياتها وتُصرفَ شؤونها وشؤون طفليها، فهي الآن من كبار موظفي البنك بناءً على مكالماتها الأخيرة مع مدير الفرع غير ميراثها الموفور من أبيها وأملاك أمِّها، لكنها لم تشأ ذلك حرصاً على استقرار الأوضاع ونشوء الابنين بين أبويهما مهما يكن الثمن، حتى ولو كان الثمن .. هي!

لكنَّ للصبر حدوداً، ودائماً الأيام حُبلى، لكننا لا نلاحظ تكوُّر بطنِها.

دارت برأسها بعدما تركته، فانتشى لما أوقعه بها، وتلذَّذَ بسكوتهما وفَهَّرَها، فانتصب ذَكَرُه، وعزم على مُضاجعتها، هي الآن فريسة مُسجاةً، وهو يهوى مَضْغَ الفرائس!

فدلف إلى غُرْفَتها بعدما انتهى من تناول عشائه، فخلَعَ بنطاله، واندسَّ تحت غطاءها، وأخذ يفرك جَسَدَها بِشَبَقِ عارم، وشهوة مُستعرة، فنزع ملابسها الداخلية، وأخذ في مضاجعتها، لكنها بين يديه جثَّة هامدة بلا صوتٍ ولا حركة.

يظنُّ أن المرأة جسدٌ فقط، يلهو به كلما نازعته ذُكُورُته وقت غيبة العقل وحُضور الشهوة، فينحِّي روحها وقلبها وينفذ إلى لحمها الرقيق، يتدنَّسُ به ويستظلُّ بعُدُوبَتِهِ من وهج ناره المُوقدة، فالمرأة قد تنفر من ذاك الرجل، ثم لا تقيم وزناً لохزاته فيها، وتبرِّدُ تجاهه من غضبٍ عارم وشعور أسيفٍ ورثاءٍ أليم لروحها المُهملة، فتطعِّمه جسدَها ولا تشعر

به، كما تُطعم صغيرها ثديها يأكل منه ويلهو به، وتطهو له طعامه كما
تطعم قطتها وكلبها الأليف، وتضحك في وجهه ضحكتها للنكتة
السمجة كي لا تُخرج ملقيها، فقررت ألا تعيره انتباهًا ولا تُظهر له مُتعةً
ولا تتأوّه وكأنه ليس معها ولا ثمّ شيء منه بداخلها، حتى أنها ردّت على
أمّها وكلمتها في الهاتف أثناء ممارسته الجنس معها، فانفجر غاضبًا:

- يلعن أبو أمك.

ولطَمَ يدها بعُنفٍ فطاش الهاتف، وارتطم بالدولاب فانكسر
وتفتّت، وقام عنها عاريًا فارتدى الروب، وأشعل سيجارةً، وخرج إلى
الصالة ليجري اتّصالًا ..

- طيب .. طيب .. اصبري .. نادين انزلي حالًا وخذي معك
قميص نومك الأحمر .. سأحلقك خلال نصف ساعة.

كان يُعلي صوته لئُسمِعَها، فدخل الغرفة كي يتشفّى فيها بعد
صدمتها مما سمعت كما ظنّ، فوجدها نائمةً ملتحفّةً، فقال بغضبٍ وهو
يرتدي التي شيرت وبنطاله الجينز:

- يا بنت الكلب .. يا بنت الكلب.

ورَكَلَها في ظهرها بقدمه فأمسكت ظهرها وتأوّهت بصوتٍ ممدودٍ
دون أن تكشف وجهها.

- الآن تتوجعين يا بنت الكلب!؟

ورنَّ هاتْفُه وهو أمام السرير، فردَّ قائلاً ببهجةٍ مُصطنعة:

- حبيبة قلبي، سأكون هناك في أقل من نصف ساعة .. سلام.

وخرجَ وصفقَ الباب خلفه، فكشفت الغطاء عن وجهها، كانت عيناها سحابتين ما طرتين غسلتا وجهها، وبدت دموعها كحبات بلورية مضيئة مشعة في ظلام الغرفة الكئيب.

رنَّ هاتْفُها الآخر فلم ترد، وكتمت صوتَه، كانت أمُّها التي تابعت الاتصال فأغلقت الهاتف.

لم تعد تُطيعُه، ولا تُطيع مسَّ أنامله على جسدها، وتزمت في رفضها النفسي له، وأوشكت أن تقتنع أن مسَّه لها حرامٌ يجب اجتنابه، وكنوع من إهانتة أصبحت تفضِّل يدها إذا هاجت ثائرتها وصرخت أنوثتها الظامئة، فتظل تعتصر ذهنها وتستحضر في خيالها ذلك الرجل الخيالي الذي لو وجدت في زوجها بعضاً منه لكفاها.

فتظلُّ على حالتها تعتصر أنوثتها حتى تفيض وتقطر، وما هدفها المتعة مما تفعل بداية، ولكن حتى لا تميل إليه بجسدها وإن استهجن ما تفعل.

كانت الآهة تخرج من أعماقها السحيقة .. من البقعة الغائرة في المرأة التي تشكل نواة أنوثتها، فيحتفل بخروجها القلب والعقل معاً ما دامت خرجت بدونه وبعيداً عنه، حتى تصل آهتُها لشفتيها المرتعشتين، وكأنها تلفظ كلمة الحرية من سيد مستبدٍّ، أو كلمة النصر على عدوٍ لئيم.

سكنت شفتاها، ثم تنهدت وابتسمت، وأخرجت يدها من أسفلها وهي تشعر بسعادة غامرة، ثم رفعت أصابعها المنفرجة أمام عينيها، وظلّت تعبث بسائلها اللّزج وهي مستمتعة بلهوها العابث.

وما مرّت برهة حتى أظلمت سحابتها
أزوجةً تفعلُ هذا؟!

وما قاربت توييخ نفسها حتى دفعت الذمّ الآتي من خلف غبار الشهوة المنقشع بعد جلاء الذهن حتى قالت لنفسها بصوت ساخر: "نعم، تفعل ذلك".

وانتهت ببصرها إلى صورته على الكومدينو عن يمينها، فنظرت له، ثم لطخت الصورة بسائلها الأبيض الرقراق، وتتبعته انزلاقه على اللوح الزجاجي حتى انتهى إلى خشب الإطار وانزلق خلفه. كان حتمًا أن يطفّر الاستضعاف غضبًا، والاستدلال بُغضًا، والاستغفال لعنةً..

إنها الثورة التي تغلي في القاع، لا يشعر بها الرجل في قلبها عند صمّها بينما هي جحيّمٌ يستعِرُّ، ولا يشعر بها في شفتيها عند لثمها بينما هي نار تلتهب، وثورة تُعلن..

إنها الإعصار القادم من الأعماق، واللعنة الآتية من تاريخ الأنوثة المُعدّبة، إنها ثورة تحتاح الرجل، كأشد ما تكون ريح السموم في نار الجحيم، ليس بين يديها رسول ينبئ عنها، ولا شفيع يمنعها..

هي ثورة مخبوءة لا تنتفض إلا إذا هدمَ الرجل جدران حَبْسِها
الجميل، ورمى بأحجارها في وادي نسيانه وإهماله وخيانتته وسوء خُلُقِه،
فتجد نفسها عاريةً وحيدةً شريفةً، فتكون صرختها زلزالًا، وكلماتها
صخورًا وأحجارًا، وأنفاسُها بعضًا من نار جحيمها معه وقت السَّلم.

(٤)

كانت الإضاءة خافتةً على البار، تلتمع في عينيه الإضاءة البعيدة
أمام النضد المحلقة حول الراقصة، تنعكس على وجه شاحب وعينين
مرتختين وشفيتين مرهقتين، يدبُّ في عظامه ألم ووجع لشدة إجهاده
العصبي.

حاول فتح عينيه على مضضٍ ليرمُق صدر الراقصة وردفيها، لكنه
لم يستطع التدقيق لثقل جفونه وتشوُّش الرؤية، وهمَّ بالكلام ففتح فمه
لكنه لم يستطع قول ما أراد، فظل فاعراً فاه، فضحك "عزت" ضحكة
عالية لمنظره، وأشار إلى النادل أن يتوقف عن صبِّ كوبه الشاغر:
كفي.

توقَّف النادل عن صبِّ الكوب فسبَّه مراد، فاعتذر له عزت على ما
بدَرَ من صديقه التائه، فأصرَّ على الشرب مُجدِّداً، فنظر عزت للنادل،

فصبَّ الكوب حتى امتلأ عن آخره دون ثلوج، وما قاربت الكأس شفثيه حتى سقطت من يده فتهشمت على الأرض، فقام عزت فأسنده حتى وصلا إلى مائدة مُلاصقة لجدار الكباريه، منطقة منعزلة نسبياً خافتة الإضاءة، لا يصل إليها من إضاءة المقدمة إلا نزرًا يسيرًا جدًّا، يتخذها الزبائن مرتعًا مطمئنًا لمُعاينة الفتيات قبل اصطحابهنَّ إلى الغرف الملحقة بالكباريه أو إلى شُقق خارجية، فتكشف إحداهنَّ عن فخذها، أو تُبرز ثدييها فيعبث بها الزبون فيعصرها ويفرك حلمتها حتى تتوجَّع، يعتبر الزبائن أن ذلك حقُّهم فالليلة الواحدة مع إحداهن تكلف ألف جنيه للكباريه غير عمولة العاهرة.

كان أكثر الزبائن في المنطقة المظلمة من ذوي اللباس الأبيض أصحاب النفط والمال والقداسة، وصحفيين وسياسيين مصريين ذوي وجهة اجتماعية وأسماء رنانة لا يجهلهم عزت، فنظر لهم نظرة خاطفة احتقرهم خلالها، ثم رجع إلى نفسه لائئًا: ما الفرق بيني وبينهم؟!

على نضد ثلاثة افترق كل واحد منهم -على ما يبدو أنهم أصدقاء- مختليًا بعاهرته تداعبه، كان أحدهم حاسر الرأس، وضع عقاله وغطاء رأسه أمامه، فبدا قبيح المنظر تقطُرُ شيخوخته عجزًا وضعفًا، ودارت بينهما الضحكات مفرقة عالية، وتطايرت كلماتهما تفصح عن ذلك "ألوانج حلوة - أووو زين زين - صدرك مترووس - كشخة كشخة - أنتي يا عدة والله".

كان مراد منكفئاً على الطاولة، فاقتربت فتاةً منه فنهاها عزت
وأشار لها أن تبعد وشكرها مبتسماً ..

- ما لك يا مراد؟ سكرتك الليلة ليست من الشرب كالعادة، ماذا
حدث معك؟

حاول رفع رأسه لكنه لم يستطع، فأسنده عزت حتى استوى
جالساً، فمال عليه وكاد أن يقع، فضحك قائلاً:

- استوى يا حيوان حتى لا يُظنَّ بنا أننا شواذُّ نعبث في هذا الظلام.

فأطلق مراد ضحكة عالية فانتبه له أحد الثلاثة بجواره قائلاً:

- زين والله.

فتبسم له عزت، ورشق صديقه بكوب الماء فلسعته برودته، فشهب
شهقةً طويلة دون أن يُفِيْقَ من سُكْرِهِ وَخَدَرِهِ:

- تعبان يا عزت تعبان، الحرمة جننتني.

- آآآآآه.

ثم تَلَفَّت حوله، ودارت عيناه متفحصتين بين العاهرات المنتشرات
على النضد والبار، فسأله عزت:

- عمَّن تبحث؟

- نادين ألم ترها؟

- لا، ألم تقل إنها كانت معك قبل أن تأتي إلى هنا؟

تأففَ وسكت ..

- مالك!

- أريدها الآن.

- ثانية؟

- لم يكن هناك مرةً أولى، كانت معي وأنا مُجهَّدُ العصب مُشتَّت
الذهن و ..

قاطعه ضاحكًا:

- وكنت معها على الفراش كأخيها.

فرشقَه مراد بكوب الماء، فسكت عزت، ونَظَرَ إلى يده المُمسكة
بالكوب وهي ترتجف وتهتزُّ، وُلح في عينيه الحمرَّاءُ حُزنًا وبؤسًا، فلم
يَلْمُه على ما فعل، وظل مُعلِّقًا النظر بملامح مراد البائسة الكسيرة،
وكأنه انهزم في حربٍ مُقدسةٍ سيلحقه عارُها إلى الأبد، تطوف بعينيه
السوداوين المتسعيتين سُحبُ الحزن والهَم، وأنفه أحمر كأنه يُعاني بُرودة
ديسمبر، وشفتاه مؤرقتان بفراق قريب عزيز أثقل قلبه بحر الوداع.

- سأُتخَيَّر لك إحداهنَّ تفني بحاجتك الليلة على أكمل وجه.

قالها عزت وهبَّ قائمًا تاركًا خلفه حبة فياجرا أمام مراد مشيرًا أن
يبتلعها، واقترب من البار فوضع يده على ظهرِ عارٍ فالتفتت سوزي التي
أشرق وجهها الرائق برؤيته، فلثمها.

- أهلاً عزت.
- حبيبة قلب عزت، لم أرك منذ أسبوع!
- كنتُ في رحلة عملٍ في شرم.
- ضَحِكَ وقال:
- وأين زوجك الآن؟
- في اجتماع مُغلقٍ في الحزب منذ العاشرة مساء.
- ممممم.
- تلمس بظهر سبابته ثديها العاري في إضاءة البار الخافتة وقال
هامساً:
- أريدك.
- هيا.
- ليس لي ..
- فرجعت إلى جلسيتها قبل أن تستوي واقفةً:
- لمن!
- نَظَرَ نحو مؤخرة الكباريه وهو يقول:
- مراد.

- لا لا لا .. إنه عنيف أكثر من اللازم.

- واللييلة سيكون أعنف.

- لا يا عزت إنه مجنون، جرّفته قبل ذلك، وكان وحشاً مُفترساً،
وأكثر من بنت اشتكت لي منه، مع كل واحدة يبدو كشابّ في عُنفوانه
يَقْرُبُ امرأةً للمرة الأولى في حياته.

- لأجل عزت ..

سكتت هُنيئاً وقالت:

- أنت تُكثر عليّ لأنك تعرّف أنني أحبُّك.

- ولهذا اخترتُك دون غيرك.

لم يكن موجوداً عند الطاولة، فنادى النادل وسأله عنه، فأخبره أنه
راه يدخل إلى الغرف، وأشار إلى رواقٍ ضيقٍ تقع خلاله أربع غرف
مُتقابلات، فساراً معاً وسأل عامل الغرف الذي يقف على أبوابها في أي
غرفة هو؟ فأخبره أن الغرف مكتملة، وأنه أدخله في غرفة في آخر
الرواق على اليسار.

كانت الغرفة بحالة رثة سيئة، تفوح برائحة عفنة، لونها أصفر قاتم
لطبيعة الضوء المنبعث من مصباحها الصغير في السقف، تناثرت فيها
صناديق البيرة والخمور وبعض الملابس المهملة القديمة، توسّطها سرير
صُنِعَ من الصناديق البلاستيكية، وفُرشت بالكرتون، ثم وضع عليها

مرتبة إسفنجية متآكلة بعض الشيء، على ما يبدو أنها غرفة أحد العاملين الذين يُقيمون باستمرار في الكباريه.

كان مراد جالسًا على إحدى الكراسي البالية فاردًا جسده مُمددًا قدميه بطولهما يدخن سيجارة حشيش أخذها من عامل الغرف مقابل مئتي جنيه.

تساءلت سوزي بدهشة واستنكار وهي تمسك أنفها بتقزز بين أصابعها:

- هنا!

فقام نحوها مراد ونَفَثَ دُخانَه في وجهها احتقارًا ثم قال:

- نعم هنا.

- أنت قليل الأدب.

- قليل الأدب يا شرمو ..

فصفعته على وجهه قبل إتمامها وهَمَّت بالخروج، فحاول إمساكها من شعرها فدفعه عزت للخلف قبل أن تمسها أنامله، ومدَّ يده فأمسك بها:

- سوزي اهدئي، اعذريه يا ست الكل.

وتوجَّه بكلامه لمراد مُعْتَفًا:

- اعتذر لها .. قلتُ اعتذر لها ..

فابتسم وهو يقترب منها وهي شاخصة الأنف:

- أنا آسف.

ثم أمسك يدها وردّد:

- آسف يا ست البنات، يا ست الستات، يا ست الكل.

ليس من السهل إهانة فتيات الكباريه، ولا الطعن في أخلاقهن بكلمات نابية تنال من رُقيهن المفرط، تفرض الإدارة هذه السياسة على كل زواده مهما يكن، فأغلبهنّ من طبقات راقية يمارسن الجنس بكثرة مع رجال متعددين طلباً للمتعة ليس أكثر، تلبيةً لانحرافات جنسية ونفسية، وأكثرهن على مستوى ماديٍّ أو علميٍّ مرموق، فسوزي - مثلاً - زوجة "حمد السعيد" أحد رجال المال والسياسة في الحزب الحاكم، لذا فمن يتعدّ بطرد بأقبح طريقة، ولا يُسمح له بدخول الكباريه مرة أخرى، وقد تُلقَق له تُهمة كهشام زميله.

ابتسم عزت ثم قال:

- انتظراني حتى أخرج.

تابعه مراد وهو يغلق الباب خلفه، وحلّق خصرها بيديه، ومال بشفتيه نحوها فلثمها برقة فابتسمت:

- ما اسمك يا سيدتي؟

- سوزي.

- لا ..

فاتسع وجهُها دهشةً، فأردف قائلاً:

- الليلة أنت يولا .. يولاند!

- حسناً كما تحب.

- العاهرة يولاند.

فتلبَّد وجهُها غضباً وهَمَّتْ بالانصراف، فأمسكها بلُطفٍ وقال:

- هل من الممكن أن تكوني لي الليلة كما أهوى .. من فضلك؟

- حسناً يا مراد.

- لا لستُ مراد، أنا كلب!

فأطلقت ضحكة متكسرة وقالت:

- وابن ستين كلب.

فضحك عالياً وقال:

- يولاند أيتها العاهرة ..

- نعم أيها الكلب الأجرب!

- تعالِ معي.

فأجلسها على السرير، وجَرَّدها من ملابسها، ولمَّا كان يضاجعها
من أسفل وهي فوقه كان يطلق كلماتٍ لم تفهما، ولكنها أرجعتها لهذيان

سُكِّرِه وشهوته المفرطة: "ابن خالك لن ينالك - دكتور منير. ها هي تصرخ وتستغيث من نشوتها، ولا تستطيع إنقاذها من وهج هيجانها الجنسي. تريد أن أيتها العاهرة أن تكوني مديرة بنك ثم وزيرة مالية - طز في أخلاقك أيتها العفيفة - ليست هناك امرأة في جمالك ومكانتك لا تخون زوجها".

- عند صفعك لوجهي شعرت بسعادة غامرة لم أشعر بها من قبل.
فمالت على صدره ضاحكة حتى التصق ثديها به.
- قومي .. اصفعيني مرة أخرى.

فصفعته على خده الأيمن برفق، فطالبتها أن تكون أعنف ما استطاعت، فصفعته بشدة حتى سُمع لصفعها فرقة، ثم أشار إليها أن تصفع خده الأيسر ففعلت، وطلب منها ألا تتوقف عن صفعه حتى يتوجع ويتألم، فانهمرت صفعاتها على وجهه!

كان وجهه في كفه اليمنى، ويضغط مقلتيه بعنف بالإبهام والوسطى، ينازعه ألم جراء متعة وفرها لمراد بالداخل، سأل النادل أن يصب كأسه فهز رأسه كنعم، لكنه لا يدري ما سِرُّ الألم، لو طأة السكر أم وطأة الأخلاق؟ ابتسم في سُخرية غير معلومة السبب للنادل الذي كان يرقبه بتعجب، فالأخلاق وُدَّعت من زمن، فهل كانوا بحاجة إلى قيد الأخلاق في مجتمعهم الرَّحِب!

ضغط مقلتيه بشدة أكثر ليتناسى ما حَدَثَ، لكن ماذا حدث؟
إنها خدمات مُتبادلة، والمرأة كالسيجارة أو كالسيارة أو كأي شيءٍ
يصلح أن يُهدي أو يُعار!
- مساء الخير.

رفع وجهه ونظر لنادين وهي فتاة دون الثلاثين، رائقة الوجه ذات
شفيتين صارختين، ووجنتين حمراوين متقدتين دائماً.
- مساء النور، اقعدي.

فلثمته وقعدت قبالته على البار، فأشار إلى النادل أن يصب لها
كأساً.
- لا أريد الآن.

- عيب!
قالها عزت بصوت ممدود، فتناولت كأسها ورشفت منها رشفة،
ودارت عيناها حول النضد المبعثرة، وامتدَّ بصرُها حتى البقعة المظلمة
في آخر الصالة.

- أنت هنا بمُفردك؟

- لا، معي مراد، وأنت؟

- مراد! أين هو؟

وضحكت ضحكة ناعمة لمعت خلالها عيناها:

- مع سوزي في الكينة.

- سوزي!

وأطلقت ضحكة عالية خليعة، وتابعت قائلة:

- وهل يستطيع مقاومة سوزي الليلة!

- الليلة!

فاستمرَّ ضحكها!

- ماذا حدث بينكما في بداية الليلة؟

- ما حدث لا يُذكر وأنا يَقِظَة!

وأبعتها بضحكة، فضحك عزت وقال للنادل:

- اسطلها يا ابني.

فغيّر الكأس بكأس أكبر ووضعها أمامها، وصبّها حتى آخرها دون وضع أية ثلوج، وقبل انتهائها منها كان عزت قد وضع برشامة بيضاء بين شفّتيها، وأشعل لها سيجارة، وأشار إليها بوجهه أن تتكلم، فقالت:

- اتصل بي في حدود الحادية عشرة مساءً، كنتُ ما زلتُ بالشركة أنهي بعض الأعمال المفاجئة، طلب مني قميص نومي الأحمر، فلم

يُسعفني الوقت حتى أرجع إلى البيت وأحضره، ففكرت في شراء قميص من أي محل في طريقي، لكنني رأيت أنه تكلف وأنها ليلة كغيرها، وبدون قميص سيكون أفضل.

وضحكت ومالت عليه لسكرها، فأرجعها مكانها، وأخرج سيجارة وأشعلها وأرهف لها أذنيه وهي تقول:

- استاء جدًا لما عرف أنني لم أحضر ما أريد، وكاد أن يضر بني لولا أنني واجهته بعنف وهممت بالانصراف .. كان عصبيًا جدًا، أول مرة أراه نائراً لهذا الحد، لم يكن نائراً الشهوة يريد أن يقضي وطره من امرأة بقدر ما كان نائراً الأعصاب يريد أن يثار من شيء ما ..

- ثم!

- كان أداؤه مخيباً له، لم يتصب ولم يشعر بجسمي، فارتمى بجواري هامد الجسد، وتناول حبة مُحَدَّرَة، وسألني: "كيف يأمن الرجل زوجته؟" ..

ثم سكنت وشاعت في وجهها لمحة حزن، فأشار للنادل فصب لها كأسها، وأشار إليها أن تشرب، فحولت نظرها للأرض عن يمينها وقالت ساهمة:

- صديقك جاهل يا عزت.

يعرف عزت أنه جاهل، فلا يؤخذ الشرف من عاهرة! ثم مشكلة مراد الجنسية كما تتضح لعزت وكما فهمها منذ بداية تعارفهما بالجامعة

أنه يستكثر نفسه على امرأة واحدة، ففي إحدى المرات وهما بشقة المعادي بعدما انصرفت عنهما فتاتان، سأله: لماذا يعبت بالنساء خارج البيت مع أن زوجته آية في الجمال والحسن؟ وقتها شرح لعزت بفخار وزهو أنه رجل موفور الصحة والمال، وله حظٌ من السُّلطة والسطوة، تبدو عليه الوسامة والمتانة، وواحدة مما ذكر كفيلة لأن تجعل الرجل طاووسًا، فما بالك إن اجتمعت كل تلك المزايا في شخصي فكيف أتركها!

- ولم سأل هذا السؤال؟

- لا أدري، ولكنه يمرُّ بمشكلةٍ ما.

سكتت برهةً ثم قالت:

- عزت، نحن صديقان منذ فترة طويلة، لكن سفالة صديقك وإهاناته المتكررة ستقطع بيننا قريبًا.

سكتت هنيهةً ثم انفجرت ضاحكةً وأردفت قائلة:

- المجنون يريد أن يتزوجني وأذهب للعيش معه في حدائق الأهرام .. تصور!

فتصنع الضحك وقال:

- ولم لا! فيلته جميلة وله ولد وبنت.

- الرجل لا يفرُّ من زوجته لغيرها إلا إذا كان مريضًا بالجنس، أو فاشلاً في إدارة حياته الزوجية.

طعنته دون قصد، فانكمش وجهه وارتسمت عليه علاماتُ
الاستياء، وتذكرَ زوجته المريضة في فراشها تننُّ.

فربت على يده قائلة:

- عزت .. أنا آسفة، لم أقصد .. شفاها الله يا حبيبي.

حاول التغلب على المشهد الحاضر في ذهنه فضحك قائلاً:

- أرجو أن ينتصب مع سوزي ولا يفضحنا ..

فضحكت هي الأخرى قائلة:

- أشتاق لأراه الآن من ثقب الباب.

كان سيلاً قدراً ينهمر من شفيتها على رأسه أسفلها، فيبادهها كلمات
أشدَّ سفالةً وانحطاطاً، لكن أكثر كلماته ترديداً، وكأنه يريد أن يسمعها
وهي في الحِمَام تتوضأ استعداداً لصلاة الفجر الذي دنا في فيلتها في
حدائق الأهرام "يولاند أيتها العاهرة".

أجابته سوزي:

- نعم يا كلبى الأليف.

- مع كم رجل ختنتي؟

(كانت يولاند بحدائق الأهرام تنحني ساجدة في ركعتي السنّة: الله

أكبر)

- لا أذكر العدد يا حبيبي.
- وماذا تفعلين في غيبتني عنك إذا هاجت شهوتك.
- أتصلُ بأحد أصدقائك.
- وهل يمتعونك؟
- (فركت يولاند بقعة الدم بعنف حتى تزيلها من الحوض الأبيض،
والدمع يلتصق في عينيها حتى نظفته)
- يمزقونني .. يقطعونني .. أتوجع وأتمتع كما لم أقرب رجلاً من
قبل.
- هم أفضل مني؟
- (فتحت يولاند الباب وألقت نظرة على طفليها النائمين في هدوء).
- نعم، لذا أخونك معهم، وألوث شرفك بمائهم الساخن الكثيف
المنهمر على فرجي المتنازع في ليل الشتاء البارد، يضاجعونني على فراشك
ووسادتك وأسفل غطاءك، وألحق مذاكيرهم حتى يغمر ماؤهم فمي
الذي تهوى قبلته، ثم أنظف قضبانهم بممصانك البيضاء التي تتباهى
بهيئتك فيها.
- أنت عاهرة يا يولاند ولست أفضل مني.
- نعم أنا عاهرة ومومس، أنا امرأة لكل الرجل وأحطُّ منك.
- يولاند مومس.

- يولاند مومس وعاهرة.

- يولاند كافرة وليست مؤمنة.

(انتهت من صلاتها هناك: السلام عليكم ورحمة الله .. السلام عليكم ورحمة الله).

- يولاند كافرة عاهرة، تعشق مذاكير الرجال، وليس على فرجها حارس ولا باب.

كان مع كل كلمة فادحة يزيد اشتعالاً وهيجاناً، فتدرج عنفه حتى بلغ ذروته، وهي تصرخ وتستغيث تحاول إفاقة:

- مراد .. مراد.

- قلت لك: أنا الكلب، وأنت العاهرة يولاند.

- كفي يا مراد .. كفي .. مراد .. مراد ..

خرجت من الغرفة وتركته مُلقًى على الأرض من شدة دفعتها له، وهي تهدم ملابسها وتهمهم:

- يا ابن الكلب .. طيب يا عزت الكلب.

بدت لعزت وندين على البار شاحبة الوجه متعبة وهي تترنح في مشيتها نحوهما:

- لا أريد أن أعرفك بعد اليوم أيها الحقير أنت وابن الكلب مراد.

لم تمهله أن يسألها ماذا حدث، فتبعته نادين، ودلف هو إلى الغرفة
ليعرف الخبر، فوجده مُسجى على وجهه عارياً.

(٥)

فتح عزت باب الشقة، فانساب النور إلى الداخل بخطّ موازٍ للباب لم يتعداه، وبرز كشبحٍ بلا معالم، فضغط مكبس الإضاءة وخلع سُترته وعلقها بجوار الباب، ونظر للمرأة برهة بملامح ساكنة جامدة، يدافع في صمت عن نفسه أمام نادين التي أضجت سكون ضميره داخله إذ ذكّرت بهجرته لُعشّه، هي جاهلة لا تدري أنه لم يكن فاشلاً في إدارة حياته الزوجية ولا مريضاً بالجنس بحسب نظريتها (الاجتماعية) تلك، لا تعرف أنه متزوج من أطلال إنسان لا روح فيها، لا تدرك كم عانى كونه رجلاً حتى اهتدى إلى ذاك الطريق تاركاً "الزوجة" خلفه فاردّاً ذراعيه لكل امرأة!

تسرّب لأذنيه أنينٌ ثقيلٌ على صاحبه، فهروّل تجاه غرفة النوم فأضاءها.

- جئت يا عزت.

كانت ميسرة شاحبة اللون، هزيلة الجسم التصق لحمها بعظمها،
يتفصد جسمها عرقاً حتى بلل الملاءة تحتها، تعمق فيها المرض وتجذر
فزادت البقع الحمراء فوق جلدها، ونزفها لم يعد له وقت محدد ..
رائحة مرضها مُعشّشةٌ في الغرفة وأنسجتها، تجثم على نفسه كلما
اقترب منها أو دخلها ..

وضع يده في صندوق المناديل فوجده فارغاً، فلعن الشغالة المُقصّرة
في عملها وخرج إلى الصالة، فأخذ كيس مناديل من سترته فسقط
الحبوب المخدرة أسفل قدميه فنظر لها هنيئاً بعين بائسة، وعاد يمسح
عن أنفها الدم المتجلط، وتناول منشفة صغيرة من الدولاب فجفّف
عرقها، ثم فتح النافذة حتى يتغير هواء الغرفة ..

قالت ميسرة بطيبة مرتسمة على وجهها لم تضع بآثار المرض المستبد
بملاحها:

- الشغالة لا ذنب لها.

وأنا لا ذنب لي!

- اهدئي الآن.

قالها وهو يحملها بين يديه ليضعها على كرسي أحمر كبير ملحق
بغرفة النوم شهد لقاءات حميمة بينهما كانت تضجُّ بالسعادة، ثم قام
بنزع الملاءة الوسخة بالعرق والقيء، فعافت نفسه ولاحت له نظرة

تجاهها فرآها مسندة الرأس إلى الخلف مرتحية العينين واليدين بلا إرادة منها، وتُصْدِرُ أَلَمًا مكتومًا حتى لا تنغص عليه!

انقبض صدره وتشاءم، لكنه تدرب منذ خمسة أعوام على إظهار الاهتمام وكظم غيظه من مرضها ..

في طريقه إلى الحمام رنَّ هاتفه بجوار التلفاز، كانت نادين فأغلق الهاتف، ووضع الملاءة في سلة الغسيل وعاد إليها، كانت قد وضعت حجابًا على رأسها:

- الجو حار وأنتِ تتعرّقين.

طفرت عيناها بدمعة مجعدة، وقالت بحزن بالغ:

- لا أحبُّ أن تراني عارية الرأس، أشعر أنني لست أنثي حينما أرى جلد رأسي دون شعرة واحدة تستره وتزينه.

ونظرت تجاه صورتها على شئها فوق التريجة، كأنها فتاة أخرى غير هذه الهزيلة التي يلتهمها الكرسي الآن، شعرها كثيف متهدل على كتفين ممتلئين بالصحة والشباب، ينطق وجهها بالبراءة وجسدها بالأنوثة، فزاد دمعها على تلك الأيام.

فجثا على ركبتيه وأمسك يدها اللزجة التي فقدت السيطرة عليها فقبَّلها على مضضٍ:

- أنتِ أجمل من كل النساء في عيني مهما يحدث لك، وستشفين قريبًا إن شاء الله ..

فحدقت فيه النظر لتختبر صدق عينيه، فأسرع قائلاً:

- غيّرت لك الملاعة، هيا إلى الفراش.

وحملها بين ذراعيه ووضعها عليه، وسحب غطاء خفيفاً عليها
وضبط جهاز التبريد، وتناول حقنة بجوارها وغرزها فيها، وقال
مستنكراً:

- لم تركتِ الشغالة تذهب قبل إعطائك الحقنة؟

- أصرتُ على الوجود حتى ميعاد الحقنة وأصررتُ على نزولها.

فقال غاضباً:

- ولم!

- لا فائدة يا عزت .. لا فائدة.

- ما تفعلينه لا يرضي الله، أنتِ تتحرين بالبطيء ..

- أفضل من أن أمدّ بيدي أيام الألم وأطيل ساعات الوجع، أنت لا
تعرف كيف أشعر بعظمي الآن، آلاف المناشير تفصل فيه، وآلاف
القواديم تدكّه دكاً.

- لو بيدي حملتُ عنك المرض.

- أبعد الله الشرَّ عنك.

أشاح ببصره تجاه الكرسي الأحمر الكبير أمام التسريحة، وأسند ذقنه
على كفيه المشبكتين ومطّ شفتيه للأمام، وساد بينهما سكونٌ خيم على

الغرفة، لا يدري لأي سببٍ لا يستطيع ملء الدقائق التي تجمعها بها كل حين بأي كلام، حتى ولو بدعوات وأمنيات كاذبة منافقة.

يسيطر عليه الألم دائماً في تلك اللقاءات القليلة الصغيرة، وتجنُّم على صدره كصخرة زنيمة، لا أمل في شفائها ورجوعها من جديد، فالمرض لص طِّمَّاع يأخذ الصحة والشباب والحياة والأمل والبهجة والسعادة جملة واحدة، ثم لا يقنع حتى يُجَدِّدَ هجومه على الجسد الخرب كل حينٍ تاركاً خلفه آهاتٍ وأناتٍ تنبئ عن وجوده.

قطعت الصمتَ بصوتٍ مُجْهَد، قائلة:

- كنت أتمنى أن أمنحك من نفسي زوجة تنعش حياتك، وأولاداً يمرحون حولك، لكن ليس بيدي.

فتنهَّد ورفع عينيه نحوها وصمت لحظات باحثاً عن رد دبلوماسي يليق بوجعها وأسفها، فقال:

- أنا لا أريد شيئاً غيرك، لا بيتاً ولا أولاداً، الأولاد سيحرموني منك.

وابتسم، فابتسمت ونظرت إلى سقف الغرفة، وسكتت هنيهةً كأنها تأخذ قراراً ما:

- تزوج يا عزت.

فضيَّق عينيه وارتسمت على وجهه علاماتُ الاستفهام، فأردفت:

- نعم، تزوج فلا ذنب لك في كل هذا.

- لا يمكن أبداً..

تنهدت وقالت:

- أنت تتعبنى بكلامك ..

- ستكونين بخير إن شاء الله، وستنجين أولاداً في جمالك ووقتها سأتزوج عليك.

ابتسمت وسكتت، فقام إلى المطبخ فأحضر بعض الطعام، فأكلت نثفاً قليلة بعدما غسل لها وجهها ويديها بماء أحضره، شهيتها للطعام منعدمة، فأجبرها، فأكلت ثم حوّلت وجهها بعيداً عن يده الممتدة بملعقة الطعام، وقام إلى المطبخ بالطبق، وجلس بالصالة أمام التلفاز يشاهده فرن هاتفه، كان مراد يستفسر عما حدث معه لما أفاق من سُكره ووجد نفسه بشقة المعادي فجأة، فأرجأه عزت لوقت آخر ريثما تصفو نفسه وتلين مما رأى منذ قليل، وقبل أن يغلق قال مراد:

- سوزي بالمستشفى، تسببت لها في نزيفٍ حادّ.

- الله يخرب بيتك يا أخي، أف .. في أي مستشفى؟

- السلام.

- سأذهب لها غداً بعد الظهر.

- سآتي معك.

- بأي وجه ستأتي معي، ابق بعيداً عنها حتى لا تؤذيكَ، فأنت لا تعرف سوزي مَنْ تكون ..

وقطع الاتصال وقام إلى سُترته، فأخرج علبة السجائر، ورَجَعَ إلى مكانه فأشعل سيجارةً، وأمسك (بريموت) التلفاز فحول القناة حتى وقف على إحدى قنوات الأغاني المصورة ..

أرخی جسده للخلف، ومد قدميه على منضدة صغيرة أمامه وتابع الاستعراضات المصاحبة للأغنية، انتهت سيجارته الأولى والأغنية أيضاً، وأشعل أخرى ..

لم تبرد أعصابه بعد بدخان السجائر المتسرب إلى رئتيه الهائجتين وصدره الملتاع، يُمعن النظر في المطربة اللبنانية أمامه ليطردها خيالات ميسرة المريضة داخل الغرفة بالقرب منه، حظ سيئ مُني به بزواجه بميسرة، أصابها المرض مبكراً جداً، لم يمضِ على زواجهما ثلاث سنوات حتى نفذ إليها قدرها من أوسع الأبواب، (لوكميا) ذلك المرض الخبيث الذي نخلها وأنحلها فتركها ذكرى امرأة، ورسم أنوثة، ووردة بالحريف ذهبت نضارتها برحيل الربيع.

كانت أكثر الفتيات جمالاً في الجامعة وقتما تزوجها وهي في صفِّها الرابع بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ومن النهايات السلاقي استحققن منحة الجامعة للدراسة، لم يَنْسَها طالبٌ رآها أو دكتور درّس لها مقررًا.

كانت تجسيدا حيا صادقا للمرأة، فيها الجمال والحسن والطاقة
والحيوية والأمل والطموح وبراءة الأطفال وسداجة النساء.

يكبرها عزت بعشر سنوات، أعجبها ذكاؤه وهيئته وتخصّصه كونه
أستاذًا ودكتورًا للعلوم السياسية، وطريقته في إيصال المعلومة والشرح،
يقينه بما يقوله، تعمقه فيما يعرف ويدرس، مساجلاته ومناظراته مع
الأطيان السياسية المختلفة على هامش الدراسة في الجامعة، كلها
مجتمعة كانت مادة السحر التي وُضعت في قوس كيوييد فأصاب شغاف
قلها فافتُنتت به ورضيت بالزواج منه مع فارق السنّ، ومع زواجه
بامراتين قبلها لكن لا واحدة منهما على ذمّته.

لم تطلب منه وقتها سببًا لانفصاله عنهما، لكنها تكهّنت أنه بسبب
عدم الإنجاب، فطمأنته بداية أنها ستنجب لأنها (ودود ولود)، وهذا مما
أعجبه فيها، فطرتها النقية التي لم تُدنّس بقدر المدينة، فجوها لم يؤثر في
جُذورها.

مضت الأيام وهو أسفل الشجرة يجني ثمرها ويلق عسلها، توقد
من أغصانها لتدفئه، وتنير له الطريق، عونًا على مستقبله العلمي، لم تثقل
كاهله يومًا بثرثرة النساء فيما فوق.

مع الوقت شعر ألا سبب يدعو لوجوده في الحياة، ولطالما استشعر
هذا الهاجس، فثالثه لم تنجب فالعيب به هو لا بإحداهن، فإن كان
الزواج من علاته الإنجاب للحفاظ على النسل البشري، فما فائدة رجل
عاقر لا يقدر على إنجاب نملة؟!

هذه الثروة لمن إذن! وهذه الأفضال العلمية التي يفيض بها على
تلاميذه لن يكون له ولد يستردها من بعده!

سيذهب وتذهب ذكراه أدراج عُقْمِهِ كشجرة بعرض الخريف
جافة الأوراق ذرّتها رياح عابثة تبحث عن وطن.

خمس سنوات لم يفلح الكيماوي في شفائها أو تخفيف حدة الألم،
فشل أيضًا أن يقتلها! فترتاح من هذه الحياة القبيحة التي تبخرت منها
إلا قليلًا وتأبى النزوح كذراع مقطوعة معلقة بالجسد بخيط دقيق من
لحم.

ذكرياته الأولى تضغط عليه بشدة، تداهمه كوجع المرض المزمن
فجأة في أي وقت كنوبة السكر أو القلب، فيحاول عابثًا الرحيل عنها
فتصاحبه أيًا ما كان، فلا يفصله عنها إلا الاستغراق الذهني في
التدريس، أو سكره، أو نادين وأخواتها.

دائمًا كان مَلِكًا، وما أجمل أن ترى المرأة زوجها مَلِكًا عليها، فيراها
سيدة القصر وعرشه.

كل شيء كان دائمًا جاهزًا، طعامه .. ثيابه .. سجائره ونظاراته ..
حقييته وملفاتها .. مكتبته .. نظافة البيت ورائحته ..

سألها مرة:

أنتِ سيدة بيت ممتازة، ولكن أين السياسة التي درستِها؟

فقلت له:

وما فائدة العمل بالسياسة لتوجيه ألف شخص منهم من يختلف معي، ومن يتفق لا يقدر على العمل، ولكن ما أعظم فائدة أن أُكرّس سياستي في خدمة شخص سيصلح وطنًا.

أي عظمة وشموخ وإجلالٍ تضعها في نفسه ..!

لكنها الآن ذكرى حياة، وجسد منك مهدم خاوي على عرشه، فيه اسم الحياة لكنه فاقد لمعناه، وفيه معنى الموت، لكنه فاقد لاسمه، وكامرأة أصبحت ككلمة التورية وُضعت في اللغة لتُنطق ويراد بها غيرها .. وغيرها الذي يعرفه منها ولّى منذ داهمها هذا الخبيث .. اللوكيميا.

لمت "نهي" فجأة في نفسه المظلمة كومضة البرق، أضاءت سنام أحزانه واختفت، وما مضى عليه ثوانٍ حتى رعدت "ميسرة" بأناتٍ مؤلمة فتأفّف.

(٦)

تثاقلت خُطواته الوئيدة بجوار السور الحديدي الممتد، تتدلى
حقيبتُه الجلدية السوداء من يد مهمومة كثيبة، تتساءل قدميه مع كل
خطوة عن الثقل غير المعهود بالرجل الفَتَيّ!

يرتدي جاكناً كُحلياً وقميصاً لبنياً على بنطال جينز أسود وحذاء
أسود وساعة (ريلوكس) بجوار دبوس القميص اللامع، يُبدّل ملابسه
وهيئته بين الليل والنهار، إلا أن طبيعته منافرة لكليهما، ففي الصباح بين
صخب الزملاء وعبث الطلاب يكون هادئاً رزيناً، وإن كان فكّه
لطيفاً، لكن أحداً لا يجرؤ على تعدي هيئته ووقاره، وفي الليل صاخباً
عابثاً ماجناً بين النهود القمرية وفرقة الكؤوس الرطبة في بنطاله الجينز
الأزرق، وقميصه الروز، وسلسلته الذهبية المتهذلة على صدر عريض
مشعر بكثافة.

لم تغمُض عيناه منذ الليلة الماضية، ذهبت نشوتُها وبقي صُداعها
المزمن، غير ما اختتمت به من متاعب لم تكن بحسبانها، كل شيء يهون
في صدره، لكن ألم ميسرة لم يعد يُطيقه.

متى تموت؟

سؤال طرحته نفسه المتعجرفة المتمردة مرارًا، ليس لثقل كلفتها
وخدمتها فهذه كَلَّفَ بها خادمةً في ثوب ممرضة أو العكس، لكن شعورًا
بالخجل يضيق بنفسه كلما رآها في مرضها أو تذكرها مهما يجتهد في
تصنيف الحجب المنطقية التي تبرر انحرافه واعوجاجه مع هَبَّات
الضمير المفاجئة.

لم تنأَ بها، ودّعتك قبل اللقاء، القرب منها يزيد البعد عنها، أي
نفس تتحمل أن تري بقعة آدمية باهتة تلتخ الفراش برائحة مرضها
المزمن دون أن تجزع!

وأي نفس تقبل الاستمرار في علاقة حتى لو كانت (زواجًا) بامرأة
لا معنى للحياة فيها غير اسم باهت منكفئ على عظمها المتهرئ!

دَلَفَ إلى جامعة القاهرة من بابها الرئيس، فبادل الحرس التحية،
وتلقَّى بعض التحيات من طلبة وطالبات حاولوا إيقافه، لكنه اعتذَرَ
بابتسامة منافقة لما يدور في قلبه ويستعر به ..

وفي طريقه نحو غرفة هيئة التدريس وقف فجأة على يمين الطريق
قبالة القبة التاريخية أخذًا شهيقًا عميقًا سقطت خلاله الحقيبة، واستند
براحته اليُمْنَى على طوار منخفض بعض الشيء وجلس عليه.

تجمّع حوله بعض الطلبة عارضين المساعدة، لكنه ابتسم لأحدهم
وهو يعطيه الحقيبة ويُميط عنها التراب قائلاً:
شكرًا.

جاء "عم محمود" الساعي على عجل، يرفل في بنطال قماشيّ
فضفاض وقميص مُشجّر قديم، كان رجلًا طويلًا رفيع الجسد، يميل
إلى السُمرّة، فصرّف الطلاب بلُطفٍ ومدّ يده له وسأل بعطفٍ فطري:
- ماذا حدث لك يا دكتور؟

فرد باقتضاب:

- لا شيء يا محمود، أنا بخير.

قبل أن يهَمَّ بالحركة استوقفه أحدُهم من الخلف، فالتفت إليه،
فقال الشابُّ:

- بخصوص الماجستير أنا ..

قاطعهُ وهو ينصرف:

- بعدين يا نديم.

فمضى خلفه قائلاً:

- لكن يا دكتور ..

احتدَّ قليلاً وهو يقول:

- قلتُ بعدين .. الله!

فوقَفَ مكانه ساخطًا لضياح اليوم بلا فائدة، كان أغلب ظنّه مع شروق الشمس أن ينجز شيئًا مع الدكتور عزت حول الرسالة، لكنه لم يستطع لتغيُّر الدكتور الذي لم يكن في حسبانهِ.

وتابعه محمود في طريقه إلى غرفة هيئة التدريس وهو يحمل عنه الحقيبة، ولمَّا قاربا الباب سأله:

- كيف صحة مدام ميسرة؟

امتعض وجزَّ على أسنانه، وودَّ لو تتكوَّر قبضته فيلكمه ويُهشِّم فمه، فأخذ الحقيبة من يده مُتجهِّمًا وهو يقول:

- بخير ..

كانت نظرة جامدة غاضبة صاحبت رده، لم يرها محمود منه طيلة سنوات مضت، لكنه افترض أنه مريض لما حدث منذ قليل، فانصرف إلى البوفيه ليُحضِّر له قهوته، ودلف عزت لغرفة التدريس

- صباح الخير.

كان دكتور "رحمي نعيم" جالسًا في أقصى الغرفة بجوار الشباك المفتوح، كهَّلا يقترب من الستين عامًا، يرتدي بذلته السوداء ونظارته ذات الطبقات الكثيفة، بينما استقرَّ بالقرب منه دكتور "وفيق عمران" يصغر رحمي بعشر سنوات ويكبر عزت ببضع سنوات، لكن لا يبدو عليه كبرٌ ولا شبَبٌ، أما مكتب "أحمد سلطان" فشاغرٌ ..

انتبها له فقال وفيق:

- صباح الخير يا عزت.

- شكلك متغير.

قالها دكتور رحمي بوجه يُفصح عن استفهام، فاغتصب ابتسامةً من نفسه ولم يرد.

فقال وفيق:

- يبدو أن ليلة أمس لم تكن مُوفِّقةً.

فقال عزت في حزم وهو يضرب المكتب بكفّه:

- دكتور وفيق!

يعرف "وفيق عمران" بعض الخطوط الضعيفة عن حياة عزت الليلية، إلا إنها مشوشة لا يستطيع تكوين صورة مكتملة عنها، تقرب إليه أكثر من مرة ليرافقه في بعض سهراته، لكن عزت كان يبعده بصلفٍ، نظرًا لطبيعة وفيق الريفية الفظة.

زجره رحمي قائلاً:

- لم نفسك على الصبح يا وفيق.

كان الجو متوترًا قليلًا مع دخول محمود الفرّاش، لاحظ ذلك فلم ينبس بكلمة ووضع القهوة أمام عزت وانصرف بهدوء دون أن يسأل أحدهم عن طلباتهم كالعادة، فاستوقفه "وفيق" قائلاً:

- محمود .. فنجان قهوة سادة، بن ثقیل، فالصداع يشقُّ رأسي نصفين.

فحدجه رحمي لائماً، بينما سكت عزت برهةً سهم خالها في بخار القهوة المتصاعد نحو أنفه، ثم قال:

- دكتور رحمي، ماذا فعل أخوك فيما سألتك عنه؟

خَلَعَ الرجل نظارته وفَرَكَ عينيه، وقال:

- لا يزال علاج السرطان متأخراً في مصر، ينصحك بألمانيا.

استاء وفيق لما سمع، وعلت وجهه سيما الحزن والشفقة فقال معتذراً:

- أنا آسف يا عزت.

فأشار إليه بيده كي يسكت عن اعتذارات لا قيمة لها، ولن تفيد في حالته النفسية السيئة.

- ولكن العلاج في ألمانيا ..

قاطعته رحمي بقوله:

- لا بديل يا عزت، حاول أن تحصل على سُلقة من الجامعة، لكن هذه حتى لو حصلت عليها فلن تكفي الفحوصات وحدها، العلاج هناك مُكَلَّفٌ جداً.

- والعمل!

قال وفيق بتلقائية:

- نعمل جمعية!

رمقه بنظرة حادة فاستشعر أن خطأ ما قد ارتكبه فسكت.

قال رحمي:

- العمل (نفقة الدولة)، ولا تُفكّر في التأمين الصحي، فأنت تعرفه!

ندّت عنه ابتسامةٌ ساخرةٌ وسكت، فأردف قائلاً:

- حاول يا عزت، ربما .. أو تجمع المال بأي طريق ودع الباقي عليّ.

تساءل بعينه، فأردف موضحاً:

- سأطلب من أخي أن يدلنا على أفضل المراكز العلاجية هناك، وأن يُبشّرُها أحدُ أصدقائه الأطباء.

فقام ممسكاً بحقيته:

- بعد إذنك.

قال وفيق:

- والمحاضرة؟

فلم يرد، وقابله مع خروجه دكتور أحمد سلطان، فاستوقفه فلم يقف، فتساءل أحمد:

- دكتور عزت ماله!

لبس رحمي نظارته، وهزّ رأسه بأسف، فجلس أحمد إلى المنضدة،
وتناول فنجان القهوة، ورشف منه رشفةً وقال:

- مدام ميسرة! لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال وفيق وهو يغلق بعض الأوراق أمامه:

- أحمد، هل من الممكن أن يُساهم ابن عمك في تسهيل سفرها
لألمانيا على نفقة الدولة؟

رفع الفنجان عن شفّتيه ونظر لدكتور رحمي وقال:

- مَنْ اقترح هذا الاقتراح؟

فقال بعينين سابحتين في عبثٍ بين الأوراق:

- أنا.

فسكت هُنيهةً وقال:

- لا أظنّه اقترحاً صائباً يا دكتور، ابن عمي مدير مكتب وزير
الخارجية، ولكنه لا يستطيع أن يطلب من الوزير طلباً كهذا لـ (زوجة
دكتور جامعي)!

- ولم؟

- "ولم" مخزنة يا دكتور وفيق، أساتذة الجامعات هنا ليس كأساتذة الجامعات في أي مكان في العالم بما فيه ألمانيا، تعرف أن الأستاذ في ألمانيا..

فقاطعه رحمي:

- ليس موضوعنا يا أحمد، المهم هو ماذا تستطيع أن تفعل؟
- كل ما أستطيع فعله هو أن أطلب من "رءوف" أن يكلم الوزير .. أتمنى أن يظفر بنتيجة مُرضية، فالعلاج الحقيقي على نفقة الدولة لا يناله إلا ذو حظٍّ عظيم!

وسار عزت في الرّواق الممتد مشتت الذهن، واهنَ الأعصاب، وقبل أن يصل إلى الباب الرئيس للجامعة استوقفته فتاةٌ تسألُه:

- حضرتك الدكتور عزت أستاذ العلوم السياسية؟
سكتَ برهةً ولم يرد، سرح في الفتاة، تُشبه إلى حدٍّ كبير في صفاتها الجسدية وهيئتها ميسرة قبل عدة سنوات أيام دراستِها، وحضرت بذهنه وهي مُلقاة على السرير تتنُّ فاقترنت بالفتاة الماثلة أمامه.
سألها:

- هل أحد في عائلتك مريضٌ بالسرطان؟

ارتاعت الفتاةُ قائلةً:

- أعوذ بالله.

وتركته وانصرفت، وظلَّ جامدًا مُشتعلًا، وطاف بذهنه ما حدث
بين سوزي ومراد، فلعنهما معًا، وضافت نفسه بالذهاب إليها ليصرفها
عن أي سوء أضمرته لمراد لما بينهما من علاقة طيبة، فأخرج هاتفه
واتصل بنادين لتخبره بما يحدث عندها قبل الذهاب، فأخبرته أنها في
حالة نفسية سيئة لا يتوقف لسائها عن لعنهما معا.

وجاءته رسالة من مراد يطلب منه أن يذهب إلى قسم الهرم ليضمن
هشام ويُخْرِجَه فتجاهلها، وأوقف تاكسي واتجه به إلى المعادي، ليقضي
بها وقتًا بصحبة إحدى فتياتهُ لتُخَفِّفَ عنه وطأة الأحران!

(٧)

كان نديم على الجهة المقابلة للباب الرئيس للجامعة جالسًا على
طوار الطريق بائس الوجه، مُلبّد النفس لما لحقه من ضرر في يومه، لمح
الدكتور عزت وهو يشير لعدة عربات تاكسي لتقلّه حيث يريد، تابعه
بخيبة أمل وهو يدلف إلى التاكسي ويتحرك به، ماذا لو يُسرّ لي الأمر
اليوم؟ ولمّ بدا غاضبًا كل هذا الغضب حتى لم يكذ يسمع منّي كلمة؟
ليتني مثلك يا دكتور عزت ما كنتُ لأغضبَ يومًا، وما الذي
يُغضبك؟! دكتور بالجامعة، وشخصية مرموقة في المجتمع، وتحلّ ضيفًا
على الفضائيات، لا شكّ أيضًا أن زوجتك جميلة فاتنة ذات حسبٍ
ونسبٍ، أفّ هؤلاء الذين لا يمدّون الله ويعبسون في وجه خلق الله!

ضجر أكثر لحظّه العاثر ودُنياه الشاردة، لا تسلم الأحلام لعين إلا
بكثير من الصعاب والدموع، كلُّ أمنيّاته تقف خلف هذا الرجل، إنهاء
الماجستير سيفتح له أبوابًا جديدة، ثم إنه سيفتح شهيته أكثر لتحضير

الدكتوراه، وربما يُوظَّف بالجامعة في التدريس كأحمد سلطان زميل
دراسته، ثم قد يتطوَّر الأمر بعد إثبات كفاءته أن يحصل على إعاره
خارج البلاد فيعود بهال يُطمئنُ البال، ويهدئ السريرة، ويؤمن المستقبل
.. ياااااه!

هَبَّتْ نسائمُ الحُلم على نفسه فهشَّت لها أغصانه الذابله وأوراقه
الجافة، فندَّت عنه ابتسامةٌ، وكأنه يسأل الأرض: متى إذن؟!

كم أتمنى أن أكون مثلك يا دكتور عزت!

قام من مكانه وترجَّل نحو كوبري الجامعة على رصيف الشارع
الممتد العجيب؛ في بدايته قبة الجامعة التي يدرس تحتها أن إسرائيل
العدو الاستراتيجي، وفي نهايته سفارة إسرائيل تحرُّسها الشرطة المصرية
بتفانٍ وإخلاص!

تسنَّى له في سيره الهادئ متابعة ماركات السيارات المتلاحمة لزحام
الطريق، وكذلك قراءة الحروف الثلاثة على لوحاتها المعدنية فتضحكه
أحيانًا، وتابع طالبات الجامعة الصغيرات بنظرات إعجاب ودهشة،
فهيجن فيه الحنين وقت أن كان طالبًا في العشرين من عمره .. أيامًا.

عشر سنوات مرت بعد تخرجه في الجامعة كفيلة أن تغير كثير من
معاني الحياة في عينيه، إلا المرأة فقد ظلَّت كما هي في نفسه أفضل ما في
الوجود، وأبدع ما خرج من يد الخالق، لذا سارع بالزواج، ورزق بطفلة
في الرابعة من عُمرها.

لكن شيخوخة مبكرة تدبُّ في رُوحه، وتسري في دمه فتُغضِّنُ لها
الأوصال، ويذبل تحت نيرها الشبابُ الغارب، فكلما مرَّت أمامه فتاةٌ
صغيرة غَضَّةُ المفاتن، ثائرةُ الطلع، تضعُّع في نفسه لهذه الطفلة الفائرة،
وانكمشَ بداخله كزهرة مرَّت على أصيصٍ قديمٍ مشروخ.

الزمن أبشع ما في الوجود، يدفع الصغير البريء المدلَّل إلى
الشباب، ثم ينزع منه العقل فلا يرى إلا شهواتٍ وطموحاتٍ ثم يحول
بينه وبينها، ثم يدفعه بضربةٍ قويةٍ تنقله فجأةً إلى الشيخوخة عاجزاً عن
الحركة والتفكير والحلم، ويقف على مقربةٍ منه ضاحكاً ساخراً منه،
ويذكره بفتوة الشباب ولطف الطفولة، كالشيطان حينما ينجح في تكفير
الإنسان يتبرأ منه ..

لمَح فتاةٌ في مثل سنِّه تقترب منه مُبتسمةً، ترتدي بنطالاً أسود ضيقاً
وبودي بنياً مُلتصقاً بجسدها، يُبرز مفاتنَها بوضوح، وعلى وجهها نظارةٌ
شمسية عريضة بنية اللون، ينساب شعرُها الليلي لأسفل ظهرها
مُستسلماً لمُداعبات النسيم التي لا تهدأ، تجري على شفثيها الممتلئتين
حروفُ اسمه، وتبدو عليها سعادةٌ لرؤيته، من الجميلة الرزينة ذاتُ
العينين البُنيتين والشعر الأسود الفاحم المجدول، التي يتندَّى الحُسن
من أعطافها كزهرة تهتزُّ لروعة النسيم فتشر عيرها وعبقها، وكأنها امرأةٌ
خلقت من بعض ألسنة الجحيم النافرة ..؟

فالتفت خلفه ليتأكَّد، فكان أكثر من رأى ظهوراً متجهة للجامعة
فتأكَّد أنه المعنيُّ، فابتسم:

- نديم ..

قالتها بصوت ممدود وهي تشدُّ على يديه وتلوحيهما في الهواء.

- أهلاً وسهلاً!

- لولا العيب لاحتضنتُك.

إنها تعرفه! فضيَّق عينيه وأمعن فيهما النظر، رفعت نظارتها، فتجمَّعت لهذا الوجه خيوطٌ في ذاكرته فعرَّفها، فذابت ابتسامته فجأةً، وسحبَ يده بخفةٍ وهدوء ..

قد ننسى وجهاً عشقناه بمرور الزمن، لكننا لا ننسى آلاماً تسبَّب لنا فيها، فكل الجراح يُداويها الوقتُ وتشريح، إلا جراح الحب تظلُّ غصةً نازفةً كلما هيَّجتها الذكريات ..

ما الذي رمى بك في طريقي؟ جئتَ لتكملي تهكُّمك عليَّ أمام "الدُّفعة" وأنت مُحتمية بجناح أخيك المغرور، أم لتضعي على قلبي وردةً لتُعلنني وفاته كما أرسلتَ لي باقةً من الزهور لما أرسل عليَّ (البلطجية) فأدموني ونُقلت للمشفى ..

- بعد إذنك.

فأمسكت بذراعه وشدَّت عليه تستوقفه مُعتذرةً عمّا حدث في الماضي، فنَدَّت عن شفثيه ابتسامةً ساخرة، ولم يُعلِّقْ على اعتذارها، وتركها خلفه ومضى في طريقه، فنادته وهي تلحقُ به، فاستدار صارخاً في وجهها فانتبه لهما بعض قائدي السيارات لصوته المرتفع:

- ماذا تريدین؟

وتعلقت عيناه بعينيهما، وظلاً جامدين بُرْهَةً، فتلفتت حولها فرأت
عيوناً تُحدِّقُ فيهما، فانصرفت مُسرعة الخُطى نحو سيارتها أسفل إحدى
أشجار الطريق، وهي تنزع نظارتها الشمسية البُنْيَّة من شعرها لتخفي
بها دموعاً أوشكت أن تفيض.

فتبعها ببصره لم يشدَّ عنها، امرأة بديعة التكوين، فريدة في نَسَقِها
وجمالها، ذات دلالٍ يأسر القلب والعين، زادها الزمن رِقَّةً وحسناً
وأنضجت الأيام جمالها، ما الذي أتى بك من جديدٍ أُنِيها الحب الحزين
مقطوع الرجاء!

سارَ خلفها ووقف بجوار السيارة وطَرَقَ زجاجها، فمسحت
دموعها وارتدت النظارة، وضغطت على زِرِّ بجوارها، ففُتح الباب
الآخر، فدَلَفَ إلى السيارة، فضغطت زِرّاً آخر فأغلقت الزجاج.

- كيف حالك؟

تابعت تجفيف دموعها ولم ترد، وساد بينهما صمتٌ بُرْهَةً، ففتح
باب السيارة وهمَّ بالخروج فاستوقفه قولها:

- الحمد لله بخير .. وأنت؟

كان ينظر إليها بوجهٍ مُتسائلٍ، فالتفت إليه قائلةً:

- أفضل مصادفةً مرَّت بي منذ عامين.

ظَلَّ جامد الملامح، لم تثر فيه كلماتها شيءٌ، فذكرها القديمة ما
زالت برأسه لم تبرحها، فأردفت قائلةً:

- يبدو أنك لست سعيداً لرؤيتي.

فقال بنبرةٍ ساخرةٍ:

- كيف حال مراد باشا؟

فردتُ بانفعالٍ:

- يا نديم افهم، والله كنتُ مجبرةً على ما حدث .. أنا آسفة.

- لا داعي للاعتذار، كانت فترةً مراهقةً تعلّمنا منها الكثير وانتهت

..

- لم تنتهِ، بدليل أنك غاضبٌ من موقفٍ لم تفهم سببه ولا تريد أن
تفهم.

فقال بغضبٍ، كأن ما حدث بينهما لم يمضِ عليه سوى سُويعاتٍ
قليلة:

- كل ما أفهمه أن مراد باشا أخوك أهانني أمام الدُّفعة، وحذرنِي
إن اقتربتُ منك ثانيةً سيقبض عليّ، ويُربيني في القسم بواسطة معارفه
الضباط، لا أدري ما سرُّ التهديد مع أنه أرسلَ في أثري بلطجية ضربوني
حتى أغمي عليّ، أم أن ضرب البلطجية أهون من الضرب (الميري).

تنهدت وقالت بصوتٍ خفيضٍ:

- أعرف أن مراد متسلط، ومع كل اتساع في أعماله يزيد تسلطه وعنفه، لكن ما أريدك أن تعرفه أنني لو لم أقف بجواره وقت تهديده لك ليقنّعك بطريقة ما أنني موافقة على تصرفاته، كان سيودعك السجن، صدقني يستطيع ذلك، فمعارفُه في الداخلية أكثر ممّا تتخيل.

- ظلم.

...

فرك وجهه بكلتا يديه وقال بصوت متهدج مهموم خفت حدّته:

- جاءني والدي في المشفى وهو يبكي .. بعض الأصدقاء أخبره أنني تشاجرتُ مع رجل (ابن ناس)! وأنني في حالة صحية سيئة، فحمدًا لله على أن الموضوع انتهى بـ(علقة) دون الزج بي في السجن، وقال لي ووجهه المجعد ينتفض من الحزن: (يا ابني، نحن لا شيء بجوار الحكومة، طول عمرنا نسير جنب الحائط وهؤلاء لا يخافون الله ..) ثم سكت، من خوفه وهلعه من أمثال مراد سكت. خاف أن يكون أحدهم يتنصّت علينا فيخبرهم!

- أعرف أن كلمة (آسفة) لن تصلح شيئاً، ولن تكافئ ما سببته لك من ألم، لكنني لا أملك غيرها.

- قلتُ لا تعتذري هي فترة وانتهت بكلّ ما فيها.

حاولتُ تلطيف الأجواء، فقالت مُبتسمةً وهي ترفع شعرها الحريريّ للخلف:

- ممكن رقم هاتفك؟

- ولم؟

- أتمنى أن تدوم صداقتنا.

- صداقتك لا تأتي إلا بالضرب أو السجن.

- بالعكس، لم أجن من ورائه سوى المتاعب، قطعت علاقتي
بالكثير من الأصدقاء والكثيرين انفصلوا عني بسببه.

طَرَقَ الزجاج بجوارها أمين شرطة ذو شاربٍ كثيفٍ وسالفين
مُتساويين مع أعلى أذنه ووجه مُلبَّد بغضبه، فقال وهو ماذُّ يده، وعيناهُ
على الطريق:

- الرُّخص ..

- ولم؟

- قلت الرُّخص، أخلصي.

لم تخرجِ الرُّخصَ، وفتحت حافظتها فأخرجت منها بطاقةً وناولته
إياها، فأشرق وجهه فجأة وتلاشى غضبه وذاب في ابتسامة أضاءت
ثناياه:

- (آسفين) يا أفندم، تفضلي .. سلامنا للباشا.

أغلقت الزجاج، فأخذ نديم البطاقة وقرأها:

- المقدم نادر حسن ...

ثم أطلق ضحكةً وأردفَ قائلاً:

- ومنَ ليس معه هذه البطاقة، ماذا يفعل؟

فسكتت، فأردفَ قائلاً:

- أية متاعب؟ فلولا هذه البطاقة لسُحبت الرخص ودفعت مخالفةً مع أننا لسنا مُحالفين!

فلم يأنس منها رداً، فأشاح بنظره للأمام بوجهٍ عابثٍ مُتهكم، فكلنا نتمنى صلاح الكون من حولنا، لكن ذلك لا يمنعُ أحدنا من الاستفادة من الخطأ القائم.

- زوّجني مراد له بعد تخرجي بعام، قضى معي أربع سنوات فأكل لحمي حتى شُبع، كرهت الحياة معه، حاولت إصلاحه قَدَرَ المُستطاع، لكنه كان مقدّماً في شُغله ومقدّماً في بيته، فطلبت منه الطلاق مرة واحدة فأسرع بالإجابة، عرفت لماذا قلت إن لقاءك أفضل مصادفة مرّت على منذ ستين.

فقال بنبرة ذات مغزى:

- إذن أنتِ مُطلّقة.

- نعم، ولا أخجل من هذا المسمّى، وأُقيمُ بمفردي في شقتي أيضاً.

- ولكن ..

- أعرف ما تؤدُّ قوله، قصة العيب وخلافه لا تروق لي، فالمجتمع هو أكبر عدو لأي إنسان مهما يكن تصنيفه الاجتماعي .. لا يدع أحداً وشأنه، وأنا الآن أمارس حريتي بما يُناسبني حسب ما أهوى، لا كما يريد الناس ولا مراد.

- ولا مراد؟! -

- ولا مراد ولا مراد ولا مراد .. سأفعلُ كل ما يحلوني (وطز) فيه.
فضحك من قولها فشاركته الضحك، ثم عادت وطلبت رقم هاتفه فأعطاه إياه، ونظر في ساعته، كانت تلمح دبلة في خنصره اليسرى من أول جلستهما، فأرادت أن تسأله عن زواجه لكنها امتنعت، فلاحظ تعلّق عينها بالدبلة فقال:

- تزوجتُ وعندي "مها" في أولي ابتدائي.

- مها! ظننتك قلتَ نهى.

- أسميتها على اسم أختي التي تُوفيت قبل زواجي بثلاث سنوات.

- رحمها الله .. آسفة.

فابتسم مُهوّناً وقال:

- سأذهبُ الآن.

- سأراك قريباً؟

فقال ضاحكاً:

- لا أظنُّ.

- بل الأسبوع القادم.

- ستخونك ثقتك هذه المرة.

- سنرى.

- سلام .. آه .. (سلامنا للباشا).

فضحكت وقالت:

حاضر.

وانطلقت السيارةُ أمامه، ثم انعطفت يساراً باتجاه الجامعة، وسارَ
بتمهّلٍ في اتجاه كوبري الجامعة حتى وقف بالقرب من سفارة العدو
الصهيوني، فرمقَ علَمَها الأبيض ذا النجمة السُداسية الزرقاء من طرف
خفي - خيفة من رجال الأمن بمحيطها - وهو يُرفرفُ في سماء القاهرة
يُعانقُ سحابها النقيّ، مُعلنًا بذلك اعتراف مصر الرسمي بأحقية
الصهاينة في الأراضي الفلسطينية!

لماذا تُثرثر الأنظمة الجوفاء بالعداء لإسرائيل، وهذا المبنى، وذاك
العلم دليل الصداقة والود والرضا بطغيانها واحتلالها لأرض فلسطين
العربية!

"إسرائيل" ليست أكثر من لصوص في ثوب دولة، فمنذ متى
والدول تعترف بالعصابات الهمجية التي تستولي على أرض الشعوب
بالقهر والسلاح وتُفتح لها السفارات!
آه لو يمكنني إنزال هذا العَلَمِ وتمزيقُه وحرُقُه وإلقاؤه في تلك
البالوعة.

- إمبابة يا كابتن.

انتبّه للرجل الذي ردّد عليه قوله فأجاب بنعم، ودلف إلى السيارة،
وجلس بجوار نافذتها اليسرى، فاتصل بزوجه يخبرها أنه في الطريق إلى
البيت.

(٨)

يسكن في شقة من غرفتين متقابلتين، تقع الشرفة ضمن الغرفة التي على يمين الداخل، وأُلق بالغرفة الأخرى شبّاك عريض يطلّ على الشارع الخلفي حيث (الخرائب) كما يطلق عليها، والمقاهي والورش. دلفَ إلى شقّته بعد التاسعة مساءً، كانت زوجته بالمطبخ مُتسخةً بالماء والصابون، تفوح منها رائحةُ الطعام المتبقي بأواني الطهي التي تغسلها..

لطالما أخبرها أن تُحسّن استقباله، وتنهى كل أعمال البيت قبل حضوره، وترتدي ثوباً نظيفاً غير الذي تركها به في الصباح، تتعطر، وتترزين، وتغير تسريحة شعرها..

- حمداً لله على السلامة .. ما لك؟

كان وجهه يقطر حُزناً، الشيء الوحيد الذي يفتقده هو التحكّم في تعبيرات وجهه..

يُعد من ضمن (عيوبه) أنه شخصية نقية تنضح سريره على وجهه
مهما يحاول التستر والاختباء بعيداً بمشاعره وهمومه.

فأعادت سؤالها، فانفجر ضاحكاً ولم يرد، فاندحشت!

- هل قلت نكتة!

- لا.

وتابع ضحكته.

- إذن لم تضحك؟ هل منظرِي مُضحكٌ لهذا الحد؟ تضحك مني
وما أنا فيه من أجلك أنت وابتك.

فأمسك كتفها بكفيه لينهي ثرثرتها:

- ششششش

ولثم شفتيها برقّة، وقال:

- كل ما في الأمر أنني سعيد لرؤيتك، كنت أظن أنك نائمة.

فقال بصوت أنثويّ أعلن خضوعه لذكوريته:

- أجهّز لك الغداء؟

- شكراً يا حبيبتِي، اعملي فنجان قهوة.

- ستسهرك بالليل.

- لا بأس، أريد أن أنهي الكثير من القراءات المتأخرة .. أين مها؟

- نامت كالعادة بعد رجوعها من المدرسة.

دلف إلى غرفة النوم وأشعل سيجارةً، واستلقى على ظهره، حرَّك شفتيه بطريقة جعلت الدخان يخرج منها كحلقات مستديرة، ثم يطيش بكفه فيها فيفنيها، ثم يرفع سيجارته قبالة المصباح ويدقق النظر في جزئها المتَّقد فيغمض عيناً ويفتح الأخرى، وبعد دقائق أحضرت القهوة فشكرها، فقالت بابتسامةٍ مُشرقةٍ على وجه خاضع:

- قلتُ لا تشكرني مرةً أخرى.

"شكرًا" يقولها لها أكثر من اسمها، يرددها دائماً كلما فعلت شيئاً لأجله، تُشعرها كلمته بقيمتها ووجودها، ومع رفضها لها إلا أنها تتمنى لو سمعتها مع كل مرة يراها.

لاحظ أن القهوة في فنجان قديم، فقال مُداعباً:

- أتمنى أن أرى فناجين النيش قبل موتي!

- النيش عند الست كالشرف عند البنت، ممنوع الاقتراب أو التصوير يا أستاذ.

قالتها بابتسامة، فابتسم مستسلماً لها، وأمسك هاتفه بعد خروجها ووضعها على الكوميدينو بجواره، وشغلَّ مقطوعةً بُحيرة البجع لتشايفيسكي، وأخذ كتاباً وفتحَه بعد منتصفه بكثير، كانت المجموعة الكاملة لأشعار نزار قباني ..

القراءة في رأيه عالم آخر لمن فَقَدَ مُفردات الحياة في واقعه الحقيقي،
دائمًا يحنّ قليلو الحظ في الحياة إلى مُدن الأدب ليعيشوا بين أهلها
الطيبين، وليشاهدوا قصصهم عن قرب، وليقضوا وقتًا مُنفصلاً عن
متاعبهم بجوار الحسناء بطة القصة، أو تلك الجميلة التي انبرى الشاعر
في وصفها في أبياته، أو ذلك الرجل المثالي الذي تفتقد المرأة بعض
صفاته فيمن معها ..

أكثر قراءاته عن المرأة، إذ إن المرأة في فلسفته ليست الزوجة ولا
البت ولا الأخت، إنما هي مخلوق نوراني يتكوّن من كل جميل في
الكون، لذا فلن توجد مَنْ يَصْدُق عليها مسمى "المرأة الكاملة" .. وقد
توجد لكن أين هي خارج الورق والخبر؟

هذه التاء المستديرة كالقمر المشرق بنوره الفضيّ في سماء الرجل
الكالحة، ما أجملها!

هذه "التاء" التي تحمل في ثناياها تاريخ الجمال وتصف معالمه
وطريقه.

يتأملها بين الحروف، فيراها ساطعةً بهيئةً، وكأنها القمر بين نجومه
إذا اكتمل، أو كوجه جميل بعينه وفمه المبتسم.

اذهب بفكرك في الحياة، وأرسل معه هذه "التاء" وألحقها بكل
شيء تراه، ستجده تبدّل في عينيك وقلبك وتغير، كأن الربيع شقّ
خريف هذه الأشياء فجأةً، فأينعت كالزهرة وتفتحت، حتى الحزن إذا
داعبته تأوّن الجميلة لأصبح في حكم الماضي الذي يعقبه السُرور.

وما أكثر التاء التي يراها! لكن التاء المفقودة في خياله مَلِكَةٌ مُتَوَجَّة
على خَلِيَّةٍ من أقرانها تتوافقُ معهن في مُسَمَّى الخِلقة، وتختلف في ثوبها
الأنثوي الخليق بها وَحْدَهَا.

أو كأنها زهرة الأزل التي لا تتبدل ولا تتغير نضارتها بتوالي
الفصول، فكأنها كُتِب لها أن تحيا بين أحضان الربيع دائماً.

يكاد يسمع حديثها الجميل وهي تُناديه من بين الحروف .. يسمع
أشواقها الفائرة .. يشعر بأنفاسها الحارّة .. يتلذذُ بنطقها تلذُّدُ الحسنة
إذا جرى الشَّهد على شفثيها، ثم تتركه ذاهلاً في نشوته وهي تتفاخر على
غيرها من الحروف بأنها تحمل تاريخ الأنوثة في انعكافها المبتسم.

ارتفعت أعقابُ السجائر في المطفأة، وتناثرت في سقف الغرفة
سحابةٌ دُخانيةٌ أضعفت ضوء المصباح، كان قد أوشك على إتمام قراءة
الكتاب، فدخلت زوجته لتقطع عليه خلوته بأنثاء الأسطورية.

- الغداء جاهز، أف .. رائحة الغرفة عَفِنَتْ جداً.

أفّ لرائحة الثوم والبصل في أعطافك!

وفتحت النافذة المقابلة للسريّر، ورأت المطفأة فقالت بدهشة وهي
تضرب صدرها بكفّها اليمنى:

- دخنت كل هذه السجائر، ارحم صَدْرَك، حرامٌ عليك.

فضجر منها وقال:

- ارحمي نفسك أنتِ ولا تُحدثيني عن التدخين مرةً أخرى.
فامتعضت من قوله وعقدت حاجبيها، وتسَلَّل من الصالة صوتُ
مها تُناديه، فاعتدلَ جالسًا واستقبلها بجناحين مفرودين قائلاً:
- حبيبة بابا.
فأخذتها من حِضنه وهي تقول:
- التدخين مُضِرٌّ بالبنت، يكفي ما هي فيه.

(٩)

بشقة المعادي جلس عزت أمام هشام يُضَمَّدُ وجهه المتورّم،
وبعض الشُّجوج الصغيرة النازقة، بينما ظلَّ هشام على حاله منذ ساعة
بين التوجُّع والصُّراخ المستمرين، فاعتذر عزت لنسيانه أمره، فلم يغفر
له، وتلاشت كلماتُ اعتذاره بين ضجيج صُراخه المفرط.

"الله يحرقك أنت ومراد"، هذى بها وأكثر فلم يُعره اهتمامًا، وظلَّ
يُضَمَّدُ وجهه بالثلوج حتى نفدت، فقام إلى المطبخ، فأحضر بعض
الثلج، ودلفَ إلى الحمام ليضع عليها بعض الماء الساخن، فنظَرَ في المرأة
وهو يسمع أنين هشام خافتًا، فبصق على صورته المنعكسة أمامه في المرأة
.. تُضمد جراح بلطجي لا عمل له سوى مخالفة القانون بالسرقة
والاعتداء على الناس، وجلب المخدرات والعاهرات ثم يسبُّك!

أنت دكتور! أين منك تلاميذك الآن الذين يحتشدون لك، وأنت
جالس أسفل قدميه التنتين؟!

لأجل ماذا؟

كان كثير من الماء الساخن قد نَزَلَ، ففتت الثلج حتى لم يبقَ له أثرًا،
فأحضر غيره، وخرج مع حضور مراد بصحبة فتاة، كان هشام قد
استلقى على وجهه في الغرفة عاري الظهر، وصوت تأوُّهٍ لا يهدأ:

- يا أنذال .. حينما كنتُ أتعَرَّض للضرب في القسم، وأصرُّ من
شدة الوجع، كنتَ أنت هنا على هذا السرير مع امرأة ولا تدري ما
يحدثُ لي ..

مزيد من الإهانات، أليست ميسرة أحق بهذا العطف؟ قال لنفسه.

- هشام!

قالها عزت بحزم لُيُسكِتَه، بينما انخرط مراد في الضحك بصوتٍ
عالٍ، فخرج عزت إلى الصالة ضَيِّق الصدر.
- جئتُ لكِ بممرضة لتكون بجواركِ.

وأشار إليها بيده نحو هشام، وخرج إلى الصالة، وشغل التلفاز
الذي عرض بدوره قناة الجزيرة والتي كانت تستعرض الشأن
الاقتصادي المصري، فتساءل بسخرية:

- مَنْ هنا يُشاهد الأخبار؟

قالها باستنكارٍ، ثم أردف قائلاً بضحكةٍ عالية:

- الشقة للفرشة وليست للتدريس.

فقال عزت معترضًا:

- مراد ..

- اعذرني يا صديقي، كان اليوم سيئًا للغاية.

ثم حوّل القناة إلى روتانا الغنائية، وأردف قائلاً:

- انشغل بنفسك يا عزت ودعك من الأخبار، اهتمامك لن يُقدّم ولن يؤخّر ..

- أنا أستاذ علوم سياسية!

- نصيحتي لك أن تعتبر كل ما تعرفه عن السياسة مجرد قواعد أو نظريات (نظري) يعني، ولا تحاول الانتقال إلى (العملي) حتى لا تتعب نفسك.

فضحك عزت وقال:

- أغرب نصيحة سمعتها في حياتي .. السياسي لا يتكلم في السياسة ولا يجب أن ينتقل من النظري إلى العملي!

- لن يتغير شيء مع أنني لا أعرف ما يؤدّ المعارضون للنظام تغييره، لكن بأي حالٍ أنت جزء من هذا النظام مثلي تمامًا ومثل المعارضة أيضًا.

- أصدّقك أن المعارضة جزءٌ من النظام، فالمعارضة التي تتقاضى راتبًا من الحكومة والحزب الحاكم ليست أكثر من عاهرة تدّعي الشرف، لكن "أنا" كيف أكون جزءًا من النظام؟

- يوماً ما ستعرف، وغير الحديث، فأنا لا أتكلم في السياسة كما تعرف ..

بعد صمتٍ، أردف بصوتٍ خفيضٍ:

- ذهبت لسوزي!

فقال بغضبٍ عارم:

- أنت مجنون، ذهبت لسوزي؟

- اهدأ يا عزت.

- أهدأ كيف؟ أنت مُتهوّر لا تعرف نتيجة تصرفاتك، وكأنك طفلٌ صغير.

- عزت، لا أسمع لك.

أغلقت الممرضة باب الغرفة نظراً لارتفاع الصوت، فانتَبَهَا لَصَفْقِ الباب، فأخفَضَ صوته الغاضب قليلاً، وفَرَكَ يديه بعُنفٍ وقال:

- أنت لا تعرف مَنْ سوزي ولا مَنْ زوجها.

- ليست أكثر من شرموطة، اللعنة على سياسة الكباريه التي جعلت للعاهرات كرامة على سادتهنَّ.

- هي بالفعل لها كرامة ومحترمة جداً اجتماعياً.. سوزي لو أرادت لنسفتك من على وجه الأرض وضِيعت مُستقبلك.

- سوزي!

- نعم سوزي ... زوجها شخصية سياسية واقتصادية كبيرة جدًا،
متجذرة العلاقات في المجتمع بشكل لا نظير له، ويُعتبر صديقًا شخصيًا
لأغلب الوزراء.

- وكيف عرفت؟

- زوجها صديق قديم لي، وأعرفه جيدًا.

زاده ما قال عن زوجها عنادًا، فقال غاضبًا:

- ملعونة وملعون زوجها، لن يمرَّ ما فعلته بي اليوم مُرورَ الكرام،
والله .. سأريها.

— مراد، التهوُّر سيقودك للانحيار، حاول أن تُسيِّر أموركَ بالعقل.

- ما سأفعله بها هو عين العقل .. أُنظنُّ أنني أدعها بعدما سبَّتني
بأمي وأبي أمام الدكتور والمرضات، وأُخرجتُ من المستشفى بواسطة
صعاليك الأمن بشكل مهين؟

- أَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ، لَمْ ذَهَبْتَ إِلَيْهَا مِنَ الْأَسَاسِ، إِذَا كُنْتُ أَنَا لَمْ
أُذْهَبْ وَتَعَمَّدْتُ عَدَمَ الذَّهَابِ لِأَنِّي عَرَفْتُ أَنَّ حَالَتَهَا النَّفْسِيَّةَ غَايَةٌ فِي
السُّوءِ؟!!

- ذَهَبْتُ لِأَتَأَسَّفَ لَهَا عَمَّا حَدَثَ.

— لا يا مراد .. أنت سادِّي زيادة عن اللزوم، وذَهَبْتُ لِتَشْفَى فِيهَا،
دَائِمًا تَحِبُّ الْأَسْتِمَاعَ بِضَحَايَاكَ وَهُمْ يَتَأَلَّمُونَ مِنْكَ ..

(١٠)

لا يزال الليل منتشرًا في الآفاق، خيوطُ النور ضعيفة كشرابين
القلب تشقُّ الظُّلْمة على استحياء، وقفت يولاند مستندةً بكلتا يديها على
حديد الشرفة شاحخة برأسها لأعلى مُغمضةً عينيها، تستقبل الندى
بوجهها الصبيح، وبجوارها كوب النسكافيه يتطاير دخانه لأعلى
يعترض وجهها القمري بين فينةٍ وأخرى.

ثم بدأ الليل يُلملم عباءته منسحبًا ليفسح مكانًا ليوم ولید بشمسه
ونوره، يرفّ المكان حولها زقزقة العصافير وأناشيدها الصباحية
الرقراقة ..

تتأمل انتشار النور في الكون حولها وانبثاقه من رَحِمِ الظلام المطبق
الكثيف، وانسحابه ببطء من جسد الوجود كانسحاب السُّم من الجسد
الضعيف.

لم يكن الليل كما كانت فلسفته، ليلاً هادئاً يخلو فيه الحبيب بحبيبه، ونهاراً ينعم كلُّ مُحِبٍّ بالرؤية والقرب، لكنه الآن وقت يخلو فيه المرء بهمومه وأوجاعه، وإذا أشرق النهار أضفى على النفس نوراً يفضح تلك الآلام والأوجاع التي واراها الليل في خيمته السوداء ..

هي امرأة لا يُصلحُها إلا الحبُّ، ولا يضع منها أو ينقص من حياتها إلا إذا نُزع الحب من أقطارها، فوقتها تتحوّل إلى شيءٍ آخر غير ما هي عليه بطبيعتها الفريدة كونها امرأة، ولو أمكن أن يُخْرِجَ منها إحساسها الآن، وما تشعر به لفَقَدَ الحبُّ، فتمثل امرأةً أخرى، وسارا معاً أمامه (مراد) لعرف وقتها الفرق بين الجنة والنار.

فبأي وجه ستشرق الشمس بعد ليلةٍ ماطرةٍ بالأسى على نبتة الألم التي طُرحت في سوادها، وبأي أشعة ستناجي الأرض ومن شأنها أنها عون على مدِّ جذور الألم بهذه النفس الرقيقة رقة الورد، ولطف النسيم.

لا تجد أمُّها كلمة أكثر من (اصبري)، ترددها على مسامعها بكثرة كلما اشتكت، حتى جفَّت الشكوى في لسانها، ويئست منها، وأصبحت مفردة بهمومها، لكن فلسفة الأم لم تعد مُجديةً، فماذا بعد الصبر .. ؟

ألم جديد وصَبْرٌ مديدٌ؟!

بعد تفجّر مشكلة عملها في بادئ الأمر، قررت أن تكون "ربة منزل" تقوم بشؤونها خدمةً لزوجها وأطفالها، سعادة تملأ قلبها وهي تنتظر الأطفال وتنتظره ثم يأتي فيلثمها ويُقبّل يديها، وبين الوقت والآخر سيخرجون للتنزه، والملاهي أيضاً لأجل الأولاد ..

أخرجت من صدرها زفرةً مُلتهبةً تلعن الحياة وما فيها، ثم أطاحت
بكوب النسكافيه، فسقط على بلاط الحديقة، فتهشم وتطايرت أجزاؤه،
وانسكب ما فيه .. قد تُرغمُها متاعبها على الإطاحة بهذا البيت يوماً ما،
فلكلّ شيءٍ عمر افتراضي حتى الصبر يا أمي!

انتبهت لفتح الباب، فأغمضت عينيها وتنهدت، وكلما اقتربت
منها خطواته تضعضعت في نفسها وانكمش وجهها:

- يولاند؟! لم تقفين هنا؟

فدخلت إلى الصالة وقالت دون أن تنظر إليه:

- حاول أن تصلح ما أحدثته بينك وبين الأبناء أول أمس.

قال كمن يتذكر:

- أول أمس ..؟

هزّت رأسها تعجباً لسيانته أنه غائب عن البيت منذ أول أمس،
فقالت:

- أحدثت شرخاً بينك وبينهما، هما الآن يخافان منك لدرجة أنها لم
يسألاني عن غيابك أمس!

- ماذا قلت لهما عني؟

- لم أقل شيئاً، ما رأياه كفيل بتحقيق كل ظنونك التي تتهمني بها
دائماً .. الولدان هما أهم شيءٍ بيننا فحافظ عليهما.

- أعرف أنك لا تريدني وتودين لو طلقْتُك.

فقلت بمرارة واستياء وهي تشير بكفِّها لتسكته:

- أرجوك .. كفى، لم تعد الحياة ذات أهمية لي معك أو مع غيرك كما تتوهم، إن أردت فإراقي فطلقني، وإن أردت الإبقاء عليّ، فأنا لست أكثر من سجينّة في زنزانة دون تهمة.

ودلفتُ إلى غرفتي وأغلقت نورها، وظلّ واقفاً ينظر باتجاه مكانها زائع البصر، ثم نظرتُ تجاه غرفة الأطفال وازدرد ريقه بعين زائغةٍ واتَّجه إلى الحمام.

التمعت النوافذ بضوء النهار الوليد، فقامت إلى ستائر النافذة فأغلقتها فغاصت الغرفة في ظلامها، وأمسكت هاتفها لتضبط منبهه مدة ساعة قبل اصطحابها الأبناء إلى المدرسة ..

أغمضت عينيْن بائستين على دمعٍ منهنم، وتوجَّعت كأن بها ألماً، ثم خرجت بعد بُرهةٍ (آهة) مكتومة تُعَاتِبُ القَدَرَ وترجوهُ.

عبثت بها آلامها في نومها، فبدت هاربةً من شيء ما، تجري مع رجلٍ لا تعرفه في زمن مجهول، وفي نهاية الطريق كانت أسوار المدينة مغلقة المنافذ، تراكم على أعتابها الضباب الكثيف، يتسرَّب من ثناياه أصواتُ لهوام الليل ووحوشه المُفترسة ..

رأى وجهها الشاحب قد اكتسى حزناً وخوفاً حتى بدا كزهرة ذابلة في مزهريّة مهشمة مرَّ عليها الربيع ولم يُعرها انتباهاً ..

- أياً كانت عواقب الطريق فدونك نفسي .

قالت بصوتٍ هَدَّجَه الخوفُ :

- ربما تكون ليلتنا هذه هي آخر ليلة، ولكن إن كتبت لك الحياة
بعدي، فلا تنسَ قلباً عَشِقَ الحياة لأجلِك .

- ليس لي بعدك حياة حتى أتذكرك .

جلست في شُرْفَتِها تحتسي كوباً من الشاي المُطعم بالنعناع الأخضر
كعادة صباحية اعتادتها بعدما ترسل الأبناء إلى المدرسة وترجع .

تغيرت نفسيته بعض الشيء كأثر إيجابي لحلمها الذي رآته منذ
سويغات ولا تدري تفسيره، لكنها اطمأنت له وسعدت به .

تناولت بضع رشقات ثم وضعت الكوب على منضدة صغيرة
بجوار بعض المجلات النسائية، نظرت إلى الكرسي المصنوع من
الخيزران المقابل لها نظرة عابرة لم تدُم طويلاً، عاتبت خلالها الزمن البائد
ووعوده الزائفة، ثم أمسكت بريموت الكاسيت وشغلته، كان مؤشر
الراديو واقفاً على إذاعة الأغاني، فانطلق صوت عبد الحليم شادياً
(أهواك)، فمالت برأسها للخلف وابتسمت .

تحبُّ دائماً أن تشرق الشمس في عينيها، ولا تضع بينها وبين
الشمس حاجزاً مهما يتوهج شعاعها صباحاً، وكأنها تستلهم منها قوة أو
أملاً أو شيء ما ..

ففردت جسمها بطوله على كرسيها في استرخاء كنوع من اليوجا
تُمارسه يوميًا مدة ساعة كرياضة تناسبها نفسيًا، أما باقي الرياضات التي
تهواها فلا تصفو لها كما كانت، فوضعها الاجتماعي زوجة لا يسمح لها
بالسباحة سواء في مسبح النادي أو شواطئ الساحل، أمّا الرقص
فحرمته على نفسها منذ مدة لأسباب خاصة.

وَقَفَ عَصْفُورٌ عَلَى سَورِ شَرَفِهَا مُعَرِّدًا فَنظَرَتْ إِلَيْهِ بِابْتِسَامَةٍ مُشْرِقَةٍ
أَشَاعَتْ فِي وَجْهِهَا طِفْلَةً وَنَضَارَةً، وَتَابَعَتْ بِبَرَاءَةٍ طِفْلِيَّةٍ انْتِفَاضَتِهِ
الصَّبَاحِيَّةَ وَفَرَدَ لِحْنَاهُ الزَّاهِيَّ الْمَلَوَّنَ، فَمَدَّتْ يَدَهَا نَحْوَهُ فَطَارَ
مُعَرِّدًا، فَضَحَكَتْ وَهِيَ تَشْبِكُ كَفَّيْهَا وَتُضَمِّمُهُمَا لَصَدْرِهَا كَطِفْلَةٍ صَغِيرَةٍ،
وَتُتَابِعُ وَقُوفَ الْعَصَافِيرِ عَلَى شُرَفِهَا، وَاسْتَمَرَّتْ كَذَلِكَ فِي سُلُوكِهَا
الطِفْلِيِّ.

ثم قامت فأسندت ذراعيها على سور الشرفة تتابع الطريق الممتدة
بعد حديقة منزلها، ثم أرخت نظرها نحو أشجار الحديقة حتى انتهت
إلى شجرة ياسمين يبدو عليها الذبول والانزواء وعدم الاهتمام، فتغيّر
وجهها وعلته مسحّة حُزْنٍ، فأغمضت عينيها كأنها تسترجع الماضي
السعيد في أول زواجهما ..

أهال على جذعها الطمي، ثم نفض يديه المتسختين ورفع مراد
عينية نحوها قائلاً:

- ستنمو معنا هذه الشجرة لتكون ماضيًا سعيدًا وذكري جميلة بيننا
.. أودّ تغيير اسمها

فضحكت وتساءلت:

- وماذا ستُسميها؟

- يولا ..

فندّت عن شفّتيها ابتسامةً تورّدت لها وجنتاها، واتّقدت شفّتها،
فجلس مُربّعاً قدميه على الأرض، وبدورها قلّدتَه في جلّسته، أردفَ
قائلاً:

- دائماً كنتُ أقولُ لنفسي: حينما أتزوج سأغرّسُ شجرةً في
حديقتي، حتى إذا غابت عني زوجتي أرتمي في ظلّها أنتظرُها!
- أحبُّك.

فابتسم، وأخذ يتأمّل وجهها، فأردفتُ قائلةً:

- ماذا ستفعل بأول زهرةٍ تخرج منها؟

- سأصنعُ منها عُقداً لصدرِك، وخاتماً لأصبعِك، وزهرةً أخرى
لشعرك.

فلما أينعت الشجرةُ وأزهرت، جلّست في ظلّها وقتاً حتى يفتقدَها
فيذهب إليها، لكنه وقفَ بالشرفة يناديها فلم ترد كي يذهب إليها وينفدَ
وعده، فلما يئست منه ردت عليه تذكّره:

- الياسمين طرح.

- دعك من الياسمين الآن وتعال لي تجهّزي الطعام!

ابتلعت ريقها بصعوبة، وزمت شفيتها وتندى جبينها بالحزن على
ما آلت إليه أحلام القلب الطفولية، وأغمضت عينيها، وأشاحت
بوجهها نحو غصن قريب من شرفتها يغص بالطيور الصباحية
المغرّدة..

إننا ننسى أن أصغر الأشياء مهما تكن صغيرةً وضيئيلة الحجم هي
عندها كبيرة ومهمة، ومن طبيعة الأنثى أنها لا تنسى بسهولة، خاصة
هذه الأشياء التي رُبِطت برباط الحب، فإن كان الرجل بمرور الوقت
ينسى فهي لا تنسى، وهذه الصغائر عند إهمالها تترجم بداخلها كدلائل
على ضعف الحب في قلب الرجل، والفرق أن الأنثى ينمو الحبُّ
بداخلها بمرور الوقت لا يصغر، وترتبط بأحلامها مع الرجل أكثر
فأكثر، لكن بعض الرجال يُورثون تبلّد المشاعر من إلف العادة، ولا
يحاولون تجديد الحب بداخلهم، ربما لأنه - في الأصل - لم يجاوز الحبُّ
قشور قلوبهم.

انتبهت لتوقّف صوت الكاسيت، فنظرت في الصالة فوجدته ينتقل
إلى محطة أخرى مشوشة

- عبد الحليم على الصبح!

ثم اتجه إلى الحمام وقال دون أن يلتفت نحوها:

- جهّزي الفطور.

امتعضت وجزّت على أضرارها ولم ترد، هو لم يحترم أهواءها مرة،
فتقدّمت نحو الكاسيت وأغلقتة بعصبية حتى كاد أن يسقط على

الأرض، وتقدمت خطوتين نحو المطبخ، ثم رجعت إليه فشغلتته على إذاعة الأغاني كما كان.

ومضت نحو المطبخ فاستوقفها صوته الغنائي المنبعث من الحمام مع صوت الماء المنسكب، فنظرت إلى شبحه المرتسم خلف زجاج الباب باشمئزاز وبصقت عليه ودلفت إلى مطبخها، فأخرجت علبة الجبن وبرطمان العسل والمربي، وقشّرت البيض، وسخّنت الخبز، وغسلت الطماطم والجرجير، ثم حملت الأطباق للخارج ووضعتها على المنضدة بتبرُّم.

رنّ هاتفها من داخل حجرتها فأخذته واتجهت إلى الشرفة، كانت أمّها تطمئنُ عليها وعلى زوجها والأبناء، فأغمضت عينيها، وأرجعت شعرها للخلف بتنهيدهٍ مغيظة حامدة الله على "حسن الحال"، وأنكرت أية مشكلات لما سُئلت أن لو كان مراد السبب في تغير صوتها المهموم .. أنكرت ومدحت ذوقه وأخلاقه معها! ثم أخبرتها برجوع أحمد ابن خالها من السفر. أغلقت معها، ونظرت شزرًا تجاه عصفور واقف بالقرب منها، ثم دلفت إلى الصالة فوجدته واقفًا برؤسِه يتساقط الماء من شعره على أطباق الطعام وهو يأكل بيضةً.

- دَعَكَ من هذه التصرفات التي تؤثر في سلوك الابنين.

فنظر إليها غاضبًا بعينين جامدتين، فأشاحت بوجهها عنه واتجهت إلى المطبخ فأحضرت منشفةً لتنظف مكان الماء، ثم خرجت إلى الشرفة من جديد.

زيارات قليلة جدًا قام بها أحمد إلى مصر بعد زواجها، وأوقات أقل
يمكنُ فيها، قال لأمّها مرّةً لما سألته عن ذلك - وهي تعرف السبب -
لكنها لم تدرك مدى عمقه في قلبه: "لا أستطيع الوجود بمكان وهي
بعيدة عني فيه، لذا فضلت أن أكون أنا البعيد، فأنا أصبر على نفسي ولا
أصبر على غيري".

كانت تدرك حبّها له، لكن ما أشبه أحمد بالدكتور منير إبراهيم، لم
يفهم وقتها أنها في حالة حبٍّ لم يستطع قراءة سطورها في وجهها، ولم
يفهم معنى أنها تكبره بسبع سنوات!

خرج من غرفته وقد ارتدى ملابس البيت، وجلس يتناول طعامه
بمفرده، فنادى عليها بصوت غليظ، فجاءت مُرغمةً.

- اقعدي ..

- أنا أكلتُ.

فأعاد عليها كلمته بغضبٍ وهو يضربُ المنضدة بملء كفه بعنف،
فجلست ووضعت يديها مربعة على المنضدة، سألتها:

- مالك على الصبح؟

نظرت إليه بعينين ضيقتين، فأردف قائلاً:

- ضايقتك أن أسكتّ صوت العندليب!

قالها ساخرًا فلم ترد، وساد صمت ثواني قطعه صوتُ ارتطام
كوب الماء بالكاسيت، فسكت الصوتُ المنبعث منه، وتهشم الكوب،
وتنأثر زجاجه حولهما.

فدفعت غيظها وكلامًا كاد أن يفلت لغضبها.

- أنت متغيرة منذ فترة، هل يوجد رجلٌ آخر في حياتك؟

اتسعت عيناها دهشةً وذهولًا، وقالت صارخةً في وجهه:

- أنت مجنون، كيف تجرؤ أن تسأل زوجتك هذا السؤال؟!

فانكسر نظره إلى المنضدة، وشدَّ على يديه بعنفٍ ندماً على ما بدرَ
منه، فتدارك قوله

- أنا أقصد ..

فقاطعته بحدّةٍ وغضبٍ:

- أنا لستُ مثلك، وإن كنتَ تلحظ فيّ تغييرًا فهو منك ممّا تفعل،

بالأمس أتيت متأخرًا وأنا أتصل بك طوال النهار والليل ولا ترد،
وتفوح من فمك رائحة السكر حتى وإن كنت يقظ العقل.

- لا .. أنا لم أشرب أي شيء بالأمس.

تجاهلت دفاعه وتابعت:

- وأثناء نومك تلفظت بألفاظ بذئية يعفّ لسانى عن ذكرها، فلمنَ

كنتَ تقول هذه القذارة التي لا تخرج من رجلٍ إلا على فراشه في حِضن
زوجته!

حاول تغيير دَقَّة الحوار لكنه لم يفلح:

- وكيف سمعتِ وأنتِ منعزلة عني تنامين في حجرة وأنام في حجرة، أخبرتك الملائكة؟!

- لو أن الملائكة تدخل بيتنا لما كان هذا حاله، خرجت لأن عمر كان يريد أن يشرب، فسمعت صوتك وفهقتك العالية حتى ظننتُ أن واحدةً معك بالحجرة، فحمدت الله ألا أحد من الولدين ينام معك كما كان.

وقامت إلى غرفتها تُهَنِّدُ ملابسها التي لم تغيرها منذ الصباح الباكر بعد رجوعها من المدرسة، وأخذت حقيبتها، استوقفها قائلاً وهي نازلة على السُّلم:

- لا تتأخري كالعادة، فلن أذهب للشركة اليوم.
تجاهلته قائلةً:

- إذن لا تنسَ موعد خروج الولدين من المدرسة.
وصفقت باب الفيلا خلفها فانزعج كأنها هشمت قوائمه الحديدية على رأسه.

تجاهل عن قصدٍ ما فعله معها أمام الولدين، فمن الحكمة ألا يعتذر امرأة حتى وإن كان خطأه بينًا شنيعًا، إذ إن الاعتذار يفتح بابًا آخر للمساواة وتمرد الأنثى!

لكنه نَدِمَ على ما بَدَرَ منه من سؤاله الشائن ..

قد يتفاجأ الرجل بمرور الوقت بتغير المرأة، فيبحث عن سبب من منظوره هو فلا يجد، فيتهمها ضمناً بالخيانة، فيتصدّع جدار الثقة والاحترام بينهما، لكنه لا يُراجع نفسه هو، وسلوكه هو، فالمرأة التي يجمعها الحبُّ برجل تَهَبُّ نفسها له كوردةٍ خالية الألوان والعطر، فيُلَوِّثُها بسلوكه الممتد معها، وينثر عليها عبيراً من روحه ونفسيه .. فوقت التغيير يجب أن يرجع إلى فُرْشَاتِهِ وألوانه لينظر ماذا فعل بدايةً.

بإصابة هشام ضاعت عليهم رحلتهم المُتَظَرَّة، ولَسبِبٍ لا يديره حضر عزت بذهنيه وهو يحذّره ليلة أمس من الاقتراب من سوزي وأن يدعها وشأنها ولا يفكر في الانتقام، لكن تهديده زاده إصراراً على الانتقام.

(١١)

وضعت الهاتف أسفل حجابها وهي تقود السيارة مُتجهةً إلى
النادي:

— يا بنتي أنا في الطريق.

— أنا أنتظرك هنا من ساعة.

— الطريق زحمة، والله زحمة ..

— طيب، طيب ... من حَقِّك تتأخرين يا "نجمة النادي".

كان لقبًا يلازمها فيما مضى لجمالها ودِقَّة حُسْنها، حتى بعد زواجها
ظلت محتفظة بنورها وبهائها، وتكرر أن طُلِبَت يدها للزواج دون أن
يلاحظ بعضهم أنها متزوجة!

فابتسمت ساخرة، واستمعت لجودي التي أردفت:

— كم واحدًا اليوم سيطلب يدك للزواج؟!
— لا أظن، فالحال تغير، وتغير معه الكثير، أنا لذي ثمانى وثلاثين
سنة.
— كفائك تواضعًا ما زلت كما أنت يا لولو.

ابتسمت، وقالت:

مع السلامة.

وضغطت على زر الراديو فانطلقت إذاعة الأغاني، فاستمعت لها
بهدهوء حالم وهي مستندة بذقنها على يدها مسترجعة ذكرى الماضي ما
استطاعت، فعادة ما تتوه الذكريات الجميلة في ظلمات الحاضر الأليم،
ومهما يحاول المرء استرجاع طعمها فلا يجد في حلقة سوى مرار وحسرة.
فاستسلمت تحت نير الواقع الذي دثر كل الذكريات، وتهشمت
تحت وطأته القيم الذاتية التي تحيي النفس وتدفعها للأمام وتحافظ على
استمراريتها كنفس (إنسانية)، كان يغضب أحيانًا من مدح النساء
لجمالها، لم تكن تفهمه وقتها، كانت تنتهي دائمًا إلى أن غضبه ما هو إلا
غيرة متطرفة تعدت إلى النساء، أما الآن فلا تفهمه أيضًا!

بعض الصديقات قلن لها إن غضبه غيرة، ولكن منها وليس عليها،
وأيضًا لم تفهم لكلامهن معنى حتى مع شروحات مطولة لمقصدهن وما
يردن توضيحه!

هذا النادي لم تطأه امرأةٌ أجمل ولا أرقُ منها، بشهادة النساء اللاتي يغضب لمدحهن، وبشهادة الرجال (أصدقائه) الذي يسعد بمدحهم لها أمامه، حيث تشتعل في عروقه جذوة الزهو بامتلاكها، وتأكيداً لذلك يعمد في كثير من الأحيان إلى التعامل معها بفظاظة أمام الناس.

أعادت قول جودي "نجمة النادي" وهي تنظر في المرأة أمامها وتتأمل ملاحظتها، فبسمت بسخرية، فكم تمت أن لو كانت فتاة عادية، تحمل وجه امرأة وصفات أنثى وجينات أمومة وكفى، لم كل هذا الجمال وذاك الحسن؟ إنه كالذهب الذي ننخدع به ونظنه زينة، ولكنه غُلٌّ في العنق، وقيدٌ في المعصم، ومع الوقت يكون وبالاً يحارب الرجال عليه، ولكن ليس ذلك مدعاة للفخر والزهو والعجب، بل مدعاة للحزن والألم والأسف، فإن كانوا محاريين .. فأنتِ أرضِ المعركة.

إنها كالشمس التي تجذب الكواكب حولها، فما ذنبها وعيون الرجال أفواهٌ ظامئة!

حتى النساء يُسدّدن لها سهام الحقد وحراب الحسد، وما أكثر ما تُبتلى الحسنة في جمالها، لكن مَنْ يعرف أن خلف هذا القمر مسافات مظلمة، وأرض قاحلة، وأزمة متقطعة مؤلمة، مَنْ يشعر بما خلف هذا الوجه الجميل المنير من ألم وظلمة!

تضعضت في نفسها وانكمشت كأنها في خندق تدوّي القنابل فوقها بصوتٍ رهيب، وتحسست (ميدانها) الذي طالما دهسته أقدام فريسه في كل مرة اقترَب منها ..

تحسست رقبتها وكأن لُعبه القدر المُفعم برائحة الخمر والحبوب
المخدرة يسيل عليها الآن، وانتقلت لثديها وأمسكت به، فتأوّت كأن
حلمتها ما زالت تنزف دمًا منذ قضمها بأسنانه في وقت بعيد مضى وهو
في لحظةٍ لاشعوريةٍ جنونية ..

وقتها صرخت لشدة الألم، فظنّها فحولةً، فتابع ما يفعل حتى دفعته
برجلها فانتنفّض وصفعها على وجهها ولم يتبين حقيقة ما يحدث، ولما
عرف لم يعتذر، وقال بسماجةٍ مُعتادةٍ:
لا بأس .. الثانية سليمة!

زفرت هواء ساخنًا حارقًا آتيًا من غور بركانها المضطرم.
كانت أسعد أوقات النادي قضتها بصحبة والدها وأمّها وكريم،
كانوا يتحلّقون حول المائدة بسعادة غامرة، تمت بالترحم على أبيها،
وأظلم وجهها لما تذكّرت اليوم الذي تعرفت فيه إلى مراد بالنادي.
أخرجت هاتفها واتصلت بأمّها فطلبت منها أن تذهب معها إلى
النادي فاعتذرت، تريد أن تغتصب من الزمن حقه في الاحتفاظ
بذكرياتها دون المنّ عليها ببعض منها، ودّت لو ذهبت معها ولسبب ما
يحضّر كريم ووالدها المرحوم كما كانوا! ويجلسون معًا إلى منضدة واحدة
تشرب الليمون المشلج، وتتأفف من دخان أبيها فيطفئ سيجارته،
وتشكو له سخافات كريم كما كان يحدث في الأيام السعيدة.

ركنت سيارتها وأعطت مفاتيحها عاملَ الجراح الذي سألها: أتريد
غسلها؟ فنظرت لركام التراب المتراكم عليها وقالت وهي تهزّ رأسها
ساهمة: لا.

ماذا تفيد نظافة السيارة إن كانت تحمل بداخلها بقايا إنسانية
مُتَحَلِّلَةً مُتَعَفِّتَةً؟!

اخترقت النضد في طريقها للمسبح وهي ترفل في ثوبٍ أسود
أرعى على وجهها الأبيض جمالاً كليلاً أبرز القمر وزيّته، ترتدي نظارتها
الشمسية العريضة وترسم أسفل منها ابتسامة تحاول قهر حزن دفين
بداخلها، فتابعها عيون الرجال وكأنها عارضة أزياء.

جميلة .. تستفز كل عين تفهم معنى الجمال الأنثوي، مثلها في مكان
آخر قد توضع في متحف وتُعد من قبل الدولة ثروة قومية.

تسير بأناة ناثرة عبيرها الأنثوي كزهرةٍ تنتفض في صباح ربيعي
بنداها اللؤلئي، فلا تدع ذا قلب جافٍ إلا بللته ببعض حُسْنِها فينتفض
لها.

استقبلتها جودي بنهوضٍ مفاجئٍ لما رأتها على مقربةٍ منها، ففردت
ذراعيها بابتسامةٍ عريضةٍ وعينين متألّتين ..

- أهلاً أهلاً أهلاً أهلاً ..

واحتضنت كلَّ منها الأخرى وقبّلت كلَّ منها الأخرى، لم تتغير
جودي بغياب سنوات قضتها بأمريكا بصحبة زوجها، تبدو عليها

السعادة والأمل، ظننت وهلة أن الصور التي كانت ترسلها إليها بصحبة رضوى وسمير مجرد لحظات عابرة لا تُعبّر عن نمط سعادة حقيقي، وأنها قد تكون مثلها "فلا أحد يخلو من المشكلات، والمرأة العاقلة هي التي تتحمّل"، كما تقول الأم دائماً، لكن صديقتها مختلفة لا ينطبق عليها أي من كلمات الأم، وليست بحاجة لأي نصيحة من قاموسها القديم، فعينها الخضراوان أكثر نقاءً، وبشّرتها ممتلئة بالحياة، وتشعّ نضارة ولطفاً، وفمها مُتزيّن بابتسامة صافية حقيقة، وشعرها الأشقر يلمع كالذرة تحت شمس هادئة، وعلى كتفها العارية وشمٌ "ين ويانح".

لاحظت في وجه جودي ابتسامة ونظرة مستفهمة لنظرة يولاند المتفحصة، فقالت بضحكة خجلة:

- وحشيتني.

فردت جودي بابتسامة لم تفارق وجهها

- أنتِ أكثر، طمئنيني على نور وعمر.

- بخير الحمد لله .. أين رضوى؟

- كانت هنا وذهبت مع سمير إلى البيت .. لقد تأخرت.

وبابتسامة أردفت:

- سألتني عن عمر أكثر من مرة.

فابتسمت قائلة وهي تخلع نظارتها وتضعها على المنضدة
البلاستيكية البيضاء:

- وهو أيضًا يسأل عنها.

- ربما نكون حموات ذات يوم.

فضحكت يولاند، فأردفت جودي قائلة:

- ستكون مثلك زوجة رجل أعمال كبير.

- لا أريدها مثلي ولا أي أحد، وعمر لن يكون رجل أعمال.

قالتها بعصبية صاحبت وقوف النادل أمامهما، فطلبت (هوت
شوكلات) وليمون ليولاند.

- ما لك يا لولو، مراد أغضبك؟

فاستجمعت أعصابها التي أوشكت على الانفلات، وقالت باتزانٍ
مَشُوبٍ ببعض التوتر:

- لا .. كله تمام.

- إذن لم أنتِ غاضبة كل هذا الغضب من عمل مراد مع أنه ناجح!

- لستُ غاضبةً من عمله، ولكن ما يُحدثه في نفس رجل الأعمال،
فالسُّلطة والمال تفسدان أي إنسان مهما تكن أخلاقه ومبادئه ..

كانت تنظر لها بعين مرفوعة الحاجب مُقلّدة يولاند حينما تستمع
لحديث وليست مُقتنعةً به.

وضع النادل ما طلبت، وسأل إن كانا يريدان شيئاً آخر، ثم
انصرف مبتسماً ابتسامته الوظيفية المعتادة.

سألت بجديّة:

- مالك يا لولو؟

سكتت برهةً وقالت باستياء:

- لا أحبُّ أن أشغلك بمشكلاتي ..

- أشغليني، فكثراً ما شغلتك بمشكلاتي وكنتِ نعم الصديقة، ولا
أحد يخلو من المشكلات.

- منذ فترة توقفت عن الشكوى، حتى أُمي لم أعد أتكلّم معها إلا
في حدود ضيقة، فصَحَّحْتُها لم تعد تتحمل أيّ قلقٍ.

- الشكوى راحة حتى وإن لم تُجِد.

- تغيّر كل شيء حولي، لم أعد أرى في الحياة ما يستحقُّ استمرارها،
كأنني سجينّة تُعاقب على جريمة أخلاقية ارتكبتها، فاجتمعت عليها
كل أنواع العقوبات، الجسدية والنفسية واللا أخلاقية ..

قالت بعينين متسعيتين لدهشتها:

- مراد يفعل ذلك!

- مراد كالشعابين، كلما زاد جماها زاد خطرهما وسُمّها.

فضحكت لتلطّف أجواءها الملبّدة

- هذه تقال عَنَّا نحن، لطالما وصَفْنَا الرجالُ بذلك.

- الرجل لا يصف المرأة إلا بشرّ فيه هو، لأنه لا يعرف عن الشر إلا ما استقرّ بداخله ومارسه بالفعل، فيحاول دائماً غرس المرأة في هذه الشرور ليقف فوقها معلناً بذلك أنه نقي، وأن الشرّ في الوجود ليس منه..

فابتسمت قائلة:

- لا زلتِ تقرئين الروايات؟

فابتسمت بدورها وقالت:

- هم أصدقائي المخلصون.

أخذت كوب الليمون، وأشاحت بوجهها بين النضد تتأمل الأسر الملتفة حولها، ورجعت إلى المنضدة بعين حزينة، وأردفت بصوتٍ مهمومٍ بعد صمتٍ دام ثواني:

- باختصار الحياة أصبحت مستحيلة.

- ألم تتناقشا معاً وتحاولا حلّ المشكلات، أو تسترجعا (الجميل) الذي كان بينكما في البداية؟

- هذه النصائح وأكثر منها قرأتها، وقرأت في العلاقات الزوجية أكثر مما تتخيلين، وحاولت جاهدة تطبيقها، لكنها كانت تأتي بنتائج

عكسية، كان يظنُّها أغلب الأحيان (بسخرية) حبًّا وعشقًا وهيامًا،
وأُنِّي أسيرته التي لو تركها ل ماتت بعده ..

وسكنت بُرهةً وتنهدت مكتئبةً، وزاغت عيناها حولها ..

مَنْ يستطيع أن يُحيي أحلامه القديمة أو يبيِّتَ فيها حياةً أخرى بعد
انقضائها، إنها كدلو سَقَطَ من يدك وقتَ الظمأ في هوةٍ بئرٍ عميقةٍ
مظلمةٍ، لكنك طول الوقت لا تسمعي إلا صوت اصطكاكه بقعر البئر
... صوت مزعج، يزعجك، يسخر منك ... فتلعنينه وتلعنن نفسك
معه.

- ماذا تفعلين لو ضَرَبَكَ سمير وشتمك؟

كاد الكوب أن يسقط من يدها قبل أن يصل فمها، فأردفت قائلة:

- هذا ما يحدث.

فتطلعت في وجهها باستغرابٍ، فوقعت عيناها على شَجٍّ بسيط،
فثبتت نظرها عليه:

- هل هذا ...؟

- نعم .. منه هو.

- معقول، مراد يفعل ...

فقاطعتها:

- نعم مراد "الذوق، الراقى، ال.. ال.. ال.." ليس أكثر من ثعبان، الشجار باستمرار لأتفه الأسباب، لدرجة أنه لو رأى رواية في أي مكان بالفيلا تُثير غضبه، أنا أعرفُ أنه يكره الروايات والكتب.

- وماذا عن الولدين؟

- أحاولُ قدر المستطاع إبعادهم عن أي شجار، وأنصحهم دائماً أن الولدين يتأثران سلباً بما يدور بيننا، لكنه يعتمد فعل ذلك أمامهم، ويظنُّ أنني أحاول الفوز بهما دونه فيتعمد إهانتي في وجودهم، لا أعرفُ لمَ يريد أن يحطمني في عيونهما.

هَبَّتْ نسمة لطيفة بعثرت شعرها على وجهها فأشاحته بيدها ثم قالت:

- ما أوقات إجازتك من الشغل؟

ابتسمت ساخرة وقالت:

- كل يوم عدا أيام إجازته النّكدة أكون (مشغولة) بقرّفه!

- تركت العمل؟

- منذ ستة أشهر.

- أنت مجنونة، لمَ!

- هذه إحدى مشكلاتنا، قال إننا لسنا بحاجة لعملٍ لأننا ميسورو

الحال!

- المرأة لا تعمل فقط من أجل المال، العمل تحقيقٌ للذات، وشُعورٌ بالوجود؛ ولأنك لست مجرد حاضنة لبذور الرجل وحسب.

- ولكني لم أقدم استقالي كما أمرَ، بل تقدّمت بإجازة، كان قلبي يمنعني من الاستقالة وقتها فطاوعته، ومنذ أيام اتصل بي المدير للعودة لأن العمل يحتاجني، وأيضًا لأرقي.

- جيد جدًا جدًا جدًا.

- عرف حقيقة الأمر فكان يومًا من أسوأ أيامي .. أحيانًا أشعر ألا شيء يستحق الحياة، لأنها بلا معنى، وأشعر أنني يجب أن أذهب بعيدًا حيث لا يعرفني أحد، أبدأ حياة جديدة أنسى فيها جراحات الماضي.

- الهروب ليس حلًا، مواجهة المشكلات أيسر من هذا الجنون الذي تقولينه.

تأففت وأشاحت بوجهها بعيدًا، فأردفت قائلة:

- ألم يتدخل أيُّ أحدٍ لحل هذه المشكلات؟

- ستحدث مشكلات أكبر لو أدخلتُ أهلي كما تعرفين.

- ليس هناك أكبر مما أنتِ فيه، فالصبر على الإهانة إهانةٌ أكبر توجّهينها لنفسك.

- قد ينتهي الأمر للانفصال، هذا ما يدفعني للصبر من أجل الولدين ... افهمي.

- يولاند، أنا أعرفك جيداً، وأعرف مدى رقتك ونقاء قلبك،
لكنني لا أنصحك بالصبر الذي تجيدينه جيداً .. فالعلاقة الناجحة
ليست علاقة التسلُّط والاستسلام، أظنُّ أن ما يحدث مستمرٌّ منذ فترةٍ
طويلةٍ حتى يصل الأمر إلى الضرب والشتم، فإن كان الانفصال هو
الحل فلم لا نُجرِّبه ..

وبنبهةٍ حانية أكثر أردفت:

- الله أرحم بنا من أنفسنا، فكما شرَّع الزواج شرَّع الطلاق إن
استحالت العشرة، فلم ننظر إلى الشرع على إنه هدم؟! وعلى أية حال
فهني ليست المرة الأولى التي تنفصلين عنه.

أشاحت يولاند بوجهها نحو أطفالٍ يلعبون في سعادة ونقاء
طفولي، ثم رجعت إليها وهي تقول:

- كثيراً ما فكَّرتُ في الانفصال بالفعل، ولكن الأولاد .. مشكلة
المرأة عبر تاريخها، ما أقسى أن تتحول بهجة الحياة إلى ألم كبيرٍ يربطك
رغمًا عنك بألم أكبر!

وماذا سيستفيد منك الصغار وأنت أطلال محطمة، أكوام متراصة
من الظلام الأنثوي الكثيف، ليس فيها إلا الوحشة والصقيع!

قالت جودي بثقة:

- الطلاق هو الحل.

- لا تحاولي إقناعي ..

- أنا لا أحاول شيئاً، ولكن حق الصداقة أن أنصحك، تخيلي بعد مرور العمر حينما تجلسين في شرفتك وقد كبرا وغادرا البيت ولم يعودا يطرقان بابك، لن يبقى لك منه بعد هلاك أسلحته ونفاد ذخيرته سوى سوء خلقه، ستحاولين كغيرك من المسنين العيش على بساط الذكريات، لكنه سيكون مؤلماً خشناً موحشاً بما فيه، فأنت تعرفين خيطه ونسجه جيداً.

ونظرت أمامها وهي تمسك (الهوت شوكلت) وقد عقدت حلقة على شفيتها، فنظرت لها يولاند وضحكت، فانتبهت لها، كانت الحلقة غامقة جداً فزاد ضحكها:

- علام تضحكين؟

فأشارت بأصبعها لشفيتها ففهمت، فوضعت أصبعها ونظرت فيه فرأته تلون بمشروبها، فأمسكت بمنديل ومسحت فمها وهي تضحك، فضحكت يولاند أكثر كأنها تذكرت شيئاً، ففرقت بأصبعها (الوسطى والإبهام) وهي تشير نحوها، فبادرتها جوذي محذرة بسبابتها وهي تقول:

- إياك أن تقوليها.

فضحكت وهي تقول:

- يا أم شنب ..

وعلت ضحكته حتى انتبه لها بعض النضد القريبة وضحكوا
لضحكتها ..

- يا رخصة، الناس تنظر لنا.

- طز!

تلاشت ضحكة جودي فجأة، وتبددت كل ملامح وجهها، ولم
يبقَ عليها أي أثر انفعالي ..
(طز!؟).

لأول مرة في حياتها تسمع منها هذه الكلمة، قيلت بكل لا مبالة
وعدم اكتراث بالوجود حولها، وأمام دهشة "جودي" لقولها أو مأت
يولاند برأسها مؤكدة ما قالت، ثم هربت بعينها بعيداً عنها وهي
ترشف الليمون.

أصرت أن تهزم الضيق المتراكم داخلها بالضحك بانفلات على
شيء قد لا يكون له معنى في مثل حالتها، وظلّت جودي ناظرة لها كأنها
تبحث في قسماتها عن مقصد كلمتها، أكانت كلمة عابرة، أم مرحلة
جديدة دخلتها يولاند بلا إرادة؟!

(١٢)

سكن المدرج لدخوله، وأخرج العديد منهم الملائم والأقلام،
وبعضهم ضبط هاتفه على مُسجِّل الصوت، فلمح أحد هؤلاء فقال له
مازحًا:

- لا تنشر ما يُقال هنا على الـ(يوتيوب).

فقال الطالب:

- "من حق المجتمع أن يعرف".

كلمته التي ردها كثيرًا بين جدران مدرجات الجامعة حتى حفظها
الطلاب عنه، يحاول من خلالها إنتاج جيل لا يحتكر المعرفة، ولا يُدلسها
على الناس، فابتسم وقال:

- صح .. من حق المجتمع أن يعرف، ومن حقه أن يشارك في
تكوين هذه المعرفة وإنتاجها لا أن يكون مُستهلكًا لها فقط.

ارتفعت بعض الأيدي، فأخفضها بإشارة من يده، وتابع قائلاً:

- بعض السلطات تعمل على إنتاج المعرفة من خلال بعض أجهزة السيادة، وتصدر هذه المعرفة للإعلام فتكون الشعوب رهن المعلومات التي تصدرها تلك النظم، بالمناسبة أكثر النظم التي تحتكر المعلومات وتفرض قيوداً على المعرفة تكون مُستبدّةً.

فقال أحد الطلاب مُعترضاً بحدّة:

- تقصد مصر؟

فقال بسخرية في ثوب الجدّ:

- لا طبعاً، أقصد جمهورية صفر في مجرة التوهان.

ضحك عدد كبير من الطلاب، فأشار أحدهم بيده ليسأل، فأشار إليه أن يُخفّض يده ..

- واليوم نتحدث عن ...

انتبه الطلاب، ولما زاد الصمت وهو يتلمح وجوههم بدأت تندّ شفاههم بابتسامات ذات مغزى فقال أحد الطلاب بصوت مرتفع من أقصى المدرج:

- ربنا يستر!

فضج المدرج بالضحك، ولما هدأ قال:

- الديمقراطية.

ثم نزل عن منصته وترجّل نحوهم قائلاً:

- ماذا تعرفون عن الديمقراطية؟

لمح أحدهم يفتح كتاباً بجواره فقال:

- أغلقوا الكتب والملازم، أنا مَنْ يضع الامتحان، ولن تخرج الامتحانات عن المحاضرات، لذا اعتاد طلابي ألا يسألوني عن (المقرر والمغني)، كل اهتمامي أن تخرجوا من تحت يدي علماء مثقفين لا يحتركون أحدٌ ولو من خلال منهج دراسي ..

وأمسك بكتاب من أمام طالب ورفعته عاليًا، ثم تركه ليسقط مُحدثًا صوتًا في الصمت المخيم، ودارت عيناه بين الطلبة، وأردف قائلاً:

- لا تنسوا أن مَنْ وضع هذا المنهج ... موظف حكومي.

وقف أمام الطالب المُحتدّ وسأله:

- ماذا تعرف عن الديمقراطية؟

سكت الطالب وهو يحاول أن يستحضر بعض ما يعرفه بشكل أكاديمي، فتوجّه للطلاب جميعًا وقال:

- "ماذا تعرفون عن الديمقراطية؟" أنا لا أسأل عن التعريف المُعجمي للكلمة، أنا تخطيطُ ذلك وافترضْتُ أنكم تعرفونه بالفعل، ولكنني أقصد المعنى الاصطلاحي ودلائله.

ثم عاد بوجهه للطالب وأشار إليه بالكلام ..

- الديمقراطية هي الحرية.

سأل طالبةً فقالت:

- الديمقراطية هي أن تكون حرًا في كل ما تفعل دون أية قيود.

ضحك وقال:

- أنا لم أسأل عن الحرية!

وانتقل لطالبٍ آخر:

- الديمقراطية هي حكم الشعب لنفسه دون وصاية من أحد.

وانتقل بعينه لطالبةٍ بجواره فقالت:

- كنتُ سأقول ما قاله.

فابتسم وقال بصوت خفيضٍ مُداعبًا:

- بجد!

فضحك الطلاب المحيطون بها، وأصاب الطالبة بعض الخجل، ثم رجع إلى منصبه وجلس أمام الميكرفون ..

— سيأتي الحديث عن الحرية فيما بعد، ولكن سأبدأ بكلام قد يوضح لكم الفرق بين الحرية والديمقراطية، وهو تعريف ربما لن تجدوه في المعاجم السياسية أو المناهج الدراسية، والسبب في ذلك أن المناهج مصدرها (محتكر معلومات حكومي).

صحيح أن الديمقراطية هي حكم الشعب للشعب، وهي كذلك أن يكون الشعب هو مصدر كل شيء حوله .. الديمقراطية هي حالة إنسانية يبلغها الإنسان بعد (تحرّره).

- تقصد أن الديمقراطية مرحلة تتبع الحرية.

سأله أحد الطلاب، فأجاب:

- لا تحاول أن تشغل بالك بجذليات عقيمة، لو قلت لك نعم أو لا، ستجد كثيرًا من الاعتراضات، ولكن فكّر وقيّم ثم اسأل.

وتوجّه إلى المدرج بعينه وأردف قائلاً وهو يشير بيده للطالب:

- هو سؤال وجيه، ولكن بكل وضوح إذا كنت في مجتمع حرّ فأنت في طريقك إلى مجتمع ديمقراطي وليس العكس.

ثم نزع الميكروفون من الحامل ووقف أمام مكتبه وأردف قائلاً:

- نحن نريد أن نصل إلى أعماق قرار معنى اللفظ والدلالات التي تنبثق منه .. فاهتموا أكثر بالمسمّيات وليس الاسم، فالشيطان ينفذ دائماً للجاهل من خلال الاسم، لكنه يفشل دائماً في تغيير المسميات لأنها حقائق أزلية.

فليست الحرية قانوناً يُفرض، ولا حالة من الحكمة في تعامل النظام مع المحكومين، ولا إتاحتها لكل صوت قناته ..

الحرية تبدأ من الداخل، حينما تتحطم قيود النفس التي تحول بينها وبين إنسانيتها، فإن قمة الحرية هي قمة الإنسانية، والعكس أيضاً صحيح، فهما قمتان سامقتان يتلاصقان في شُموخ...

فحينما يتحرّر الإنسان من سلطان الغضب والحقد والعداء المخيم
في أقبية ذاته ..

وحينما ينطلق صوته بكل قوة، ليس في وجه الأنظمة فحسب إن
أخطأت، ولكن في وجه ذاته أيضًا، فينصف الغير حتى من نفسه، حينها
قلّ عنه إنسانًا، أو قلّ عنه حرًّا .. فلن تخطئ التسمية.

والحرية لا تُمنح من أحد قادر على نزعها وقتها شاء وكيفما شاء،
لكن الحرية هي ذلك النسيم الذي يستطيعه كل مخلوق، دونما يستطيع
أي مخلوق حَجْزَه أو منعه أو التحكُّم فيه أو تحديد وقته أو شكله.

قال أحدُ الطلاب:

- إذن فأغلب النظم العربية ليست حُرّة!

- لا، بل ليست ديمقراطية، فبعض النظم تبيح للشعب بعض
الحرية لتبدو أنها أنظمة ديمقراطية، وهذا نوع من التدليس أن نضع
الحرية جوهرًا على التاج، وهذا كما قلنا خطأ، فالتوزيع العادل للثروة،
وتداول السلطة من الديمقراطية التي قد لا تبيحهما الحرية التي تزعمها
بعض النظم ... والمعنى: أن النظم الديمقراطية هي التي تحرّرت من
سلطة خارجية ومن أية تبعية للخارج، فلا يكون همّ الحكام - وقتها
إرضاء - دولة هنا أو دولة هناك، بل إرضاء الشعب وتحقيق آماله.

فقال الطالب المُحتدُّ:

- ولكن مصر دولة ديمقراطية.

أَتَجْه بِجَسْمِهِ نَحْوَهُ وَهُوَ يَبْتَسِمُ:

- عَلَى عَيْنِي وَرَأْسِي يَا جَمِيلَ.

فَضَجَ الْمَدْرَجُ بِالضَّحْكَ، وَلَمَّا سَكَنَ أَرْدَفَ قَائِلًا:

- أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي قَوَاعِدَ عَامَةٍ وَلَا أُحْلِلُ نُظْمَ دَوْلٍ بَعِينَهَا.

- أَنْتَ لَا تَتَحَدَّثُ عَنْ (قَوَاعِدَ) وَإِلَّا كُنْتَ تَكَلَّمْتَ مِنَ الْكِتَابِ.

- الْكِتَابُ ... طَيِّبٌ، أَيُّ اعْتِرَاضٍ آخَرَ..؟

سَكَتَ الْمَدْرَجُ ... فَقَالَ:

- دَعْنَا نَسْأَلُ طَبَقًا لِلْكِتَابِ وَطَبَقًا لِلنِّظَامِ الْمَصْرِيِّ تَحْدِيدًا، هَلِ الدَّوْلَةُ الَّتِي تَضَعُ فِي دَسْتُورِهَا مَادَةَ الْحُكْمِ الَّتِي تَبِيحُ لِلرَّئِيسِ تَجْدِيدَ فِتْرَةِ الْحُكْمِ بِاسْتِمْرَارٍ حَتَّى يَظَلَّ حَاكِمًا ثَلَاثَةَ عَقُودٍ دَوْلَةً (دِيمُقْرَاطِيَّةً)؟ ثُمَّ تَتَشَرَّفُ فِي عَهْدِهِ كُلُّ أَشْكَالِ الْإِنْحِطَاطِ الْإِنْسَانِيِّ لِلشَّعْبِ، فَيَزِيدُ الْفَقْرَ وَالْجَهْلَ وَالْمَرَضَ وَالسَّرِقَةَ وَالرِّشْوَةَ وَالْمَحْسُوبِيَّةَ وَالْجَرَائِمَ، وَيَنْقَسِمُ الشَّعْبُ فِي وَلايَتِهِ الَّتِي لَا يَعْرِفُ نَهَايَتَهَا إِلَّا اللَّهُ إِلَى طَبَقَةٍ عُليا أُرْسَتْ قَرَاطِيَّةً لَا تَشْعُرُ بِأَلَمٍ وَمَعَانَاةِ الطَّبَقَةِ الدُّنْيَا دَوْلَةً (دِيمُقْرَاطِيَّةً)؟ وَهَلْ وَقُوعُ الصُّحُفِ تَحْتَ التَّوْجِيهِ الْجَبْرِيِّ لِتَسْبِيحِ بِحَمْدِهِ مَعَ كُلِّ طَبَقَةٍ، وَمُلَاحَقَةُ الصُّحُفِيِّينَ الْخَارِجِينَ عَنِ الصَّفِّ إِمَّا بِالْبُلْطُجِيَّةِ أَوْ بِالْقَانُونِ (الْمَفْصَّلِ) دَوْلَةً (دِيمُقْرَاطِيَّةً)؟

قَانُونِ الطُّوَارِئِ هُوَ أَكْبَرُ فَضِيحَةٍ لِهَذَا النِّظَامِ (الدِّيمُقْرَاطِيِّ) يَا

بِرْنَسَ.

فَلَمَلَمَ الطالب مُتعلقاته، وخرج غاضباً وسط ضحكات زملائه،
ورجع عزت إلى كرسيه وجلس وشرّد هُنيئَةً، وساد الوجوم المدرج فلم
ينبس أحدٌ بكلمة.

فقال وهو يقوم لينصرف:

- أُرْحَبُ بكل الأسئلة، فلا تخشوا أي شيء في طرح رؤاكم
ووجهات نظركم حتى إن كانت هجوماً على ما أقول، فأنا لا أغضبُ
من النقاش لأنني (ديمقراطي) بالفعل.

وأنهى كلامه بابتسامة عريضة، وحيّاهم وخرج، وفي طريقه إلى
غرفة التدريس اتصلت به الممرضة الخاصة المرافقة لميسرة، وأخبرته أنها
متعبة، وأنها اتصلت بالطبيب وهو معها الآن، فأخبرها أنه سيأتي ريثما
يُنهي فترة العمل.

وأنهى عزت الاتصال بالممرضة، ودلف إلى غرفة التدريس، كان
الدكتور رحيم نعيم على مكتبه بجوار النافذة المفتوحة التي تسلّلت من
خلالها أشعة الشمس على أوراقه المنهمك في مطالعتها، وبدت خلالها
أبخرة قهوته وسيجارته واضحة متصاعدة نحو أنفه:

- مساء الخير يا دكتور رحيم.

- دكتور عزت ..

وهمَّ بالقيام نحوه، فبادرَ عزت بالذهاب إليه فاردّاً يده فسَلَّم عليه
ثم جلس أمامه.

خلع دكتور رحمي نظارته وقال:

- عندك محاضرات اليوم؟

- أنهيتُ واحدةً وأمامي واحدةٌ أخرى.

- إذن أنت هنا منذ فترة، لما لم تأتِ لشرب القهوة معاً؟

دخل محمود يحمل القهوة، فأشار لمكتب دكتور رحمي، فوضعها وانصرف.

- جئتُ متأخراً، ولم يكن هناك متسع من الوقت.

أشعل سيجارة، ثم أخذ رشفة من فنجان، كان ثمَّ تغييرٌ على وجه دكتور رحمي:

- ما لك يا دكتور؟

تنهَّد رحمي وتمتم مستغفراً، وقال:

- مدير مكتب وزير الخارجية رَفَضَ.

فوضع الفنجان على طبقه، فأحدث صوتاً في السكون المفاجئ الذي رَفَّ المكان، وأطلق زفرة دخان كثيفة من فمه، أردف رحمي قائلاً:

- أنا أعرف مدى صِدْقِ أحمد سلطان، وأنه لم يقصِّر في مسعاه، حتى أنه كان حَجِلاً وحزيناً أيضاً وهو يذكر لي ما تم بينه وبين ابن عمه.

قال بصوت خفيض:

- أعرف ... على كل حال شكرًا له.
- هو لم يرد إخبارك بنفسه حياءً منك، لأنه كما تعرف يُعذُّك بعض أساتذته .. عزت ..
- نعم يا دكتور!
- التفت نحوه فوجده ماذًا يده (بشيك)
- ما هذا؟
- شيك بنصف مليون جنيه.
- لم يُعقب، فأردف رحيمًا قائلاً:
- امسك يا عزت، أرجوك.
- شكرًا يا دكتور، إن احتجتُ إليه سأطلبه منك.
- امسك ولا تغضبني منك.
- فشدَّ على يده بُودَّ قائلاً:
- شكرًا يا دكتور، أعذك إن احتجتُ إليه فلن أتردد في طلبه.
- فقبض يده، ووضع (الشيك) في جيبه وقال مبتسمًا:
- الله يكسفك، أول مرة في حياتي أطلب من زوجتي مالا، ماذا أقول لها الآن وأنا أرجعه إليها.
- فارتسمت على وجهه ابتسامة ودود وقال:

- أنتَ رجل طيب يا دكتور رحمي .. شكرًا لك.

- العفو يا سيدي ..

وتناول فنجانَه، فرشَف منه رشفةً، وأخذ ينظر للرجل بعينين خَجَلَتين من فوق فنجانَه، وضعه دكتور رحمي في موقف محرج أمام نفسه وهو يعرض عليه مساعدة مالية، الرجل العصامي الذي يأنف أن يأخذ من زوجته مليونًا واحدًا من ثروتها على ما بينهما من حُبٍّ مُتبادِلٍ، كَسَرَ القاعدة من أجلي .. من أجلي أنا!

لم يفكر ولو مرةً في بيع أي من أملاكه التي تشمل ستة أفدنة في البحيرة، وشقتين في السادس من أكتوبر، لأجل زوجته التي أحبها يومًا ما، ربما يكون مرضها أحمَدَ جذوة حُبِّها في قلبه فظن ألا فائدة من ضياع المال مع ضياعها هي أيضًا تحت وطأة المرض المتوقع.

أيقظت في نفسه تلك المساعدة معنى الوفاء، وإن كان لن يسلم من تأنيب الضمير إن كان الوفاء قد تيقَّظَ فعلاً، وغسل عن عينيه غبش الأثرة وحبَّ الذات.

لما هم بالقيام، استوقفه قائلاً:

- حاول أن تهدي من لهجتك في محاضراتك.

جلس ووضع حقيبتَه واستند عليها مستفهِمًا، فأردف قائلاً:

- أنت تهاجم النظام أكثر من اللازم، ولا تنسَ أن الأمن مُجَنَّدٌ بعض الطلاب ليكونوا عيونًا له.

تذكر الطالب المحتد، وقال:

- أنا لا أهاجم النظام، أنا أشرح المقررات (وساخراً) نحن كلية سياسة!

فقال بلهجة غير مقتنعة بما يقول:

- عزت ... الأمن طلب مني تنبيهك، سيتهمونك بأنك "إخوانجي"!

فضحك بملء فيه ساخراً، وقال:

- ماذا.. "إخوانجي" .. أنا!

واستمرت ضحكته الساخرة، فقال رحي:

- الموضوع يدعو للحذر وليس للضحك يا عزت، أنا أتهمت قبل ذلك بانتمائي للإخوان، وحقق معي، فكن حريصاً على مكانك ومستقبلك.

- الإخوان يملؤون الجامعة ما بين طلاب ودكاترة.

- ولكن لا مستقبل لهم، لا الطلاب ولا الدكاترة، هل رأيت دكتور (إخوانياً) وصل لمنصب قيادي اعتباري؟

- هذه لا تشغلني يا دكتور، لو وصل أحد بالكفاءة لوصلت أنت.

فتنهّد وقال:

- لم أصل لأنهم اعتبروني إخوانيًا ... فهمتَ؟!

سكت بُرهةً ثم قام مُستأذِنًا، ومع خروجه من غرفة هيئة التدريس اتصل بالمرضة ثلاث مرات فلم ترد، فأسرع في خطواته عازمًا على الرجوع للاطمئنان عليها.

رَنَّ هاتفُه فنظر في شاشته، كان هشام، فأغلق الهاتف متأففًا، وقبل أن يضعه في جيبه رَنَّ مرّةً أخرى، فأجاب برقة:
- أهلاً نهي.

لمحته من داخل سيارتها وهو واقف أمام الجامعة يستوقف تاكسي، فقالت ضاحكة:

- تعالْ أوصلْكَ يا دكتور، الطُّرُق مزدحمة.

فتلفت حوله ليراها، فأخرجت يدها تشير إليه فلمَحَها، فأغلق الهاتف وعبر الطريق نحوها، فنزلت وسلّمت عليه، كانت ترتدي بنطالاً (وبودي) أسود ضيقين يبرزان كل مفاتن أنوثتها الملتهبة الحارقة، واشرباب ثديها من أعلى البودي حتى بدوا صارخين ملتهبين.

جلس بجوارها فبادرته قائلة:

- هذه المرة الثانية التي أحضر فيها هنا، المرة الماضية لم أجِدْكَ، وكان هاتفك مغلقاً!

- لو أعرف أنك هنا لحضرتُ معها تكن الأسباب.

هو صادق في ذلك، فمع وجود سبب قاهر يجعله يتنصل من كل اهتمام آخر إلا أنها أبقتة وأجلسته بجوارها مسلوب الإرادة، مُشَتَّت الذهن، لا يرى في الوجود غيرَها.

فضحكت بنعومتِها الأنثوية المعتادة، فأوقدته وتركته يتفحَّم بهدوء..

وبعد بُرْهَةٍ قال:

- أيّ خدمةٍ أقدمُها لك؟

ارتسمت عيناها أسفل نظارتها البنيّة الشفافة كورقة الشجر، واتسعت شفتاها بابتسامة سحرته وهي تقول:

- أريد أن أحضّر الماجستير، نصحني مراد أن تشرف عليها.

- أظن أنه نصحك ألا أشرف عليها.

فضحكت وقالت:

- هذه الحقيقة، ولكن أرجو ألا ترفض "فمن حق المجتمع أن يعرف".

فضحك وقال:

- بكل تأكيد من حق المجتمع أن يعرف ..

أدخلت يدها في حقيبتها وهي تقول:

- سأخرج لك قائمةً بأسماء بعض الموضوعات التي أحبُّ أن أُحضّر فيها رسالتي لتنصحني بالمراجع.

تُنازعه يده أن تمتدّ نحوها فيقطف ثمرتها البارزة أمامها في صلفٍ وتكبرٍ وتبجّج، ماذا لو لثَمَ شفيتها المطبقتين على طعم الحياة وسحرها وفنونها، إن لثمة واحدة على شفيتها الآن هي حياةٌ على حدة توهب للروح حياةً، بل هي روح جديدة تجدها في نفسك وتستشعر بها تميّزك وتفرّدك على من دونك.

- دكتور عزت ..

انتبه لها، وتناول الورقة، فضحكت من شروده فيها، واستعرض الأسماء بعينه وقال:

- الموضوعات كلها جيدة، ولكن تحتاج جلسةً أخرى للمناقشة.

فقالت بخفية لفهمها ما يرنو إليه:

- وجلستين لو أردت.

رنّ هاتفه، كانت المريضة، أخبرته أنها في معهد الأورام، فأغلق الهاتف وفتح الباب لينزل، فسألته عمّا حدث، فأخبرها أن زوجته بمعهد الأورام، فاستبقته وعرضت عليه توصيله فوافق.

(١٣)

في الطريق إلى معهد الأورام لم ينبس بكلمة، استغرقه الهمُّ،
أصبحت ميسرة عبثاً على كاهله لا يدري كيف الخلاص منه، لاحت منه
نظرة خاطفة إلى نهي التي سدّدت بصرها في طريقها دون أن تُفأخّحه في
أي كلام حتى لا تثقل عليه، ظناً منها أن سكوته حزناً على زوجته!

ماذا لو كانت ميسرة كنهى، ماذا كان سيحدث للوجود، أكانت
الشمس ستأفل وينطفئ القمر وتخرج الأرض عن مدارها؟!

ونظر لها من طرفٍ خفيٍّ فرأى السستيمترات التي تفصله عنها
أميالاً مُمتدة تضجُّ بعوائق أولها ميسرة، ومراد وفارق العمر. تشتعل تلك
الفوارق كل حين كشموعٍ غادرة تبرزُ في ضوئها رغبته المنقطعة
وشهواتها الميؤوس منها، لكنه يضعفُ بمرور الوقت، ينهزم كلما أراد
الصمود أمام فاتنته، وينهزم أكثر كلما تذكر مراد وموقفه لو طلب يدها

للزواج، فهو يعرف عن صديقه العُنْجَهِية والكِبَر وأثرته لنفسه في كل
شؤونه، فماذا سيستفيد من تزويجه أخته؟ لا شيء!

وبات اليأس بعيد المنال كحلٍّ حاول إقناع عقله به، فموت ميسرة
ليس بيده، وخضوعه بذلّة وانكسار لسلطان نهى بداخله لا فكّ منه!

وأرعى نظره لفخذيها المنفرجتين .. إن هاهنا سرٌّ سعادة الوجود
وبقائه، هنا النعيم والجحيم معاً، أتصدّق الظنون فألقي عليه تحيتي
يوماً؟

امرأة غضة كغصن في الربيع مثقل بشماره، كيف لي بك سيدتي
ومليكتي؟!

كسرت حاجز الصمت قائلة:

- اطمئن، ستكون بخير إن شاء الله.

حوّل نظره لمقدمة السيارة بسرعة، فلم تلاحظ موقع عينيه قبل أن
تتكلم ..

كيف تكونين وأنتِ بقميص نوم! أو عندما تتعرين أسفل الماء،
كيف تبدو ثمرتاك وقتها، أيّ رجلٍ ترين أحقّ بهذه الثروة التي لا تُقدَّر
بمال أو سلطة، لو وُضعت في بعض المناهج التي أدرّسها لكنتِ دولة
بأكملها ذات سيادة ونفوذ، وكم أتمنّى أن أكون حاكمك بأي شكل:
بانتخابات أو حتى .. بانقلاب عسكري.

وصلا إلى المعهد، وسأل عنها، فأخبرته سكرتارية الاستقبال أنها في
غرفة الأشعة .. الأشعة!

صَعَدَ تتبعه نهي وهو لا يفهم شيئاً، أدرك أن عليه أن يُبدي اهتماماً
أكثر أمام نهي، فكان أكثر لهفةً حينما وصلا إلى قسم الأشعة.

كانت المريضة الخاصة واقفة مع ممرضات الطابق، فاتجه نحوها
سائلاً:

- ماذا حَدَثَ؟

- دخلت في إغماءٍ طويلة، صاحبها نرف كثير و ...

فتجاهلها وسأل ممرضات الطابق:

- ما الإجراءات التي اتُّخِذت معها؟

- أهلاً وسهلاً يا أفندم.

وتلَّهت في أوراق أمامها، فصرخ في وجهها:

- ما الإجراءاتُ التي اتُّخِذت؟ ردي.

فردت بصوتٍ مُرتفع:

- احترم نفسك وأخفِضْ صوتك.

- أحترم نفسي يا بنت الكلب؟!

ومدَّ يده نحوها ليجذبها من شعرها لولا أن تراجعت المريضة
بالكرسي للخلف، وحالت نهي بينهما ودفعته، لكن اندفاعه كان أقوى

فالتصق صدره بصدرها، فجذبهُ رجالُ الأمنِ من الخلف، وسألَ عَمَّا يحدث، فقال:

— زوجتي نُقلت إلى هنا وهي تنزف من السرطان، وأسألها: ماذا حدث؟ لا تردُّ.

فاقترب أحدُهم، ونظر للبطاقة التعريفية بالمرضة على صدرها وكتب بياناتها ثم سألها:

— أين زوجتُه؟

فقالت وهي تنظر لعزت.

— ما اسمُها؟

— ميسرة.

— في الغرفة ١٠٦، والزيارة غير مسموحة الآن.

— أين الدكتور المُعالج؟

— دكتور "علي كمال" هو في مكتبه الآن.

سأل رجالُ الأمن عن مكتبه فأخبره أنه بالأسفل.

انتظرا المصعد وهو يرمقُ نهى بنظراتٍ خاطفةٍ، يتأمل نفور ثدييها والتفاف رجليها، فتمنّى لو نزل أو صعد لهما فارغًا، وأن يظل فارغًا حتى يخرج منه، بينما وقف رجال الأمن أمام الممرضة يعنفونها على

سلوكها، وانخرطت في الاعتذار وتبيين حقيقة الموقف، وظلت الممرضة الخاصة بميسرة بالقرب منهم ريثما يحتاجها أحدٌ.

في المصعد كان قلبه ينتفض لهذه الخلوة وذاك القرب، وانشغل فِكْرُهُ بالتمنِّي لو انطفأت الكهرباء مدة يومين ليقضيهما معًا في ظُلْمة المصعد!

لكن لحظات القرب نادرة كوقتها فسرعان ما تَمَرُّ، وما أكثر عمل العقل في تلك اللحظات وما يبعثه من أفكار في نفس الملتاع، فلمعت بنفسه الضبابية صورتها بين ذراعيه وفمها راشتُ بفمه يعتصره، ماذا لو اغتصبها الآن ثم علَّل ذلك بأن أعصابه لم تكن ملكه في ذلك الوقت؟

خرج من المصعد وسأل موظفات الاستقبال عن مكتب دكتور علي كمال، فأشارت إحداهن إلى غرفة مكتبه فدلّفا إليه، فقام لهما مُرَحَّبًا:

- دكتور عزت زوج مدام ميسرة أتت منذ ساعتين تقريبًا.

- اطمئنْ هي بخير.

وأخرج ملفًا من درج الدولاب عن يمينه وفتححه، وأردف قائلاً:

- الحالة متأخرة جدًّا .. لكن الحمد لله، اطمئنْ.

وأمسك بسماعة الهاتف الداخلي، وطلب ممرضات الدور، وطلب منها إحضار فاتورة الحالة، ثم وجَّه حديثه لعزت متسائلًا:

- لماذا تأخرتَ على علاجها كل هذا الوقت؟

- لم أتأخر، كانت تُعالج بالكيماوي.

فعاتبه قائلاً:

- أكنتَ تراها تتحسنَ على الكيماوي؟!!

فسكت ولم يرد، كانت تذبل يوماً بعد يوم، تفتت وتزوي ..

دخلت الممرضة فأعطته الفاتورة، فأخذها وناول عزت إياها،
فطالعها وتوقفت عيناه باندهاش وقال باستنكار:

- تعرضت للإشعاع!

- نعم، ماذا يقلقك؟

- كيف تفعل ذلك دون أن تستشيرني؟

- وأين كنتَ وقت حضورها .. على العموم العلاج الإشعاعي
ليس منه خطورة، هو أفضل وأكثر أماناً وأفضل نتيجة من الكيماوي.

- كيف؟

- (كيف) ليست من شأنك ولن تفهمها.

رجع إلى الفاتورة مرة أخرى وقال:

- ما السناير نايف؟

- قلتُ لن تفهم، المهم أنها تحتاج لخمس جلسات.

سألت نهي:

- كم نسبة الأمل في الشفاء بعد انتهاء الجلسات يا دكتور؟

- الأمل في ربنا كبير يا آنسة.

ثم نظر لعزت قائلاً:

- أدخلناها جهاز السنايبر نايف، ثم ركّزنا موجةً إشعاعية كبيرة على الخلايا السرطانية حتى يتسنى لنا محاصرتها ومن ثمّ تدميرها.

ابتهجت نهى وتهلّل وجهها ونظرت لعزت وهي تربت على يده ..

- الأمل كبير الحمد لله.

فامتعض عزت لفرحتها، وللأخبار السارة التي ذكرها الدكتور عن ميسرة، فاغتصب ابتسامةً من نفسه وألقاها على وجهه العابس وهو ينظر لنهاى، وسأل الدكتور:

- بعد كم يوم يمكن أن تخرج؟

- بعد ساعة.

- متى؟!

فأشار الدكتور بأصبعه:

- بعد ساعة واحدة.

ثم قام يضع الملف في الدرج وأردف قائلاً:

- هذه هي ميزة العلاج الإشعاعي.

وجلس الدكتور وهو يقول:

- ادفع لأمضي لك على خروجها.

- لا .. أودُّ أن تبقى هنا مدة الخمس جلسات.

اندهش الدكتور وقال:

- ولكن هذا مُكَلَّفٌ جدًّا، ولست بحاجة ..

فقاطعه:

- لا يهمُّ، أرجو أن تضيف ذلك على الفاتورة.

- كما تحبُّ!

ارتسمت علامة استفهام على وجهه نهى، لكنه لم يكثر لها، فأن تخلو الشقة ولو بضعة أيام من أنينها المزعج فذلك لا يُقدَّرُ بثمن، وأن يُفْرِغَ صدره من همومها ورأسه من آتاتها بضعة أيام أيضًا لا يقدر بثمن، ولربما زادت جرعة الإشعاع فماتت!

- أريدُها في غرفةٍ مزدوجة، هناك مرافقة ستمكثُ معها.

قالها وهو يرمُقُ وجهه نهى ليعرف كيف تشعر نحوه وهو يفعل ما يفعله، لكنه عجز عن فهم شيء من ملاحظها الساكنة.

قال الدكتور:

- كما تحبُّ ... تفضَّل!

وقام إلى الخزينة ودفع مبلغًا ببطاقته الائتمانية، وسأل الموظف المختصّ: أمن الممكن أن يترك لها مبلغًا لو احتاجت لشيء؟ فأخبره أنها لن تحتاج لشيء لم يُدفع ثمنه، فاتصل بالمرضة الخاصة وطلب منها النزول، ولما حضرت أعطاهم مبلغًا وقال:

- ستبقي مدام ميسرة مدة خمس جلسات وستبقين معها في غرفتها المزدوجة، احتفظي بالنقود إن طلبت منك شيئًا، وأيضا لو أردت شيئًا شخصيًا لك، إن سألتك عني فأخبريها أنها كانت مُحَدِّرة والدكتور منع الزيارة.

خرجت نهى من مكتب الدكتور، فأشار للممرضة بالانصراف، ففتحت المصعد وهي ترمقُ نهى بنظرها.

- هيا بنا.

- ألن نصعد لنطمئنَ عليها؟

- هي الآن تحت تأثير المخدّر.

- لا أظنُّ أن العلاج الإشعاعي يحتاج لمخدر!

فارتبك وقال:

- سنأتي لها وقتًا آخر .. فلنتركها الآن لتستريح.

فمضت مُتَعَجِّبة ولم تُعَلِّق.

ومع خروج المريضة من المصعد بطابق قسم الأشعة أخبرتها
مُمرضةُ الدور أن مدام ميسرة تسأل عنها، فدخلت مسرعةً:

- كيف حالك الآن يا مدام؟

فقالت بصعوبة:

- الحمد لله، أين عزت، ألم يأت بعد؟

- أتى يا مدام وانصرف.

- أنصرف؟!!

- نعم، دفع ثمن العلاج وانصرف مسرعاً مع المرأة التي كانت
بصحبتها.

فتنفست بصعوبة وسألتها:

- من هذه المرأة؟

- لا أعرفها، ولكنني لم أر امرأة في جمالها ولا جسومها من قبل،
أظنُّها ممثلة!

- لذا لم يصعد ليراني ..

وأشاحت بوجهها تجاه النافذة، فأغمضت عينيها، وطفرت
دموعها، وأكملت المريضة حديثها بسذاجة:

- قال لي: إن سألت عنه أن أخبرك أنه صعد لكن الدكتور منعَ
الزيارة لأنك مخدرة، وترك معي مبلغاً من المال لو احتجنا شيئاً.

دخلت إحدى ممرضات المشفى فبادرت بسؤالها:

- هل جرى تحذيري أثناء الإشعاع؟

- لم تفقدي الوعي أثناء الإشعاع ولا بعده.

- هل حضر أحد يسأل عني ومنعتموه؟

- رجل قال إنه زوجك بصحبة امرأة جميلة جداً لا تنقص عن جمالك شيئاً.

فأغمضت عينيها، وابتلعت ريقها بصعوبة شديدة، وتأوّهت داخلها، أردفت ممرضة الدور قائلةً:

- ستُنقلين الآن إلى غرفة مزدوجة.

- ولم؟

- زوجك دفع ثمن غرفة مزدوجة لتبقي معك المرافقة طيلة الخمس جلسات.

قالت بصعوبة شديدة وكأنها في نفسها الأخير:

- هل يمكن أن أطلب منك شيئاً ويظلُّ سرّاً بيننا؟

- بكل تأكيد .. حضرتك تؤمرين يا مدام ميسرة.

(١٤)

توقَّفت السيارة أمام باب العمارة، وأكملت نهى جملةً كانت تقولها:
- وأتمنى أن تقضي ليلة هادئة، وأعتذر لأنني تكلمت عن الجامعة
والرسالة في هذه الظروف.
فقال عزت بلا اهتمام:
- ولا يهملك.

ثم ألقى لعينيها ابتسامةً وتحجَّر وجهه تجاهها، وعلى شفثيه كلامٌ
عصبي لا يمكن أن يخرج بأي وجه، فما ثمَّ طريقة صالحة يقول بها إن
الشقة خالية، وأنا مُتعبٌ، مهمومٌ، مُشتاقٌ إليك، والليل قد خيم على
الوجود بسحره وستره ..
ولما لاحظ تعجُّبها لنظرته قال:

- تصبحين على خير.

- وأنتَ من أهله.

وتحرَّكت السيارة متمهلاً حتى قطعت الشارع وانعطفت يميناً،
وترجَّل نحو العمارة ببطءٍ، ودلف من بابها الحديدي الكبير الأسود،
يرنُّ كعب حذائه في أرضيتها الرخامية البيضاء.

تردَّد صوت حسن البواب بين الحوائط الرخامية فجأة وهو خارج
من غرفته بجوار المصعد:

- حمداً لله على السلامة يا سعادة البيك .. كيف صحة الست
هانم؟

- بخير.

- يعني بخير الحمد لله وحلوة؟

فقال منفعلًا:

- قلت بخير .. خلاص، انتهينا!

- أنا آسف يا سعادة البيك.

ومدَّ يده ليفتح باب المصعد، فبادر عزت بفتحه ودلف إليه متأفِّفًا،
فخرجت زوجته على الصوت المرتفع:

- خير يا حسن، ما له الدكتور عزت؟

- كنت أسأله عن الست ميسرة فغضب كما سمعت.

- معذور يا حسن، ربنا يشفيها وترجع له بالسلامة.

فمدَّ الرجل يديه إلى السماء قائلاً:

يا رب.

ودلف إلى شقته ففتح أنوارها، وأتجه إلى غرفة النوم حيث مرقد ميسرة المرضي فأغلقها بالمفتاح، وجلس على الفوطة البيج وشغل التلفاز، كان لوجو نشرة الأخبار يملأ الشاشة، فتذكر قول مراد عن الأخبار، فحوّل القناة إلى أخرى تبثُّ أغاني مُصوَّرة ..

لم يدفع مصاريف العلاج كاملة، واستقرَّ في نفسه أن ليس من الشهامة ولا المروءة إهمال علاجها أكثر من ذلك، فهي على أية حال "زوجته"، وأولى بالرعاية من صديقه البلطجي، فقرَّر بيع إحدى الشقتين، فاتصل بسمسار يعرفه، وأخبره بما يريد.

وألقى الهاتف من يده بيأس وزفرَ من صدره زفرةً قوية قام على إثرها إلى الثلاجة فأخرج علبة بيرة فشربها إلا قليلاً، ثم دلف إلى الحمام، فغسل وجهه وعاد لجلسته، وتناول علبة سجائره من فوق الطاولة أمامه وأشعل واحدة، وأخذ يرسل دخانها إلى رئتيه في استمتاعٍ دفعه إلى الاستلقاء للخلف ورفع قدميه على المنضدة.

خيّم الدخانُ في سقف الشقة المغلقة المنافذ والقائمة الإضاءة، تنساب الأغاني حوله وتتلوّن ما بين هادئة ومزعجة، لكنه متناغم معها

كيفما كانت، فأشغل ذهنه بنهى كإيقاع إضافي ينزعه أكثر من الشقة
ورائحة الكيماوي، يحتاج إلى موسيقى تروي نبتة الحب النابتة أسفل
سُرتَه، والتي يأمل أن تقطف نهي زهرتها قريبًا.

رنّ جرس الشقة ذو الموسيقى الهادئة فتزامنت موسيقاه مع صوت
الأغنية الناعمة الصادرة من التلفاز، فلم يسمعه إلا بعد انتهاء الأغنية،
فقام متثاقلاً بعدما فرك سيجارته في المطفأة، ومدَّ يده إلى المقبض وفتح
الباب، فأتسعت عيناه غير مصدقتين ..

تجلّت لعينيه كشعلة نار هادئة دافئة في صحراء تيهه الباردة
القاحلة.

قالت بعد صمت مضي في تأمله لعينيهما المكتحلتين، وأهدأها
المرسلة، وفمها الياقوتي المنمّق بطلائه الأحمر، ووجنتيهما البارزتين
بحسنهما:

– ألن تأذن لي بالدخول؟

فازدرد ريقه على الفور، وتنحّى عن الباب ليفسح لها الطريق، وهو
يشير لها بيده لتدخل، ودارت عينها في الشقة، ثم ألقت بجسدها على
الفوთيه، تتبعت عيناه ردفيها وظهرها العاري المختبئ خلف شعرها، لو
ينقضُّ عليها الآن، مَنْ يمنعها منه؟!

تساءلت نهي:

– ماذا تفعل؟

- هه .. لا شيء كنتُ أشاهد الأخبار والأغاني و ..

أطلقت ضحكة ناعمة مُتكسرةً، تحمل بين موجاتها قاموسَ الغرائز
عاريةً سافرةً:

- أخبار! أهناك مَنْ يستمع إلى أخبار التلفزيون الحكومي إلى
الآن؟!!

وتابعت ضحكها، وأخرجت سيجارة رفيعة من علبتها وأسكنتها
شفيتها الحمراء بين اللامعتين، فتناول قداحته على الفور وأشعلها
وجلس قبالتها ليشعل هو الآخر سيجارة، ثم استدار بجسده عن يمينه
تجاهها، فنفتت في وجهه دخاناً كثيفاً فأغمض عينيه مبتسماً، حتى إذا
انجلت سحابة الدخان وفتح عينيه، قال:

- أنتِ مثلُ الزهرة ..

- أيُّ زهرة؟

- لا أعرف، ولكنك في عيني زهرة حمراء شجيرة العِطر.

- ممم، أم قطعة لحمٍ شهية الطعم؟

نظر لذراعها اليسرى العارية وسألها:

- لمَ وَشْمُكِ ثعبان معقود الذيل؟

فقالَت بخفية:

- هذا سرٌّ.

فابتسم، وأمعن النظر في وجهها، استفزته شفاتها الممتلئتان، ثم
أرخی بصره لصدرها النافر، كان شقاً بينهما يشعّ وهجاً لا تتحمله نفسه
الظائمة الملتاعة، فأرخی بصره لأسفل فوضعت يدها على ذقنه ورفعتُه
تلقاء عينيها.

- شعرتُ بنظرتك هذه ونحن في السيارة، كانت تغمرني بشعورٍ
جذابٍ كشلالٍ يتقاطر في بئرٍ بعيدةٍ جدباء، حتى عندما تجرأت عيناك
على السفر جنوباً، كنت أشعر أن شيئاً ما يخترقني ..

أخذ وجهها بين كفيه، وأطبق فمه على شفتيها، وأخذ يمصّها حتى
عُصرتا في فمه، ونهل رحيقهما، لكن رنين الشقة لم يدعهما، فقام من
غفوته لاعتنا الشقة وجرسها.

كانت زوجة البواب:

- ادخلي.

(١٥)

في الشارع الخلفي لشقته، وكما يُسمَّى بالخرائب تقع الورش
مصطفًة على جانب واحد إذ يقابلها ظهور البنايات الأهلة، كورش
النجارين والحدادين، وإصلاح السيارات والتكاتك وغيره، وهو شارع
ضيق نسبياً لا يسمح بمرور المركبات إلا الصغير منها على مضضٍ،
جلس نديم على المقهى المجاور للورش حيث نافذة غرفة الأطفال
بشقته على مرمي بصره بصحبة عصام صديق العمر، تعود صداقتهما إلى
أيام الدراسة الأولى، ويقطن بشقة بمفرده بشارع مجاور.

وهو شابٌّ في مثل سنِّه وطوله تقريباً، تعلو وجهه مسحةٌ همٌّ لا
تفارقه، وإن كان على الدوام يحاول وأدها خلف ضحكاتٍ سخيقةٍ
مُتكلِّفةٍ، لا يعنيه من الدنيا أكثر من حجر الترجيلة الذي يدخنه وقرص
الفياجرا الذي يتلعه قبل لقائه "بالمطربات" اللائي علّق عليهنَّ تخفيف
همومه.

وضع النادل بعض النار على النرجيلة، وأخذ عصام في تدخينها وهو يقول:

- دائماً أنت مشغول، مع أنك لا تفعل أي شيء.

ثم ضحك، فقال نديم:

- غداً تتزوج (ونضحك) عليك

- لا .. أنا أتزوج هه، مستحيل يا ابني .. ما رأيته فيك وفي غيرك
أكد لي أنني على حق.

- تصوّر، لم أعد أري أحداً ..

- لأنك منقطع عن الوجود، لا ترى سوى الشغل والبيت
ومشاغله، الحياة بها الكثير لنسعد به.

- "نسعد"! أحياناً أشعر أن كلمة السعادة دخيلة على لغتنا ولا
أصل لها في معاجمنا.

- ياااااااااااه ... كل هذا البؤس، أرح صدرك فلا شيء يستحق
العناء.

أخرج سيجارة من علبته وأشعلها، وأمسك كوب الشاي
وارتشف منه عدة رشقات.

- تعرف، أحياناً أحسدك على ما أنت فيه.

فضحك عصام متعجباً، وقال:

— وأنا أحياناً أحسُّدُكَ على ما أنتَ فيه .. الحياة تقريباً مُكتملةٌ عند كل الناس في الأصل، لكنها مختلفة في الشكل فقط .. ما ينقصنا هو ترتيبها.

فأطلق نديم ضحكةً وقال:

— أنتَ حياتُكَ مُكتملةٌ!

فابتلعَ ريقه بمرارةٍ وقال:

— وماذا أفعل غير أن أتغنَّى بهمومي لعلها تهدأ وتنام!

رنَّ هاتفه فنظر فيه وكتم صوتَه مبتسماً، فقال نديم ضاحكاً:

— يبدو أنها إحدى مطربات همك.

— كفأك حقداً.

فرنَّ الهاتفُ ثانيةً:

— يبدو أن (المطربة) تستعجل (المايك) لتغني.

فضحك عصام قائلاً:

— ليس أجمل من المطربات في حياة الرجل.

— ليس دائماً، أحياناً يكنُّ مُزعجاتٍ.

— ربما لأنك ما سمعتَ في حياتك غير "النشاز".

لاحظَ تغيُّرَ وجه نديم فاعتذر قائلاً:

- لم أقصد ..

فقال مُقاطِعًا:

- عادي عادي، لا تشغل بالك، وعلى العموم أنتِ أصبتِ الحقيقة، فأنا أعيش أسير صوتٍ واحد لا أسمع غيره، وعليّ دائمًا أن أبدي إعجابي به .. المرأة يجب أن تكون كالكمّان أو البيانو تُخرج العديد من النغمات المطربة، هي خلقت جسدًا موسيقيًا فلا أعرف لم تُصِرَّ على أن تكون (بوقًا) مُزعجًا مُنفّرًا .. ونشازًا.

- أنتِ شاعريّ زيادة عن اللزوم وهذه مشكلتك.

كادت شفتاه تنفرجان عن ابتسامةٍ ساخرةٍ، فأردف عصام:

- حاول أن تندمج أكثر مع الحياة، ربما يبدو لك الأمر صعبًا لتنافر بينكما، ولكن لا بد أن تحاول .. حاول أن تسترجع الذكرى القديمة الجميلة.

مستحيل أن نبثّ الذكريات حياة جديدة، لأنها في عُرف النفس قد بُليت وتحلّلت ولم يبقَ منها سوى رميمٍ مُفتّت لا يمكن جمعه، ولو جُمع لصار مشوهًا، إذ تطبعت النفس بنمطية الحياة وتنفست مشكلاتها فسدت منافذ البهجة إليها، وقطعت الطريق حتى نياس من السعي فيه. مرّت أمامها فتاةٌ معتدلة القوام، بها بعض الأنوثة اللافتة للنظر، فثبّت نظره على صدرها النافر حتى عبرت، فتساءل عصام:

- من المزة؟
- زوجة جمال سيد.
- يا بخته بها، امرأة صاروخ.
- يا ابني المرأة ليست جنس وفقط، حاول أن تنظف عينيك وأنت تنظر للمرأة.
- الجنس هو كل شيء يا صاحبي.
- بل الحب.
- هه.
- الحب هو أسمى علاقة تربط رجلاً بامرأة.
- المقاييس تغيرت، كل زمان وله أذان.
- أنتَ خنقتني.
- ضحك بصوتٍ مُرتفع وقال:
- خلاص روق ..
- سكت عصام برهةً وتابع تدخينه، ثم قال ساخرًا ليُهوّن على صديقه:
- المرأة هنا إن كان بها بعضُ الجمال قالوا قُبلةً، وإن زاد جمالها قالوا صاروخًا، فيقطع الرجل فيها فيتزوجها، ثم يتضح له بعد الزواج أنها لم تكن سوى خندقٍ ورُدم عليه.

فضحك نديم ضحكةً طويلةً، ثم سكتا برهةً، فسأله عن زوجته وابنته، فلم يرد، فقال عصام:

- فكّرت تتزوج، ربما زوجة أخرى تقدم لك ما فشلت فيه الأولى.

- لا أفكر في الزواج الثاني، وإذا تزوجتُ فلن يكون إلا عن حُبّ.

- أنتَ فعلاً تزوجتَ عن حُبّ.

- لا، للأسف، تزوجتُ عن (مفهوم خاطئ للحُبّ)!

...

- هنا لا وقت لأي أحد أن يتعرف إلى الحياة، نحن مُسيّرون في كل شيء، ولا مجال لنا لاختيار أي شيء، حتى الأشياء التي نتوهم أنها من اختيارنا هي في الأصل واحدة من اختيارات معدودة أتاحها لنا غيرُنا وحجب عنا أكثر منها، فنحن ندور في فلكه وإرادته.

- أنتَ سخن؟

فتابع بسخطٍ:

- تعرف، الشباب هنا يمرون بمراحل محدودة جداً خلال عمرهم يتلاشى الاختيار خلالها.

- وما هي يا فصيح!

- مرحلة الدراسة، ثم مرحلة الجيش، ثم مرحلة التجهيز للزواج ثم الزواج ثم يبدأ الهمّ المقدس، لذلك حياتنا خالية من الإبداع، خالية

من السكون النفسي وهدوء الخاطر، أرواحنا لم تلمس جمال الوجود من حولنا؛ لأنها مطحونة على الدوام في جميع مراحلها، فهمت ما المقصود بمفهوم خاطئ للحب.

تنهّد عصام وقال:

- إذن فكل المفاهيم خطأ هنا.

- كل ما أريده من الدنيا حباً حقيقياً يلمس قلبي وأفتتنُ به.

- أنتَ تطلبُ المستحيل، الدنيا تغيّرت، ليس هناك الآن ما يُسمّى بالحبِّ العذريِّ المجرد، ولو كان توفيق الحكيم بيننا الآن لانقلب على مبادئه، البنت أو المرأة عموماً تبحث عمّن يُريحها من شقاء الأيام ويؤمّن حياتها من غدر الزمن بغضّ النظر عن سنّ الرجل أو هيئته وملاحظه، المهم .. يريحها.

- لذلك فالمرأة عندي لم أقابلها إلى الآن، وكل هؤلاء لسنَ أكثر من صورٍ .. كعرائس والت ديزني.

- ما رأيك في (مطربة)؟

ثم غمَزَ له بعينه، فقال نديم:

- أتعرف ما الفرق بين الجنس والحبِّ؟

- طبعاً، الجنس هو ..

فقاطعه بجديّة:

- لا تعرف، الجنس ضرورة بشرية تحتاج لمُهيجات وبواعث،
وأنتَ تعرفُ أن بعضهم يلجأ إلى الحبوب والأدوية لتستقيم له هذه
الحالة، أما الحبُّ فهو حالة الإنسان الطبيعي ..

- أنا لستُ بحاجةٍ إلى الحبِّ، المرأة عندي الجمال والأنوثة لا أكثر..
ورنَّ هاتفه فقال:

- هذه لا أملكُ تجاهلُها.

ثم ابتسم وهو يقوم قائلاً:

- سلام.

فقام مهمومًا ومضى نحو شقته القريبة، يحمل في قلبه طاقة الحب،
ولكن تنقصه المحبوبة، كالمال الوفير في يد الغني في صحراء بلا سلع
ولا متاع، إلا أن حبه يشتعل بين الحين والحين، وكأنه يقترب من هذه
النائهة في رحم الغيب المجهول، أوقات تمر صعبة شديدة، كسكين بليد
يُذبحُ به فرخٌ صغيرٌ لكنه يسلي نفسه بضرورة وجودها ولقائها.

دلف إلى شقته، كان التلفاز مضاءً على مسلسل تركي، بينما زوجته
وابنته نائمتين على أريكةٍ بالصالة، فجلس بالقرب منهما، كانت البنت
مُغطاةً، ولم يبدُ من زوجها غير وجهها بملاحمها المنهكة، فأمعن فيه
النظر، ثم أشاح بوجهه تجاه التلفاز بنظراتٍ عابثةٍ لا تعني أكثر من
الضلال الذاتي داخل نفسه وما يرجو لقلبه.

عاد بعينه لوجهها يتأمله، لا يذكر آخر مرة قال لها: "أحبك"
بحقيقتها، وليس كذب الشفاه السهل المعتاد، لعلها كانت في حقة
(مفهوم خاطئ للحب)!

من أيّ قلبٍ تخرج الكلمات زاهيةً كطفلة بين أزهار الربيع ترنو
فراشاتها كما عهدتها، وفي نفسي تلك التي رتلت في عينيك أسمى معاني
العشق، وفي شفتيك أرق كلمات الحبّ، وفي جسدك أحط معاني
الشَّغف والشَّبق، فيها ما فيها من ليلٍ ممتدٍّ يبعدُ في نظرها الشمس
الغارقة في دمها الكئيب الأحمر، ويبعد في خيالها القمر الحزين الغائر
خلف سُحبٍ أجمت عاطفته، وقيدت شعوره، ونفّت إحساسه ورقته،
فاستحال في أسرها جامد الحسّ لا يشعر بشفتيك حين الملامسة، ولا
جسدك حين المداعبة.

أأنت أم أنا؟

هل تبخرتْ أنوثتكِ تحت نير واقعي السيئ فاستحالت قاعاً مشقّقاً
يسكنه الهمُّ بنا؟

أم أنا وما يكون مني نحوك ..

لا أعرفُ، ولكنني أريدُ أن أتكلّم، أريدُ أن أصرخ، أريدُ أن أقول
حبيبي، ولكنها كلمة لا تخرج الآن إلا كخروج الحي من الميت، ولا
تستقيم في نفسي ولا أعهد لها صداقة في قلبي كما كانت.

اعذريني .. ليس بيني وبين الكلام إرادة، ثم لسان يتحرك فينطق،
ولكن قناعة تتحول إلى حبٍّ ثم إلى أسيرٍ يُحرَّكُ في الكلمات غصبًا بلا
إرادة.

والآن أراني بلا قيدٍ، فكيف تخرج الكلمات مني .

فلا مريض يتأوّه إلا إذا ضغطه المرضُ، ولا سجين يتألَّم إلا إذا
اشتدَّ عليه القيدُ، ولا عاشق يتكلم إلا إذا أحرَّقه الشوقُ، فتخرج كلماته
مُثْقَلَةً، فيها أملُ النجاةِ وألم النار التي أحرَّقَ فيها .

والآن .. أريد أن أتكلّم، أن أهمس في روحك الصدئة، لكن كلماتي
تتجمّد وتختنق، فلا تخرج إلا باردةً باهتة .. لا تخرج إلا نفاقاً!

لكنها تأبى مهما أستحضر من فنونك وفتنتك في خيالي، وكأن
الكلمات بداخلي كمريض يشتهي وطبيب يمنع بصلف وجفاء .

فقام إلى غرفة النوم دون أن يوقظهما ليدخلا إلى الفراش، فخلع عنه
قميصه وتمدّد على فراشه وأشعل سيجارة، وتنهّد فخرج دخانه مبعثراً
في ضوء المصباح الباهت، ولاحت له نظرةٌ للماضي قبل أن يتزوج،
وتأمل طموحه وحرّيته وحمله الهين، ثم تجلّت لعينيه صورةُ الحاضر بما
تحمله، وتساءل: أكان الزواج قراراً حكيماً!

ابتسم ساخراً وهو ينظر لفحمة سيجارته المشتعلة وهو رافعها
عالياً بموازة مصباح السقف، ثم تهدّلت يده وعلى وجهه مسحة حزنٍ،
ولم يهتدِ لإجابة سؤاله خوفاً أن يحمل ذنباً، لكن قناعة ما دبّت في صدره

أن الزواج مأساة، كالفيروس القاتل في الكبد، لكنه عند بعض الناس
نَشِطٌ وعند آخرين ساكنٌ، وعند آخرين يُجَاهِدونه فيهِزُمونه مرةً
ويهِزُمهم مرات.

ومع ذلك فإن الغالبية لا تشعر بالألم، لكن الذين يتجرعون
الكأس كاملة هم أصحاب الطموح في الحياة، ذلك لأنهم تزوجوا بداية
طمعاً في أن يكون الزواج عوناً لهم على طموحهم وأحلامهم، حداهم
إليه شيءٌ ما لا إرادي جزء منه جنس، وجزء منه سكن، وجزء منه
بحثاً عن الراحة والاهتمام والعون على الأحلام، لكن كل ذلك تبخَّر
بعد عام أو عامين على الأكثر، فذهبت سَكْرَةُ الجنس إلى غير رجعة،
والسكن والهدوء تلاشى، والاهتمام والعون بدت بشاعة التوهُّم فيه،
ولم يبقَ في النهاية سوى الأولاد، وهذه قمة مأساة الطموحين؛ إذ
يعيشون صراعاً يومياً لا يهدأ بين أحلامهم الخاصة في شيءٍ ما يودون أن
يكونونه، وأحلامهم لأبنائهم وعليهم الاختيار، وفي كلتا الحالتين هم في
وحدة ممتدة الجذور في النفس مظلمة بنيران الفكر التي لا تهدأ ألسنتها،
ولا يخبو أوارها.

أطفأ سيجارته وتناول قلمه ودفتر مُذَكِّرَاتِهِ ليكتب من باب التسلية
التي اعتادها وتصبير النفس وخداعها حتى تسكن:

"أحياناً يعجز القلم عن ترجمة الشعور الإنساني وما يحيش بالنفس
إلى كلمات على سفح السطور، وكم من شعور عجزت عنه الكلمات في
التعبير عنه، وكان غاية الكمال في التعبير أن خرج في حروف مجعدة،
وكلمات باهتة، كلوحةٍ غيَّرتَها حرارةُ الشمس وأتربةُ الطريق!

والحب، وهو أسمى المشاعر الإنسانية، لا يتيسر في أغلب الأوقات التعبير عنه، أو تجميد أفعاله في قيد الكلمة، إلا إذا وُجد من الكلام كلامٌ كالقنبلة الصغيرة التي تحمل في ثناياها معاني الدمار الكبير. ولم أجد في الحب أفضل تعبيراً عنه أكثر من الصمت أمام من تحبُّ، حينها تنساب المشاعر وينطلق لسان الصمت، فيُعرب عَمَّا بالقلب كأبلغ مبین، وأصدق قائل.

وتترقق النفس، فتفيض في صمتها بشعور هو أذكى من الندى المنحدر على ورق الورد وقت السحر، وتهيم الروح في خيال ترتسم فيه الحياة بلون الزهر، وتتلون فيه شفاه السماء بلون الشفق، وتتردد في أرجائها أهاليج الطيور المغردة، وتشعر .. كأنك قد انخلعت من الوجود إلى وجود آخر معدوم الوقت والعمر، حتى إذا عُدت إلى نكد الحياة وبؤسها، ظننت أن تلك اللحظات كانت في عمرك عُمراً.

ثم ترى ألا مفرّ من الكلام، فتهمُّ به .. فتراه ينحدر على شفئك مُتَكسِّراً لا يجتمع لك منه حرفان، فترى وقتها ابتسامة رضا في قلبك لهذا العجز الذي يؤكّد لك ... أنك تُحبُّها."

(١٦)

استيقظت صباحًا في حدود العاشرة على نعمة تنبيه الرسائل في هاتفها المحمول.

اعتدلت قليلًا ونظرت بعينين مثقلتين بالنُّعاس، وجدت الهاتف يشير إلى استلام سبع وعشرين رسالة، قرأت أولها كانت من جودي: "كل سنة وأنتِ طيبة يا قمر، عيد ميلاد سعيدًا".

ابتسمت ونظرت إلى التاريخ في الهاتف فوجدته يوم ميلادها، فخرجت إلى الصالة فوجدت طفليها يلبسان طربوشين زاهيين مُلوَّنين، فلما رآها هلَّلا بصوتٍ مرتفع وأخرجوا أصواتًا شاذة النغم من بوقيهما وجريا عليها فاحتضنها وقبَّلاها

- كل سنة وأنتِ طيبة يا ماما.

- كل مليون سنة وأنتما بخير.

والتفتت حولها وأرهفت أذنيها في أرجاء الشقة، أجابت نور سؤال عينيها الحائر:

- خَرَجَ يا ماما.

فتغيَّر وجهُها، فأسرت لها قائلة:

- هو يعرف أن اليوم عيد ميلادك، وقال إنه سيفاجئك الليلة هدية.

فابتسمت وقالت:

- بجد!

فابتسما، فأردفت:

- وأنتما من أخبركما.

- نحن لا ننسى عيد ميلادك يا ماما أبداً.

وضحكا بصوتٍ عالٍ وتابعا صياحهما احتفالاً بها.

أيُّ هديةٍ قد يأتي بها اليوم، أيُّ كان ما سيأتي به فسيكون رائعاً لأبعد الحدود. أضيء وجهها وبرقت عيناها وتلَوَّنت شفتاها ببهجة ابتسامة طفولية، وغشيتها سعادةٌ مفاجئة حملتها على ترتيب البيت المُرتَّب، وتنميق الستائر المُنمقة، وشاركت طفليها طفولتهما، فلعبت معهما، وأعدت مشروب الشيكولاتة المحبب لثلاثتهم، لكن قبل انتهائهما من إعداداه سمعت صرخة نور وبكائها فخرجت مسرعةً نحو الصالة،

فوجدت البنت تلملم أجزاء عروستها من الأرض التي هشمها عمر،
ووقف بالقرب من شرفة البيت مُقَطَّبَ الجبين، لاهِثَ الأنفاس في
حَنَقٍ.

لم تلتفت يولاند لتَهشَّم العروسة فمهما يكن ثمنها ستعوّض، لكن
جرأة الطفل على ما فعل مع معرفته خطأً الذي دفعه للابتعاد نحو
الشرفة استحوذ على اهتمامها، فاقتربت منه مبتسمةً، بينما كان يتراجع
ببطءٍ إلى الخلف خائفاً، فكانت تطمئنُه قائلة:

- لا تخف يا حبيبي ..

ثم أمسكت يده، وجثت على ركبتها وملست على شعره بحنوٍ
حتى انتظم تنفُّسه، ثم قالت بهدوء:

- تعرف أنني كنت أحضّر لنا مشروب الشيكولاته، وأنت منعنتني
من تحضيره بما فعلت.

- آسف يا ماما.

- ما رأيك أن أذهب لاستكمال نشر به معاً؟!

فارتقى في حضنها وبكى، فربتت على ظهره وقالت وعلى وجهها
ابتسامة لتطمئنُه أكثر:

- لو بكيت أكثر سأشربُه وحدي.

ثم أمسكت بكتفيه ونظرت في وجهه، فقال معتذراً:

- لن أبكي ثانيةً، فالرجال لا يبكون.

- لا، الرجال يبكون؛ لأن لهم عيونًا وشعورًا كغيرهم ممن يتعرضون لمواقف تستدعي البكاء .. هيا اذهب لنور واعتذر لها، ولملم معها العروسة.

ثم دلفت إلى مطبخها، ووقفت مهمومةً أمام الأكواب، بالأمس أحضر مراد العروسة بألف جنيهه، ولم يذكر عمر بلعبة بعشرة جنيهات، ولمّا لاحظ عليه التطلّع والأسف نهره حتى أبكاه، فزاده تقرّيعًا على بكائه، وقرّر عليه جملة المعتادة: الرجال لا يبكون!

بدأ يتسلل إلى الطفل شعورٌ بتفضيل أخته عليه، يظهر ذلك في التدليل والكلمات الناعمة التي يُمطرُها بها، أمّا هو (فرجل) لا يستحق أكثر من الخشونة والغلظة حتى (تنشف عظامه) وتشتد!

هذه من أهم نقاط الخلاف بينهما، راجعته أكثر من مرة في المواقف الشبيهة بما حدّث ليلة أمس، فكان ردّه المعتاد:

ابني رجل، ويجب أن أربيّه ليكونَ رجلًا!

كلمات متراصة لا معنى لها، دفعته للغضب الذي انتهى إلى قولها:

أنت لا تفهم معنى الرجولة التي يجب أن يُربّى عليها النّشء، أيّ غبيّ هذا الذي قال إنه يجب أن يُحرم الطفل من طفولته من أجل (رجولته) التي لا يعرف لها معنى ولا يعرف عنها شيئًا بعد؟

الطفل طفل، والشاب شاب، والرجل رجل، والخلط بين الثلاثة
يُدمرهم جميعًا.

"متزوج أفلاطون"

كأي كلمة ساهرة يُنهى به كل نقاشٍ جادٍ بينهما.

خرجت من المطبخ تحمل ثلاثة أكواب، لم يكن بالصالة غير نور
التي تحاول تجميع أجزاء العروسة المُفتتة، بينما وقف عمر في شُرْفَةِ البيت
مستندًا بيديه على سُورِها الحديدي واضعًا وجهه عليها كالنائم.

هذه لم تكن الحادثة الوحيدة في صلفه مع الطفل الصغير وحمله على
الرجولة المبكرة، فمنذ ما يُقَرَّب من ستة أشهر في عيد ميلاده أحضر له
بذلة شرطية بُرْتبة لواء، فَرَحَ بها غاية الفرح كأي طفلٍ، ارتسم فيها
ببرائه ولطف وجهه كبشير العدالة المؤمّلة في هذا المجتمع، وأمانة تنفيذ
القانون، ورحمة المساواة بين الناس، لكن فرحته الطفولية لم تدم طويلاً
إذ مارَسَ عليه دور المعلم على طلاب معهد أمناء الشرطة ما بين (صفا
وانتباه والتكدير أيضًا) حتى ملّ الطفل وتعبت جوارحه، فصَرَفَه من
أمامه واعدًا إياه باستكمال التدريبات في الصباح، لكنه تفاجأ صباحًا
عندما دلف عليه الحجرة وهو نائم أنه قد مَزَقَ البذلة وطرَحَها أرضًا،
فكانت عاقبته سيئةً جدًا.

هو يحبّها لأنها (بنت)، ما في ذلك شَكُّ!

قناعة رسخت في عقل الصبي بمرور المواقف المتطابقة.

- عمر .. مالك يا حبيبي؟

نادته بلُطفٍ فأجاب:

- أحبك جدًّا جدًّا يا ماما.

- وأنا يا حبيبي جدًّا جدًّا جدًّا ... هيا لنشرب الشيكولاتة.

مضى الوقت بينهما في اللّعب والمُزاح حتى انجلت سحابةُ الطفل
المُلبّدة بالأحزان، فليس من السهل أن شقًّا يتسع بينه وبين والده أو
أخته ولا تسعى لترميمه، فحدّثته كثيرًا عن حُبِّ والده له، وأنه يريدُه
أفضل طفلٍ في الدنيا، ولكن لأنه صغير السنّ لا يفهم ذلك، وأخبرتهما
أنهم خارجون اليوم في نزهة، فقاما على فورهما فأبدلا ملابسهما.

ومرَّ الوقتُ أكثر حتى اقتربت الظهيرة، وأصبحت الأمور على خير
ما يُرام، وانتظرت منه مكالمّة تهنئة بعيد ميلادها .. لم تيأس منه، حتى رنَّ
هاتفها في الثانية ظهرًا ..

منذ الصباح رسمت في خيالها ترتيبًا لهذا اليوم، سيخرجون للغداء
بالخارج، ويحتفلون بعيد ميلادها بأيّ من المطاعم الفاخرة.

هذا لم يحدث من قبل فلمَ تظنين أنه سيفعل هذه المرة؟!

ربما!

أشرق وجهُها وهي تردُّ:

- ألو.

- ماما وأختي معزومتان عندنا اليوم على الغداء.

... -

- آلو .. آلو ..

ردت بصوتٍ خائب الأمل:

- آلو ...

- لمْ سَكْتُ، هل سمعتِ ما قلتُ؟

- ولكن اليوم كما تعرفُ ..

- الأيام القادمة أكثر.

زمت شفتيها وقالت:

- سأطلبُ الأكل بالتليفون.

- إياكِ أن تفعلي، أمي لا تحبُّ الدليفري.

- ولكن الجو حارٌّ بالخارج، والوقت ضيق على موعد الغداء.

- تصرفي، خذي السيارة معكِ إلى السوبر ماركت، ستجدين كل

شيءٍ تريدينه هناك.

- مراد ..

- سلام .. سلام.

لمح عمر في عينيها دمعاً لامعةً متجمّدةً، ففهم الصبي بعض ما
حدّث فأشار إلى نور قائلاً:

- قدامي يا فقر نبدل ملابسنا.

- والخروج؟

- قلت قدامي على الزنانة.

ودخلا وأغلقا الغرفة .. انتبهت مشدوهةً لمنطق الصبي، كأن
كلمته صرخة مفاجئة دوّت في فضاء ساكن، فهزّت رأسها أسفاً،
ودخلت غرفتها، فأبدلت ملابسها، وأخذت نظارتها الشمسية وارتدت
حجابها، كانا قد أبدلا ملابسهما، وجلسا يُشاهدان الكارتون بالصالة،
نور مستوية جالسة، وعمر مُمدّد بطوله على أريكة الأنتريه، يُشبهُ والدَه
في رقدته.

نظر نحوها بعينٍ لا تفصح عن مُرادها، ثم حوّل بصره إلى
التلفزيون.

- أتريدان شيئاً أحضره لكما؟

- لا تنسي الشيكولاتة.

بينما تعلّقت عيناها بعمر الذي لم يرد:

- وأنت يا عمر ماذا تريد؟

- أريدُ مشاهدة الكارتون.

فهزَّت رأسها وخرجت.

- أنت غبي!

برقت عين الولد، واستدار نحوها وهو يقول:

- أنا ماذا؟

فضحكت نور وقالت ببراءة طفولية ساذجة:

- أنت غبي.

فصفعها على وجهها بعنف:

- أنا ماذا..؟

وتوالت صفعاته على وجهها، حتى صرخت لشدة الوجد وبكت
ودخلت الغرفة وأغلقت الباب، فقال بصوت مرتفع:
- على الزنانة يا غبية، وإياك أن تخرجي منها دون إذني!

خرجت بسيارتها من حدائق الأهرام مُتوجهةً إلى مول تجاري
بالسادس من أكتوبر تعودت أن تأتي بمستلزماتها منه، الطريق مزدحمٌ
قليلاً، فوضعت يدها على زرّ التنبيه ولم ترفعها، فبدا الاستياء والضجرُ
على السيارات المجاورة، فتأفف ركابها ومنهم من تتمّ بسبّها.

أمامها سيارة نقل كبيرة تسدُّ عليها مرمى البصر، فنزل ركبها
وتوجّه نحوها غاضباً..

رجل أربعيني أهوج، لفحته الشمس حتى أحالت بشرته إلى سُمرة
دكناء، أصفر الأسنان غليظ الشفتين، تتألم السيجارة بينها، فطرقَ
زجاجها بعنفٍ حتى أرختهُ:

- مالك يا مدام، فرحانة بالكلاكس؟ .. ارحمي دماغ أمنا وارفعي
يدك عنه.. يلعن أبو من علمكم السّوافة.

كانت منكمشة خائفة من الرجل، تهزُّ رأسها مُصغية لما يقول،
لسانها لم يجرؤ على الحركة أو الردّ، فكفَّ يده كبيرة. بشعٌ وملاحه
متجمدةٌ مُرعبة.

تحرّكت السيارات، ولا أحد يدري ما سرُّ تعطل الطريق، فلا
حادثه ولا سيارة مُعطلة ولا أي شيء.

وقادت سيارتها بسرعة زائدة عن المقررة لهذه الطريق حتى تقدّمت
على سائق السيارة النقل، كان يلمحها في مرآته، فأسرع هو الآخر، ولما
وازاها أطلق آلة تنبيهه العالية المزعجة، حتى انتفضت وكادت أن تختلّ
قيادتها وتُصدم بالطوار، فأخرجت رأسها من السيارة وقالت بغضب:

- يا ابن الكلب!

ردّ عليها أحد الشباب من سيارته المارة بجوارها:

- أعصابك يا (موزة)!

فنظرت له بعين غاضبة، وركنت إلى الطوار حتى تهدأ، وأغلقت
زجاج السيارة وشغلت التكييف، وخلعت نظارتها ووضعتها أمامها.

تنفّست بعمق وفتحت إحدى أدراج السيارة المغلقة بمفتاحها وأخرجت شريط برشام، فتناولت منه حبةً دون ماءٍ، ثم أرخت مقعدها قليلاً للخلف واستندت إليه واسترخت على كرسيها وأغمضت عينيها.
- الأفراط في تناول أنابرامين سيؤدي لنتائج سيئة .. أنا أحذرك.
- المهم أن يهدئي.

- سيهدئي أعصابك المشدودة، لكن المهم ألا تزيد فوق نصف قرص إلا بالرجوع إليّ.

ابتسمت ساخرة، فهل تجدي نصف حبة؟ وهل ما أنا فيه نصف هم؟ .. نصف ألم؟ .. نصف ضياع؟!
لم تنفذ كلام الطبيب رغماً عنها، وقد تصل إلى تناول ثلاثة أقراص قريباً.

أيقظها الشرطي من غفوتها بعد عدة طرقات على الزجاج ففتحتة
- هل أنت مُصابة .. تحتاجين لمساعدة.

- أنا بخير شكراً لك.

- إذن يُستحسن مغادرة المكان لأنك مخالفة.

- أعذر عن هذا الخطأ، بإمكانك تحرير مخالفة .. وأكرّر اعتذاري.

فقال مبتسماً:

- طريق السلامة.

انطلقت بسيارتها، وعاد الشرطي لتنظيم حركة السير دون تحرير مخالفة.

هل هناك (الآن) من يثق بهذا الجمال حتى لو بكلمة سيئة المعنى "كمزة"!

ينتهي الحب حينما يخرس اللسان، فأني عذر أقبح من أعباء المعيشة يتعلّل بها الرجل وقت العتاب، فالمرأة لا تحتاج منك أن تكون رجلاً على الدوام، يكفي أن تكون رجلاً في القيام بالأعباء المعيشية، وفي الحياة الاجتماعية، أما في الجانب العاطفي فيما بينك وبينها فيكفي أن تكون مُراهقاً على الدوام حتى لو تعدّى عمرُك السبعين عاماً.

قدّم لها الورد، ابعث لها بقصاصات حبّ تافهة، أشغل قلبها بمفاجأة قبل رؤيتها، خذها من يدها وتسابقاً مشياً وجرياً، كن مُراهقاً معها ولا تزد.

لكن مرّ من الوقت الكثير دون كلمة لهذا الحُسن تُذكي جمرته وتُشعلهُ، فتمتدُّ ألسنته على النفس فتوقد بالضرورة جمرّة الثقة الأنثوية، لكن ما ثمّ كلمة إلا عن جمال المطربات والراقصات والمومسات!
مؤلم أن تكون المرأة الجميلة للرجل الشرقي هي كل امرأة عدا زوجته!

ولداي .. جنتي وناري!

ليس هناك من الوقت ما يكفي حتى تتسوق مستلزماتها كلها
كعادتها، فاختطف ما تُريد للعزومة وانطلقت إلى حدائق الأهرام حيث
مملكتها المستعمرة!

اعتادت طيلة (أسرها) ألا تنسى أنها الملكة التي عليها أن ترعى
رعاياها مهما يبلغ بهم النكران والجُحود، فالنبل سمة الملوك التي
استحقوها من ذوات نفوسهم الملكية وليس من نفاق الرعية.

ثلاجتها عامرة دائماً، تحضر طعام الأسبوع دون نضجه لتكون
جاهزة دائماً لتغير الذوق المفاجئ، والذي لا يمل من الطلبات المتكررة
بتغيير الصنوف باستمرار.

- ماما.

قالها عمر بتردد:

لم تتبه لانهاكها في طهي الطعام، فوقف بجانبها وشدها من ثوبها
وكرر نداءه، فانتبهت له وهو يسأل:

- لم كُل هذا الطعام؟

- أنسيت أننا سنستقبل ضيوفاً اليوم.

وتناولت قطعة شيكولاتة مغلقة وأردفت قائلة:

- خذ هذه واطركني الآن حتى أنتهي لأنهم أوشكوا على المجيء.

فتجاهل يدها الممتدة بالشيكولاتة وتساءل:

- ماذا لو لم نأكل في حياتنا؟

- سنموت!

- ماما.

- روح يا عمر.

- هل سيحضر أبي لعبةً جديدةً لنور؟

قالت بلا اهتمام لانشغالها:

- لا أظنُّ.

تركَ قطعة الشيكولاتة على رخامة المطبخ، ودلفَ إلى غرفته وجلسَ مُحتبياً على سريره شارد الذهن .. لم تجرؤ نور على سؤاله: مالك؟

مع انتهائها من تحضير الطعام شعرت بإجهادٍ شديدٍ، تعرضت اليوم لضغوطٍ بدنيةٍ أنهكتها، لكنها لا تنتظر شُكراً من رعيثها، إذ إن ذاتية النبيل في الملوك اعتادت على العطاء دون مُقابلٍ!

حضر مراد مُتقدماً أمّه وأخته يحمل دُبّاً كبيراً.

- نور .. يا نور.

وأشار بيده وهو يقول:

- تفضلي يا أمي، اقعدي يا نهى.

ألقت الأم بجسدها الثقيل وهي تلهثُ، وطلبت من نهى إحضار كوب ماءٍ فأحضرته وشربته، ونزعت عنها حجابها فبدا شعرها أبيضَ

لا ذِكرى للسَّواد فيه، أما وجهُها فقد احتفظ ببعض الحُسن القديم،
عينين خضراوين، وأنف رومانيٍّ تُزيِّنه شفتان رقيقتان من أسفله ..

جاءت نور من غرفتها، فابتهجت لرؤية الدُّبَّ بيده. وخرجت
يولاند من مطبخها فسَلَّمت عليها بابتسامةٍ هادئةٍ وأسَّرت لمراد بلهجةٍ
لائمةٍ:

- لعبة جديدة لنور!

فتجاهلها قائلاً:

- سأدخلُ أبْدُلُ ملابسي، وحذارِ أن أخرج والسُّفرة ليست
جاهزة.

هزَّت رأسها أسفاً ورجعت إلى مطبخها.

أسَّرت نهى لأمها قائلةً:

- يبدو أن الأمور ليست جيدة بينهما يا ماما.

- أكيد أخوك السبب.

فضحكت نهى بصوت منخفضٍ وقالت:

- السبب في ماذا؟

- في أي شيء، هو دائماً يُثير المشكلات في أي مكانٍ.

وضعت يولاند أطباقها على السُّفرة فقامت لها نهى:

- ممكن أساعدك؟

ابتسمت وقالت:

- بالتأكيد.

- جئتُ من أجلك ومن أجل الولدين ولولا ذلك ما أتيتُ.

فابتسمت وسكتت، فأردفت قائلةً:

- يبدو أن هناك خلافًا ..

فندت عنها ضحكةً ساخرةً مسموعةً، وخرجت وهي تحملُ آخر
الأطباق وقالت:

- السفرةُ جاهزة.

قال مراد:

- تفضلي يا ماما.

جلسوا على السفرة ونادى بصوت مرتفعٍ على نور فأتت، ونظر
خلفها وسألها عن عمر فقالت:

- قال إنه لن يأكل مرةً أخرى.

"ماذا لو لم نأكل في حياتنا ... سنموت"

جحظت عين يولاند وتوقفت عن هندمة السفرة، ونظرت نحو
مراد الذي ألقى رأسه باتجاه غرفتهما ينادي بصوت غاضب:

- عمر ... عمر.

فخرج متكاسلاً كسير المنظر، فأردف بصوتٍ أكثر غضباً:

- ادخل أبدل ملابسك وتعال.

فرجعَ حيثُ كان، وتناولوا طعامهم، شردت يولاند في عمر وما قال، إن بذور الشُّقاق بينه وبين أُختِه ليست المصيبة الوحيدة التي تخشاها، بل هناك غيرها كبادرة الاكتئاب التي بدت على الولد وحديثه عن الحياة الذي لم تنتبه له.

ونوبة الاكتئاب تلك ما هي إلا بادرة للقلق المرضي التي تصيبُ الأطفال نتيجة التفشُّخ الأسري التي تحاول حمايتهم منه، فمضاعفات القلق المرضي لا تقف عند حدٍّ حتى تصل للانتحار مستقبلاً إن نمت الطفولة بين أسبابه الوارفة والمُظِلَّة على طفليها هنا.

آه لو أملك جناحين كأضخم نسر، حملتكما بين مخالبي إلى أعلى قمة جبلٍ في الوجود وبقينا هناك دون رجوع.

وكزتها نهى لتنتبه إلى أمِّها التي تحدثها:

- لمَ لم تنجبا بعد نور؟

أشاحت ببصرها تجاه مراد تُذكِّره بآخر حديث بينهما في هذا الشأن لما قال في لحظةٍ غير محسوبة:

- كثرة الأطفال تشيَّب الرجل وتقفُ عائقًا بينه وبين الحياة وجمالها
مهما يكن ميسورًا مؤهلاً لكثرة الإنجاب، يكونون حاجرًا وقيدًا معنويًا
بينه وبين كل شيء يقولون له: قِفْ.

- بالطبع كلامك صحيح، فأنت في الأربعين من عمرك ولا تزال
هناك كثير من النساء لم تقربهن بعد.

فهم نظرتها، فأسرع مجيبًا سؤال أمه:

- لا تريد الإنجاب مرة أخرى، وهذا هو سبب كل الخلافات،
يبدو أنها لا تريد استمرار الحياة بيننا.

يا كذاب يا حقير، لعنة الله على حياةٍ جمعتني بك.

- صحيح يا لولو؟

سألته أمه، فأجابت:

- ولم أنجبُ عمر ونور إذن؟!

فقال مراد:

- الزمن يغيّر الناس، وليس شعور الأمس هو شعور اليوم.

- فعلاً .. معك حقٌّ.

فانتشى لردّها، لكنه لم يفهم أنها تقصده هو، فمراد عند شجرة
الياسمين لم يكن سوى حلم مراهقة زائف انقضى سريعًا، وما أكذب
الأحلام!

- أَرَأَيْتِ يا ماما، أَرَأَيْتِ يا نهي ... حتى تعرفا مَنْ سبب المشكلات في هذا البيت!

نظرت إليه باشمئزاز واستصغرت، لست بحاجة للكذب كي تثبت أخطاءك على غيرك أمام أمك وأختك، فأنت لا تعباً بأحد ولا تحفل إلا بنفسك، لا فائدة من بيان كذبك أمامها!

قالت نهي مُداعبةً لُتهدئ الأجواء التي قاربت الاشتعال:

- ولكن الأكل لذيذ جداً، أليس كذلك يا ماما؟

- ممم، تسلم يدك يا لولو، طول عمرك وأنتِ (شيف) ممتازة.

- كل هذا الأكل جاهز من المطعم، طلبت منها أن تطبخ اليوم وحذرتها أنك لا تحبين أكل المطاعم لكنها تكاسلت.

رمقته بنظرة احتقار، وقبل أن تهمّ بالرد على كذبه هذه المرة توجهت أنظارهم جميعاً بدهشة لعمر، كان يرتدي فستاناً قصيراً من فساتين نور، ويرتدي جوربها وحذاءها الأبيض، ووضع في رأسه (توكة)، حاملاً تحت إبطه الدبّ الجديد!

ترددت عينا الأمّ مُستفهمةً بين مراد ويولاند، لكن مراد أفاق من ذهوله بصرخة غضبٍ عارمة في وجه الولد مشفوعةً بسبة، وقبل أن يهّم بضربه كانت يولاند مُهرولةً نحوه تحتضنه، فnalها بضع لكماتٍ في ظهرها حتى كادت تسقط فوق الولد على الأرض ..

صرخت قائلةً:

- إياك أن تقرب له.

- أهذه تربيتك يا واطية، أهذه فلسفتك و(المنهج العلمي) في تربية الأولاد!

نظرت نهى لأمها غاضبةً لإهاناته المتوالية، فقامت صارخة فيه ودفعته قبل أن تصل كفّه لوجه الطفل، فالتصق بوجه يولاند وظهرت أصابعه الخمس على رقبتها:

- مراد .. عيب!

لم تكثرث يولاند لسبه وإهانتته وضربه، كل ما كان يشغلها طمأنينة الطفل وحسب، فأخذت تشدُّ ذراعيها عليه وهي تُحدِّثه بصوتٍ خفيضٍ في أذنه:

- لا تخفّ يا حبيبي، أنا معك ولن يمسّك أحدٌ بسوء.

كانت ضربات قلبه متسارعة، تشعر بها وقت احتضانه فعادت لتؤكّد:

- خلاص اهدأ .. هدووووو.

حتى سكنَ نسيباً، واصطحبته إلى غرفته، مشفوعةً بـ (يا بنت الكلب يا مجنونة أفسدت الأولاد).

ورقد الطفل خائفاً فزعاً يرتعش، ممسكاً بثوب أمّه راجياً الا تتركه، فظلت بجواره حتى سرى الأمان بقلبه ونام، وطاف بعقلها اليوم كيف

بدأ وإلام انتهى، وسخرت من نفسها كيف أمّلت أن يكون اليوم مختلفاً، كيف ظنّنت أنه سيذكرها بهدية أو رسالة تبارك، كيف سرى بها الأمل بأرض اليأس.

خَدَعَهَا الأملُ، وما كان سوى سعادة ليست مبررة تملأ القلب الحزين تُبنى على توقُّعات يكذبها الواقع، لكن الأمل يبيث في النفس احتمالاً لمآلات مغايرة، وحين التوقُّف فجأة للتفكُّر بعقلانية نسخف تلك الاحتمالات، لكننا نتشبث بها أكثر، وحينما تقع الخيبة ويطيش الأمل كالمدخان في سماء غرفةٍ مُظلمةٍ كتلك مرتسماً كضحكة ساخرة تتبعه العين دامعة تستجديه أن يبقى، لكنه يفنى فتتبعه اللّعناتُ، ثم تأخذ النفس في البحث عن أملٍ جديد، ربما يكون في مكانٍ آخر!

(١٧)

توارى القمر خلف أغصان الشجر، لا يبدو لعينيها منه سوى النزر
اليسير، لكنه مكتملٌ يملأ الدنيا ببهائه وجماله، وقفت بشرفتها (ببجامة)
زرقاء حريرية قصيرة البنطال حتى منتصف ساقها، يندُّ منها نور كبهاء
الصباح المتلألئ في صحوة النهار، مرسلة شعرها الأحمر الدامي
للخلف، تزيينه بشريطة زرقاء طويلة.

ينبعث من الكاسيت بالصالة مقطوعة (كسارة البندق) تتجاوب
معها شعورياً بإيماءات رأسها وحركات يديها ورجلها ...

نامت الطفولة في غرفتها، والتحفت بالأمن قبل حضوره،
وأغمضت عينيها وهي متلهفة لمتابعة الكرتون، وظلت هي مستيقظة
تقف في شرفتها يُداعبها إحساس مجهول، يدفعها نحو التفاضل مرة،
ومرة نحو استعجال حدوثه، ما هذا الجنون أيها القمر الجميل، هل ما
أشعر به هو أحد سحر شعاعك الفضي الساري في نفسي ودمي؟!
٢٠٣

آه لو كنتُ مثلك، أو تصلُ إليك رُوحِي وأصطفيك من كل
العاشقين فأحدثك فتسمع وتحيب، وأبسط بين يديك شكائتي وما
يشغلني ويهمني ..

متى نخسر أشياء لا قيمة لها في حياتنا، لكنها تكبد كواهلنا بثقلها
وتشعرنا بألمها، وتفرض علينا مسؤوليات تجاهها!

ارتفع القمر أكثر حتى غادر حواجزه الشجرية، وبدا لعينها في أنمِّ
صوره وأجلها، فأمنت النظر فيه حتى بهتت المقطوعة الموسيقية في
أذنيها وتباعد صوتها، وشيئاً فشيئاً انخلعت من الوجود، ولاحت لها
نظرةٌ للقمر فاحصة، وكأنه بنوره قد ارتسم على وجهه ابتسامةٌ هادئة
لطيفة، لم تفهم سرَّ الابتسامة، ماذا تعني ابتسامتك؟!

دائماً هناك أمل، قد تكون الظلمة غشيته وطمست معاملته فاخفى
في سوادها الحالكَ، لكن إيماننا بوجوده يغذيه وينميه حتى يصبح
واقعاً..

انتفض جسدها فجأةً، وأغمضت عينها مُشمزَّةً لصوت الباب
المزعج وهو يُغلِّقه، كانت الصالة قليلة الإضاءة، فأضاء أنوارها كلها
وهو يقول:

- يا سيدي على الرومانسية ... لكن لوحدك!

ونظر لها تفهماً على المنضدة فتأكد أنها بالفعل بمفردها، فنادى عليها
فحضرت مُربَّعةً يدها على صدرها:

- أين ولدان؟

- نائمان.

فأمرها بتجهيز العشاء، فأرسلت يدها واتجهت نحو المطبخ بطريقة آلية لا روح فيها، وأوقدت النار على الطعام، تفحصها بعينين ظامئتين تشتتاهما في بجامتها الزرقاء الضيقة، فتجاهلته ودلفت إلى الغرفة، وارتدت روبًا طويلًا وغطت رأسها، ثم دلفت إلى المطبخ فوقفت أمام الموقد، فقال متعجبًا ساخرًا:

- يا سلام!

وأسند ذراعه على باب المطبخ وأردف قائلاً:

- لم أكن أعرف أنه (حرام) أن تبدي الزوجة بعض جسدها لزوجها!

فخلعت عنها الروب وقالت باستياء:

- خذ الجسد كله وما فيه وقتما تريد .. تفضل.

فاشتعلت عيناه غضبًا وقال بغضبٍ عارمٍ وهو يشير بكليتي يديه المفرودين في وجهها:

- أنتِ مالك، ماذا حدث لكل هذا التغير؟ متمرده على حياتك وأي امرأة أخرى تتمنى أن تكون في هذا المستوى .. تعيشين حياة مؤمنة ومتزوجة برجل أعمال (قالها باعتزاز وهو يشير بيده لأعلى كناية عن العظمة) .. لا أدري ماذا ينقصك، ما الذي ينقص بيتك؟

طفرت عيناها بدموع بائسة، لكنها جاهدتها قَدْرَ ما استطاعت،
واستمرَّ في حديثه المنفعل وهو يعدد مزاياه المسبوبة عليها، لمحت
مقبض غرفة الأطفال يتحرك، فقالت بصوت مبحوح دون أن تلتفت
إليه:

- أرجوك أخفض صوتك، الطفلان استيقظا ويسمعانك الآن.

فازداد غضبه:

- كلما أكلمك تقولين: الولدان، الولدان، الأولاد، يلعن أبو
الولدين لأبو أمك .. أنت شيء مقرف.

قالت بصوت خفيض وهي تمر من أمامه حاملة أطباق الطعام
لتضعها على السفرة:

— الله يكرمك!

فأمسكها من شعرها من الخلف، فصرخت ووقعت أطباق الطعام
من يدها وكادت أن تسقط على ظهرها لولا أن تماسكت.

- مالك .. هه، قولي، تكلمي .. يبدو أن هناك رجلاً آخر في
حياتك، مَنْ هو .. تكلمي يا بنت الكلب.

ثم ضغط وجهها بيده في الحائط ثم أخرج مسدسه ووضعها في
رأسها وهو يقول:

- قسماً بالله لو عرفت أنك تعرفين رجلاً آخر لأقتلكما يا زبالة،
ولن يرحكما من يدي أحد.

ثم دفعها فسقطت بوجهها على الطعام المنثور على الأرض.
وَنَظَرَ ساخرًا للكاسيت الذي لا يزال يرسل أنغامه، فضحك
ضحكةً عاليةً ساخرةً، وأطلق عليه طلقة نارية فدمرته ونشرت أجزائه
في أرجاء الشقة، حتى اصطدمت قطعة منه بوجهها.

- مساء الخير يا ماما.

- خير!

تاht عين المرأة العجوز في وجه ابنتها المشوّه، وعيون طفلها
الذابلة من البكاء والنعاس، حتى الحقائق بدت عليها الكآبة والحزن.
توقفت عيناها متسائلة فأجابتها بانهايا وبكاء على صدرها، ورَدَفَها
الولدان بالبكاء، وظلت في حالة من البكاء الهستيري بصوت مرتفع
انتهى إلى إغماء عميقة كأنها ماتت، فصرخت الأم والأبناء.

حضر الدكتور مسرعًا على إثر مكالمة هاتفية أجرتها أمها بعدما
استطاعت على مضض وبمساعدة الأبناء أن تضعها على الفراش
بغرفتها القديمة، وبعد إجراء فحوصه عليها أودع في ذراعها حقنة
مهدئة منومة، سكنت، وغاصت في نوم عميق أزاح عن كاهلها بعض
أثقاله، وبدت على الفراش الأبيض كملاكٍ على بعض هضاب الجنة
الثلجية ..

قام الدكتور من جوارها وهو يقول:

- أطفؤوا النور فلن تستيقظ إلا مع ظهيرة الغد.

تبعه أحمد وأمها، بينما استقرَّ الطفلان نائمين من فرط إجهادهما في صالة الشقة، فنظر لهما الدكتور المسنُّ وتنهد

- مسكينة يولاند، ماذا فعلت بنفسها!

- خير يا دكتور عاطف طمئني؟

قالتها الأم وهي تدفع دمعاً بعينيهما.

- عضويًا هي بخير!

أوماً أحمد برأسه لينمَّ عن فهم مقصده، بينما تساءلت الأم:

- لا أفهم، ماذا تعني، أهي مريضة أم لا، نقلها للمستشفى أم لا؟

- يولاند لا تشتكي من أي مرض يتعلق بالجسد، لكنها محطمة ومنهارة نفسيًا، يبدو أنها تعرضت لضغوط نفسية قوية لم تستطع تحملها (ثم مُرثيًا حالها) أول مرة أراها بهذه الحالة.

قال أحمد الذي بدا ممتعضًا بائسًا لحالها:

- تفضّل يا دكتور استرخ.

- أسترخ؟! أنا لازم أنام حاليًا، عندي غداً اجتماع مع وزير الصحة.

فقالَت الأم بأسى:

— والعمل يا دكتور، أنا لا أفهم شيئاً.

— لا تقلقي من أي شيء، أنا كتبتُ لها بعض المهدئات، ولكن أهم شيء أن تباعد عن أي شيء يعكر مزاجها أو يثير غضبها مهما يكن، ولو غيرت جواً في أي مكان خارج القاهرة يكون أفضل ..

— والولدان؟

— اطمئني، سيكونان بخير، ولكن اهتمي بالأشياء المحببة لهما، وإن شاء الله سأمرُّ عليها بعد عودتي من الاجتماع.

جلسا بعد انصراف الدكتور، ولم يمضِ من الوقت الكثير وهما صامتان حتى أُذِنَ لصلاة الفجر، فقام أحمد مستأذناً، فقالت بحزن:

— وبعدين يا أحمد يا ابني؟

— حتى الآن الموضوع عائلي، ولا يمكننا التدخل لفعل شيء حتى نُحدّد يولاند ماذا تريد.

— بهذا الشكل سيقتلها بالبطيء، حتى إنني اتصلتُ به فلم يرد.

— أين كريم الآن؟

— في الجيش، لم ينزل إجازة بعد .. الحمد لله أنه ليس هنا ولم يرَ أخته بهذه الحال.

- أنا ممكن أذهب إليه في الشركة أو البيت وأتحدث معه، ولكن
يجب أن يكون ذلك بعلمها، أنتِ تعرفينها جيداً، تصبحين على خير.

(١٨)

دلف عزت إلى الغرفة بشقة المعادي، كان مراد ممدداً بجوار إحدى
فتياتهم نائمين عاريين، فنادى عليه، فرد باستياء:

- نعم يا سي عزت، خير!

قالها بضيق، وجلست الفتاة بوجه لا يزال متأثراً بوهج الليلة،
فأشار إليها عزت أن تقوم إلى ملابسها لتصرف، فنزلت عن الفراش
ملتفةً بملاءة السرير البيضاء ودلفت إلى الحمام.

- ستنزل الشركة اليوم؟

- هشام حضر؟

- لا، أين هو؟

- أيقظني عند حضوره.

دَقَّ جرس الشقة، ففتحه عزت، فدخل هشام مرتدياً زيَّ ضابط شرطة، ومعلقاً في خصره مسدساً، فاتسعت عيناه دهشة وقال:

- ما هذا؟

فضحك قائلاً بحركات تمثيلية:

- أنا الضابط هشام، معك بطاقة، أين رخصة السيارة؟ مممم أنا لا أطمئنُ إليك، خُذْهُ يا عسكري واعمل له كعب داير ..

- لم ترتدي الزي الشرطي؟ لو رآكَ أحدٌ لَسُجِنْتَ لانتحال صفة ضابط.

- أين مراد؟

- مراد! هل يعرف مراد ب..

- هشام.

جاء الصوت من الداخل فدلف هشام يتبعه عزت مندهشاً لما يحدث، وانفجر مراد ضاحكاً أول ما وقعت عيناه عليه، وجلس على السرير واضعاً الغطاء على نصفه السفلي.

فقال عزت بانفعال:

- ماذا يحدث؟ وأيُّ جريمة ارتكبها الحيوان؟

فقال هشام معترضاً:

- عزت!

- اخرس يا ولد .. ماذا يحدث يا مراد؟

قال مراد لهشام متجاهلاً عزت:

- ماذا فعلتم به؟

- انتظرناه في مدخل العمارة في غرفة البواب الذي قيّدناه وزوجته،
وعندما حضر ووقف أمام المصعد هجمنا عليه وسحبناه للدخل
وأخذنا حقنا وزيادة ..

وأشار إلى المسدس في خاصرته فانفجرا ضاحكين، فقال عزت
غاضباً:

- اعتديت على ضابط شرطة، يخرب بيت أمك ..

ثم حوّل نظره لمراد قائلاً:

- تضحك؟ تُجرّئ البلطجية على الشرطة فيضربون ويسرقون
وتضحك؟!

فقال هشام غاضباً:

- احترم نفسك يا عزت، لن أسمح لك ..

لم يدعه عزت ليتّهم جملته، فهجم عليه وطرحه أرضاً وأوسعه
ضرباً فسحب هشام المسدس من خاصرته ووضع فوهته في رأسه وقال
بصوتٍ لاهتٍ:

- سأقتلك!

فقام مراد مسرعاً وهو يلفُّ الروب على جسده العاري صارخاً:

- هشام.

وأمسك بذراع عزت يقيمه فدفع يده بعنفٍ، فقال مراد:

- ذلك الضابط الذي تجرأ على هشام وفعل به ما تعرف.

- وليكن، يأخذ حقّه بالقانون، لسنا في غابة يا محترم!

ضحك مراد ساخرًا وقال:

- خلاص يا عزت، اهدأ ..

وأشار إلى الفتاة الواقفة أمام الحمام الملحق بالغرفة مشدوهة تنظر
للمسدس بيد هشام.

- اعملي قهوة.

وجلس ثلاثتهم في صالة الشقة يحتسون القهوة، وقد خلع هشام
الزي الشرطي، ووضع مهندماً في حقيبة بجوار مراد ليسلمها لصديقه
الضابط راضي عبد الله.

قال عزت وهو ينظر للحقيبة:

- الغريب أن أغلب أصدقائك من الداخلية ..

ثم حدّج هشام بنظرة احتقار:

- أنت .. أنت تُهدّئي بالمسدس!

فقال غاضباً:

- لن أسمح لك بهذه اللهجة مرة أخرى.

- تسمح؟ أنتَ نسيتَ نفسك، أنت بلطجي مصائب أو انتخابات..

- عزت!

- اسمي الدكتور وور عزت.

فقال مراد يهدوء:

- خلاص يا هشام اسكت، اهدأ يا عزت الموضوع بسيط.

قال هشام:

- إن كنتَ نسيتَ ما فعله بي، فانظر إلى وجهي فلا تزال آثاره موجودةً.

زَفَرَ عزت بغضبٍ وقال:

- كل شيء غلط في غلط على غلط جنب غلط.

فضحك مراد قائلاً:

- جمهورية الغلط العربية.

وقام هشام إلى الغرفة التي خرجوا منها لينام، وقام عزت لينصرف
فتبعته الفتاة، فقال مراد

- انزلي بعدنا.

وصحب عزت في نزوله ممسكًا بالحقيبة الصغيرة، وجلسا بسيارة
عزت، وبدا مراد حزينًا مكتئبًا مهمومًا، ولم تمضِ بُرْهة حتى طفرت
عيناه بدموعه، فقال عزت مشفقًا عليه:

- مالك يا مراد، لماذا تبكي؟

وتحولت الدموع البسيطة إلى هستيريا من البكاء المندفع مع نشيجٍ
وتأوُّه:

- مراد، مالك .. مراد .. مالك يا مراد ماذا حدث؟

- يولاند!

- ما لها؟ أصابها شيء؟

- نعم ... أصابها أنا.

- ؟

وانتظره يتكلم ويفصح عما يبكيه لكنه ظلَّ ساكتًا، حتى في أشدِّ
لحظات ضعفه لا يُبدي من نفسه وما بداخله شيئًا، لا يريد أن يُخطئ
نفسه لأي سبب، فظلَّ ساكتًا يدفع الكلام في فمه، مُتَحَمِّلًا ألم نفسه وما
فيها، فنزل من السيارة وترجَّل إلى سيارته وانطلق، طرقت الفتاة زجاج

السيارة فأشار بيده إلى الجهة الأخرى وفتح لها الباب، وهم بإدارة محرك السيارة فتوقّف قائلاً:

- ماذا حدث بينكما الليلة الماضية؟

ضحكت قائلة:

- ما يحدث بيني وبينك.

- أقصد ما كان يهذي به وهو في نشوته.

- أأأأ.. كالعادة يضاجع امرأة اسمها يولاند من خلالي، لا تعرف أي نقصٍ يشعرُ به تجاهها، هو لا يجد نفسه إلا معي، هو قال لي ذلك.

- وماذا قال أيضاً؟

- يقول إنها تخونه لذا هو يخونها، ولكنه لن يطلقها وسيبقئها معها يحدث منها.

قال بصوتٍ خفيضٍ:

- مجنون، لابد من عرضه على طبيب نفسي.

ومع انتشار ضوء الشمس في الآفاق، وبلوغ العاشرة صباحاً، توجه عزت -قبل الجامعة- إلى المستشفى ليطمئن على ميسرة، تفاجأ من الاستقبال أنها خرجت في نفس اليوم الذي دخلت فيه ولم تتلقَ أيّاً من

الجلسات الخمس، فهُرِعَ كالمجنون إلى الطابق المُلْحَق به غرفتها فأوقفته
المرمضة بشدة كالمرّة السابقة، وأخبرته أنها رحلت بعد ذهابه بساعة،
ولمّا سأها لماذا لم يخبروه، أخبرته أنها قالت ستذهب إلى البيت ولا داعي
لإزعاجك!

طوال الأيام الماضية لم يسأل عنها، ولم تخطر بباله، مجرد حمل أزيح
عن صدره مؤقتًا، وهدأت الشقة من صوت أنينها المزعج الذي لا
ينقطع فهل يشغل باله بالتفكير فيها!

لكنه اليوم ومن باب اللياقة والقلق المُصطنع، حاول مرتين أن
يطمئنَّ من الممرضة فكانت لا ترد على هاتفه، وفي طريقه إلى المستشفى
اتصل بها عدة مرات لكن الهاتف مُغلقٌ على الدوام.

فثارت حفيظته وعلا صوته فتدخل رجال الأمن، وانتهى به
الموقف إلى مكتب الدكتور كمال على الذي قال له:

- مدام ميسرة أصرّت على مغادرة المستشفى وهي في كامل قواها
العقلية، يعني بإرادتها، ووقّعت على خلو مسؤولية المستشفى عن أية
مخاطر تتعرض لها.

- كان يجب أن تمنعوها.

- ليس من حقّ المستشفى ..

وأشار بيده للخارج، وأردف بنبرة هادئة:

- في الاستقبال ستجد لافتة كبيرة عن حقوق المرضى "يحق لك رفض العلاج أو الاستمرار فيه، أو الخروج من المستشفى وذلك بتوقيع نموذج رفض الأخذ بالنصيحة الطبية، إلا إذا كان القرار يهدد حياتك"، والقرار لم يكن ليهدد حياتها لأنها قالت ستأتي في ميعاد الجلسات الأخرى.

أراد أن يقول شيئاً يحفظ ماء وجهه ولو جدلاً، لكن الدكتور قاطعه قبل أن يهجم بالكلام قائلاً:

- إذا كنتَ غاضباً لأن أحداً لم يخبرك فلأنك لا تريد أن يخبرك أحدٌ عنها أي شيء على ما يبدو، أنت طلبت إقامتها بالمستشفى طيلة الخمس جلسات وكبدت نفسك مصروفات الإقامة، وهذا لا يحدث إطلاقاً، نحن لسنا في أمريكا، وهنا ليست دار مسنين، فلا داعي للغضب ... مع السلامة.

فشعر بحرق وغيظ شديدين، حرارة عالية تصعد من أعماق نفسه تصطحب ناراً متصاعدة من صدره، فحلّ رابطة عنقه وخلع سترة بذلته، ووقف في فناء المستشفى ينظر للمبنى نظرة بئسة غاضبة، ويتساءل داخله بياس عما حدث.

فبعدما صعدت لها الممرضة الخاصة وأخبرتها بشأن الجميلة التي صاحبت زوجها، أرسلتها في عقبه لتتأكد من رحيله، فنزلت الممرضة بسرعة ورمقته حتى دلفا إلى السيارة وذهبا، فرجعت إليها وأخبرتها، فجمعت الممرضات وطلبت منهن سحب المبلغ المدفوع للخمس

جلسات ووزعته عليهن واحتفظت بالقليل منه لنفسها، وأمرتهن بعدم تبليغه بأي شيء حتى ترحل.

ومكثت بالمستشفى مدة ساعة ريثما تستجمع أعصابها فتتمكن من السير والانتقال.

"ولكنني لم أر امرأة في جمالها ولا جسمها من قبل".

ظلت الكلمة تضغط على ذهنها بشدة، وقعت عليها كحجر انحدر من علّ فهشم أوصالها الرقيقة المتعبة، واستقرت في قاع أحزانها.

وحدها مع آلامها كل ليلة وهي تتخيل وتتوقع ما يفعل خارج البيت، وهو الأنيق الجذاب الشهواني بطبعه.

وحدها والحزن كل ليلة، وشعورها بالهزيمة من المرض الذي رماها الزمن به، شعور يتعبها كمرض بمفرده، كأن المرأة في عين الرجل لا تزيد على جسد يُمتعه ويغسل في بثره همومه وإخفاقاته، وإذا مرضت تحولت إلى عبءٍ ثَقِيلٍ على النفس والقلب، وليس لها منه غير ما يوجد به من ماله لعلاجها.

لم يقف معها بشهامة الرجل في مرضها، نفوره منها صار مع الوقت عقدةً نفسيةً وهي ترى نفسها امرأة في خريف مرضها تتساقط أوراق أنوثتها ورقةً ورقةً، وهي لا تقوى على الملمة أنوثتها وجمالها الشارد.

فقررت الرحيل خلف أنوثتها للاحتفاظ ببعض ما بقي من كيائها الإنساني بداخلها، ولتستر نقصها المفضوح في عينيه -كونها امرأة- كلما نظر إليها.

رحلت .. ولكن إلى أين؟

انقطعت عن الوجود منذ زواجها منه، كانت كالعابدة في محرابه،
لا تفضل عليه شيئاً أو اهتماماً.

اتصل عزت بوالدها في الشرقية عساها أن تكون هناك، ففاجأه
الرجل بسؤاله عنها، وبطلبه القدوم إليه ليراهما فصَحَّته لم تعد تقوى
على النزول للقاهرة.

عاود الاتصال بالمرضة فوجد هاتفها مغلقاً، فانطلق إلى مراد
بالشركة يطلب مساعدته بما له من معارف في الداخلية، فتقديمه بلاغاً
باختفائها قد لا يحظى بالاهتمام المناسب لو تقدَّم به مراد لأصدقائه
الضُّباط، لا يدري أي شعور دفعه لذلك، ألم يكن يرجو التخفُّف منها
لتصفو حياة اللهو كعزب غير مثقل بأية مسؤوليات؟

أصبحت فرص الحياة ضيقة جداً، وتقدمه في السنَّ بخطى ثابتة
ينغص عليه حياته ويشوش تفكيره، وحتى لو شُفيت تماماً ممَّا هي فيه
فلن ترجع كما كانت، فما الذي يدفعه لبحثه الحثيث عنها، أخجله إصابة
ضميره فجأة؟!

كان مراد غاضباً، يقف أمامه مديرو الشركة وسكرتارياتها يصرخ
في وجوههم، ولما انتهى أذنت له مديرة مكتبه ودلف إليه، فقص عليه ما
كان من أمر زوجته، فاندesh لإدخالها المستشفى أخيراً، وطلب منه
بيئاً بأسماء أقاربها وأصدقائها، لم يكن لها أقارب سوى والدها

بالشرقية، ونَفَى وجودها عنده، أمّا الأصدقاء فانقطعت عنهم منذ زواجها من أجله حتى تُكْرَسَ كل وقتها له وحده، ولمّا طلب منه صورة لها لتساعدهم في البحث عنها ناوله صورة قديمة من أيام الجامعة، لم تكن الصورة التي أرادها مراد، فهي قبل المرض وبعده امرأتين مختلفتين ..

لم يكن يمكث بجوارها، كان على الدوام مؤرّقا من مرضها المستمر ومنظرها المشؤوم، فكيف يحتفظ بصورة لها وهي على طبق المرض يأكلها؟!!

فأخرج هاتفه المحمول يبحث في الصور، هو يعرف أن ليس معه صورة، فهزّ رأسه بامتعاض نافيّاً أن ليس معه.

(١٩)

سار نديم في الرُدهة الممتدة حاملاً دوسيتها ضخمًا حتى وصل إلى غرفة هيئة التدريس، ودلف إليها، كان الدكتور رحيمي نعيم في مكانه وجلسته المعتادة، غارزًا وجهه في مرجع ضخم يطالعه، تتصاعد أدخنة سيجارته من يده التي تحمل رأسه في كللٍ، وأمامه فنجان القهوة أو شك على النفاد، تقدم نحوه نديم وقال بصوت هاديٍّ حتى لا يزعجه:

- صباح الخير يا دكتور نعيم.

ابتهج لرؤيته وأغلق كتابه ورحب به، وأشار له بالجلوس قائلاً:

- اقعد اقعد، هاه، جئت للدكتور عزت من أجل الرسالة؟

- نعم، أين هو؟

- لم يأت بعد، حتى محاضراته يكلف بها زميلٌ دراستك القديم أحمد سلطان كالعادة.

بدا على وجهه الضيق والاستياء لتغيّبه، فكل مرة يحضر إلى الجامعة ولا يجده يكلفه الكثير، فغياب يوم من عمله يخلّ بميزانية البيت المهترئة!

فاستأذن وانصرف، وفي طريقه إلى البوابة الرئيسية مرّ بالكافيتريا، نادته نهي من الداخل، فذهب إليها، فبادرته مع جلوسه قائلة:

- ألم أقل لك إننا سنلتقي قريباً؟!

فقال بوجهٍ عابثٍ:

- لم أكن أتوقع أننا سنلتقي هنا.

- يبدو أنك مستاء لرؤيتي!

- لا، ولكن كان بيني وبين الدكتور عزت موعد بخصوص رسالة الماجستير لكنه لم يأت.

فقالت بابتسامة رقيقة:

- دكتور عزت سيشرف على رسالتك!

فلم يرد، وأشاح بوجهه نحو النضد المكتظة بالفتيات والفتيان، فأردفت:

- وأنا أيضاً، كنتُ أعرف ذلك لذا قلتُ لك إننا سنلتقي قريباً..

فلم يهتم بقولها، وظلت عيناه معلقتين بمن حوله من الطلبة، تتردد في نفسه ذكريات الماضي، يُحدّث نفسه وهو يضغط جبينه بيده، كنتُ

مثلهم يومًا، بعيني أمل وطموح، وبنفسي طاقة وعزم، لكن سرعان ما تبخر الأمل، وخارت النفس تحت وطأة الواقع، هل أقف الآن بينهم صارخًا أخبرهم الحقيقة؟ حقيقة المجتمع خلف أسوار الجامعة، أم أدعهم ينعمون بلحظات الترف الخالية من هموم المسؤولية، فحتمًا سيعرفون؟!

تلمّح وجه أحدهم يجلس إلى زميل له وأمامهما ملازم وكوبا شاي، ملامح الهدائة كملاحي، ملابسه البسيطة كملاسي وقت الدراسة، في عينيه طموحٌ كما كنت، الجد والاجتهاد باديان في اهتمامه بملازمه وكتبه مثلي.. أنت يا أنا .. اخرج من هنا ولا تُذهب عمرك هباءً .. لا فائدة .. هاجر من هنا .. قد نصحتك لا تنس ذلك.

- نديم ..

عاد من شروده فوجد النادل بين يديها تطلب منه ليمونًا فاعترض، فليس بجيبه من مالٍ أكثر من تكلفة المواصلات، فابتسمت وقالت:

- على حسابي.

أطال فيها النظر، ورجع بها إلى أيام دراستهما، قبل أن يستدير هذا الثدي البارز الصارخ ويتكور، وتتقد هاتيك الشفتان وتشتعل، وينشط هذا القوم ويلتف .. أصبحت فتنةً مجسدةً في كلمة: نهى.

كل العيون هنا وفي أي مكان تذهب إليه تنصبُّ عليها جبرًا لجمالها وأنوثتها، وهي تجيد إبراز هذا الجمال بفنٍّ امرأةٍ لعوبٍ تعلم بُغية الرجل في النساء ..

عيناه لم تذهبا بعيداً عن عينيها العسليتين الساجيتين المبحرتين في
فنجان القهوة التركية أمامها، أغمضت عينيها ثواني -عن قصد- وهي
تستنشق رائحتها، هذه الغمضة ليست أكثر من قول: أتذكُر؟

في الماضي كان يقول لها أغمضي عينيك، فكانت تتدلل عليه
وتسأله: لم؟ فكان يقول: للجمال النائم طعم مختلف في قلبي، هو
كإغفاءة الصعاب عن ليل العاشقين، كم أودُّ رؤيتك وأنت نائمة،
فكانت تأخذها رهبة الكلمة لتجلي الموقف في مخيلتها خلوتها معاً في
غرفة نوم، فتقول مداعبة: يا قليل الأدب، فيضحك.

ولمّا لم تأنس منه تعليقاً عاتبته لأنه لم يتصل بها فاعتذر بانشغاله
بالرسالة، فسأله عن آخر ما كتبَ من الشعر فاعتذر، فألحّت عليه،
فقال:

- "هنسي الحلم الي كان عايش

على مرة من بعيد شافها ..

ويمكن يوم ما نتقابل

لا تعرفني .. ولا اعرفها".

فارتسم على وجهها سيما الحزن فجأة، فتجاهلها ونظر بعبث تجاه
النضد حولهما، وضع النادل الليمون وانصرف، فقال بابتسامة:

- يبدو أنك من بحاجة إلى الليمون.

ووضع الكأس أمامها، وأخذ فنجان القهوة وارتشف منه رشفة،
ثم أخذ سيجارة من سجائرهما وأشعلها، فقالت بصوتٍ خفيض:

- ممكن تنسى الماضي؟ أقصد أن تنسى كل ما يحجزك عني
ويغضبك مني لما أوقعته بك من إساءات، وتكون لي صديقاً ...
أرجوك.

- ولم أنا؟

...

استند بمرفقه على الطاولة أمامه ومال نحوها، وأردف قائلاً:

- ذات مرة وأنا في عملي متسخ الوجه واليدين تذكرتك، ضربت
قلبي رياح الذكرى المحملة بعشق أيام مضت، وتمنيتُ لو كنتِ
زوجتي، وتم ما بيننا إلى آخره، لكنني راجعتُ نفسي، وحضرت بذهني
صورتك وأنتِ تتأبطين ذراع ضابط بالداخلية فارح الطول وسيم الوجه
يرتدي نظارة شمسية ذات إطار ذهبي، تسيران معاً في شارع عريض
بوسط البلد، تنعمين معه بالأمن والحب والفخر والزهو، والآن أنتِ
تستطيعين بإشارة منك إيقاع وزير الداخلية نفسه بجمالك الذي لا
تقاومه منظومة ردع كوريا الشمالية.

- ربما يكون أغلب ما ذكرت قد كان، ولكن أمان المرأة في أن تضع
قلبها في يد رجل أمين يُحبُّها، والحب المتبادل بصدقٍ بينهما هو ما يوفر
الفخر والزهو.

وسكتت بُرهةً تلمّست خلالها أطراف أنامله، وأردفت مجيبةً على
سؤاله السّمج:

- أنت الوحيد الذي أحبني لذاقي، وتأكدتُ من حبه لي مجرداً عن
أي غرض، أنت لم تحاول أن تقبلني قط، عرفتني وعرفتكَ وكنتَ شاهداً
على نمو غصني الصغير، لم تطمع ولو مرة في ثماره وقد كنت تستطيع.

مفتوحة عليه بكل جوانبها، بقلبها وروحها ومشاعرها وذكرياتِها،
ليس الرجل الوحيد في هذا الوجود وليس أجذبهم ولكنه (الحبيب)
القديم، الذي تحاول أن تصنع منه صديقاً، تريد أن تحقق فيه المعادلة
المستحيلة التي لم تنجح على مدار التاريخ بين رجل وامرأة: أن يتحول
الحب إلى صداقة، فتحاول بشتّى السبل إيقافه بجوارها من جديد،
ليكون يدين حائيتين لها من أرق الدنيا، ليكون لها الطفل أو المراهق
الذي تعود إليه بطفولتها إذا ضاق صدرها فيحتضنها كطفل، وإن
كانت لن تمنع نفسها منه إن أرادها إرادة الرجال للنساء.

أردفتُ قائلةً وهي تمسك بيده:

- ما رأيك؟

فتذكر قول عصام "ما رأيك في مطربة؟" ونظر في نفسه فوجد
ظلاماً كثيفاً مطبقاً، فسحب يديه برفقٍ وقال وهو يمسك بعلبة
سجائرِها مُداعباً:

- أنا تأثرتُ جداً، وحينما تأثر أُسْرِفُ في التدخين، وأكون بحاجةً
إلى شرب الليمون لأهدأ.

وأرجع لها فنجان القهوة وأخذ الكأس ورشف منها رشفة، فعلا
صوتها بضحكة ناعمة سعيدة لإتمام اتفاقية الصداقة، فانتبه لها كل من
سمعها ورمقوها بنظرة إعجاب:

- أنا سعيدة جدًا.

فقال بنبرة جادة:

- لكن يجب أن تعرفي أننا سنكون صديقين فقط، وليس أبعد من
ذلك.

- وما الأبعد من ذلك؟

- أنت تعرفين، لم يعد بقلبي عاطفة أنفقها على أحد، فقلبي ممزق.

- القلب لا يخلو من عاطفة، ألم تكتب لي يومًا في كشكولي "القلب
إذا خلا من عاطفة نبيلة تُداعِبُ خياله وتستأثر بمشاعره وتخلق فيه من
الخيال معاني تتجسّد فتخلق له حياة، فما أسرع الهرم والضمور إليه!
فالقلب كالزهرة متى انقطعت عنها روافد الماء ذبلت وتساقطت
أوراقها، ولا تُغني عنها عاطفة أمٍّ أو ولد، إذ لا بد أن تكون عاطفة ذاتية
شخصية لذات القلب، مجردة عن كل سبب سوى ميل القلب، ومغلفة
بكل ألوان الأنانية والاستئثار."

فركَّ وجهه بشدة محاولاً سدَّ هوةً من الماضي توشك أن تنفتح تحت
تأثير الذكرى العاتية

- أرجوك .. لا داعي لهذا الكلام.
فابتسمت وأمسكت يديه برفقة مرة أخرى فابتسم.

(٢٠)

كانت عيناها الواسعتان تلمعان في ضوء شعاع الشمس المتسلل من النافذة، وشعرها الأحمر منشورًا حولها كهالة أضفت على جمالها الناعس حسنًا زائدًا، فارتسمت بوجهها فوق وسادتها كزهرة، ولكنها خريفية ذابلة.

مضت ليلتها في مكان آخر غير هذا الوجود، لا تدري أي أرض وطأتها بقدميها، لكنها كانت وحيدة في طريق تراكم الظلام على جانبيه ككتل ليلية حالكة السواد، وكأن الليل لشدة كثافته وثقله جثم على الأرض فاهتزت له، حتى أوشكت أن تخرج عن مدارها.

كان شيء ما يدفعها للأمام، شيء منبعث من أعماقها، يستصرخها بالمضي قُدُمًا مهما تتعثر قدماها بأحجار الطريق، كان يُوحى إليها - بجدية - أن التعثر خير من الوقوف، فلربما أشرق عليك النهار في سيرك

أو وصلت لغايتك، أما الوقوف فلا تدري ما الذي سيأتي عليك خلاله .. فمضت.

ثم لم تدعها الطبيعة وليتها سالمة، بل دارت على مخيلتها بكؤوسها المختلفة وهي مستسلمة ليس لها من أمرها شيء، عليها أن تمدَّ يدها إلى كل الكؤوس وتشمل منها، فقضت ما تبقي من ليلتها معه في لحاف واحد، ذلك الرجل الخيالي الموجود في أعماق أنوثتها لا يطلع على ملامحه أحد غيرها، رجل تكوّن في ركنها البعيد المظلم من نقائص مراد ونقائص الرجال فيمن تعرف، فاستلب همومها وأحزانها تحت وطأة الاستسلام لزخات القدر المتوالية الثقيلة التي هدّت حصونها وقلاعها، فوجدته معها، تُداعِبُ أنفاسه شفتيها الناعستين، وأنامله تسبح في شفق رأسها في خفاء لا تلوي على شيء.

وبيده الأخرى يتجول في ربوعها وجداولها، وهي مترنحة مثقلة من نشوة يُحدِّثها، ثم يحدِّثها بلسان يقطر شهداً، ويتحدث، وينتظر حديثها، فلا تقوى على شيء غير التنهّد، ثم يجترها إلى عالمه الخاص، وينتظر حديثها .. وينتظر، وهي مستسلمة لا تقوى على شيء غير التنهّد، فهمس في أذنها بأنفاسه الحارة الملتهبة طالباً أن تصف له التنهّد، فقالت: هو نفس لهذا القلب الذي يتميز عشقاً، ولولاه لانفتأ القلب.

لم تَرَهُ في نزهة نيلية، أو بحديقة وردية، أو في أرض خيالية؟!

لم تندesh لوجودها في حِضن رجل عارية، هل عقلك الباطن مكثَّبٌ بخيالات جنسية مكبوتة لتمرّدك الجنسي على مراد؟!

الجنس ليس مجرد شهوة عابرة تحتاج الرجل والأنثى، يُظهر الرجل خلالها رفته وعنفوانه المبالغ لإسعادها، أو تُظهر هي فتنتها المكتنزة سافرة متبجحة لتلفح نارها تلال ذكورته، ولكنها كل ذلك فيما سبق في علاقتها الطبيعية دون الجنس، ويأتي الجنس مُتممًا لها، فالسعادة بالجنس تبدأ في التعامل الطبيعي الراقى ما بين الذكر والأنثى من حيث يراها هي ولا غيرها، فيعطيهما من نفسه وقلبه وروحه وذوقه وأخلاقه، أما الرقة الجنسية العابرة التي تأتي بعد صلفٍ وكبرٍ وعنفٍ لإشباع لذة بهيمية هيّجتها الأطعمة والأدوية الجنسية والخيالات المريضة فذلك في عالم الحيوان.

إن أجمل ما في الجنس هو حديث الأرواح الذي يسبقه، يرى الرجل خلاله المرأة في زيتتها وعُريها نجمة شاردة من سماء الجنة، وترى فيه أرضًا جديرة بضيئها.

وقتها يراها بعين أخرى، تكون أجمل وأرق وألطف، متلونة بلون الزهر، فيها معنى الربيع المرسوم على الطبيعة بفنونه ودلاله، عيناها قمران يرسلان النور إلى الروح والنفس، ويقف القلب هادئًا سعيدًا في ظلال الضوء المنساب من السحب الثلجية، وفي شفيتها ترسم معاني الفتنة بكل أصالتها وسكونها.

وترى فيه الحُصن المتين الذي ينثر على مرافئها السعادة والأمان، فيطعمها من فمه أرق الكلمات وأنداها، ويُشرع في نهرها شراع الحب والوله، فينطق لسانه بآيات العشق والغزل وكأنها في عينيه (المرأة) ومن دونها كذب على الأنوثة وادعاء وتلفيق.

فتحت أمها الباب فتحة صغيرة، وألقت عليها نظرة فوجدتها ساكنة، ووجهها للجهة الأخرى فأغلقت الباب في هدوء ورجعت إلى صالة الشقة.

- لا تزال نائمة.

فقال الدكتور عاطف:

- هذا ما قلته بالأمس، وعلى العموم النوم أفيد لها جدًا، سأمرُّ عليها وقتًا آخر، اجتماع الوزير كان ثقيلًا جدًا.

وقام الدكتور منصرفًا فتبعه أحمد إلى باب الشقة وودَّعه، ثم عاد إليها بوجه مهموم:

- أين نور وعمر؟

- نائمان، ربنا يستر عليهما.

ارتسمت كل معاني الاستياء والغضب على وجهه لما يجُلَّ بيولاند من غريمه، لا يحتمل صدره ما هي فيه، ليس بيده أن يدع صديقة الطفولة وعشق الشباب على ما هي عليه دون مدِّ يده لها، فلا شيء سوى اضطرام النار في القلب.

تتبعت عيناه أمَّها في ذهابها نحو غرفتها، وبقلبه من التمني لو أمكنه التسلل فألقى عليها نظرة وهي مغمضة العينين، لربما انطلق لسانه فقال ما واره خوفه من أن ينقطع ما بينهما من صلات عائلية، فهي الآن زوجة وأم، وكل كلمة ولو عفوية فلن تكون مأمونة النتائج.

قالت له قديماً: أنت أخي، فلَعَنَ الإخوة، وهل الإخوة والصدقة
لمن تحبُّ إلا جَهْرٌ يحرقك بمرور الزمن؟!!

أليس أسوأ سجون العالم للقلب هي القرابة والصدقة؟ فبأيِّ قلبٍ
يستطيع العيش بألمه في غرفة مظلمة مغلقة لا يدخلها النور، ولا يستطيع
الخروج منها!

طلبت منه أمُّها ألا يُقدم على فعل شيء دون الرجوع لهم، فطمأنها
وانصرف، ما ثمَّ قلبٌ يحتمل قُرب الحبيب مع عصيان الواقع، فما يزيد
القلب المعذب إلا جنوناً.

كان الصوت يصل إليها متسللاً خافتاً، توقف انتباهها لصوت
أحمد، ورجعت بالذاكرة لأيام بيت العائلة والشمْل الحميم بين
الأقارب، تودده إليها ومحاولاته الساذجة في مراهنته لإظهار حبه،
فارتسمت على شفثيها ابتسامةٌ ساخرة من واقعها، وتردد بداخلها
سؤال: كيف كانت الأحوال ستمضي إن كنتُ تزوجتُ أحمد؟

- ماما.

انتبهتُ لصوت نور فاستدارت، فرأتها واقفين على الباب، وأمُّها
خلفهما فابتسمت لهم، فجلست نور بجوارها على السرير، ووقف عمر
مُقابلاً لوجهها ينظر إليها في سكونٍ، ثم طفرت عيناه بالدموع وبكي
مرتمياً في حضنها فتبعته نور باكية، فجلست أمها على الفراش، وأخذت
نور في حضنها تُهدئها.

- ما لكما، تبكيان لوجودكما عند جدتكما؟! هيا نكمل فيلم الكارتون.

- ثواني يا ماما .. عمر أنا بخير لا تقلق عليّ.

رفع وجهه عن صدرها وقال:

- لا يا ماما أنتِ لستِ بخير، الدكتور كان هنا بالأمس.

- الدكتور عاطف صديق العائلة، ولم يأتِ هنا لأنني مريضة.

فقال الأم بدورها:

- نعم، كان هنا لأنني مريضة وكتب لي بعض العلاج.

- هيا اذهبا مع جدتكما.

فقال عمر:

- لا نريد الرجوع إلى الفيلا مرةً أخرى.

فنظرت لأمّها وسكتتُ برهةً ثم قالت:

- سنرجع لما نطمئن على جدتك لأنها مريضة.

فقال الطفلة:

- نحن لم نأتِ هنا لأنها مريضة ..

سكتتُ وشعرتُ أنها مُحاصرة، فقامت بها جدتها وأنزلتها على الأرض وأمسكت بيديها وخرجت وهي تقول:

- عندي لكما مفاجأة، سأصنع لكما مشروب الشيكولاته.
ولم تلبث الأم أن عادت تحمل كوب ماء وحبّة دواء، فابتلعتها
يولاند بمرارة.

- كل شيء سيكون بخير.
فابتسمت يولاند ساخرة، أيُّ شيء سيكون بخير؟! الحياة كلّها وما
فيها لم تعد ذات معنى، لا شيء فيها يستحقّ العناء من أجله سوى
الصغيرين المظلومين كأُمّهما، أيّ ذنبٍ استحققت به عقوبتي الفادحة!
رَنّ جرس الشقة، فنظرت أمها للخارج وقالت:

- إنها جودي، اتصلت بي صباحًا لتطمئنَّ عليّ، وقالت إنها تتصل
بك وهاتفك مُغلّق، فأخبرتها أنك عندي ..

- وطبعًا حكيتُ لها ما حدثَ وأنني مريضة ..
جلس سمير مع الطفلين حاملًا لهما بعض الهدايا، ودلفت جودي
إليها فسَلّمت على أمها وقبلتها، ثم مالت على يولاند وقبلتها كذلك،
رأت جودي وجهها باهتًا، وحول عينيها هالةً دكناء وشفتاها يابستان،
فنظرت لأُمها مستفهمة عما حلَّ بها، فهربت بعينيها وقالت:

- سأخرج لأُسلم على سمير.
جلست بجوارها بعد خروج أمها، وأمسكت يدها بين كفيها.

- ما لك؟

- نفسيّتي أنا والأولاد دُمّرت .. الدكتور عاطف كان هنا اليوم والأُمس .

- دكتور الأمراض النفسيّة!

- نعم كان أقرب دكتور لنا لأنّ حالتي كانت بحاجةٍ إلى الإسعاف على وجه السرعة، (ابتسمت بسخرية) وبالفعل شخصّ حالتي أنّها نفسيّة، وكتب لي أدوية مضادة للاكتئاب وغيره ..

- ما الذي أوصل الأمور لكلّ ذلك؟

- المريض النفسي إذا لم يُعالَج، أمرَض من حوله .. كان هو من بحاجةٍ إلى زيارة الدكتور عاطف، ولمّا تحملته أوصلني لما أنا فيه!

ربتت على يديها وقالت:

- اهْدئي الآن.

- لا .. أنا بحاجةٍ لأن أتكلّم، أريد أن أقوم وأقف في شُرْفَةِ الشقة وأصرخ.

وهمت بالقيام حتّى استوت جالسة فأمسكت بها جودي، ودخلت أمّها وسمير والطفلان خلفهما على إثر الصوت المرتفع:

- ماذا حَدَثَ؟

كانت يولاند على صدر جودي تتحبّ، فأشارت جودي إلى سمير بعينها فخرج واصطحب الولدين، بينما اتصلت الأم بالدكتور عاطف الذي حضر بعد دقائق بملابس البيت وعلى وجهه آثار النوم.

أخرج إبرة الحقنة من ذراعها، فاستسلمت على الفور للنوم، وأشار إلى الجميع بيديه أن يخرجوا ويخلوا الحجرة، وأمر أمَّها بغلق باب الشرفة بإحكام وأن تترك (الشيش) مفتوحًا.

قالت بعدما أغلقت الباب:

- ألا يُستحسن أن ننقلها إلى مستشفى؟

- منذ الأمس وهي بحاجة لذلك، ولكن ليس لمستشفى .. لمصحَّة نفسية.

انزعجت الأمُّ من قوله، فأردف قائلاً:

- ولهذا السبب لم أعرض نقلها إلى المصحَّة وإن كانت ستأتي بنتيجة جيدة، ولكنها على المدى البعيد ستكون علامة سيئة في ماضيها، يؤسفني أن أقول ذلك وأنا طبيب نفسي.

اقتربت جودي منهما فسمعتنه وهو يقول:

- من الأفضل أن تكون بجوار أحدٍ تُحبُّه فعلاً، وترتاح معه، يخرجان معاً في نزهة أو أي مكانٍ، أين زوجها؟

فقالت جودي:

- أنا يا دكتور .. أنا صديقتها وأختها وسأتولى ذلك.

بعد انصراف الدكتور اقترحت جودي على زوجها أن تبقى الليلة مع يولاند فلم يمانع، واستأذن وقام نحو الباب بمفرده، فنظرت الأم إلى جودي المنهمكة مع الطفلين تحاول التسمية عنهما، فقالت لها:

- جودي .. مع زوجك.

- لا سأبقى معكم ربما تحتاجون إلى شيء.

- مع زوجك يا جودي، نحن بخير والحمد لله.

فقامت وأمسكت بحقيبتها وعرضت أخذ الطفلين معها
فاعترضت، فقال عليها سمير قائلاً:

- ليس من مصلحة الولدين أن يبقيا بجوار أمهما وهي في هذه
الحالة، هما لا يفهمان ما هي فيه، فائذني لنا باصطحابهما فسيسعدان جداً
مع رضوى.

فوافقت على مَضَضٍ، وودعتهم ثم أغلقت الباب وقالت:

حسبي الله ونعم الوكيل.

(٢١)

- أنتَ مَفْصُولٌ، هذا هو الموضوع من أوله لآخره ..

قالها موظف الشؤون الإدارية لنديم وهو باسط يديه على مكتبه
لينتهي الحوار الممتد لنصف ساعة

- ولكن ..

- من غير لكن يا أستاذ نديم، هذا قرار الإدارة وأنا هنا لأنفذ
تعليماتها، إن كان لك أي تظلم أو اعتراض اتجه للإدارة وليس لي.

- والله كل ما قيل ليس أكثر من افتراءات من أمين المخازن.

زَفَرَ الرجل حانقاً لطول الحديث وقال بنبرة بها بعض الحدة:

- يا أستاذ نديم لا شأن لي بالموضوع حتى تحلف، أنا لا أعرفك
قبل اليوم فوفرّ على نفسك، وأنصحك بأن توقع على الاستقالة وتأخذ
النقود وتبحث لك عن فرصة عملٍ أخرى.

فقال بتحدٍّ:

- سأذهب لمكتب العمل وأقيم شكوى ضدكم.

فضحك الرجل ساخرًا، وقبض يده المنبسطة بالمال وقال:

- ستنتفخ على القضية أكبر مما ستحكم لك به المحكمة من تعويض
إن حكمت لك، أنصحك كابني، خذ النقود وربنا يسهل لك.

ليست لديه خيارات، أخذ القلم ووقع على استقالته، وألقى على
الرجل التحية مع انصرافه فقابلها بابتسامة باردة، ومضى في طريقه زائغ
البصر، مُشَتَّت الذهن، كيف سيحمل الخبر للبيت!

عودة جديدة لصف العاطلين، لا يزال مكانك محفوظًا بينهم، عامًا
وشهرين برئت معيشتك من فيروس البطالة، وها هو يداهلك من
جديد، يأتي بكل سماحة الدنيا ليزيد الحياة قُبْحًا على قبحها، ولتضيق
أكثر حتى تعصر فيك كل معانيها فتظلم نفسك ووجهك، وتبهت الدنيا
في عينيك وينغص طعم الحياة في حلقك، فتُسأل عن النفقة ومتطلبات
البيت وأجرة الشقة نهاية كل شهر وثمان العلاج وكُلْفة الدكتور فلا
تجيب.

واحد من ملايين العاطلين في هذا الوطن الذي أُنجِمَ بالنعمة من
أعلى، فأصبح بشع المنظر والهئية كرجل سمين الصدر والثدي والأغاد،
دقيق الساق، ضعيف القدم، واهن العصب .. فما أسرع سقوطه!

ألف وخمسمائة جنيه، لم تكن تقيم أود الحياة ولا تستر عورتها،
ولكنها كانت كجرعة الماء التي تنقذها كلما أشرفت على الموت نهاية كل
شهر، فانكسر الإناء وجفَّت قطراته المعدودات.

كيف سيمكنني استكمال الدراسة وتحضير الرسالة! هه، رسالة!
قل لقلبك بح، خلاص، حتى لو أتممت الدراسة ونتيجتك امتياز فلن
يتغير شيء.. لن يتغير أي شيء، سوى أنك انتقلت من العاطل إلى
الدكتور العاطل!

أحمد سلطان لم يُعيّن إلا بواسطة قريبه مدير مكتب وزير
الخارجية..

كم من الدكاترة من هم أولى منه قعيدي البيت يتسولون الوظائف
على أبواب الشركات ضنينة اليد!

المياه والغاز والكهرباء فواتير تطالب الدولة بسدادها كل شهر، من
أين سدادها أيها التاجر اللئيم؟ أين العمل؟ أين قضاؤك على البطالة؟
أين مصانعك وشركاتك؟ من أين آتي لك بعد اليوم بثلاثمائة جنيه كل
شهر؟ ومن أين تسديد الأقساط والديون المؤجلة؟ أيُّ مأساةٍ بدأت
اليوم!

وصل إلى شقته مهمومًا ثقيل النفس، يتوقع ما سيحدثه الخبر من
قلقٍ واضطرابٍ.

كانت الشقة غارقة في الظلام، الصمتُ يُرَّصُّ حوائطَ الأحزان،
ترتسم في أرجائها معاني الوجع والألم، تحوَّلت إلى لوحةٍ كئيبةٍ ثقيلةٍ بما
فيها من همومٍ وأشجان.

ساكنة هامدة لا صوت فيها لقناة الكرتون، ولا للأواني المتصارعة
بالمطبخ وهي تُغسل كالعادة، أدار عينيه وأرهف أذنيه فسمع نحيبًا
خافتًا قادمًا من غرفةٍ مها، فأسرع إليها، كانت البنت ملجمة بعرقها
شاحبة اللون، ذابلة العينين، زرقاء الشفتين، تُصدِرُ أزيزًا وأنيبًا مكبوتًا
لصعوبة التنفس ووجع بطنها، تشاركها وفاء ألمها باكية وهي تُجفِّفُ
عرقها، وتمسح القياء من فمها.

- ماذا حدث؟

قالها وهو يجلس بجوارها ويضع رأسها على فخذه، فقالت:

- سقطت مرة واحدة وتدهورت حالتها في أقل من خمس دقائق.

فقام ورفعها بين يديه على عجل ليذهب بها للدكتور فاستوقفته:

- ذهبتُ بها للدكتور في المستشفى فكتب لها بعض العلاج ونصح
بالسوائل، وقال إنها بحاجة لأنبوبة أكسجين، والبقاء خمسة أيام
بالمستشفى.

- وأين أنبوبة الأكسجين؟

- لم يكن معي نقود!

تَحَسَّسَ جِيبَهُ لِيُطْمَئِنَّ عَلَى وَجُودِ النُّقُودِ الَّتِي أَعْطَتْهُ الشَّرْكََةُ إِيَّاهَا
نَظِيرَ فَصْلِهِ، لَكِنِّهَا لَا تَكْفِي لِلْبَقَاءِ فِي الْمُسْتَشْفَى يَوْمِينَ!

- مَعِيَ سَبْعُمِائَةِ جَنِيهِ، سَأُنْزِلُ حَالًا إِلَى الْمُسْتَشْفَى وَأُحْضِرُ وَاحِدَةً.

أَلَمْ الْطِفْلِ سَهْمٌ فِي كَبْدِ الْأَبِ لَا يُنْزَعُ أَبَدًا وَإِنْ شُفِيَ وَبَرِيَ، تَظَلُّ
ذَكَرَى مَرَضِهِ وَشَقَائِهِ طَيِّفٌ يَحْزَنُهُ كُلَّمَا مَرَّ صَغِيرُهُ مُعَافًى أَمَامَهُ، فَيَكُونُ
كَالْحَرْقِ ذَهَبٌ وَجَعَهُ وَبَقِيَ أَثَرُهُ.

وَهَذِهِ الضَّرْبَةُ الْمُسَدَّدَةُ يَتَحَمَلُ وَالِدَاهُ أَلَمَهَا أَوَّلَ مَنْ يَتَحَمَلُ، وَتَكُونُ
مَعَانَاتُهَا فِي حَجْمِهَا كَالْجِبَلِ أَوْ أَكْبَرَ، وَتَكُونُ فِي شَقَائِهَا كَنَارِ الْجَحِيمِ
وَأَكْثَرَ.

أَمَّا وَقْتُ مَرَضِهِ فَهُوَ زَمَنٌ بِمُفْرَدِهِ وَتَارِيخٌ يُكْتَبُ بِالْعَظَمِ
وَالْأَعْصَابِ، وَقْتُ تَقْفِ عَقَارِبُهُ لَا تَمْضِي لِتَلْدَغِ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ.

أَمَّا تَوَجُّعُهُ وَأَلَمُهُ فَهُمَا صَرَخَاتُ تَخْرُجُ مِنَ الْقَلْبِ قَسْرًا فَتَهْشُمُهُ،
وَتَشُقُّ الْكَبِدَ وَتَمْزِقُهُ، وَتَعْتَصِرُ الرُّوحَ فَتَسِيلُهَا، فَيَبْقَى الْأَبْوَانُ بَعْدَهَا
مَوْتَى، وَإِنْ تَحَرَّكَ الْجَوَارِحُ وَزَعَمَتْ أَنَّهَا حَيَّةٌ.

ذَلِكَ الْوَقْتُ الَّذِي يُرْسَلُ فِي الْعَقْلِ سَحَابَةٌ غَاشِيَةٌ تَمْحُو مِنْهُ
التَّفْكِيرَ، وَتُصَيِّبُهُ بِشَلَلٍ تَامٍّ يَنْفِي عَنْهُ التَّرْكِيزَ وَالْإِنْتِبَاهَ، فَيَجْعَلُ الْأَبْوِينَ
ذَاهِلِينَ زَانِعِي الْبَصَرِ يَنْكُرَانِ وَجُودَهُمَا حَتَّى يَتَسَلَّلَ إِلَيْهَا ظَنٌّ أَنَّهَا لَيْسَا
هُمَا، بَلْ آخِرَانِ اسْتَوْطَنَا جَسَدَيْهِمَا عَنُودًا.

ومن تيههما تتساقط كل اهتمامات الحياة، وتبهت في ذوقهما كل
لذة، وينسيان كل شيء حتى إذا سُئِلَ أحدهما عن اسمه قال لا أعرف.

وهو وقت يحيل الأب من جبل إلى حجر، ومن شجرة وارفة إلى
ورقة خريفية صفراء هشة، ومن بحرٍ مُتلاطمٍ إلى قطرةٍ شاردة، فلا تظفر
منه بكلمةٍ إن حدثته أو ناجيته .. فهو ليس مَنْ تعرف.

أما الأمُ فيُضاف إليها ضعفٌ فوق ضعف، وهزيمةٌ إلى هزائم،
حتى تصبح كالنسمة الساخنة في الصيف الحارق، ولا يُشرق عليها يومٌ
إلا زيد في ذبولها حتى يتساقط ورقُها ورقةً ورقةً، ويذهب شبابها فتنةً
فتنةً مُتبخراً ككوب ماء استبدَّ به نارُ الموقد فلم يدع فيه قطرةً ..

أما الأيام فلا يجري عليها الليلُ والنهارُ، إذ الليل بسكونه يتبدّد
تحت أنين الصغيرة، والنهار بنوره يتلاشى بظلمة المرض وكآبته.

دلف إلى الشقة يحمل على كتفه أنبوبة أكسجين يُرافقه عصام يحمل
أنبوبةً أخرى، وخلفهما ممرضةٌ حضرت لتركيب الأنبوبة، ولم تنصرف
حتى انتظم تنفُّسها وهدأ أزيزُها.

ومكثت وفاء بجوارها ذابلة العينين، متورمة الجفنين من البكاء.

قال عصام وهو يشعل سيجارة نديم بالشرفة:

- ستكون بخير بإذن الله.

- البنت حالتها سيئة، وتنتقل من سيئٍ إلى أسوأ.

- وَحَدَّ اللهُ .. إِنَّ شَاءَ اللهُ خَيْرَ.
- كَانَ الْمَفْرُوضُ أَنْ تَكُونَ بِالْمُسْتَشْفَى الْآنَ، الدَّكْتُورُ قَالَ إِنَّ مِنْ الْأَفْضَلِ أَنْ تَظَلَّ خَمْسَةَ أَيَّامٍ تَحْتَ الْمُلَاحَظَةِ وَالرَّعَايَةِ.
- وَلَمْ لَمْ تُودِعْهَا الْمَشْفَى؟
- فَقَالَ سَاخِرًا:
- لِأَنِّي رَجُلٌ بَخِيلٌ!
- مَا لَكَ يَا نَدِيمٌ؟
- تَمَّ فَصْلِي الْيَوْمَ مِنَ الْعَمَلِ.
- وَلَمْ؟
- مَدِيرُ الْمَخَازِنِ كَانَ بِحَاجَةٍ لِتَوْظِيفِ أَحَدِ أَقَارِبِهِ، فَلَفَّقَ لِي تَهْمَةً إِسَاءَةِ التَّعَامُلِ مَعَ الزَّبَائِنِ وَأَصْحَابِ الْمَحَالِ!
- حَتَّى "مَنْدُوبِ الْمَبِيعَاتِ" مَنْظُورَةٌ!
- آه طَبَعًا، الْبَلَدُ أَصْبَحَتْ كَالْعِظْمَةِ الْيَابِسَةِ، وَالْكُلُّ يَدُوسُ الْكُلَّ مِنْ أَجْلِ لَعْقَةٍ أَوْ مَصَّةٍ.
- مَلْعُونَةُ الظُّرُوفِ.
- وَمَلْعُونٌ مَنْ أَوْصَلَنَا لِهَذِهِ الظُّرُوفِ.
- وَعَلَامَ نُؤَيِّتَ؟

- لا شيء .. ربما أذهب لوالدي بخان الخليلي أعمل معه فترة حتى
تتحسن الظروف وأجد عملاً.

رن هاتفه المحمول فنظر في شاشته وكتم الصوت ولم يرد .. كانت
نهي .

أردف قائلاً:

- ربما لا يمانع أبي، ولكنني سأكون حملاً على عاتقه.

- ربك كبير يا نديم.

- تعرف .. كل ما أتمناه الآن تأشيرة لأي مكان بعيداً عن هنا.

- تترك بلدك؟

- بلدي تركتني من زمان، من يوم ما باعت القطاع العام وشرّدت
الموظفين، وجعلت العمالة المصرية جسداً عارياً تنهش فيه أنيابُ
المستثمر بلا رحمةٍ ولا ضمير.

ضحك ساخراً وأردف:

- تصوّر أن الدولة باعت مؤسساتها الاقتصادية المملوكة للشعب
وسرقتها، كيف توضع الدولة داخل قفص الاتهام؟

- الصبر طيب.

- الصبر مظلوم هنا، لو بحثت عنه ستجده على إحدى أبواب
السفارات يطلب تأشيرة ..

استأذن عصام وانصرف، ودلف نديم ليطمئن على مها فوجدها
نائمةً منتظمة التنفس، وبجوارها وفاء في حالةٍ يرثى لها:

- ارتدي كمامةً وأنتِ بالقرب منها لأن الالتهاب الرئوي مُعدٍ.

فقالت بلا اكتراثٍ لما ذكرَ من شأن العدوى:

- ليتني كنتُ أنا وليست هي!

وعاد إلى الشرفة وأشعل سيجارة، وسرح في المستقبل الذي يراه
رأي العين على ضوء معطيات الواقع المجربة.

ستستنزف النقود قرشًا قرشًا حتى تنهار حياته أمام متطلبات
المعيشة الصارخة، كالجندي الذي وقع صريعًا بأرض المعركة وهو
ينزف دمه قطرةً قطرةً حتى تفيض روحه شهيدًا.

سيشتدُّ الوثأقُ بإحكامٍ حتى يخنق، لن تبقى من ذكرى الحياة في
حلقةٍ إلا ما يبقى للخريف بعد رحيل الربيع .. أرض قاحلة، وأزهار
ذابلة، وشجر جافٌ مُفَتَّت الأوراق.

أيُّ عدلٍ أن يكون شابٌّ في مُقتبل العمر، فارع الطول، قوي
البنيان، مفعم بالأمل والطموح، يضحُّ جسده بالحياة، أطلال إنسان
يحمل بداخله كهلاً مُسنًا وإن بدا للناس شابًا فتياً!

لم جعلتِ الفراقَ أقصى الأمان، وتسول الحياة على أعتاب
السفارات شيئًا معتادًا ولا حقَّ لنا فيك، ولا نملك من أمرنا شيئًا إلا
الركون والسكون للقيادة الحكيمة؟!

فاجأته بصوتٍ خفيضٍ وهي تُرَبِّتُ على كتفه:

- يستحسن أن تطلب سُلَفة من الشغل ..

- فُصَلت اليوم!

فقال بانزعاج شديد:

- فُصَلت!

نَعَثَ دُخَانًا كَثِيفًا من فمه ولم يرد، فتابعت في ذهولها:

- ولم؟ ماذا فعلت، كان من الأولى أن تتحمَّل وتتحلَّى عن

عُنْجَهِيتِكَ في معاملة رؤسائك، طول عمرك لا ترى غير نفسك ..

فقاطعها بغیظ مكتوم:

- أنا لم أذنب، لم أذنب، كل ما في الأمر أن مدير المخازن أراد

توظيف أحد معارفه أو أقاربه فلفَّق لي تُهمَّةً وفُصَلتُ على إثرها.

- ولم أنت بالذات؟ هه، أخبرني.

فقال بغضب:

- يوووووه أنا خارج.

فتبعته لخطوتين وهي تقول:

- اخرج، فهذا ما تُحسِّنُ فعله، أن تهرب من المشكلات دائماً.

فعاد إليها بكل غضبه وصفعها على وجهها:

- الفترة القادمة لن أحمّل أيّ كلمةٍ من أيّ أحدٍ سواء كانت طيبة أو سيئة.

فطفرت عيناها بالدموع وقالت:

- الفترة القادمة لن نكون هنا، اقضِها بمفردك، فأنت تحبُّ الوحدة.

- يكون أحسن.

مع أول يوم من أيام البطالة حلّت النُّذر، وسأقت بين يديها معالم العهد القادم من البؤس والشقاء وضيق النفس وقسوة الأيام.

المال .. ذلك الشيطان الجميل الذي يُعبّد كل الصعاب، لا أطلبه لنيل السعادة ولا الرفاهية، ولكن حتى لا تُحرم ابنتي أبسطَ حقوقها كإنسانة؛ إذا مَرَضَتْ وجدت العلاج، فمرض الفتاة ربما ينتهي بها إلى الموت إذا لم يسعفنا المال اللازم لعلاجها، لعنة الله على المال الذي لم أفكر يوماً أن أكون من عبيده أو الساعين في محرابه لنيل رضاه.

وصل إلى ضفة النيل بالقرب من وزارة الرّي، احتبى في جلسته المعتادة وقت الضيق، وتابع المراكب والقوارب واللانشات التي تشقُّ المياه جيئةً وذهاباً.

هنا ينفث غضبه، يُلقي بحُممه الإنسانية لربما رواها ماء النيل فنبتت نبتاً مُشوَّهاً بجوار مبنى الوزارة فيسترعي انتباه الدولة لآلام المواطنين!

الدولة النائمة في أحضان الرأسمالية في بُرجها العاجي، تنظرُ من
عل إلى المواطنين الصغار فتظنهم سعداء يلهون في حركتهم البلهاء
خلف لقمة العيش الوهمية التائهة بين ملايين الأشقياء التعساء!
أشعل سيجارة، وهمّ بإلقاء عود الثقاب في مياه النيل فتوقفت يده
ورماه بجواره حتى لا يلوث ماءه.

لم يكن خريج اقتصاد وعلوم سياسية أكثر من مندوب مبيعات!
ولم يكن أكثر من ورقة من أوراق خريف هذا الوطن الذي تتساقط
أوراقه ورقةً بعد ورقةً، ولا يشعر جذعها بألم ولا وخز الضمير ما دام
الجدع قد أُمِن على مائه وغذائه.

عدة سنوات قضّاها متنقلاً في عمله ما بين شركة إلى أخرى، يُقدّم
السيرة الذاتية التي تثير ابتسامات مختلفة لأكثر أصحاب الأعمال ما بين
امتعاضٍ وأسفٍ واندعاشٍ، فسيرته تبدأ بحاصل على بكالوريوس
العلوم السياسية، ثم يندرج تحتها تاريخه المهني ما بين شركة كذا وشركة
كذا مندوب مبيعات لا أكثر.

قال له أحدهم وهو يطالع سيرته مازحاً بروح فيها ثقلُ الجبال
"لكن لا سياسة في المندوب ولا مندوب في السياسة، يجب أن تعرف أن
أغلب التجار الذين ستتعامل معهم أعضاء بالحزب الحاكم، فأى كلمة
نايبة ستؤدي إلى فصلك وربما أغلقت الشركة".

سخر في نفسه من الرجل الجاهل والتاجر النفعي، ومن نفسه
المقهورة ومن المجتمع، فأى سخافة أكبر من ألا يتكلم خريج العلوم
السياسية في السياسة!

لَمْ جَعَلِ الْقَدْرُ النَّفَاقَ أَكْبَرَ أَبْوَابِ هَذَا الْوَطَنِ!

الحقيقة الوحيدة في هذا المجتمع أنه لا حقيقة فيه، مجتمع قائم على الغش والكذب والخداع والنفعية، مجتمع متأخر يقع في ذيل الأمم يمتدُّ ظلُّه في الفراغ، ومع ذلك يدعي الشموخ والسموق بلا أي شيء قدَّمه للإنسانية .. أو لنفسه!

"مجتمع الذكريات" ليس أكثر من ذلك، لا يجد مفخرة إلا في الأموات المحنطين منذ آلاف السنين، وإذا اشتد عليه العار وصل إلى أحس قاهر الهكسوس ليمعن في التدليل على عظمته وأنفته، أما الحاضر فلا ينبغي الحديث عنه، إذ يتحكم فيه الصغار الفاشلون.

لحظات من الضيق يتجمع فيها الهمُّ بثقله على النفس فتهوي لأسفل حتى تنضب الرئتان من الهواء، فينطلق الضيق لأعلى فيلتف على العنق كحبلٍ غليظٍ يخنقه.

هبت نسمةٌ هادئةٌ عليلَةٌ فأغمض عينيه واستنشق نفساً عميقاً ملاً رثتيه وأخرجَه بتمهّلٍ، رن هاتفه فكتَمَ صوته وألقاه بجانبه على حجرٍ صغير دون اكتراثٍ .. كانت نهى.

ألح صوت الهاتف، لكنه ظل مُسدِّداً بصره لماء النيل ..

لا يمكن أن تكون نهى هي تفسير المرحلة، صحيح أن الأيام القادمة -كالعادة- ستكون حالكة السواد ولا بد من شيء ما خارج المألوف يُضيء ظلمتها لكن لن تكون نهى ..

أو يأمل ألا تكون!

أخذ الهاتف وأغلقه، ثم وضعه بجواره على الحجر الصغير، وابتلع ريقه بصعوبة نمت عن مرارة تسري بحلقه كالدم الملوث بجسد المريض، بماذا ستفيد الرسالة، ليست أكثر من ورقة ستضاف إلى الدوسيه المتخم، ليست أكثر من اعترافٍ جديد من الدولة بأنني دكتور كاعترافاتها القديمة: شهادة الثانوية، شهادة البكالوريوس، شهادة الجيش، وكشهادة الميلاد التي تثبت أنني موجود .. هه .. لم لا تصدر الدولة شهادات وفاة للواقعين تحت خط الحياة؟ لم تتعامل معنا كأحياء وما بيننا وبين الحياة كما بين السماء والأرض أو أبعد ..
فملايين الشهادات هنا .. ماذا أفادت أصحابها؟

(٢٢)

كانت الفوضى بانتظاره تنتشر في كل مكانٍ، لا تزال أطباق الطعام على الأرض، أجزاء الكاسيت المهشمة تنتشر بأسنانها الحادة المدببة، وبقعة سوداء خلف مكان الكاسيت لسقوط جزء من الحائط مكان الطلقة.

نادى على الطفلين فلم يرد أحد، فتسلل لنفسه الشك أنهم قد رحلوا، فناداها باسمها على مضضٍ وانتظر صوتها الغاضب منه يأتيه من أي مكان.

أو تأتي إليه رافعةً حاجبها اللائم، أو عابثة الشفتين أو بأي حال دون الرحيل الذي يؤكده الصمت، فاتجه إلى الشرفة المفتوحة يتحسس طيفها فلم يجدها، فكذب غيابهم! فبحث عنها وحدها بغرفة الأطفال وغرفتها، وطَفَّق يدور بكل غرف الفيلا فلا أثر، حتى دلف إلى الحمام في

الطابق الثاني، وهو ينادي مُرَدَّدًا اسمها، فلم يجد أكثر من آثار ضعيفة
لبقعة الدم في الحوض الأبيض!

اللحظات التي يفتقد فيها الرجل الأنثى في تكوينه الذكوري
لغيابها من وجوده وعالمه، قد يظهر حينها بشموخ الجبل، ولكنه لا يخلو
من وهن، وقد يتسع فيبدو كالصحراء، لكن فيها معنى التيه والوحشة،
وقد يتصلد ويتجلد كالحجر، ولكنه ينطوي على جفاف وصمتٍ يُمزِّقُه،
لأنها كل شيء، وغياب شيء منها ... ذهاب كل شيء.

فخرج غاضبًا يصرخ باسمها مُرَدَّدًا:

لم رحلت؟!

ودار في الصالة يُحِطِّمُ كل ما طالته يده، ثم دلف إلى غرفة الطفلين
مرة أخرى، أحسَّ فجأة أنه بحاجةٍ ليشمَّ رائحة الولدين، لكنه لم يجد
أكثر من خوف عمر يرصع الجدران، ويرتسم على ثوب نور القصير
الملقى على السرير، فخرج منها فدهس (التوكة) بقدمه ففتتها.

وارتمى على الكرسي مرخيًا جسده ممددًا قدميه على الأرض بطولها،
ثم أخرج سجائره فأشعل واحدة وهو زائغ البصر، مُشَتَّت الوجدان،
تعلَّقت عيناه بالكاسيت المهشم، وتتبع عيناه أجزاءه المُدَبَّبة، فتناول
قطعة منها كانت بالقرب منه وأمعن فيها النظر، ثم تحسَّس حدة سننها
بسبابته، ثم نفث فيها دخان سيجارته.

كان في الخامسة من عمره عندما تعرَّض لمثل هذا المشهد، لحظة
غضب مرَّت به فحطم لُعبه، وأصابته هستيريا غضبية دفعته للاعتداء

على أمّه لانشغالها بتحضير الغداء استعدادًا لقدوم والده، فتناثرت أطباق الطعام واختلط حُطامها بحطام اللُّعب، وقطع سلك الهاتف وجرى إلى غرفته وأغلقها، ولما عاد والدّه وجدّه باكيًا ذابل العينين، وسمع منه: كنت جائعًا فذهبتُ إلى أمي في الصلاة فسمعتها تتكلم في الهاتف وهي تضحك بصوت مرتفع، فلما رأني ضربتني وحطّمت لعبي، فقطعت سلك الهاتف فاشتدّ ضربها ولطمها وأدخلتني الحجرة ثم سمعت أطباق الطعام وهي تتهشّم ولا أدري ما يحدث بالخارج.

فتوجه الرجل إلى الصلاة فرأى السلك مقطوعًا فسألها:

- ما الذي قَطَعَ السِّلْكُ؟

- نوبة الجنون التي انتابت ابنك فجأة، لا أدري ماذا حدث له؟!!

فلطمها بعنفٍ وكذّبها قائلًا:

- الأطفال لا تكذب، أيُّ رجلٍ كنت تكلمينه؟

لم يكن وقت الحادثة أيُّ من ابنتيها موجود لتشهد لها، فنهى بالمدرسة وحبيبة عند خالتها القريبة.

فلم تجد سبيلًا إلا الخروج من البيت غاضبةً من اتهامه اللا أخلاقي، فبقيت عند أختها سنة حتى وُفّقَ بينهما من جديد، وعادت لبيتها وحتت على الطفل الصغير، لكن طفلها لم ينسَ إساءته وتوقّع على الدوام العقوبة منها، غير أن عودتها من جديد أصبحت تثقل كاهل الطفل بالنظام الغذائي والدراسي وبالمذاكرة، كما كان يرى أقاربه

الصغار ومعاملة أهليهم لهم أثناء الدراسة وما يفرضونه عليهم، فعاد إلى ما قال وكرّره، فكان يتصل بوالده في الشركة ليخبره بأكاذيبه الملفقة، وينشئ له علاقات بين أمه وبين المدرسين الذين يأتون للبيت في غيابه.

كانت المرأة تستشهد على كذبه بنهى وحيبة، لكن هل تنفع شهادة الأطفال بالنسبة للرجل إذا تسلل الشك إلى قلبه!

فلم يمتص على وجودها الجديد وقت حتى عادت إلى بيت أختها غاضبةً، وأصبح الرجل كسير العين أمام ابنه الذي يعرف كل ذلك عن أمه بينما والده جامداً كالصنم لا حراك فيه.

وذاث يوم عاد الطفل من مدرسته يلهث وهو ينادي على والده، وأسر له أنه رأى أمّه بأحد المحال مع زوج خالته، فانتفض الرجل ووضع خزانة الرصاصة بمسدسه وانطلق غاضباً.

كانت لعبة حسنة للطفل الصغير، فلم يلبث والدّه أن يخرج حتى انفجر ضاحكاً، ثم اعتدى بالضرب على أخته الجالستين يتأملانه بازدراء، وقال لهنّ بسعادة بادية في عينيه: "أنا رجل البيت في غيابه" كما قال.

وحينما وصل إليهما طرّق الباب بعنف ففتحت له زوجته، بينما كانت أختها تتحدّث لزوجها في الهاتف الأرضي الذي سافر إلى قنا لقضاء واجب العزاء في عمّه، فقامت مُرحبةً به، وأبلغته سؤال زوجها عنه من قنا وكلمه في الهاتف!

تبادل السلام مع الرجل بكلمات معدودات، ثم خرج مسرعاً، ولم يُنتزع الشُّكُّ من رأسه، ربما أخطأ الطفل، أو التبتت عليه هيئة الرجل الذي كان معها لسرعة ميكروباص المدرسة!

وقت الحب والشك يتوقف العقل عن التفكير ويقف عاجزاً عن السيطرة على الجسد وشعوره، ويتنحي جانباً مُرغماً فيأخذ القلب مكانه، فمهما ينبهه العقل ويرشده فلا يصل إليه من العقل نصحٌ، إذ إن القلب أعمى، أصم، أبكم، في أغلب أحيانه، غير أنه لا يثق بحكم العقل وتقديره وقت الحب والشك، فحتى بعد طلاقها، لم تُنَحْ مرارة الشك من صدره، فأقنع نفسه بأنها خائنة حتى يُهدئ من لوم نفسه المستمر (فالأطفال لا يكذبون)، وإن كان يلوم نفسه أحياناً لأنه لم يقتلها.

لكنه لم يستطع أن يفسر لابنته سبب الطلاق، ولا سِرَّ منعه لهما من زيارتها، حتى عصت حبيبة أوامرهم مرة، فمالت على أمها عند عودتها من مدرستها الثانوية لتطمئنَ عليها، فعلم مراد بتلك الزيارة فأخبر والده فانها عليها ضرباً، فقالت البنت باكية:

- إنها أُمي، لم تمنعنا من زيارتها؟ إن كان من حقك أن تطلقها ولا تعرفنا السبب، فليس من حقك أن تمنعنا من زيارتها ورؤيتها... إنها أُمي وأنا حرة.

فاشتدَّ غضبه وقال:

- بما أنك كبرتِ وأصبحتِ (حرة)، فأنا أُمْنَعُكم منها حتى لا تلوثكم ..

- لا تقل ذلك عن أمي، أنت كذاب.

- أنا لا أكذب يا بنت الكلب، أمك عاهرة، هذا هو سبب الطلاق،
وسبب منعي لكما من زيارتها، أخبرهما يا مراد.

كان قد مضى على جريمته في حق أسرته التي فتتها تسعة أعوام،
وأدرك مدى جنايته أيضًا، لكنه لم يستطع التراجع والاعتراف بالحقيقة،
فتجمّد لسانه في حلقة، ولم ينطق بكلمة تؤكّد ما قال والدّه عن أمّه،
فانهال على أخته ضربًا بعنفٍ شديدٍ حتى طفح الدم من فمها.

- أتكذّبين والدك؟

كانت نهى تتابع ما يحدث طوال السنين الماضية دون تعليق، فأبوها
قد أخضعهما قسرًا لأخيها ليفعل بهما ما يشاء ولا يسمع منهما كلمة،
وأصبح يتدخل في كل شؤونهما بكل صلفٍ، وبمرور الوقت تنامى
توحّشه وسوء خلقه معهما، ربما لأنه الولد الذي سيحمل اسم العائلة،
وخليفته في الشركة!

لم تحتمل حبيبة ما تناله منهما، ولا تشويه صورة أمّها، فهربت من
وجهيهما، والدم ينساب من فمها على صدرها، وصعدت إلى سطح
العمارة، وألقت نفسها في الشارع من الدور الحادي عشر.

حمل والدّه قتلها، كان يجب ألا يُخبرهما بما حدث، فانزوت سلطنة
الأب عن ولديه الباقيين، بينما أطلق مراد يده على نهى، وأحكم قبضته
عليها.

وظلَّ الرجل يحمل في قلبه ألماً دفيناً لموت ابنته حتى ذبل، ومات
بمرض السكر ومراد في السادسة والعشرين من عمره، فورث والده
واستلم الإدارة مكانه.

تناست الأمُّ ما حَدَثَ، وتغلبت عليها عاطفةُ الأمومة تجاهه، بينما
تجذَّر إحساسه بالخطأ داخله، لكنه لم يندم حتى لا يُثْقِلَ على نفسه، وبدلاً
من أن يثمر الإحساس بالخطأ أسفاً، أنبتَ غضباً وحِقْداً.

(٢٣)

مئذنة شاهقة، يتأمل سُموقها وامتدادها في السماء والتاريخ، فتخالط نفسه ذكريات الماضي السحيق وقت التجول بين الغورية وباب زويلة مع أبيه صانع التحف النحاسية، وهنا أسفل باب زويلة قضى وقتاً من عُمره وهو يحمل التَّحَفَ من الورشة في خان الخليلي إلى (فرشة) البيع قبل أن تُجْبِرَه شرطة السياحة على الرحيل، وتمنعه من البيع في الشارع لأن المنطقة من أهم المناطق السياحية في قلب القاهرة القديمة.

كل يوم بعد انصرافه من المدرسة في مرحلة الإعدادية والثانوية كان يذهب لتلك الأماكن، يدخل كل المواقع الأثرية دون تذكرة، نظراً للمودة بين أبيه ورجال الشرطة هناك.

يتنقل لاهياً ما بين قبو إلى بيت إلى مقهى، حتى سيارات الشرطة كان يعبث بصندوقها وأسلحة جنودها، وربما تسلك إلى كبنينة القيادة

فضغط زر التنبيه المزعج فيزجره الضابط ويأمر أحد جنوده بتسليمه
لوالده.

ويطوف مُصاحِبًا الأجانب مازحًا معهم فيتحفونه بعضًا من
متعلقاتهم ويلتقطون الصور التذكارية معه، كانوا يستلطفونه، فتداعبه
السيدات ويقبلنه، ومضت الأيام حتى تفتحت رجولته المبكرة في فترة
الثانوية فأدرك معنى المرأة ومعنى الجمال.

فكانت الأجنبية مثالًا لا يُقَارَن في تفرُّدها الأثوي ودلالها وحُسنها
وجمالها، ولم يجد عيبًا أو حاجزًا في التقرب منهنَّ أو احتضانهنَّ وتقبيلهنَّ
في متجر والده الفخم!

كنَّ حوله فراشات زاهياتٍ يتنقلنَ أمامه فيطاردهنَّ ويستمتعن به،
لكن لا علاقة واحدة اكتملت حتى نهايتها، فذكورته لم تكن قد نضجت
بعد حتى يعرف كيف تكتمل العلاقة، وكيف اكتملها بين الذكر
والأنثى.

جسده الفارع المُتناسق، وبشرته النيلية، وعينه اللامعتان، وأسلوبه
الهزلي مع الأجانب كان له الأثر الأوحـد في مجاراته، ولعل هذا هو
السبب في موافقة والده على السير في طريق السياسة، وأن يشبَّ في مهنة
أخرى بعيدًا عن خان الخليلي حتى لا تُفسدَه الأجنيبات، أو سعاد.

فخرج من المنطقة يحمل في نفسه امرأة هي خليط من كل ما رأى
من جنسيات مختلفة، بجمالها وأنوثتها وحُسنها، تشكَّلت بداخله

كحوريات الجنة اللاتي لا يوجدن في الدنيا، فهنا كل امرأة أجمل من الأخرى، ولها ميزة نادرة عن سواها، فومضت بروحه تلك التي لم يرَ، آملاً أن يقابلها يوماً ما.

وتلك المباني الصفراء الدكناء التي خلّدت تاريخه الصغير، يحنُّ إليها حنين الطفل لأمّه، ويندم على مرور العمر بعيداً عنها، ويلوم الزمن كيف مرّ وتغير فكره، كيف لو أتمَّ طريقه الأول فأصبح مُرشداً سياحياً، أو استجاب لنصح والده فأصبح مدرساً، كيف كانت الأيام ستكون.

ماذا أفادتني دراسة السياسة؟ كيف نبت هذا الحلم اللعين والفيروس الخبيث في مخيلتي؟

ربما لو بقيت بحوارك أيها الرجل المسن لكنت الآن كأبناء منصور الريفى الذين توسعت تجارتهم ما بين تحف وإكسسوارات وفوانيس رمضان، وعلا اسمي وطاف المنطقة من الحسين للغورية للأزهر لخان الخليلى لشارع المعز.

ما أسرع مرور الأيام وذبولها تحت وطأة الواقع الأسيف!

نزل من أعلى مئذنة باب زويلة، ومرّ في طريقه صوب خان الخليلى، فوقف أمام متجر يحمل لافتة باسم الحاج منصور الريفى وأولاده، وبداخله امرأة شابة حدّقت فيه النظر فعرفته، فقامت نحوه مُسرعةً وهي تُتمتم باسمه، فأمعن فيها النظر فضحك ساخراً من الأيام، وقبل

أن يهم بالمضي خرجت عازمة عليه بالدخول فرفض، ولما ألحت دخل،
فقال سعاد فور جلوسها بنبرة هادئة متكسرة:

- أنت وحشني، أين كنت كل هذه السنين؟ لم أرك منذ ..

وأطلقت ضحكة ناعمة عالية، تقصد آخر يوم كان فيه نديم
بالمنطقة كلها، حيث فاجأهما منصور الريفي وهما في قبو في وضع مُحلّ
جدًّا، فطاش عقل الرجل، وكاد أن يقتلها إلا أن يتزوجا، فعرض أبوه
الأمر قائلاً له: "أمامك أحد خيارين، إما أن تتزوجها أو لا تريني
وجهك بحي الحسين كله وما حوله مرة أخرى".

لم تكن سعاد المرأة الحلم المرسوم في قلبه، وليست المعنى الخيالي
للمرأة في ذكوريته وروحه، فاختار الرحيل.

- ماذا فعل معك أبوك بعدها؟

- زوّجني رغماً عني.

فبدأ عليه الأسى ورمقها بنظرة آسفة، فبادرته بابتسامة قائلة:

- لم أحزن لزواجي، فالأمر مُسلّ جدًّا، الشيء الوحيد الذي
أحزنني هو فراقك.

فهزّ رأسه عجباً لطيشها الذي لم يفارقها:

- انسي، أنتِ زوجة الآن.

- وأنت، تزوجت؟

فأوماً رأسه كنعم، فمررت يدها على فخذيه وقالت:

- الزواج حلوا، أليس كذلك!

أزاح يدها بعنفٍ وقال مازحاً:

- طول عمرك سافلة.

فأطلقت ضحكةً عاليةً، فاجأهما على إثرها رجلٌ غاضبٌ يقول:

- ما شاء الله، من هذا يا ست هانم؟

- نديم ابن الحاج حسنين توفيق.

دقق نديم النظر فيه محاولاً تذكره، وجه كالح عليه بصمة الشمس بارزة، ورأس صغير عليه شعر خفيف هائش مُتَسَخ، وشفة ترتخي للأسفل ..

- سيد! سيد الهفأ، يخرب بيتك.

- لا تقل هفأ مرة أخرى.

فضحك نديم وقال:

- حاضر يا عم سيد.

قالت سعاد:

- روح هات حاجة ساقعة للأستاذ نديم بسرعة.

لا يجب أن تأمره بشيء أمام أحد، فاعترض متبرماً، فصرخت فيه مُكرِّرةً أمرها فذهب على مضضٍ، ثم قالت ضاحكةً بعد انصرافه:

- ألم أقل لك إن الأمر مسلّ، وأبي استعمله عندنا في المخازن.
فضحك وقال:

- وكيف حاله وقت الـ...؟
فضحكت بصوتٍ عالٍ وقالت:
- هفأً.

- استأذن أنا.

- والحاجة الساقعة!

- بعدين.

- متى؟

- في أي يوم.

- ماذا تعني؟

- ربما أرجع إلى العمل مع والدي في خان الخليلي.

فغمرتها سعادةٌ مفاجئة، وقالت:

- والله بعودة... يبقى نشرب الحاجة الساقعة في مكان آخر.

أردفت كلمتهاً بغمزةٍ من عينها.

- مستحيل.

دخل سيد، فقال نديم:

- شكراً يا سيد يا .. يا هفأ.

فقال غاضباً بعدما مضى:

- لا تقل يا هفأ.

ثم رمى الزجاجة بعنفٍ على الأرض فانفجرت.

ومضى مُفكِّراً أن من الخطأ الدخول إلى المنطقة من جديد من بوابة

سعاد!

وعبر الطريق المزدوج الفاصل بين الغورية الحسين، وصار في شارع المعز يتأمله كسائح يراه لأول مرة، كان الشارع مكتظاً بالسائحين من كل لون، يتكاثرون على محال التحف والملابس المصرية القديمة والبرديات.

خلف كل هذا الجمال في الحسين وخان الخليلي وباقي المنطقة تكمن كلمة السرّ في الورش التي تُخرج المصوغات والتحف والبرديات وغيرها من الصناعات اليدوية المصرية الذي يشارك والده فيها بإبداعه.

تطلعت عيناه بلهفة لكل الورش لشوق أحدثه مرور الزمن وقت الغياب الماضي، ما زالت كما هي وإن تغيّر فيها بعض العمّال الذين لا يعرفونه ولا يعرفهم، يسمع الدقات الرقيقة لصناع التحف، وبداخل ورش صناعة الخزف والأرابيسك ينتشر العمّال كخلية النحل، بينما خلت ورش الفوانيس من أي مظهر من مظاهر الحياة.

صعد الدور الثاني للورش حيث يقبع والدُه في ورشته القديمة التي لم تتغير بمرور الزمن، بابها الخشبي المتهالك وقفلها الحديدي الصدئ المسكين، بقيت كما هي بتنسيقها وديكوراتها، بعض الأطباق المختلفة الأحجام على الحوائط، وصورتان كبيرتان متقابلتان على الحائطين: التي على الجانب الأيمن صورته مع أبيه وهو يعلمه كيف ينقش على المعادن، والتي على الجانب الأيسر صورة أبيه في شبابه بشاربه الكثيف محمّر الأطراف، وبشرته المشرقة وهو يمسك القادوم الصغير وأمامه طبقٌ ذهبي خالص تحفّه مجموعةٌ حسناواتٍ أجنبياتٍ.

أرخی بصره ليجد أبوه المسنّ وقد شاب ما تبقى من شعره على جانبي رأسه، وخفّ شاربه ونحل جسده وتقوّس ظهره قليلاً، ورقّ بصره، وتشعبت الخطوط في جبهته ووجهه.

عن يمينه كرسي صغير مسطح يشبّ عن الأرض قليلاً استقرّ عليه الراديو ينبعث منه صوت عبد المطلب شادياً: "ما تغلوش علينا دا احنا حوالينا ناس يستمنوا نظرة..."، وبجواره كوب الشاي ومطفأة السجائر بها سيجارة أوشكت على المغيب.

لم يتنبّه له الرجل العجوز لانهاكه بطرق طبقٍ نحاسيّ متوسط الحجم ينقش عليه صورة لعريس وعروس.

طرق الباب الخشبي عدة طرقات حتى انتبه له، فأمعن فيه النظر، وقال مشيراً بالقادوم في يده:

- لا تقل إنك نديم ابني ..!

ثم وضع القادوم بجوار الراديو وأخفض صوته، ورشف رشفة
من شايه، فابتسم قائلاً:

- هو بعينه.

- ياااااااااااااه!

ورفع الرجل بصره تجاه الصورة على الجانب الأيمن، وأردف
قائلاً:

- لم أتيتَ إلى خان الخليلي؟

جلس على كرسي مهترئ، وقال مبتسماً:

- وحشني!

نظر الرجل في عينيه ثواني، فحوّل نظره إلى يساره، فتابع الرجل
نقش الطبق وقال:

- خيرًا!

- كيف حالك يا حاج.

- أنا بخير، المهم أنت!

سكت نديم برهةً، فتوقّف الرجل وقال:

- ما لك ... تريد مالاً؟

- مستور والحمد لله.

- مستور.. هه، إذن لم أتيت!

- أنا عاطل.

- البلد كلها عاطلة، ما الجديد؟

- جئت لأعمل معك.

ترك الرجل أدواته من يده وضحك ضحكة بملء فيه، وأخذ
سيجارتته فوجدها انتهت، فألقاها في المطفأة..

- يا ابني أنا لست وزير القوى العاملة، الحالة زفت، والسوق ابن
كلب واقف.

فقام نديم واتجه خارجاً فاستوقفه وأمره بالجلوس، فاستدار بوجه
عابس، وعينين ذابلتين مشفقتين وجلس.

أشعل الرجل سيجارة أخرى، وأردف قائلاً:

- غصب عني، الدنيا واقفة من أولها لآخرها هنا، كثير من الصناع
هجروا مهنتهم للركود المتزايد يوماً بعد يوم، الصنعة لم تكن كما سبق
(وأشار لصورته بجوار الأجنيبات)، زمان كان السياح يأتون إليّ
ويبحثون عني بالاسم، كان الخير كثيراً وكنا (نتنمرد) على الزبائن
لكثرتهم، أما الآن فنبحث عن زبون بمجهر وسط هذا الركود...
الصين يا ابني خربت البلد.. ابتلعتها وضيّعت الصناعات اليدوية،

فبعد أن كانت الصناعة المصرية يُضرب بها المثل في كل أسواق العالم ومعارضه، وصلنا إلى أن تجار خان الخليلي يستوردون التحف الجاهزة من الصين لرخص ثمنها .. تخيل!

- أظن أن الزبون لا يُقبل على الصيني (الفلسو)

- اطمئن .. الزبون يقبل وبشراهة على المنتجات الصينية.

وتناول خاتمين بجواره، وأردف قائلاً:

- هذا الخاتم صنعته بيدي في ثماني ساعات وهو بخمسين جنيهًا، وهذا صيني لا يختلف عنه في شيء بسبعة جنيهات ونصف، حتى هذا الطبق النحاسي هدية من رجل لزوجته في ليلة الدخلة لما عرف سعر الفضة غير رأيه وقال: النحاس لم يكفر!

- معقول!

- معقول ونصف، أغلب الورش أغلقت بسبب الهجوم الصيني المتوحش على الصناعة المصرية، حتى فوانيس رمضان، حتى الكراسي الأرابيسك لم يعد في ورش خان الخليلي سوى ورشة واحدة تصنعها.

فقال مهمومًا:

- إذن لا أمل ..

- اتركني يومين أدبر أموري وسأُتصل بك، وإن شاء الله خير

فشكره وقام، فقال الرجل:

- ابتعدْ عن سعاد.

قالها الرجل وعيناه مشتغلتان بالطبق النحاسي لم يرفعهما نحوه،
فنظر له بعينين متسائلتين أن كيف عرفت؟

- الهفأً أبلغ منصور الريفي بجلستكما، فحدثني قبل مجيئك في
التليفون وهو منفعِل.

- وبِمَ رددتَ عليه؟

- لا تقلق فهو (هفأً) كزوج ابنته، لكننا لا نريد مشكلات مع أبنائه
فهم تقريباً مسيطرون على سوق جملة النحاس.

خرج نديم، وتوقفت يد الرجل عن العمل، وارتسمت على وجهه
أحزانٌ لا جلاء لها، فمللمة الولد في طلب الرزق وعصيانه عليه ألمٌ
يصبّ على روحه وقلبه أوجاعاً لا يستطيع دفعها.

(٢٤)

طاف الحسين وخان الخليلي بقدمين ثقيلتين تَجَرَّان خلفهما هَمًّا
كالصخور لما طرأ على حياته فجأة، لا تنطفئ بيده سيجارة إلا أعقبها
بأخرى بلا انتباه ولا تركيز، تصطرع في نفسه المتغيرات الجديدة
كأشخاص اجتمعوا عليه يتنازعونه لما لهم عليه من حقوق.
علاج البنت وإيجار الشقة ومستلزمات البيت والديون والفواتير..
والماجستير!

كان مروره بجوار مقهى الفيشاوي فأطلق ضحكة لم يستطع
كتبتها، فانتبه له بعض المارين وظنوه مجنونًا.
ماذا ستقدم لك الرسالة يا مغفل!
أليس الدكتور هنا بدرجة امتياز هو عاطل بدرجة امتياز!

وماذا لو فشل أبي في إيجاد فرصة عمل .. سيجد، وما سيعطيني إياه
ليس أكثر من مساعدة مهذبة منه فهكذا عهده، لكنه وُضع لا يحتمله
أبي أكثر من شهر أو شهرين على الأكثر، فكلقة إيجار الورشة وارتفاع
أسعار النحاس وأدويته تستنفد كل نقوده مهما تكن كثيرة نسبياً.

ومع اقترابه من البيت تذكّر وعد زوجته بالرحيل، لم يشعر بداخله
بانزعاج لذلك، ولم يُثر اهتمامه أن يرجع فلا يجدها، فهي في نفسه راحلة
على الدوام، لكن الرحيل هذه المرة أمر مُخرّج لمرض ابنته.

يستطيع أن يعيش بمفرده دون أي أحد حوله وأولهم وفاء، فهو
يجيد - كما تعود في الجيش - الغسل والطبخ والكي والتسوق وغيره ..
إذن فلم يحتاجها بجواره!

لا بد أن تفهم المرأة ألا تتباهي مجدداً بإتقانها للطبخ والمسح وغيره،
فهي بذلك تقدم نفسها للرجل كخادمة محترفة، وأن تعمل على إتقان
أنوثتها قبل كل شيء، والتمكّن من أدوات تلك الأنوثة الخافتة البريق
أسفل ركام المطبخ، فالمرأة التي تنسحب بأنوثتها من حياة الرجل إلى
الأواني لا تجني في النهاية سوى أطباق فارغة.

ربما لو كانت على ثقافة وفكر وطموح لكان الواقع أفضل، أو لو
كان بيننا هوايات وميول مشتركة لكان الالتئام أوفق، لكننا الآن على
طرفي خيط تتعلّق به طفلة صغيرة أخشى قطعه فتسقط!

كان الظن أن دخول المرأة حياتنا سيغير من الأمر شيئاً، لكن أكثر
النساء هنا لا يدخلن إلى حياة الرجل إلا من الباب المؤدي إلى المطبخ ثم
يغلقنه خلفهن.

دلف إلى الشقة فوجدها بالمطبخ تطهو الطعام، فنظر إليها بعينين
متسائلتين عن مكوثها، فأجابت:

- جائع؟

فتصنع ابتسامة ثم قال:

- جداً.

فأشاحت ببصرها تجاه الأواني تهندم مكانها لتهرب من نظرة عينيه،
فاقترب منها واحتضنها من الخلف وقال هامساً في أذنيها:

- أنا آسف، حقك عليّ.

فطفرت عيناها بالدموع وقالت:

- تمكّد يدك عليّ وأنا لا أقصّر في حقك ولا أغضبك، وطوال اليوم
أعمل على راحتك ما بين غسل وطبخ وكى ..

أعتذر مرة أخرى ومدح تفانيها في (خدمة البيت) واهتمامها بهما،
وألقى نظرة على مها في غرفتها فراها نائمة هادئة فاطمأن، ودلف إلى
غرفة نومه، فأبدل ملابسه ثم خرج إلى الشرفة فأشعل سيجارة، وألقى
عود الثقاب في الشارع ..

وحدة نفسية تُخيّم في أفقه، مشاعره لا وطن لها؛ لذا يشعر بالغربة،
لم تكن وفاء التفسير المنطقي (للاتّماء)، بل أكدت له بمرور الوقت أنه
ليس من هنا، وأنه وحيد بلا شريك في واقعه الخاص، فلم تنجح في

التسلُّ إلى عالمِه واحتلاله وإخضاع سلطانه لها .. (لها) بكل ما فيها
وبكل معانيها الأثوية التي تُرخي بظلالها على تخوم الرجل فتنبت
مراعيه لدفعها؛ فيستظلُّ بها، لكن وحشة تلازمه لا تنفك عنه كغرابٍ
ناعقٍ مُعششٍ في صدره لا يخرس.

(٢٥)

استيقظت فزعة من نومها في الثالثة صباحًا تنادي بصوتٍ صارخٍ
على عمر ونور وأمها، ففزعت أمها وهرولت نحوها فانكفأت على
وجهها لظلمة الصالة التي لم يسعفها الوقت لإضاءة أنوارها، ودلفت
إلى غرفتها فأضاءتها وجلست بجوارها ووضعت رأسها على صدرها
وتمت:

بسم الله الرحمن الرحيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

- ما لك، ما لك يا ابنتي؟

وناولتها كوب ماء، فأخذته وقالت بصوت منقطع النفس:

- مراد، مراد يا ماما .. أين هو؟

- ربنا يعلم بمكانه يا ابنتي، المفروض أنه الآن في البيت.

- لا إنه هنا، هنا في البيت .. سيقتلنا جميعًا بسكينه الكبيرة اللامعة،
إنها حادة جدًا!

- إنه كابوس لا أكثر، معقول مراد يقتل زوجته وولديه ..
استعيذي بالله من الشيطان ونامي.

- أين عمر ونور؟

تردّدت أمّها في الرد، فأردفت بقلق:

- أين هما؟

وهمت بالقيام، فاستوقفتها قائلة:

- جودي أصرت على اصطحابهما .. رأيتهما فكرةً جيدةً فوافقتُ.

قالت بصوتٍ نَمَّ عن ضعفها:

- معقول يا ماما، لمَ فعلتِ ذلك!

- أكان يسرُّك لو رأيك الآن على هذه الحالة؟

تنهدت وتمتمت:

حسبي الله ونعم الوكيل.

ثم رددتها أكثر من مرة حتى طفرت عيناها بالدموع

- يرضي من هذا يا رب؟ الأسرة كلها تشتّت، هو هناك بمفرده أو
بصحبة إحدى عاهراته، وأنا هنا مريضة، والولدان في بيت آخر غريب
عنهما .. حسبي الله ونعم الوكيل!

أطفأت نور الغرفة، وخرجت منها دامعة، وشغلت الكاسيت على سورة البقرة فانطلق بها صوت الشيخ "محمد صديق المنشاوي" هادئاً رخياً، كالماء الجاري بجدول رائق، فتسلل الصوت لخلال نفسها الواهنة، فطمأنها وأغمضت عينيها فنامت.

عادة قديمة لوالدها في حياته أن تُقرأ سورة البقرة كاملة في البيت كل ثلاثة أيام على الأكثر لأنها تمنع الشياطين من دخوله لهذه المدة، وكذلك سورة الكهف كل يوم جمعة من العاشرة صباحاً.

محا الكُحل وضاءة وجهها فتربّد، جرفته الدموع فارتسم حولها كبحيرة غائرة، تفرّع منها نهر أسود ممتد إلى القلب الكبير.

واستيقظت مع اقتراب الظهيرة، فبدأت بوضئها فصلّت الصبح وجلست في الصلاة بثوب أبيض رقيق قصير ارتفع لمتصف ساقها، قصير الكمّين، وأرسلت شعرها الأحمر خلفها بعقدة واحدة كطالبات المدارس، فبدت ببراءة الأطفال وحسنهم.

أرادت شرب النسكافيه على الريق فمنعتها أمها وتشاجرا شجاراً خفيفاً لطيفاً، وانصاعت لرأي أمها لشرب اللبن أولاً.

أحضرت أمها صينية بها سندوتشات فينو فوضعتها أمامها وهي تقول:

- الفطور.

نظرت بدهشة لها، ورجعت بالذاكرة أعواماً مضت، فابتسمت أمها وقالت تُذكرُها أكثر:

- جبن أبيض، وجبن رومي، وبيض البسطرمة، وحلاوة طحينية،
وقشدة، و...

فقاطعتها ضاحكة

- وأين (الزمزية)؟

ضجت ضحكة أمها كأن لم تضحك من قبل لجلاء سحابة يولاند
وقدرتها على المزاح معها بعد ليلة كثيفة تعيسة، لم يغمض لها جفن، ولم
تهدأ لها دمعة خلاها لما أصاب ابتتها، كانت تدور بالغرفة داعية متوسلة
أن يذهب الله ما بها من ألمٍ ومرضٍ حتى ولو ينزعه منها ويضعه فيها!

عجيبٌ أمر الإنسان، إن لم يسخط على قضاء الله ويتمرد عليه، لجأ
إلى التفاوض معه وعقد الصفقات، وكأنه أرحم منه بعباده، ولا يدري
أن الله يتلى العبد لا ليعذبه أو يهينه، ولكن ليدكره في زحمة الدنيا أن له
رباً، حتى العبد وهو في أوج طاعته ليس بينه وبين البلاء ستار ليدكره أن
الطاعة ليست رشوة لتوقي قضائه وقدره.

التفت خاطرها إلى أيام المدرسة، وقتٌ لم يكن لقسوة الأيام في
روحها نصيب، ولا تنال الأحزان من نفسها وقلبها، ولا تطفر عينها
بدمعة.. مع شروق الشمس توقظها أمها فتصلي الصبح، وترتدي زيَّ
مدرستها وتضفر شعرها (ذيل حصان)، ثم ترغمها على شرب اللبن
فتستعصي، فينظر لها والدها المقدم "أدهم فريد" وهو يضبط نياشينه
وكرفات البذلة العسكرية فتبادلته ابتسامته وتشربه.

لكن أين والدها اللواء الآن من كل هذا الألم الذي كان يدفعه عنها
بكل حنو ولطف؟! فنظرت لصورته على الحائط تعلوها شريطة سوداء
.. رحمه الله!

وقبل أن تسترسل في ذكرياتها عادت لأُمها حتى لا يتجدد الحزن
لفقده، فذكرى وفاته تعصر روحها إذ رآته ممزق الأشلاء على طاولة
الغسل لانفجار قذيفة به في أحد مشاريع الحرب بالجيش.
قالت أُمها بصوت هادئ:

- يولاند .. عندي لك مفاجأة.

شاعت في وجهها ابتسامة وتساءلت عنها فلم تخبرها، وقامت
حاملة الصينية إلى المطبخ، فأوصتها يولاند بعمل (النسكافيه) فأجابتها
بابتسامة هادئة.

تفتقد كتبها هنا، تلفتت حولها ربما عثرت على كتيب في أي مجال أو
مجلة، لكنها لم تجد فيها امتدًا إليه بصرها.

في بداية النضوج كانت القراءة مجرد ترفٍ عقلي، ثم أصبحت شيئًا
محببًا لما أضفت عليها من معارف ميزتها عن قريناتها، وبمرور الوقت
تحولت إلى عادة ممتعة خاصة بعد اطلاعها على الكثير من الكتب التي
تتحدث عن الحب، والروايات الرومانسية الحاملة.

لكن عاداتها أخذت شكلًا آخر بعد وقت من الزواج، حيث
أصبحت رفيقًا صادقًا، تلقى على مرافئ الكتب همومها، وتغوص في
لحجها بشعورها وإحساسها، فكانت كل اهتمامها بعد الواجبات المنزلية

المعتادة التي تقوم بها كل امرأة عادية غيرها، ومع صدق هذا الرفيق وتحمله لها إلا إنها كانت تكنّ له بعض البغض الدفين، إذ تحدثها نفسها أنها لم تكن بحاجة إلى صداقة ورقية تضيع فيها متع الحياة وبهجتها، لكن على أية حال أصبحت القراءة من وجه آخر وبالأعلى عليها، وثقافتها باب واسع من الألم، فالرجل قد يقبل تفوّق المرأة عليه في أي شيء إلا في الثقافة، فهو يعتبرها إهانة لا يستطيع دفعها، حتى التفوّق المادي يستطيع التفوق عليه بتزلفه لها برومانسية مُصطنعة ليستفيد من مالها، لكن الثقافة فلا.

رنّ هاتفها ..

- وعليكم السلام يا دكتور.

- ماذا قررت؟ أرجو أن يكون ربنا هداك.

قالها الرجل مُداعباً فابتسمت وقالت:

- موافقة، سأعود قريباً إن شاء الله.

- الحمد لله، لعلّي أردّ بعض أفضال والدك عليّ.

- العفو يا دكتور.

- إنها الحقيقة رحمه الله، سأنتظرك الأحد القادم.

أغلقت الهاتف وأمسكته بين كفيها واتكأت بأسنانها عليه، وشاعت في وجهها ابتسامة لمعت لها عيناها.

أي خير يجرمه المجتمع إذا دُمّرت المرأة، صدق الأقدمون حينما وصفوها بربة الخير والنماء.

- لولو .. لولو.

انتبهت لها، وأخذت النسكافيه من يديها، وقبل أن تسألها في أي الوديان سرح فكرها بادرت بإخبارها:

- ماما .. سأنتظم في عملي بالبنك من يوم الأحد.

قرار رجوعها للعمل بشكل فردي دون إذن مراد سيعقد الأمور أكثر ويزيد المشكلات، لكن على ما يبدو أن ابنتها ما عادت تقيم وزناً لأمره ونهيه.

فشردت الأم وهي واقفة تحمل كوب النسكافيه، فأرادت أن تدعمها وتستمدّ من مباركتها قوة، فقالت بنبرة راجية:

- قولي مبارك.

فابتسمت عن رضا مصطنع وباركت، فإن كان هذا ما سيسري عنها ويخفف وطأة المها فليكن.

رنّ جرس الشقة فابتهجت الأم قائلة:

- المفاجأة وصلت.

تغيّر وجهها، فأول ما ذهب إليه فكرها أن يكون هو، وأن أمّها تحاول الصلح بينها بطريقة مبتكرة (من وجهة نظرها).

دلف الطفلان مسرعين نحو أمّهما فقَبَّلاها واحتضناها تتبعهما
رضوى، فقالت وهي تشير لجودي بوجهها:

- أهذه هي المفاجأة؟!

فانصرفت أمّها وهي تقول:

- أكيد لا ..

فقالت جودي:

- مفاجأة؟ أنا أحسن من مئة مفاجأة.

وأردفت وهي تجلسُ بجوارها:

- أي مفاجأة؟!

قالت يولاند:

- عمر، خذ نور ورضوى والعبوا بالداخل.

قالت جودي:

- يبدو أن هناك أخبارًا سعيدة.

- سأعود للعمل من يوم السبت القادم.

فرحت جودي بالخبر واحتضنتها وثمنت قرارها، وتحوّل نظرها
نحو الأم التي أتت تحمل صينية عليها عصير برتقال.

- مبارك يا طنط.

تصنَّعت ابتسامة وسكتت، ابتتها تشبهها كثيرًا، وما فعلته ليس عن
قوة، ولكنه قرار خرج من رَجَم اليأس، وتهوّر مَنْ فَقَدَ الأمل .. كم
تمنت أن لو كانت ابتتها نسخة مُغايرة!

أردفت جودي:

- قبل ذهابك إلى العمل يوم الأحد سنذهب معًا إلى النادي يوم
الجمعة.

- فعلاً أنا بحاجة للذهاب إلى النادي.

دَقَّ الباب بإيقاع عازف، فتهلَّل وجهها وقالت مُحاطبةً يولاند:

- المفاجأة!

فانتبهت يولاند وتابعت خطوات أمِّها بتركيز ..

فتحت الباب فدلِف "كريم" في زيِّه العسكري، شاب لطيف
الطلعة، مُتفتِّح البشرة، فيه لمسةٌ من الحُسن كالتِي ليولاند، لكنه أَقْلُ
منها، فأخذته بين أحضانها وقبَّلته، وقامت يولاند فاحتضنته وقبَّلته
أيضًا، وسلَّم على جودي، وخرج الأطفال على إثر الصوت، فجشا على
ركبتيه فاحتضنهما، ولَمَّا رآهم مجتمعين سأل عن مراد أين هو؟

(٢٦)

كان الوقت قُرب العصر حينما استيقظ عزت من رَقْدَتِه على الأريكة في صالة البيت، إلا أن الظلمة المنتشرة في الشقة لا توضح ملامح الوقت، فبدت بكآبتها المنبثة في أرجائها كمقبرة قديمة، عطنت برائحة الكيماوي الذي أبى أن يُفارق جُدرانها بفراق ميسرة، مع انتشار واضح لروائح الخمر والسجائر والحشيش ..

فاعتدل في جلسيته وسعلَ بحدةٍ أرَدَفَتْهَا بصقَّةٌ، ثم تنفَّس الصعداء، وأخذ يتحسَّس ريموت التليفزيون على المنضدة حتى وجده وشغَّله، أرخت الإضاءة المنبعثة من التلفاز بعض الوضوح على الصالة التي بدت كسوق نافقة، تراكت فيها زجاجات الخمر وعلب السجائر وبعض معلبات الأطعمة سريعة التحضير، ثم استلقى على ظهره ناظرًا إلى السقف بعدما أشعل سيجارته ..

فكّر كثيرًا في دوافع هروب ميسرة من المشفى أثناء تلقي العلاج،
كل الأسباب ليست وجيهة ولا منطقية، فهي ليست بالمرأة الشابة
الجميلة التي ملّت الحياة الزوجية فلاذت بالانحراف كنوع من الحرية
كاللاتي يَراهنَّ في الكباريه، وليس هو بالزوج المُتسلّط الذي يحمّل
زوجته فوق طاقتها .. إنها مريضة مرضًا مزمنًا! فلم هربت؟

فأرجع السبب الذي لا يعرفه لنفسه!

دَقَّ جرسُ الشقة، كان البواب يحمل كيسًا بلاستيكيًا به بعض
المعلبات، فأخذها وأغلق الباب ثم أضاء أنوار الصالة فبدأ كثيف
الliche مبعثرة، هائش الشعر، لعبت به الكهولة في وقتٍ مبكر، لا
تختلف الصالة بفوضويتها عن نفسه وما فيها.

فمضى إلى المطبخ، فوضع ما بيده ثم دلف إلى الحَمَّام، فغسل وجهه
وتحاشى النظر لصورته في المرآة، لكنه رجع للخلف خطوة كأنها نادته
واستوقفته، فتأمّل وجهه بالمرآة وتحسّس لحيته بيده، ومَرَّرَ أنامله على
رأسه الثائر.

أهكذا يمرُّ العمر!

يمضي بنا في طرق غامضة لا فائدة منها سوى تعب المشي وغُبار
الطريق، نحمل خلال سيرنا الهمَّ والغَمَّ، وينتهي بنا إلى الوجد والألم،
ثم نَفْقِدُ خلاله رفاق الشقاء.

ما كل هذا العبث؟!

أصبحت نبتة وحيدة في صحراء التيه، وعمّا قريب ستكون جذراً
جافاً في صحراء النسيان ..

وحيداً بلا أب ولا أم ولا أخ ولا أخت ولا زوجة ولا ولد ..
تغمس رأسك بين النهود، وتقمع ذهنك بين الحلمات، وتروي خسائك
الزمنية بالخمير لعلها تنبت زهر النسيان فتستظلُّ به وقت الذكرى!

وتمضي الأيام وأنت كالجدار في وجه الشمس، تُعلِّل نفسك بظلك
الممتد الدائر، إلى أن يأتي يوم فتشرق عليك شمسُه وأنت مُنهدم .. فُتات
لا ظلَّ له .. فلکم خدعت نفسك!

طُرق الباب عدة طرقات فانتبه له وفتحته، كان مراد يتبعه هشام،
حدَّجهما بنظرة جامدة لم يفهماها، فنظر كلُّ إلى الآخر نظرة تعجُّبٍ من
منظره الجديد، وبعد هنيهةً أذنَ لهما بالدخول:

سأله مراد:

- ما لك يا عزت؟ لا تذهب إلى الجامعة ولا ترد على الهاتف؟

فرد بغضبٍ:

- عجباً لأمرک يا مراد، تأتي مُعَاتِباً وأنت تعلم السبب، ألم أخبرك
أن ميسرة هربت من المستشفى وطلبت منك أن تبحث عنها فماذا
فعلت؟ أنت لا تعرف ماذا يعني للرجل أن تفرَّ منه زوجته.

آلمته الكلمة، أنت لا تدري أن بي من زوجتي ما حلَّ بك، وأن
هيئتي المنمَّقة التي أبدو عليها الآن كاذبة .. بداخلي أشبهُك، بلحيتك

الكثيفة وشعرك الهائش العابث .. أَشْبِهْكَ، لقد قَرَّتْ زوجتي مِنِّي من
زمن يا عزت، ولكن أَأَشْكُو لك أم أسمع شكائتك وأُطِيبَ خاطرك
بكلام كاذب لو ينفع لنفعي!
تقرُّ المرأة أولاً بقلبها! .

- اجتهدتُ قَدْرَ المُستطاع، وكلمت كل أصدقائي حتى مساعد
وزير الداخلية لكنهم فشلوا في الاستدلال عليها.
أخذ عزت نفساً عميقاً من سيجارته، وأبقاه بداخله ثواني، ثم
أخرجه بطريقةٍ بين النفث والتنهّد
قال هشام:

- رَوِّق يا دكتور، إن شاء الله سنجدها.

لا يحتمل وجوده ولا سماع صوته، تقف كلمة "الطرد" على
أطراف لسانه، لكنها لا تخرج لوجود مراد، أصبح هشام نقطة سوداء
تتسع مع باقي البقع التي أظلمت نفسه في الفترة السابقة والمستمرة،
كيف دخل هذا الـ .. الإنسان إلى حياته، بلطجي وقوَّاد وتاجر برشام
ومخدرات!

ساد صمتٌ دقيقةً، قطعها مراد قائلاً لهشام:

- قم نظّف الشقة.

- نعم!

حدّ له النظر فاستدرك هشام قائلاً:

- حاضر، حاضر.

وقام يبحث عن أدوات التنظيف، بينما قام مراد ممسكاً بذراع عزت إلى الحمام ليحلق لحيته ويهدّب شعره، فسحب ذراعه برفق وقام إلى غرفة الشرفة وجلس، فتبعه مراد وفتح بابها فامتلاً وجهه عزت بالنور فتحاشاه بيده، ثم أرسلها برفق، ونظر له مراد بوجهٍ مُتسائلٍ عما هو فيه، فطفرت عيناه بدموعه!

يثق أن صديقه لا يبكي لفراق زوجته، لأنها خرجت من حياته من زمن، ولم تبقَ في دائرة اهتماماته أكثر من السجائر التي يشتكي من ضررها دوماً ومع ذلك يدخنها، وكثيراً ما تأفّف من وجودها بحياته، وأصبحت أرجى أمانيه ألا يراها في وجوده، أو يمتلك الشجاعة فيطلقها!

وكان يستحضر من مآثر الماضي ما كان يهجو به الرجال زوجاتهم فيضحك ويضحك جلساؤه!

لم يأنس من صديقه تفسيراً لسؤاله الصامت، فقال:

- صدقني .. لا شيء يستحقُّ العناء أو الحزن عليه.

- كل شيء تحطّم فجأة ..

- لا شيء يحدث فجأة، حتى الموت نحن نعلم متى يكون قبل أن يكون بسنين العمر التي عشناها .. كل شيء إلى زوال.

- ما أجمل الموت لو يأتي!

- الموت ليس حلاً لمشكلاتنا، الرغبة في الحياة هي الحل.

- لم تعد لي رغبة فيها.

الشعور بصغر النفس لما جنته يُغصّ طعم الحياة، وخسة المواقف التي نتخذها أحياناً وقت ضلال العقل تقتل في النفس الحياة ولذتها وتشوّه حُسْنَهَا في الروح ..

- أنت أكبر من كل المشكلات يا عزت، عليك أن تقف على قدميك مرةً أخرى، وإن كان على ميسرة فما زال الأمل موجوداً في العثور عليها.

ليست ميسرة الوحيدة التي أشكلت الحياة وزيّفت طعمها، بل رغباته التي فشل في تحقيقها، وملذاته التي حرمها .. نهى القربة البعيدة من أكبر مشكلاته ولكن أتى له أن يصرح لمراد بذلك، كيف يصل لهذا العنقود فيرتشف منه شهداً يُنعش نفسه ويعيد له حياته وعقله، ويطغى على كل المشكلات فيبدها! وكأني رجل لم ينس أنه وحيد في هذه الدنيا فوق الأربعين من عمره دون ولد يناديه "يا بابا" ويحمل اسمه بعد موته، فلا ينتهي ذكره من الدنيا بخروج الروح.

تتم مُستغفراً وهو يبحث عن المطفأة ليدفن بها سيجارته المنقضية، فقام مراد وأخذها من يده ورمى بها في الشارع، ثم مدّ له يده من جديد، فقام مُدْعِناً دون جدال أو اعتراض، وتقدّمه مراد إلى الحمام، كان هشام لا يزال يُنظّف في الشقة حتى بدت النظافة في الصالة.

أَمْسَكَ مَرَادَ بِالْمَقْصِ وَخَفَّفَ لِحْيَتَهُ، ثُمَّ أَتَمَّ حَلْقَهَا بِالْمَيْكَنَةِ
الْكَهْرِبَائِيَّةِ حَتَّى أَشْرَقَ وَجْهُهُ

قال عزت:

- المرأة أجهل ما في الدنيا، لا أدري لِمَ يُشَبَّهونَهَا بِالْقَمَرِ، تَشْبِيهَهَا
بِالشَّمْسِ أَوَّلَى، فغِيَابُ الْقَمَرِ يَتَّبِعُهُ النُّعَاسُ وَالنُّومُ، أَمَّا غِيَابُ الشَّمْسِ
فَيَتَّبِعُهُ الصَّقِيعُ وَالظُّلْمَةُ!

وَأَيُّ صَقِيعٍ يَا عَزْتَ!

تَصْنَعُ مَرَادَ ابْتِسَامَةً وَسَكَتٌ بُرْهَةً ثُمَّ قَالَ:

- نَهَى سَأَلْتَنِي عَلَيْكَ.

فَارْتَجَفَ قَلْبُهُ وَانْتَابَتْهُ قَشْعَرِيرَةٌ، فَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ بِشَدَّةٍ كَيْ يَتِمَّاسَكَ
وَلَا يَبْدُو عَلَيْهِ تَأَثُّرٌ لِسَمَاعِ اسْمِهَا

- وَاللَّهِ لَا أَدْرِي، أَلْعَنَكَ أَمْ أَلْعَنَهُ!

- عَيْبٌ يَا كَرِيمَ، أَخْتُكَ الْكَبِيرَةَ.

- أَخْتِي الْكَبِيرَةُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَقْلُهَا أَيْضًا كَبِيرًا، وَنَفْسُهَا أَكْبَرُ،
وَكِرَامَتُهَا أَكْبَرُ وَأَكْبَرُ ..

لَمْ تَرْفَعْ رَأْسًا وَلَمْ تُعَلِّقْ عَلَى كَلَامِهِ الْمَوْجِعِ وَانْكَنَفَتْ بِالصَّمْتِ،
وَشَرَدَتْ بِنَظَرٍ عَابِثٍ فِي هُوِ ابْنِهَا فِي آخِرِ الصَّالَةِ بِلَعْبِهَا، بَيْنَمَا تَوَلَّتْ أُمُّهَا
مَهْمَةً الدِّفَاعِ عَنْهَا.

- يا ابني، أنتَ ما زلتَ صغيرًا ولم تعرف الدنيا بعد، حينما تتزوج وتكون لك أسرة وأبناء ..

قاطعها بصوت جهوري انتبه له الأطفال:

- سأعرف أشياء لم أكن أعرفها، وسأفهم أشياء لم أكن أفهمها ..
أنتم الاثنان من لا يعرفان الدنيا .. متى كان الزواج مفتاح الفهم، ومتى كان حذاء على كرامة المرأة يجب أن تتحمله من أجل الأطفال الذين سينتقل إليهم الدُّلة والمسكنة منها!

وبنفس حدِّته توجَّه ليولاند قائلاً:

- كيف سكَّت على كل ما حدث؟! وكيف تحملتِ ألم الصفع والضرب؟! إن كنتِ عديمة الإحساس ولا تشعرين لهذه الدرجة فكان الأولى أن تصوني عراقة بيتك (أشار بيده إلى صورة والده ذات الشريطة السوداء)، أنت ابنة رجل مات من أجل وطنه، لم يبخل بدمه أن يُراق فيروي ترابه، ولا بلحمه أن يمزَّق ليستر عورته .. أنسيَتِ يا ابنة الشهيد؟!

طفرت عيناها بالدموع وجرت نحو حجرتها فتبعتها أمُّها، لكنها أغلقت الباب دونها فرجعت قائلةً وهي تُهدِّئ الأولاد:

- يا ابني حرام عليك كفى.

كان صوته المرتفع يتسلَّل إليها بالداخل وهي مُلقاة على السرير

تبكي.

- كنت أقول عنها "الهانم" يولاند، الجمال والشيابة والوقار والثقافة، لكنها الآن أقل من أيّ أحد ..

- كفى يا ابني من أجل الولدين.

- الولدان هم من عرفاني المصائب التي تخفونها عني.

فقامت الأم وأدخلتهما إلى الغرفة، ثم خرجت فأخذت اللعب وقالت لهما:

- خالكما أعصابه مُتعبةٌ من تدريبات الجيش، سيكون على ما يُرام بعد قليل، العبا ولا تشغلا بالكما به.

وخرجت متجهة إلى غرفة يولاند، فدقّ جرس الباب، ففتحته فرأت نهى مبتسمةً:

- أهلا يا ابنتي.

شعرت بحالة التوتر الموجودة، وحدّجها كريم بنظرة غاضبة:

- حمداً لله على سلامتك يا كريم.

- خير ..؟!!

التفتت له الأمُّ قائلةً:

- عيب يا كريم .. ضيفتنا.

- ماذا حدّث؟

- تسألين ماذا حدث! أسألي أخاك.

هَزَّتْ رأسها لفهمها مرمى كلامه فلم تُعَلِّقْ، وسألت عن يولاند فأشارت بيدها نحو الغرفة فدلقت إليها، كانت دامعة العينين متورمة الجفون، مستلقية على ظهرها ومُربِعةٌ يديها على صدرها تمسك بمنديل في يدها اليمنى، فجلست بجوارها وكأن يولاند لم تشعر بوجودها

- يولاند ...

تفلَّت الكلامُ منها وتبَخَّرَ، فلا تدري من أين ولا كيف تبدأ، كان كلام مراد مُقتَضِباً معها لما أخبرها بما حدث "غضبتُ منها فارتفع صوتي فتركت البيت" ولكنها لا تثق بمراد ولا تُصدِّقُ له كلمةً خاصة في موضوعه مع يولاند، فالمواقف الماضية التي شهدت بعضها كانت تبدأ بالسَّبِّ واللَّعْنِ وتنتهي بالضرب، وعلى ما يبدو أن هذه المرة أسوأ مما سبق، فشعرت أنها لن توفِّقَ لشيء، وأي كلام ستقوله هو من باب "ذهبت وكلمتها".

لكنها في الحقيقة تتعاطف مع يولاند إلى أبعد مدى، وترى أن الخطأ في هذا الكون المنتظم هو وجود "رجل" فَظٌّ يعبث بالطبيعة المؤنثة، ويفرض عليها سطوته وجبروته وهمجيته.

- مراد أرسلني لأسترضيك.

- أرجو أن ننهي الموضوع بهدوء.

- ننهيه؟ كيف؟

- يطلقني.

- لا أصدق أنك تعنين ما تقولين، لن تستطيعي العيش بمفردك!

- سأستطيع .. مثلك.

قالت لها وهي تشيح بوجهها نحوها، وخزتها الكلمة، فقالت بنبرة ناصحة:

- أنت لا تعرفين معنى العيش بمفردك ومدى قسوته.

- وأنت لا تعرفين معنى العيش مع مراد وقسوته.

ربت على يديها ثم انسحبت، لم تعد قادرةً على استكمال الحديث بعدما تحوّل لجدلٍ، فكلتاها ترى أن عذاب الأخرى أخفُّ، ومعاناتها أيسرُ.

(٢٧)

نَزَلَ نَدِيمُ السَّلَمِ الْحَجَرِيِّ حَامِلًا عَلَى كَتِفِهِ بَعْضَ الْأَوَانِي النَحَاسِيَةِ
الْمَنْقُوشَةِ، يَتْبَعُهُ صَوْتُ وَالِدِهِ مَنِبِّهًا أَنْ يَأْخُذَ حِذْرَهُ كَيْ لَا تَقَعَ الْأَوَانِي
عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ انْعَطَفَ يَمِينًا وَظَلَّ يَتَعَرَّجُ مَعَ الطَّرِيقِ الضَّيِّقَةِ حَتَّى
انْتَهَى إِلَى شَارِعِ الْمُعْزِ الْمَزْدَحِمِ، كَانَ الْوَقْتُ قُرْبَ الظُّهَيْرَةِ، حَيْثُ اشْتَدَّ
الشَّمْسُ وَتَبَخَّرَ الْحَرَارَةُ مِنَ الْأَرْضِ الْحَجَرِيَّةِ بِشَارِعِ الْمُعْزِ، فَتَصَبَّبَ
عَرْفُهُ، وَضَاقَتْ رَقَبَتُهُ بِهِ.

اِخْتَلَفَتْ الْأَيَّامُ وَتَبَدَّلَتْ، هَذِهِ الْأَمَاكِنُ الَّتِي وَطِئَ أَرْضَهَا لَاهِيًا
وَقْتُ الطُّفُولَةِ، وَعَابَثًا فِي صَدْرِ الشَّبَابِ، كُلُّ خُطْوَةٍ لَهَا ذِكْرٌ تَتَجَدَّدُ
بِكُلِّ نَظْرَةٍ يَنْظُرُهَا. أَيَّامًا كَانَتْ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ وَالْحَرِيَةِ الْفَطْرِيَّةِ الَّتِي
يَحْمِلُ الْآبَاءُ تَبْعَاتِهَا وَأَضْرَارَهَا عَنِ الْأَبْنَاءِ إِذَا انْطَلَقُوا عَابَثِينَ غَيْرَ عَابَثِينَ
بِقَيُودِ الْمَجْتَمَعِ وَتَقَالِيدِهِ.

وقتاً كان يداعبه خاطر الكبر والرجولة والفحولة، كان يستعجل ذلك بعضيان والدّه وتحرره من قيده وأوامره، فيجادله بالرأي والحجة، وبمنطقه الصغير يسفّه نصحه وإرشاده، لما نصحه بالعدول عن السياسة ودراسة الآثار والتاريخ ليعود إلى "المعز" مرشداً استنكف برأيه، فالسياسة هي المستقبل والشهرة والجاه، لكنه الآن عاد إلى "المعز" كأبيّ "عامل أمي" يحمل الأواني والنحاس إلى المتاجر!

كان ينظر إلى أحد المرشدين السياحيين ويمعن نظره في وقفته بين الأجانب وهو يشرح لهم الآثار وتاريخها باللغة الإنجليزية، كان شاباً مُشرق الوجه مُبتسماً.

تُرى على كم يتحصّل هذا الشاب من وظيفته غير البقشيش والهدايا من السياح، غير علاقاته بأجهزة الدولة ووجاهته؟!

ثمانائة جنيه فقط وعده بها أبوه أول كل شهر، ولكن أنى لهذا المبلغ الزهيد أن يستر عورة الأيام ويشبع العوز والحاجة!

سار مُنكسراً، يحمل الهمّ والخيبة بين جنبيه، يعتصره الفشل عصراً، ويُحاكّم القَدَر بكلماتٍ بشعة!

استوقفه سيد الهفأ بضحكةٍ عاليةٍ ساخرة:

- أستاذ نديم ..

لم يستطع أن يدعه يُكمل سُخريته المطلّة من عينيه، فهو ي على رأسه بإناء نحاسي فشجّ رأسه وفاض الدّم على وجهه وملابسه، فتجمّع

الناس وحالوا بينهما، ومضى نديم حتى اقترب من آخر الشارع فوجد
نهى بصحبة إحدى صديقاتها تقف بقوامها الممشوق ترتدي ثوباً أسود
ضيقاً، ينساب شعرها الكثيف على ظهرها بهدوء فاتن تشتري
إكسسوارات فرعونية، فانعطف مُسرّعاً في إحدى الحارات حتى لا
تراه، فكادت الأواني أن تسقط، ثم جدّ في سيره حتى وصل إلى أحد
المتاجر بالقرب من مشفى الحسين الجامعي.

ونُقل سيد إلى مستشفى الحسين لإسعافه، بينما صرخت سعاد
زوجته بالسَّبِّ واللَّعن لنديم وأبيه، وتوعدت بأخذ حقّ زوجها،
وتركته بالمستشفى على سريريه وهي في فورة غضبها، وانطلقت
كالمجنونة نحو الورش بخان الخليلي فقابلت نديم بإحدى العطفات
فاستوقفته.

فقال مُحدِّراً:

- ولا أي كلمة، اذهبي إلى قسم الشرطة وحرري محضراً بما
حدث.

- قدامي، بيننا حساب يجب تصفيته بعيداً عن الشرطة.

- ليس بيننا أية حسابات.

- ستندم إذا لم نصف حسابنا قبل وصول الموضوع إلى إخواني وأبي،
يجب أن تخاف على أهلك وتجارته.

فأذِنَ لها ومضى يشقُّ الحارات الضيقة برفقتها، قد يُصاب أبوه
بأذى منهم بسببه، ولن يكون له عينٌ يُواجهُها بعدما عطف عليه
واقطع له من ماله لِيُساعدَه.

دخلت إلى بيتٍ قديم، دوره الأرضي مخزنٌ للنحاس والتحف
اليهودية فلم يلحظ عمَّاله مروَّرها من أمامهم، فصعدت إلى الطابق الثاني
وفتحته، كانت شقة متواضعة بها تليفزيون وثلاجة ومنضدة وأربعة
كراسي، فجلس إلى أقرب كرسيٍّ غاضبًا.

قالت وهي تفتح النافذة ليتجدد الهواء بالشقة:

- هذه الشقة كنا نُؤجِّرُها لطلبة الأزهر الوافدين، لكنني منعت
تأجيرها منذ سنتين.

- ماذا تريدان؟

- قُمْ اغسِلْ وَجْهَكَ ويدَكَ.

نَظَرَ في يديه فراهما متسختين، فتجاهل كلامها وقال:

- سعاد .. إياكم أن تعتدوا على أبي أو تمسوه بسوء.

فجشت أمامه ونظرت في عينيه فبدا صدرُها الممتلئ من عباءتها:

- أنا لا أقدر أن أفعل شيئاً يُغضبُكَ أو يسيئُ إليك .. قم اغسل
وجهَكَ وسأحضِرُ لك شيئاً تشربه.

فدلف إلى الحمام فغسل يديه، ووضع رأسه أسفل الماء ثم نظر
لوجهه بتأمل.

توالى الفشل يتطوّر دائماً إلى مرحلة الإحساس بالضيق، ثم يتطوّر ليتتهي إلى اليأس، ثم تتوج النهاية باللامبالاة بأي شيء مهما يكن مهماً، يساعد على ذلك لوم النفس المتكرر وتأنيبها المستمر واتهامها بالتقصير فيلعنها ويكرهها.

كل الأبواب مُغلقة، عليها أطنان من الأقفال، وما ثمّ باب مفتوح إلا وخلفه صحراء شاسعة فضاء لا أثر فيها للحياة، يتيه فيها المرء فيتعذّب بطموحه وآلامه، كما يتعذّب الضال برؤية السراب!

خرّيج اقتصاد وعلوم سياسية ثم دكتور .. أية سخافة تخدع بها الناس ومن لا يعرف حقيقتك وحقيقة تملك المشوّه كعجوز مزينة! فما أنت إلا "صفر" مُنمّق، منقوش بيد محترفٍ، لكن لا معنى لك.

لست أكثر من صفر، تعيش حياةً صفرية، تحاول أن تقنع الناس بحياتك التافهة وإنجازاتك الوهمية على أنها شيء يُذكر، كالذي يريد أن يدخل في الرياضيات معنّى جديداً: أن صفر زائد صفر لا يساوي صفراً بل صفرين. وهو بذلك يقول للناس بلسان حاله إنه ليس فاشلاً واحداً بل اثنين، وليس أحقّ واحداً بل اثنين، وليس جاهلاً واحداً بل اثنين.

كيف ينتهي كل هذا العبث؟ ماذا ينقضي - كوني شاباً - عن أي شاب آخر في الوجود حولي حتى أستحقّ الحياة التي أريدها؟!

خرج من الحَمَام، فرأى سعاد تجلس على أريكة الأنتريه البالية، وعلى يمينها صينية بها علبتا بيرة، ويدها سيجارة تُدخنها، عليها

قميصٌ نومٍ أسود خفيفٌ مشدود من أسفل الصدر جسّم ثدييها بدقة،
ينسدل شعرها الأسود على ظهرها، وبدا طلاء شفتيها الأحمر الأدكن
لوقوع النافذة خلفها، وما ثمّ ضوء بالشقة غير ضوء النافذة، فابتسم ولم
يعلّق على ما رأى، وجلس بجوارها.

مدّت له يدها بسيجارة فأشعلها وأخذ منها نفساً عميقاً ثم نفثه
وقال:

- ماذا تريدان؟ وأيّ حسابٍ يجبُ تصفيتهُ؟

كانت مُطبقةً على شفيتها السفلى، فأرسلتها وقالت:

- لا تكن حماراً!

- سعاد أنا ..

- أنا أحبُّك!

نظر إلى فخذها اليمنى، فرأى أثر حرق قديم، فشدت قميصها
لأسفل فغطته، وتناولت علبة بيرة ففتحتها وناولته إياها، وفتحت
الأخرى وأخذت منها رشقةً، وبدا عليها ضيقٌ لرؤيته للحرق القديم.

بعدما حدثَ ما حدثَ بينهما في القبو، تكاثر عليها أبوها وإخوتها،
وأذاقوها ضرباً مؤلماً، انتهى بالكي بسيخ حديدي مُحْمَى، حتى تتذكره
كلما أقدمت على شيء مثل الذي أقدمت عليه كما قال لها أبوها، ثم
سجنوها بغرفتها ثلاثة أشهر لا ترى النور، وضاعت نفسها بالإهانة

المستمرة وتذكيرها بما حدث، فحاولت الانتحار مرتين، ففشلت،
فأطلقوا سراحها شريطة أن تتزوج، وكان العريس .. سيد!

كان نصرًا مؤزَّرًا للأهل أن أرغموا الأنثى على الزواج بمن
يختارونه، وكان سيد بالذات إذلاً لها، وتكلل النصرُ بخروج نديم من
الحي كله بلا عودة، لكن هذا الحرق لم يُثنيها عن فعل شيء، ولم يكن
ذكرى أليمة تمنعها من اقتراف المحذور، بل كان طاقة غاضبة تدفعها إلى
كل شرٍّ يُصيب أهلها انتقامًا وثأراً .. ولم ينسها نديم.

وكان سيد أول فرائسها، فعذبته جنسياً، ولم تكن تُمكنه من نفسها
إلا لضرورة ملحة لها، وعزمت على عدم الإنجاب منه، فتعاطت
حبوب منع الحمل واتهمته عند أهلها بعجزه عن الإنجاب.

في حركتها لأخذ علبة البيرة انحسر القميص عن أثر الحرق ثانية،
فألقي عليه نظرة متسائلة، فقالت:

- دليل حبي لك.

وسهمت ببصرها بعيداً عنه، ثم رشفت آخر قطرة بعلبتها وقالت:

- البيرة لا فائدة منها ..

وابتسمت في وجهه وأردفت قائلة:

- عندي فوديكا .. تشرب؟

فهز رأسه موافقاً، فقامت نحو الثلاجة تتمايل وتهتز بأنوثته لم
يعهد لها بها، كأنها ركب فيها امرأة جديدة فألهمت ذكوره، وتبدت له

كَبْـُـحِيرَةٍ عَذِيَّةٍ سِيلَقِي عَلَيْهَا هُمُومَهُ وَأَوْجَاعَهُ، فَقَامَ خَلْفَهَا وَاحْتَضَنَهَا مِنْ
الْخَلْفِ وَهِيَ مَمْسُكَةٌ بِزَجَاجَةِ الْخَمْرِ، فَقَبَّلَهَا فِي رَقَبَتِهَا، وَأَمْسَكَ ثَدْيِيهَا
بِكِلْتَا يَدَيْهِ يَعْتَصِرُهُمَا بِرَفَقٍ فَانْتَابَتْهَا قَشْعِرِيرَةٌ، فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ وَوَضَعَتْ
الزَّجَاجَةَ جَانِبًا، فَالْتَقَتِ الْعَيُونَ الظَّامَّةُ، وَتَجَاذَبَتِ الشِّفَاهُ فَلَثَمَهَا
وَامْتَصَّ رَحِيقَهَا، وَيَدُهُ تَعْبَثُ بِثَدْيِيهَا الْمَكْوَّرَ، فَتَأَوَّهَتْ وَأَمْسَكَتْ ذَكَرَهُ
بِعَنْفٍ فَاتَّقَدَتْ نَفْسُهُ أَكْثَرَ، فَحَمَلَهَا بِقُوَّةٍ وَعُنْفَوَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وَدَخَلَ بِهَا إِلَى
الْغُرْفَةِ وَأَغْلَقَ الْبَابَ بِعَقْبِهِ.

ظَلَّ مَعَهَا وَقْتًا تُدَاعِبُهُ وَيُدَاعِبُهَا، تَقُولُ لَهُ مِنَ الْكَلَامِ الْقَبِيحِ مَا
يُطْرِبُ النَّفْسَ وَقْتَ ثَوْرَتِهَا، وَتَصْرُخُ وَتَتَأَوَّهُ بِصَوْتٍ عَالٍ حَتَّى تُبْقِيَ عَلَى
جَهْرَاتِهِ مَشْتَعَلَةً مُضِيئَةً.

اسْتَعْمَلَتْ مَعَهُ "ذَكَاءَ الْأُنْثَى" فَنَجَحَتْ فِي تَرْوِيضِهِ كَرَجُلٍ.

مَرَّتْ "وَفَاءٌ" بِخَاطِرِهِ وَقَدْ مَضَاجَعَتْهُ لِسَعَادَةِ وَالتَّقَاءِ الْخِتَانِينَ،
فَابْتَسَمَ سَاخِرًا مِنْهَا وَلَعْنَهَا، فَلَمْ تَكُنْ تُبْدِي لَهُ مِنْ أَنْوُثَتِهَا شَيْئًا أَكْثَرَ مِمَّا
تُبْدِيهِ الْأُمُّ لَطْفِهَا، وَلَمْ يَرَ عَلَيْهَا فَتْنَةَ الْمَرْأَةِ الَّتِي تَرْوِي الظَّمَأَ وَتُشْبِعُ
الشَّبَقَ.

كَانَ يَقْتَطِعُ مِنْ رَاتِبِهِ مَبْلَغًا لِتَشْتَرِيَ بِهِ قُمَصَانَ نَوْمٍ وَأَدَوَاتًا لِزِينَتِهَا،
فَكَانَتْ تَشْتَرِي بِأَغْلَبِ الْمَالِ مَلَابِسَ لِلْخُرُوجِ، وَلَمَّا عَاتَبَهَا كَانَتْ تَلُومُهُ
لَأَنَّ الْمَالَ لَا يَكْفِي.

وَلَمَّا تَكَرَّرَ الْأَمْرُ سَبَّهَا، وَقَالَ: "أَنَا لَا أَرَاكِ جَمِيلَةً إِلَّا وَقْتُ
خُرُوجِكَ".

كان فوقها حينما وصلت نشوته إلى ذروتها وقارب الإنزال فزاد تأوُّهه، وأشار إليها بعينه ففهمت عنه وضمته لصدرها، فحاول إبعادها فشددت عليه أكثر بيدها، وأطبقت على عجزته بقدميها فلم يستطع الإفلات، ولما أيقنت أنه قد أنزل بداخلها ابتسمت بارتياح وربت ظهره وهو مُمدَّد فوقها مُستسلماً لما حَدَثَ.

وبعد بُرْهةً قال:

- لمَ فعلتِ ذلك؟

- أريدُ أن أُنجِبَ منك.

فبرّقت عيناه وطار شرُّها

- أنتِ مجنونة!

- أنا أحبُّك.

- أيُّ حبٍّ يا بنت الكلب!

وانهال عليها ضرباً وسبّاً، فكانت تتفادى صفعاته باحتضانه حتى سكن على صدرها وهي تبكي.

ليكن ما يكون ...

وفي مستشفى الحسين الجامعي تأسّف حسنين توفيق غاية الأسف لسيد الهفأ، واسترضى جمعهم حتى يرضوا، وقام بدفع مصروفات العلاج بالإضافة لمبلغ ثمانمائة جنيه أعطى سيد إياهم حتى يسكت،

كانت فورة الغضب عارمة في عين منصور الريفى وأولاده، تذكروا
الحادثة الجديدة الحادثة القديمة التي لم يثأروا بها، ثم استدعته شرطة
الآثار فوبخته، وطلبوا منه تسليم ابنه، لكنه أخبرهم أنه صَفَّى الموضوع
مع المصاب وديًّا، ورجع إلى ورشته كاظمًا همَّه وكمَدَه، وغمس رأسه في
طبقٍ نحاسيٍّ كبيرٍ ينقُشه.

دَلَفَ نديم إلى الورشة، فرأى والده بأتعس حالٍ، يتندَّى البؤس من
أشفاره، حتى إنه لم يرفع رأسه أو ينظر له بعين.

الراديو مغلق، كوب الشاي فارغ، سيجارته تحترق في يده
المرتعشة.

فأبدل ملابسه بصمت، أيُّ كلامٍ يُقالُ وأيُّ اعتذار يَمحو الإساءة.
ولما انتهى من ارتداء ملابسه ألقى ملابس الورشة خارجها، وقال
وهو ينصرف:

- أنا آسف يا عم توفيق، يبدو أن المشكلة فيّ أنا.

تبعه الوالد بنظرةٍ مُشفقةٍ، وتنهيدة عميقة، ونزل السُّلم فدهس
ملابس الورشة بقدمه، ومضى في طريقه كأنه وحده فيه، فلا يصل إليه
من ضجيج المارة والمتسوقين إلا النزر اليسير، وتحولت الحياة في عينه
إلى عبثٍ لا طائل منه، وخيم على ذهنه ابنته المعذبة بمرضها والألم
المطبق على صدرها فلا تستطيع تنفسًا، وكأن أناملها الرقيقة ستخدش
الحياة إذا وطئت بساطها الأخضر بقدميها وهي سليمة معافاة!

لم يكن من الحكمة أن نتزوج في هذا البلد، وإن كنّا أخطأنا فما كان
يجب أن نضيف خطأً إلى خطأ فننجب، لا أدري لم يتزوج الفقراء هنا؟
أیظنون أنهم سينجبون أطفالاً عظاماً! لن يكونوا أكثر من فقراء تعساء
في نهاية الصفّ الإنساني والترتيب الاجتماعي، فهنا ابن الضابط وابن
القاضي وابن الوزير معروفة أماكنهم ووظائفهم قبل أن يولدوا، أما
الحالمون فما أتعس أمانيتهم؛ إذ تهوي كآنية البلّور على الصّخور الصلدة!

(٢٨)

وصل نديم إلى شقته، فكان صوت الكارتون ينبعث من داخلها
فانفجرت أساريه إلى حدٍّ ما لقيام مها من فراشها، فدلف إلى الشقة،
فلم يجدها بالصالة، فسأل وفاء المنهمكة في غسل الأطباق بالمطبخ عنها،
أخبرته بصوت خفيض حزين أنها نائمة، لم يطمئن قلبه لنومها، ودخل
الغرفة فرأى العرق يغزو وجهها المجهد الأصفر، فخرج مسرعاً:

- ماذا حدث؟ هل تعبت من جديد؟

- أكانت شفيت حتى تتعب من جديد؟

زمّ شفّتيه وسكت، فاستدارت وفاء وقالت بعينين لامعتين
بالدموع:

- البنت حالتها في تأخر مستمرٍّ، ولا بد من حجزها بالمشفى في
أقرب وقت.

هزّ رأسه أسفًا ودلف إلى الشرفة وأغلق بابها خلفه، فأشعل
سيجارة وعبث به الفكر من جديد، حتى كاد أن يرطم رأسه بسور
الشرفة ..

يتطلب حجزها بالمستشفى ألف وخمسمائة جنيه تحت الحساب،
حتى تتلقى الرعاية اللازمة من أجهزة التنفس والبخار وغيره ..
آه من بلد يموت فيها الأطفال بالمرض على الأسرة، أو بالجوع
تحت الكباري لأنهم فقراء!

تابع تدخين سيجارته في مَلَلٍ، فلمعت عيناه فجأة وكأنه تذكّر أمرًا
ما، فأخرج هاتفه يُجري اتصالًا.

كانت الشقة مُرتبةً مُنمّقةً تفوح عبيرًا وعطرًا، يشعُّ منها الطابع
الأنثوي الساكن فيها، وينتشر بأرجائها صوت الموسيقى الهادئة،
فتنسب للروح فتجلي أحزانها، كأنها عُشٌّ زَيْن لعروسين أو واحة
بالفردوس لا ينقصها غيرُ فراشاتِ الربيع الملونة.

عصرية بما تحويه من أثاثٍ وتحفٍ، تميزها الإضاءةُ المرسومة على
الحوائط والثريات المتدلية من السقف، على حوائطها تابوهات عريضة
لمناظر طبيعية من جزر المالديف، وأخرى لامرأة شابة على أرجوحة من
ظهرها، وما ثمّ صور عائلية سوى صورة واحدة تجمعها بأمّها، وصورة
أخرى تجمعها بأختها حبيبة وقت الدراسة.

أما غرفة نومها فلا ينازع لونها الأبيض لوناً، في حوائطها وأثاثها
وفُرشها ..

ذات الموسيقى تنبعث من الحمام الملحق بغرفة نومها، حيث تنتشر
مكبرات الصوت بكل مكان بالشقة، فلا تنقطع فيها في أي وقتٍ كان.
أُسست الشقة على هواها وما يُريُّها، ووضعت لها نظاماً خاصاً،
فلا يطأ بساطها إلا مَنْ تحبّه وتثقُّ بمودّته، لذا لم يدخلها من أهلها سوى
أمّها مرات معدودة، حتى إنه مرَّ زمنٌ ليس بالقليل على الزيارة الأخيرة
التي انتهت بشجارٍ عنيف.

أرادت الأمُّ أن تُثنيها عن العيش بمفردها، كيف لبنتٍ بجملها
وحسنها و"مطلقة" تعيش بمفردها وترفض الزواج!

"ملعون أبو الناس، لكن من تقصدين بالناس يا ماما؟ مراد الذي
فعل بي ما فعل، ألا يخجل لو عرف الناس بما فعله بي، أم أن النساء
مباحات لكل ذكّرٍ تجمعهنَّ به صلة قرابة".

"أنت تعبين بشرفك وشرفِ أسرتك".

"ملعون أبو الشرف الذي يجعلني تحت أقدامكم تراباً سهل
الوطء، لن أسمح لكم أن يكون مصيري كحيبة".

لم يستطع مرور الزمن أن يطمس المعالم العالقة بمخيلتها لوفاة
أختها منتحرة، حتى جُنونها وسُكرها وعربدتها لم تكن كافية، لذا آثرت
الابتعاد عن المكان والزمان والأشخاص الذين أسهموا في نهايتها

البشعة، إلا مراد الذي فرض نفسه فرضاً على حياتها الجديدة، لكنها تبعده باحتقار وازدراء قَدَرُ المُستطاع -بلا تجاهلٍ لوحشيته القديمة- فما زالت تذكر ما قاله بعد وفاة حبيبة ببضعة أيام في مجلس مهيب جلل يحفه الحزنُ والألم، كانت نهى بدورها تُرثي أختها وتُعدد مآثرها، فاستدرت مكانم العيون فأبكتها، فلما رأى أن قد يصيبه لومٌ من أحدهم قال وهو ينظر لنهى وأُمّه: "بعض النساء يصلحهن التهذيب، والبعض يصلحهن التعذيب". فقالت نهى بحدّة: "فما الذي يصلح الرجال إذن؟" قال بلا مبالاةٍ. "أن يكونوا قادرين على التعذيب والتهذيب".

ومنذ ذلك الوقت عزمت على الهروب من عالمهم والاستقلال بذاتها، فما لآته حتى تمكّنت من إرادتها ونجت!

كانت مسترخية في "البانيو" يعلوها رغاءٌ أبيض وهي مُغمضة العينين، تأكل قطعةً مربعةً من الشيكولاتة السوداء حتى بقي منها نصفها، فدلّكت به صدرها البضّ، وتمايلت برأسها لأنغام الموسيقى، وشرّدَ بصرُها ..

رنّ هاتفها المحمول فنظرت في شاشته فتأفّفت وردّت:

- نعم يا مراد.

- ماذا فعلت؟

كانت تسمع صوت هدير الماء

- أين أنت؟

- أنا بالبيت ..
- لا تكذب، أنا أسمع صوتَ الشاطئ.
- أنا بشرم الشيخ مع بعض الأصدقاء.
- طول عمرك سافل.
- احترمي نفسك وقولي ماذا فعلت؟
- تطلب الطلاق.
- طلاق! بنت الكلب، تريد الطلاق .. والله عال! نجوم السماء أقرب لها، لما أرجع لي تصرف آخر معها.
- وأغلق الهاتف، رفَعته عن أذنها ونظرت في شاشته وبصقت عليه، وعادت لاسترخائها وشُرودها وهي تعبث بخُصلات شعرها ..
- تذكرت نديم فابتسمت، وأمسكت بشديها الأيمن فاعتصرته في كفِّها وزفرت تأوُّها مكتومًا، وألقت برأسها للخلف وهي مغمضة عينيها يترأى لمُخيلتها نديم وهي بين يديه مُستسلمة خاضعةً بأنوثتها لذكورة رجل تهوَّاهُ، تنظر في عينيهِ اللامعتين بنشوة الحبِّ وروعة اللقاء، تتألَّأ عيناها في ضوء شُموعها بغرفة النوم، ويغزو نفسَها سحرٌ من شفّتيه، فتقترب منه في هدوءٍ وهي مغمضة عينيها.
- كان هاتفها الآخر بالخارج عالي الرنين تظهر على شاشته اسم "حبيبي"، لكنها لم تسمعه لصوت الموسيقى وانشغالها.

أراد منها سُلَفة ثلاثة آلاف جنيه تنقذ ابنته من الموت الذي يمتدُّ
على جسدها بطيئاً مدّ الظل على الأرض القاحلة.

لكنها لم ترد ..

تملّكه الغيظ والحيرة، فشَدَّ يده على الهاتف وسدّد بصره أمامه وزم
شفتيه، وعبثت الظنون برأسه؛ فعلى ما أبدته نهى من اهتمام بالغ به،
وشوق ينهمر من رُوحها على مرافئه، ظنّ لمرّة أنها قد تكون باباً للنور
في ظلماته الكثيفة، لكنه خَفْتُ فجأة دون سبب لما طلبه واقترب منه!

ربما عادت لتعبث بك من جديد .. لتكمل نهاية اللعبة التي
حُرمتها لا بتعادك فجأة ..

نظرة عينيها وسعادتها لم تكن كذباً حينما وافق على مدّ الجسر من
جديد بينهما .. ما أجهلك من رجلٍ، تُرمم الجسر في الجامعة! نفس
المكان الذي وقع بك وعليك فيه!

انتبه لصرخة وفاء بالداخل فهرول إليها:

- البنت لا تتحرّك ولا تشعرُ بقرصة يدي.

وَضَعَ أُذنه على صدرها، وجدها تننّسُ فحملها بين يديه ونزل بها
فأوقفَ (توكتوك) انطلق بهم إلى المستشفى، وغطتها وفاء ببطانيةٍ
صغيرةٍ وهي تبكي.

مُتًا جنيه كل ما تبقى بجيبه من نقود الشركة، اشتدت الحاجة
وقيّدت معصمه، لا يدري كيف ينقذ ابنته إن رفضَ المشفى استقبالها، ألمّ
يخشاه يُعَتِّ عظمه قبل حُدوثه أو تأكّده منه.

دلف بها إلى المستشفى مُسرَّعاً وقال لموظفة التذاكر:

- ابنتي مُصابةٌ بربو وحالتها متأخرةٌ جداً.

فقطعت له تذكرةً وقالت:

- مئة جنيه.

كان منتظراً سماع رقم أضخم من ذلك يُطيح به، لكن الله سلَّم.

رفع الدكتور سماعته عنها وقال:

- انزل اقطع تذكرة رعاية.

كان يظنُّ أن تذكرة المئة جنيه كفيلة برعايتها، فأردف الدكتور

قائلاً:

- ابتك بحالة متأخرة جداً، ولا بد من دخولها الرعاية وخضوعها

لأجهزة البخار والتنفُّس وغيره.

فنزل مُسرَّعاً إلى الاستقبال، ظنَّ أنها قد تكون بمئة جنيه أو أقل،

فمدَّ بها يده لقطع تذكرة رعاية، فأخبرته أنها بألفٍ وثلاثمائة جنيه، لم

يستوعب الرقم، فجحظت عيناه وهو ينظر لها بذهول، فحاول تهدئة

نفسه، وأخبرها أنه لا يملك سوى مئة جنيه، لكنها لم تتأثر بعَوَزه

وتجاهلته وتلَّهت في دفاتر أمامها، فناول وفاء البنت، وخرجت منه

صرخةً عاصفةً وهو يقول: "البنت تُحتَضِر"، ورطم زجاج النافذة

بعنف فهشَّمه وأدمى كفيه، فأحاط به أفراد الأمن، وألقوا به خارج

المستشفى، فجلس على الرصيف بجوار وفاء وهي تحمل مها في
حِجْرِها ..

كانت يده تنزف، يتساقط الدم نقطة نقطة على الأرض ولا يشعر
به، يتردد نظره بين وجه ابنته الشاحب ووجه زوجته الحزين الباكي .

- نديم .. ستترك ابنتك تموت بين يديك .. نديم .. اعمل حاجة ..

طالها بوجهٍ بائسٍ كئيبٍ، تلتئمُ على شفثيه المأساة كبريق النار
بأعواد الخريف الجافة، يُجيبها في صمتٍ: ماذا بوسعي أن أفعل؟ وهل
لنا خيار في فعل شيء هنا في هذا الوطن الرحب الكئيب، الغني الفقير،
الواسع الضيق، السعيد الحزين؟!

ماذا بيدي أن أُقدِّمَ، وأيَّ شيء بإرادتي لأفعله، إنك لو طالعتِ
نفسي الآن لرجعتُ خطوتين للخلف مخافة أن تقعي في غورها السحيق
المظلم، ماذا أفعل لها؟ هذه النبتة الصغيرة التي تفتحت عيناها على الدنيا
أول ما تفتحت على المرض بين أمٍّ كسيرةٍ وأبٍ عاجزٍ الإرادة مغلولٍ اليد
لا يملك أن يُقدِّمَ لها رشفة دواء تُسكِّن ألمها وتُهدئ أوجاعها وتمنحها
الحياة لأنه عاجز عن دفع ثمنه!

هنا قيمة (الإنسان) إن كان إنساناً بقدر ما يملك من المال، أو بقدر
ما يعرف من أصحاب السلطة والجاه، أو من في دوائرهم، لكن الذين
على أطراف مدينتهم فلا يصلحون لرعي بهائمهم ورعاية ثمارهم، وإن
توجَّعوا زادوهم ألماً وقهراً!

تُنازعني نفسي الآن أن أحملها بين ذراعي وأقف بعرض الطريق صارخاً: "ابنتي تموت ولا أجد لها ثمن العلاج، والرئيس في قصره لا يشعر بألمها، ولن يُعاقب الدكتور الذي رَفَضَ معالجتها، ولا الأمن الذي طردنا لأنه يأخذ الضرائب كاملة".

همّ ليأخذها ليفعل ما حدثته به نفسه، فرنَّ هاتفه فنظرَ في شاشته، قالت:

- آسفة لم يكن التليفون بيدي لما اتصلت.

نسفت كل ظنونه، وانتظرت توضيحاً لسبب الاتصال، وتمنت أن يكون اطمئناناً عليها أو شوقاً إليها، فقال:

- أنا أمام المستشفى الآن، ابنتي تُتضرر ولم يوافقوا على علاجها قبل دفع التكاليف.

- وكم التكلفة؟

- ألف وثلاثمائة جنيهٍ مُقدَّم العلاج.

أهذا ثمن الإنسان هنا!

- الطرق مزدحمة الآن ربما لا يسعفني الوقت للحضور، سأُتصل بمكتب وزير الصحة ليدخلوها الرعاية فوراً .. في أيِّ مستشفى أنت.

- إمبابة التخصصي.

أغلقت معه، وبعدها بخمس دقائق خرج مدير المشفى مُهرولاً
وخلفه فريق من الأطباء يتقدمهم رجلان يحملان نقالةً، فحملا البنت
ودلفا بها مسرعين إلى العناية، بينما وَقَفَ مدير المستشفى عريض
الابتسامة مُتهلِّل الوجه مُرحَّبًا.

(٢٩)

استبدَّ بها الألم والحسرة والخيبة، أحاط بها الفشل كالليل الكئيب، فلم تجد غير الطلاق مهربًا، فتجاسرت نفسها وطلبتُهُ، ورأت ألا سبيل للبقاء حية كإنسان إلا في الانفصال عنه، لكنها كانت سَكْرَةً أَلَمٍ، ونفْرةً لظَى مُستعرةً لا تبالي بتوابعها المعتادة!

الطلاق نهاية لرحلة شاقّة لا هدف ولا فائدة تعود عليها منها، ولن تكون جرحًا لنفسها فعندها رصيد كافٍ منه حيث طُلقت مرتين من قبل، كانت المرة الأولى بعد الزواج بثلاث سنوات، لشكّها في سلوكه وانحرافه فهددته بالطلاق، فطلّقها ليُوحى لها أنها لن تجدَ سبيلًا للسيطرة عليه ولا إرغامه، واستطاع إقناع أهلها بأن ما تدعيه محضُ شُكوكٍ لا أساس لها، وبضغط أمّها رجعت ثانيةً، كانت تنصحها: "لكلّ رجلٍ نزوته، ومصيره لبيته وزوجته- الست الشاطرة هي التي تحافظ على بيتها وزوجها وتدافع عنه ضدهنّ لا أن تتركه لهنّ- اصبري".

المرّة الثّانية بسبب عملها لمّا تمسكت به، وقتها كانت مهملة، مشرّدة روحياً، لم يكن لها نصيب من الحياة إلا وقت العمل، الوقت الذي تخلّعه من رأسها وتخلص لشيء مفيد غيره.

فطلّقتها، ثم رجعت بعد ضغط من الأم: "ليس للمرأة سوى بيتها وزوجها- اصبري".

لكن صَغَطَ الأمّ وحده لم يكن السبب في الرجوع، فقد أخذَ منها الطفلين عنوةً، ومنعها عنها ستة أشهر حتى تفحّمت أمومتها شوقاً لها فرجعت مُرغمَةً.

فتكسرت أجنحتها، وأخذت تنزوي أكثر وتبتعد عن الحياة، وانتقلت من الزوجة إلى الأسيرة التي لا فدية لها!

بعد رحيل نبي، هدأت وعادت لطبيعتها، وراجعت نفسها فيها قالت، ولامت نفسها على ما طلبت من طلاق، لا يمكنُها أن تتخيّل البُعد عن طفلها.

كان عليها أن تنتمي لثقافة أمّها لاستيعاب البقاء مع مراد وهي متحلية "بالصبر"، فحاولت الاقتناع بأن "ظِلّ رجلٍ ولا ظِلّ حائطٍ، والبيوت كلها مشكلات، ومن رأى بلاء غيره هان عليه بلاؤه"، وما أنا فيه أهون من "مطلقة" في هذا المجتمع الذي يتجرأ على المطلقة جرأة الجائع الشرّ إلى اللحم الشهيّ!

وكأن المطلقة أذنبت لانفصالها، فلا عقاب لها أقل من قذفها خارج المجتمع الإنساني إلى وادي الذئاب مرّة واحدة!

دلفت إلى النادي، وأعطت عامل الجراج المفاتيح، كانت السيارة
مُتسخةً، فسألها الشابُّ:

أتريدين غسلها؟

فأجابت بابتسامة:

نعم، اغسلها جيدًا!

كان النادي مُزدحمًا، يعجُّ بالأطفال اللاهين في أرجائه، وتكاثفت
الأسرُّ على النضد المبعثرة في رحابه، شمس اليوم هادئة لطيفة تبعث في
نفسها ذكرى نُزول المسيح وهي صغيرة.

وقفت على منضدة يجلس حولها سمير وجودي ورضوى.

- مساء الخير.

استأذن سمير للجلوس مع بعض أصدقائه، واصطحب جودي
معه، لتلعب مع بعض أبناء أصدقائه، فابتسمت يولاندا قائلة:

- سأقول لعمري.

فقالت جودي ضاحكة:

- لو رآها الآن سيضرب مَنْ تلعب معهم كالعادة ويسبب لنا
المشكلات.

- أجهل مشكلات تمرُّ بالأنثى هي التي يُحدثها عاشقُها من أجلها.

فابتسمت جودي قائلة:

- فعلاً، لو أحبَّ الرجل المرأة بقلب طفولي ما كانت هناك خيانة ولا مشكلات بينهما.

أسكتتها كلمة "خيانة"، تعصفُ تلك الكلمة بأنوثتها وتنال من وجودها ووقارها الذاتي، تشعرها بالفشل والنقص على الدوام بأنها امرأة ليست كافية، أو بها ضمور أنثوي. ذلك الشعور الذي يأتي على نفسها فتأكل من أطرافها فلا يُبقي منها غير الكره والبغضاء.

مشاعر سلبية كانت في غنى عنها لو وفقت "الرجل" وكفى، أما ذلك الذي يرتع في الأعراض كالحیوان، فوجوده في المجتمع الإنساني خطأ بيولوجي يجب تصحيحه.

التفتت إلى جودي قائلةً:

- طلبت الطلاق من مراد.

أنكرت ملامحها ما استقرَّ في سمعها، وسكتت لتكمل، فأردفت:

- أرسلَ نهي فقلت لها إنني لا أريد العيش معه وأريد الطلاق.

- خطوة جريئة.

- لكنني تراجعْتُ.

فارتسمت الدهشة على وجه جودي، فأردفت يولاند قائلةً بحيرة:

- أعرف أنني أبدو متناقضةً جدًّا، فأرجو ألا تناقشيني لأنني لم أعد

أفهم نفسي.

- لو كنت مكانك ما ترددتُ في هجره وطلبِ الطلاق.

- والولدان...؟

- أنتِ الآن أمهم ولو انفصلتِ ستكونين أمهم أيضاً.

- لن أسلمَ من كلام الناس ونظرتهم.

- وبِمَ أفادك الناسُ في مأساتِك، هم لن يقدموا لك حلاً أو يحملوا
عنك عبئاً، للأسف نحن في مجتمعٍ ذُكوريٍّ لو أخطأ الرجل حتى
لامست أخطاؤه السماء، لقالوا: إنه رجل.

- هذه عاداتنا وتقاليدنا، المرأة غير الرجل.

- العادات والتقاليد وحتى القيم إنما هي للحفاظ علي حياتنا
وليس لتدميرها، وعلى العموم المجتمع الذي يتعصب للجنس وقت
الخطأ فيدع محاسبة الذكر ويجلد الأنثى بعينه ولسانه هو مجتمع ليس
جديراً بالاحترام.

- أنتِ قاسيةٌ جداً يا جودي ..

- أنا أعرفُ أنه ليس هناك مَنْ يجرؤ على قول ذلك لك خوفاً من أن
يدلّك على ما فيه الخطأ، ولكني قلتُ ما أعتقدُ أنه الصوابُ، ولو كنتُ
مكانك ما ترددتُ في فعله.

فزفرتُ بغضبٍ، فأردفتُ جودي:

- حائرة؟

فقالَت ساهمة:

- نعم.

- بسبب الولدين؟

- ليس أكثر من ذلك.

- قد يكون الانفصال في مصلحة الولدين

ضحكت ساخرة وقالت:

- فعلاً .. أتصدقين؟

فقالَت بثقة:

- أنتِ أحنُّ الناس عليهما، ولا شكَّ أن مراد مثلك نحوهما، لكنَّ مُنفردان، المشكلة وأنتما مجتمعان لا ينالان مِن أيِّكم عطفًا، ويكونان باستمرار مستقبلين لسلبيات مشكلاتكما.

وإن كان الكلام مُقنعًا فقد داخلها بعض الريبة، إنها مُصرّةٌ على الدوام على حديث الانفصال، لكنها لا تشكُّ في إخلاصها، ربما تسلَّت ربيتها إليها من مورثات المجتمع وعاداته، لكنها في نفس الوقت لما حدثت أمها لم تستطع أن تذكّرها بالصبر وطول البال، بل تكلمت عن الولدين كثيرًا وأنها سيكونان سعدين معها. هل يتغير الكون من حولها بينما تظل هي الثابت الوحيد؟

بداخلها مليون "جودي" يقلن مثل هذا الكلام، ويضغطن عليها ويجبرنها بالسير في هذه الطريق، لكنها تقف عاجزة، تخاف خوض

التجربة، تجربة الطلاق ربما تكون أشدَّ عُنْفًا وأبأس حالًا من تجربة الزواج، لكنها تودُّ لو خلَّصت لنفسها من جديد، كما كانت قبل الزواج، تعودُ لأحلامها الطفولية بصحبة أصدقائها القدامى، وترجع معها مشاعرُها لهم، فتحزن لمصير "روميو وجولييت"، وتشفيقُ على "جين آير" وتلهو مع "شارل شابلن" تحت الأضواء الافتراضية في مدينته التعساء.

كيف لو منحنا الله الخيار أن نعود إلى زمن في الماضي كان ألطف وأجمل ما مرَّ بنا، ولم نشعر بأفضليته وقتها على ما سيأتي بعده.

يا الله، أرجعني إلى الثانوية العامة، أرجعني إلى النقاء الفطري الذي لم يُدنَّس بأفعال البشر، أرجعني إلى حِضْن أبي الذي كان يقف في وجه المدرسين يزأر كالأسد إن لامني أحدهم أو عَنَّفني فأبكاني، أرجعني إلى دُميتي أمشط شعرها وأجلو جسدها.

قالت جودي:

- قرأتُ صباحًا في لوحة الإعلانات عن حضور دكتور مُتخصِّص في العلاقات الإنسانية سيُلقي مُحاضرةً عصر اليوم.

لم تُعْرِها انتباهًا فعادت تقول وهي تنظر في ساعتها:
- يتبقى نصف ساعة على بدء المحاضرة ما رأيك؟

فأشاحت بوجهها نحوها وقالت:

- ارحمني نفسك، كفى.

- على العموم سأذهبُ للمحاضرة، على فكرة في أمريكا هناك محاضراتٌ شبيهةٌ بهذه المحاضرة وهي ممتعة جدًا.

فضحكت قائلةً:

- أمريكا لحست عقلك.

- وماله، أمريكا أساسًا لحست عقل النظم العربية كلها، فلم لا أُعجِبُ بها!

ونظرت في ساعتها وأردفت قائلةً وهي تقوم:

- أنا ذاهبة للمحاضرة ..

وتطلعت لها بعينين متسائلتين: هل ستذهب معها أم لا؟ فقامت ممتعضةً وضربتها ضربةً خفيفةً في كتفها وقالت:

هيا.

ومضت في نفسها نشوةً وطربً، استذكرت هو الفتيات فجأةً بهذه الدعابة التي أسكتتها كتفَ جودي، فابتسمت جودي قائلةً:

- ما لك يا عبيطة!

فضحكت بصوتٍ منخفضٍ:

- لا شيء!

لم تكن القاعة ممتلئةً نظرًا لحُضورهما في بداية الوقت، فجلسا في مقدمة الصفوف، وبدأت الصالة تمتلئ شيئًا فشيئًا، لمحت يولاند مسحًا رضا على وجوه الحضور حولها، فأسرت لجودي قائلة:

- الناس متطلعةٌ وكأنهم في السينما ينتظرون العرض.

- وأنا أيضًا.

فوكزتها يولاند في جنبها، فقالت جودي مُداعبةً:

- سأقرُّصُك.

فقالت على فورها:

- لا لا لا لا

ذكريات الشباب تتفتح من جديد بينها وبين جودي ..

ودخل المحاضر إلى القاعة في تمام الرابعة، كان شابًا أربعينيًا أنيقًا، فوضع حقيبته على المكتب وتلمح الحضور بابتسامةٍ صافيةٍ التمعت خلالها عيناه وهو يدور بها مُتنقلًا بينهم، ما بين شابةٍ حسناء وامرأةٍ عجوز وشابٍّ يافع حتى انتهت عيناه إلى طفلةٍ رقيقةٍ عذبة الملامح بجوار أمِّها.

- أنا الصديق بلال محمود .. قرأت صيغة الإعلان لما سألني عامل النادي عن رأيي في تصميمه، فقلت له: من (الدكتور) بلال محمود، فاندesh وقال: أنت يا دكتور!

والحقيقة أنه يزعمني أن يقول لي أحدهم يا دكتور خارج العيادة الخاصة وأنا في مكان مثل هذا متأهباً لقول كلام مثل ما سيأتي.

أسرت يولاند لجودي قائلة:

- أكره أسلوب التنمية البشرية.

فوكزتها جودي بخفة فسكتت، وتابع الدكتور حديثه:

- أنا دكتور قلب، درست العلاقات الإنسانية، وقرّغت لها يومين أسبوعياً دون مقابل لأنني أحبُّ الأصدقاء.

فضجت القاعة بالتصفيق والاستحسان، حتى هدأت الأيدي فقال:

يقول الجيولوجيون إن عمر الجيل ٣٣ عاماً، وهنا ألحظُ أجيالاً متعددةً بناءً على قولهم الذي لا أفتنحُ به، فقناعتي أن كل فرد هو جيل بمفرده، حياة قائمة مكتملة في كل شخصٍ ..

- حياة قائمة بذاتها.

قالها أحد الحضور تعليقاً، فنفى بلال قائلاً:

بالطبع لا، ليست هناك حياة قائمة بذاتها، حتى هذا الكون بصورته العامة بما فيه من تجانسٍ .. لا شيء قائمٌ بذاته إطلاقاً سوى الله ..

نحن بحاجة دائماً للآخرين في حياتنا حتى نستطيع تذوق الحياة، نحن بحاجة لتدخل الآخرين في حياتنا ليكونوا جزءاً منها، وليشكلوا

لنا بعض أجزاءها، لكن هذا التدخّل المُسمّى بالعلاقات ينتج عنه أحياناً
مُشكلاتٌ، فلو كانت هناك حياة قائمة بذاتها لما كانت هناك مشكلات،
ولما كنتُ أنا هنا.

ثم ابتسم وضحك الحاضرون.

بدأت يولاند تصغي باهتمام، وأخرجت هاتفها تُدوّن في رسائله
بعض الملاحظات المهمة، فرمقتها جودي وابتسمت.

نعود للأجيال، أنت جيل، وحينما تُنجبُ فابُنك جيلٌ، والكلام
ينطبق على المرأة بالطبع، بعد الإنجاب واستقرار حالة المولود تكون قد
نجحت في مهمتك، وهي استمرار النوع وتحقيق الغاية من الزواج
واقتران الرجل بالمرأة، وسيقوم ابْنُك بنفس المهمة، ثم أحفادك،
وسترحل ونرحل جميعاً لكن الأداء الوظيفي لن يتوقف أبداً ما دامتِ
الحياةُ.

لكن .. هل نجح نجاح الأداء الوظيفي في تحقيق السعادة للإنسان،
أم أن الأرض هي التي تسعد بما نفعل؟ فنحن نهبُّ لها أجساداً ميتة
لتأكلها، وأجساداً حيةً تدبُّ على ظهرها تُسعد وحدثها وتؤنس
وحشتها!

خيّم السكون على القاعة، فلا همسَ ولا نفَسَ .. كانت يولاند
مُسَدِّدةً بصرها نحوه، تتابع حركاته وسكناته، تستقبل كلماته بعقلٍ يجمع
أطراف المعاني والمقاصد، وراح عليها تدوين الكثير مما قال.

لكن هل نَظُلُّ "حَمَّالين" وفقط؟

هل جئنا هنا لنكون حَمَّالين لبذور أجيال قادمة أو حراسًا للنوع؟
بالطبع لا .. ليس هذا كل ما خُلقنا لأجله، نحن هنا لنقضي فترة
من الزمن (معًا).

سكتَ بُرهةً حتى تبلغ "معًا" مداها في نفوسهم وقلوبهم
وعقولهم، ثم تابع قائلاً:

معًا .. هذه الكلمة باختصار هي سعادة الجنس البشري وشقائه.
وهنا ندخل في موضوعنا وهو علاقتنا بالآخرين، وخاصة العلاقة
الأزلية المُقدَّسة بين الرجل والمرأة، وهي التجسيد الأمثل لكلمة (معًا).
والآن سأتوجَّه بكلامي مباشرة للجنسين، ولتسمح لي السيدات
بمخالفة القاعدة الشهيرة (السيدات أولاً) فذلك في مصلحتهن .. لأبدأ
بالرجال.

عزيزي الرجل، أعترفُ أنني دائماً في محاضراتي شديد اللهجة
والشعور أيضاً تجاهك، رفيقُ بالنساء .. أنتَ تعرف سبب ذلك أيُّها
المتنرد العنيد المتسلط ..

فتعالت أصواتُ السيدات ضاحكاتٍ مؤنَّاتٍ على قوله:

نعم هم كذلك.

فنظر تجاه رُفقة من النساء مبتسماً وقال:

- كان أفضل أن أبدأ بالرجل إذن، على كل حال فشعبية الرجل هنا سيئة.

ثم هداً الجميع بعد إشارة بيده مُؤدِّناً بالكلام.

مسكينة هي المرأة حينما تخوض حرب النوع بلا قواعد ولا أدبيات، ويكون غاية انتصارها هو استمرار المعركة فقط، إذ كيف تنتصر في حرب ضروس على زوج ودّع اللياقة والذوق والنبل من زمن.

أليس من الحكمة أن ينزل الرجل من أعلى جواده فيغرز النصل في فخذة ويعلن هزيمته لها ويبتسم مُهنئاً إياها بفوزها.

ثمّة أشياء كثيرة ستتغير إذا انهزم الرجل لأنثاه، أقلّها ستفتح مدنٌ قديمة أُغلقت، ومدنٌ جديدة غير متوقعة، أما انتصار الرجل القوي المتسلط -الذي ملّ الانتصار- على الأنثى، فهو انتصار مُحجّل يدعو للرتاء والاحتقار معاً.

طفرت عيناها بالدموع، لكن أحداً لم يَلَحْظْها غير "الصديقة" وجودي التي ربت على ظهرها وأخرجت لها منديلاً لتُواري دموعها.

تساءل:

ولم تنهزم؟

إنني سأفترض أن المرأة مثيرة للمشكلات دائماً، وهي البادئة في الأغلب بكل خلاف، بل سأبُعدُ أكثر من ذلك لأقول: إنها قد تدوس

على ذُكُورِتك القاهرة، وتقصفُك من بعيدٍ بتصرفات عبثيةٍ قد تعتبرُها
أنتَ نقصاً فيها .. حسناً، ماذا ستفعل وقتها؟ هل ستركب الأباتشي
لتعلو فوق (المنجنيق) الذي تقصفك منه لتؤكد سيطرتك وقهرك؟
إن أفضل ما تفعله وقتها أن ترسل لها نداء استغاثة.

إن كنت ترى ذلك نقصاً أيها (الكامل) فلم لا ترتقي بنقصها
وتصبُ فيها من (كمالك الإسنى)!

زادت دموعها أكثر، ولم تستطع دفعها، فقامت منصرفةً تاركةً
خلفها حقيبتها، فلحقتها بها جودي في الحمام، فدلقت إلى أحدها
وأغلقت بابه .. لكن باب حزنها ودمعها ظلَّ منفرجاً تصفرُّ في مفاصله
نشيجهما الموحجوع.
- يولاند.

قالتها بحدة تأمرها بالسكوت حفاظاً على وجاهتها إذا دخلت
إحداهن وسمعت صوت بكائها، فدفعت دمعها وزمّت شفيتها
وضغطتها بعنف، وتناولت منديلاً من بكرة عن يمينها ومسحت
دموعها، ولما اطمأنت نسبياً إلى سكون الدمع في كهفه، خرجت بوجه
مُتَّقِدٍ وعينين ذابلتين حمراوين لا يختلفان عن شفيتها، وأرنبه أنفها
المتوهجة، هاها بؤس وجهها، فرقّت لها ورمقتها بنظرةٍ مُشفقةٍ راثية
واحتضنتها، ثم قالت بنبرة رزينة واثقة:
- ستفرجُ، دوام الحال من المحال.

هدأت يولاند قليلاً، فلعلها تفرج كما قالت لها، وغسلت وجهها
وعينيها وجففتها بمناديل التقطتها من فوق الحوض، وتحسست يديها
أثر الشج الذي خلفته إصابة مكبس النور بيد مراد .. وارتدت نظارتها.

(٣٠)

في تمام التاسعة صباحًا كانت أمام البنك بشارع أبي الفداء بالزمالك، ساكنة صامته مثل المبنى، إلا إنها تختلف عنه بابتسامة ممتدة في وجهها، وعينين تلمعان بالسعادة، تتأمل حركة السير أمام البنك في سرور، تلاحق الداخلين والخارجين بنظرها اللاهي، رمقت الدور الثالث ونافذته المفتوحة في إحدى جوانبه، إنه مكتبها تدبُّ فيه الحياة من جديدٍ، وترتع فيه أمواج الشمس الدافئة في بداية الصباح أو في بداية العهد الجديد ..

أدارت مقبضه بسرعة كأنها تريد أن تزعج السكون الرابض فيه، وتقول للصمت المتراكم في أدراجِه ورُفوفه: قد أتيتُ.

لاحظت لها نظرةً إلى مكتبها وكُرسيها الجلدي الكبير، كان وقتًا ممتعًا مضى حُرمته فجأةً بصلفٍ وتَجَبُّرٍ، فاجأتها فتاةٌ في منتصف العشرينيات قائلةً:

- مدام يولاند.

فابتسمت وعيناها تتعلقان بلافتة المكتب التي تشير إليها كنانة مدير البنك.

فأردفت الفتاة قائلة:

- أنا "لوجي" مديرة مكتب الدكتور عادل، هو الآن بانتظارك.

كان رجلاً في منتصف الستين من العمر، له عينا غائرتان في محجريهما، تهذّل عليهما حاجبان كثيفان كادا يُخفيان تعبيراتهما، لم ينل الصلع من رأسه شيئاً، فبقيَ رأسه كاملاً بزعرها الأبيض كقطنٍ الوادي.

دلفت إليه فرحّب بها، وأبدى سعادته بوجودها، وعرفت منه بوجود "عم خير" رجل البوفيه المسن، تربطها به علاقة أبوية حميمة من أول يوم أتت فيه إلى البنك وعملت به بعد تخرجها، فذهبت وسلمت عليه، لم تُثبّت عيناها في مكانها ولو لحظة منذ دخولها، تُطالعُ كل شيء، ومدى التغيير الذي طرأ عليه، تريد أن تحتضن البنك كلّه بما فيه من حوائط وكراسي وأجهزة حاسوب ..

جلست على كرسي مكتبها ووضعت كفيها عليه وسحبتهما نحوها وتنهدت بعمق، ثم وضعت أصابعها على وجهها، وقد بدت من أطرافها ابتسامة عريضة، ثم سحبت كفيها فشعّت عيناها ببريق ثقة واطمئنان، ولعلت بذهنها صورة مراد وصوته المرتفع لما أجبرها على ترك العمل، فلاحت بعينيها نظرة تحدّ تُصاحِبُها ابتسامة ساخرة.

اليوم ميلاد جديد، حتى وإن عادت إلى مُعتقلها فلا أقل من ازدراء
وتهكُّمٍ بسجانها الجاهل، فما أيسر أن يسجن السجين سجانَه! فقط بعدم
اكتراثه بشاربه الممتد، وصوته الغليظ ووجهه المتجهم!

(٣١)

أشرقت الشمس فوق حي الزمالك متألئةً مُتوهَّجةً ذلك اليوم،
فنشرت في أرجائه حرارة موقدة غلت لها السيارات والروؤوس
والأسفلت مع امتداد الوقت إلى ما قبل الظهيرة، وانطلقت أصوات
صناديق أجهزة التكييف خارج الشقق بصوتها المزعج لتزيد ضجيج
الطريق ضوضاء، وما ثمَّ نسمة تتخلل المكان حتى بدا الشجر ثابتاً
ساكناً لا يهتز له فرعٌ ولا تسقط منه ورقةٌ.

نظر في ساعته فوجدها تشير إلى الثانية عشرة والنصف ظهراً، فجَدَّ
في سيره حتى يدرك مياعده الذي مرَّ عليه أكثر من ساعة، فحسبها
أشارت جريدة الأهرام التي يتأبطها في إعلانها المبوب أن الموعد في
الحادية عشرة صباحاً.

ولكن من هنا يلتزم بالمواعيد .. لا داعي للقلق!

فسار منتفخ الصدر، ممتلئ الأمل في حياة جديدة قد تبدأ اليوم من
حي الزمالك، ترتسم في خياله آفاق تلك الحياة التي يسعى خلفها منذ
سته أعوام على أعتاب الوزارات والهيئات والشركات إذا تم قبوله في
الوظيفة التي أعلن عنها بنك الشرق وطلب من المتقدمين الحضور إلى
فرع الزمالك.

لكن سرعان ما تخبو جذوة الأمل في نفسه، يضيق صدره لذكريات
قريبة وبعيدة متوالية متشابهة أثناء بحثه عن وظيفة (ثابتة ولائقة)
امتدت أعواماً، فينطفئ وجهه وتتبدد بشاشته، فيغالب هاجسه الكئيب
بتبؤ ولا مبالاة مُذكِّراً نفسه بأنه لا جديد إن رُفض!

سيعود إلى البيت وفي اليوم التالي سيشتري الأهرام ويسأل بائع
الجرائد عن جريدة الوسيط لبحث عن وظيفة بين الورق ربما تتحقق
على أرض الواقع!

انتهى نديم إلى شارع أبي الفداء يتفصّد جبينه عرقاً حراً الشمس
المتزايدة لقربها من وقت الزوال، يسأل المارّين عن عنوان بنك الشرق
فرع الزمالك، لكن أكثر مَنْ سألهم لا يعرفون، وبعضهم اجتهد في
وصف الطريق فأخطأ، فمضى تائهاً بين شوارع الزمالك المتشابهة مدة
ساعة ونصف يسير على قدميه حتى أوشك حذاؤه على النحول.

اقترب من كشك سجاثر صغير تعلوه لافتة حمراء أشارت إلى اسم
الكشك وصاحبه فسأله عن مكان البنك، فضحك الرجل وأشار إليه
بيده أن يقف مع الطابور، فأشاح ببصره فرأى صفّاً طويلاً من الشباب

يحملون (دوسيه) من الأوراق مثله، سأله شابٌ في مثل سنّه كان يشتري
علبة سجائر وزجاجة مياه غازية:

- جئتَ للتقديم في الوظيفة؟

فنظر نحوه ساهماً وقال:

- كم العدد المطلوب للوظيفة؟

- عشرة.

فضحك صاحب الكشك حتى بدت أضراسه الفارغة، فاستثقله
نديم فطلب منه علبة سجائر وانصرفاً معاً متجهين نحو الطابور الذي
يزيد تعداده عن مئتي شخص.

- أنا أحمد جمال تجارة خارجية.

- نديم حسنين توفيق.

- أنا الأخير هنا وأنت بعدي.

- العدد أكبر بكثير عما أعلنوا عنه.

- هؤلاء غير مَنْ قَدَّموا أوراقهم وانصرفوا.

فقال يائساً:

- يبدو أنها ستكون كغيرها.

أخذ يُطالعُ ورقة الإعلان، فأخذها نديم مِنْ يده وألقى عليها نظرة
سريعة، فقال كمن يتساءل:

- هناك وظائف أخرى غير ..

قاطعته وهو يرفع الزجاجاة عن فمه:

- وظائف لا قيمة لها ولم يتقدّم لها أحدٌ، ما بين سائقين وعمال نظافة وبوفيه.

ثم رشف من زجاجته رشفةً أخرى وقال بنبرةٍ ساخرةٍ مُتكبّرةٍ:

- عمّال نظافة وبوفيه يوضعون في إعلان واحد مع (محاسبين)!

فنظر له بازدراء وأخرج من (الدوسيه) شهادة البكالوريوس وطبّقها ووضعتها في جيبه، ثم أخرج ورقة السيرة الذاتية ومزّقها، وأخرج واحدة بيضاء فكتب في خانة المؤهل: الثانوية العامة، وفي خانة الوظيفة المتقدم لها: عامل بوفيه.

ثم أدخل الورقة، وأخذ يتأمل الطابور الممتد كالليالي حالكة السواد التي لا تنتهي، كان قلبه يتمزّق مع ورقة السيرة الذاتية وهو يمزّقها ويلقي بها في عرض الشارع لتدهسها إطارات السيارة ويعلوها ماء الطريق الوسخ.

سنين طويلة مضت في دراسة السياسة هباء، لا شيء هنا له معنى .. لا شيء هنا له قيمة.

يتساءل دائماً: متى تتحقّق الأحلام؟ متى تدبّ الإنسانية فيه فيعيش كباقي خلق الله، فيخرج من الدونيّة التي أطبقت عليه وكأنه في قعر بئر غائرة لا يطرّقها الضوء ولا يمرُّ بها النسيم!

حاول مرارًا الفرار من لظى المجتمع، ففضى وقتًا طويلاً على سلاّم مكاتب التوظيف حاملاً دوسيه به كل الأوراق التي تثبت أنه إنسان على قيد الحياة: له اسم .. متعلم ومعه بكالوريوس اقتصاد .. شهادة الخدمة العسكرية بتقدير قدوة حسنة .. جواز السفر، لكنه .. ليس حياً!

تشابهت كُلُّ المكاتب، قائمة واحدة على كل الحوائط بها تسعيرة التأشير للحدود الأكثر طمعاً من المكومين بالبطالة، تصل بعض الدول إلى خمسين ألف جنيه!

ذات مرة ظنَّ أن مؤهله سيكون مطعماً وسيفتح له أبواب السفر بلا تكاليف، فرأى بجواره أطباء وصيادلة وإعلاميين، فاهتاجت نفسه وصرخ في موظفي المكتب اعتراضاً على الزحام وعلى التكاليف، فطردوه خارج المكتب وقالوا له: حينما يقرصك الجوع هنا، ضع البكالوريوس في رغيف وكُلْهُ.

عيناه كحيلتان دائماً بهمَّ العيش، ماتت الأحلام في عينيه وقلبه، انتقل بطبيعته وروحه الحاملة من الخيال ولعنه وكفر به، فما أقسى أن يُجاهد المرء هنا ليلبغ حد الكفاف! وما أتعسه إن كان الحلم والخيال أن يعيش (إنساناً)!

ماذا تفيد هذه الشهادات، أوراق غيرها لا تنفع، إن كان آخر أمرها أن يعمل (مندوب) مبيعات لشركة مربى وعصير، يرأسه فيها شابٌ دونه بستتين حاصل على دبلوم صنائع!

ما أنفعها لو بعثها هؤلاء الذين يشترون الشهادات من الخارج
ليتوسدوا أسمى المناصب في هذا المجتمع!
تتم قائلاً: مَنْ يشتري شهادة اقتصاد وعلوم سياسية بدرجة جيد
جداً؟!

انتبه له أحمد وأرهف له أذنه، ثم قال:

- ما لك تُكلّم نفسك كالمجانين!

- المجانين هم أكثر الناس سعادة في هذا العالم الكئيب!

- كيف تعيش وكل هذا التشاؤم يملأ قلبك؟!

فنظر نحوه بعينين مُنكرتين، وذهب بذهنه المرهق بعيداً عن المكان
ومَنْ فيه، فلا يزال حجب مؤهلة من سيرته تؤلمه كوخزة في القلب.

كانا قد اقتربا كثيراً من الباب، ولم يبقَ أمامهما الكثير ليدخلا
لإجراء المقابلة الأولية، وغصّ الشارع بالشباب الذين أنهوا المقابلة
وتناثروا في أرجائه مثنى وثلاث يتحادثون عما أسفرت مقابلة كل منهم،
وترددت بينهم كلمات متشابهة ك: (وظيفة تقرف، أحسن من غيرها،
مرتبتها لا يؤكل عيش، شيء أحسن من لا شيء، ملعون أبو الظروف، يا
رب نهج منها ..).

تعالَت التنبيهات المتتالية الغاضبة من السيارة الحمراء تحثُّ
الشباب على إفساح الطريق والتنحي جانباً حتى يُمكنها المرور، فانتبه

نديم لصوتها المزعج ونظر نحو السيارة باشمئزاز وقرق، نزلت منها
يولاند، في مثل طوله تكبره بعشر سنوات تقريباً، لم ينظر نحوها بل كان
يُراجع نفسه فيما كتب، ويناقشها في الفرار من هذا المكان.

وكزه أحمد بمرفقه قائلاً:

- أرايت هذه المرأة؟

نظر نحو إشارته بلا اكتراث، وظل صامتاً حتى قطعاً الطابور كله،
ووصلاً إلى باب شؤون العاملين الخلفي، لم يبق أحد أمامه غير أحمد،
وما زال الطابور ممتداً حتى بعد الكشك.

ظل نديم مسدداً بصره إلى لافتة البنك واسمه المنقوش على رقعة
نحاسية ناصعة كقرص الشمس، تلتصع في عينيه كلماتها كمحروم جائع
ظمان وقف على مائدة شهية.

دلف أحمد إلى الموظف المسئول وانتظر نديم حتى يأذن له "خير"
الفرّاش، وهمّ بالدخول بعد خروجه بخمس دقائق فمنعه الفرّاش
قائلاً:

- استكفيننا .. استكفيننا يا شباب، ربنا يكرمكم في مكان آخر.

تعالّت صيحات الشباب بتذمّر وغضبٍ لوقفهم الطويلة دون
جدوى، وبدؤوا في الانصراف، لكنه ظلّ جامداً لا يتحرك.

- قلتُ استكفيننا يا كابتن، مع السلامة.

فاستوقفه راجياً:

- بعد إذن حضرتك، أنا لستُ مُحاسباً، أنا قهوجي وبوفيه.

فضحك الرجل المسنُّ ورقَّ لحالِه:

- عال .. هات الدوسيه، لم يتقدم للوظيفة أحد حتى الآن، يبدو أنها ستكون من نصيبك .. إذا لم يتصل بك أحدٌ خلال شهرٍ مُرَّ أنتَ لتأخذ دوسيهك.

نزل السُّلم درجةً درجةً وهو ساهمُ الفكر، مُشَتَّت الذَّهن، يُخَيِّل إليه أنه ارتكب جريمةً، شيئاً ما يطعنه بداخله ضميرٌ صارخٌ يتردد صوته الكئيب في أقبية نفسه ..

بين الأكواب والفناجين ستكون النهاية وليست البداية التي أتيتُ من أجلها، ماذا تنتظر من مجتمعٍ تعلو فيه ورقة المال والواسطة على ورقة العلم.

مُجمَعُنَا منتهي الصلاحية!

- لا تُحمِل نفسك فوق ما تستطيع.

قالها عصام وهو يرفع خرطوم النرجيلة عن فمه بعدما استمع لما حدث لنديم في صباح اليوم، لكنه لم يأنس منه رداً، فأردف قائلاً:

- أنت أيضاً مُحطى، لا بد أن تغير من طريقة تفكيرك ونظرتك للحياة هنا.

كان صوت رواد المقهى عاليًا لحماستهم المفرطة لمشاهدتهم مباراة بين الأهلي والزمالك، فتساءل نديم كمن لم يسمع جيدًا:

- أُغَيِّرُ تفكيري؟

- نعم، أنت ناقيم على كل ما حولك، تريد البلد في يوم وليلة أن تصبح باقتصاد اليابان وديمقراطية أمريكا وحرية فرنسا، وهذا لن يكون.

- ولم لا يكون؟!

- "لم لا يكون؟!" سؤال منطقي، ولكن هذا الوطن لا يحكم بالمنطق، ولا حتى بالنظريات السياسية وفلسفتها التي درستها.

- لكن دائمًا هناك أمل ..

خرجت كلمة "أمل" عن غير اقتناع، فبدت ضعيفة شائخة لا تقوى على دفع تشاؤمه، ثم رددها داخله باستهجانٍ وسخفها.

"دائمًا هناك أمل!"

من أين استقى القدماء هذه "الحكمة"؟ وكيف تسنى لهم الارتقاء بها إلى قمة المُسلّمات؟! وإن كان موجودًا فكان الأولى أن يضيفوا له "ولكنه لا يُستحدث من عدم!"

إننا نسرف في "تعاطي" الأمل وسرعان ما يذهب أثره، فتحلُّ مكانه الخيبة والحسرة والألم والوجع، ليتهم يحظرون الأمل كما يحظرون المخدرات.

- أي أمل يا نديم .. الأمل أفيون الضعفاء والمساكين، الحل الوحيد أن تعيش كباقي خلق الله، كن كالغريب الذي يتحمّل ألم الغربة بكل ما فيها "أملاً" أن يرجع إلى وطنه يوماً ما فيكرمه!

ساد السكون برهةً بينهما، تابع خلالها عصام تدخينه، ثم قال حالماً:
- تعرف يا نديم، كل ما أريده أن أتزوج وأنجب أطفالاً ويكون لي بيتٌ وأسرّةٌ آوي إليها كباقي الناس.

فقال نديم مبتسماً:

- والمطربات؟

- إنهن ليس أكثر من ... أستغفر الله العظيم.

فقال نديم ساهماً:

- كل أمني أن أرجع إلى ما قبل الزواج.

- لا تكفر بنعمة ربك.

- كفي بالعزوبة نعمة أن الله يبتلي الشاب بالزواج إذا لم يشكرها.

فضحكا معا بصوت واحد، ثم قال عصام:

- الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة.

- وكيف تكون صالحة وهي مع زوج لا يستطيع إطعامها ولا كسوتها ولا علاجها، ذلك ظلم لها.

- أنت تُعقّد الأمور يا نديم.

- أنا لا أَعقّد شيئاً، الواقع يفرض على الناس أفكاراً غريبة عن الحياة، ويدهس معتقداتهم وأخلاقهم بقسوة.

فقال ساخراً:

- إذن لا بد من تغيير الواقع.

فغاصت ضحكاتهم في صرخات المشاهدين لإحراز أحد الفريقين هدفاً، ولما رجع لشقته شعر بألم يدبُّ في نفسه أصاب جذور أمله وهدد طموحه، فالوظيفة لم تسلم له حتى الآن، ولكن ليست الوظيفة معقل المشكلة كما يبدو بينه وبين زوجته، فإن حديث الوحدة بينه وبين نفسه يوضح معالم المشكلة ويصف كُنْهها.

كانت الشقة خالية لذهاب وفاء إلى بيت أمّها كي يتسنّى لها رعاية البنت المريضة بعدما قضت عدة أيام بالمستشفى، وتعافت قليلاً دون دفع أية مبالغ مالية، حتى المئة جنيه رُدّت إليه لوساطة نهى.

لم يؤثر غيابها في شيء، فتمنّى لو كان نصيبه من الدنيا "امرأة" كما يهوى، امرأة ذات قلب وعقل وروح.

اتصل بها ليطمئنّ على مها فطمأنته، وكلّم الصغيرة فاطمناً أكثر، ثم لاح له الاتصال بنهى ليشكرها لكنه تراجع، وقبل أن يخلع ملابسه رنّ هاتفه فاندھش، كانت نهى تطمئنّ على مها، وطلبت رؤيته فلم يُمانع، فأرسلت عنوان شقتها في رسالة.

(٣٢)

كان هشام بصالة الشقة يشاهد فيلماً أجنبياً والصوت عالٍ، ويبيده
كأس وأمامه زجاجة وثلاثة هواتف، و "فلكة" خشنة بشعة المنظر
وعصي خيزران.

حضر مراد وأغلق الباب فأحدث صوتاً مزعجاً لم ينتبه له هشام،
فنظر من أعلى كتفه إلى الهواتف على المنضدة بجوار (الريموت) ثم وكزه
في ظهره فقام مُنتصباً أمامه، كانت عيناه حمراوين يتطاير شررهما، فأيقن
هشام أن الليلة سوداء.

قبل أن يهّم بالكلام ليسأله عنها أجاب:

- بالداخل.

وأطفأ التلفاز، فسمعا طرقات عنيفة على باب الغرفة، فدلف إليها
ووقف هشام بالخارج بعدما أغلقه عليهما.

حدَّجها بنظرةٍ غاضبةٍ وهو يقول:

- يا بنت الكلب.

فقالَت سوزي وهي تتراجع للخلف:

- الكلب هو أنت .. أنسيَت؟

- لم أنسَ كيفُ أهنتُ بالمستشفى يومَ جئتُ لزيارتك.

- كنتَ تعرفُ أنه ليس مُرحَّبًا بك، فلمَ أتيتَ؟!

جلس على كرسي وقال:

- كنتُ بحاجةٍ لرؤيتك وأنتِ مريضةٌ تتألّمين من "ذكري".

رأت الشرَّ يطلُّ من عينيه فتجرت الإساءة وقالت بهدوء:

- ماذا تريد مني؟

فقام وهو بنزع حزام بنطاله:

- بيننا حسابٌ يجب تصفيته.

فتراجعت بضع خطوات وهي ترتجف:

- مراد .. أنت مجنون!

فخلع حزام بنطاله، ومضى في طريق حنقه وغضبه نحوها، فانها
عليها ضربًا حتى بدا الأثر سريعًا على وجهها فتورم، وما أسرع ما نال
الحزام من رأسها فشجّه فسال الدم على وجهها! فدفعته عنها قدَر ما

تستطيع فاصطدم بالكرسي، فهَجَمَ عليها مرةً أخرى أشدَّ وأعنف حتى أغمي عليها وغابت عن الوعي، فاستدعي هشام وأمره بإفافتها، فأحضر دلو ماء فسكبه عليها، ثم أجلسها على الكرسي، وأشعل سيجارة وشمّر ذراعيه، وأمر هشام بإمسك ذراعيها من خلف الكرسي ففعل.

- أنا ابن كلب واطي؟

فقال بصوتٍ ضعيف:

- رجلان يجتمعان على ضرب امرأة هما أقل خسة من الكلاب.

فلطمها بعنف حتى دمي فمها، ثم قال:

- هات "الفلكة".

لم تمض بُرهةً حتى حضر ومعه الفلكة، فأشار له بعينيهِ فألقى بها على الأرض، ووضع قدميها في حبلها الخشن، لم يكن باستطاعتها مقاومته وهو يشد وثاقه عليها، وأمسك طرفي العصا بيده، ووضع الطرف الآخر على السرير، وعندما أصبحت الفريسة جاهزة للشواء، قام مراد فأمسك الحزام وانهاه عليها ضرباً من جديد، ثم ترك الحزام وأمسك بالعصا الخيزران وضربها على عجزيتها فتعالت صرخاتها المستغيثة، لكن قلباً لم يسمع، واشتدَّ الضربُ على عظم ساقها حتى شهقت شهقة الميت، وارتحى عُتْقُها وهي تُصدِرُ تأوُّهاتٍ ضعيفةً لا تكاد تُسمع، فجثا على ركبتيه بجوارها وقال:

- ما رأيك الآن!

فقالت بضعف بالغ ودموعها تنسكب على الأرض:

- ارحمني.

- "أرحمك!" لا أدري أين سمعت هذه الكلمة .. ماذا تعني!

- قل ماذا تريد وأنا أفعله وأتركني.

- أنتِ بنت ستين كلب .. أليس كذلك؟

فُتح الباب فجأة فأطل منه عزت، ففزع هشام وتركها هاربًا خارج الغرفة فقابلته عزت بصفعة قوية على وجهه، بينما دفع مراد بكل قوته الذي لا يزال منهمكًا في ضربها فاصطدم بزجاج التسيّجة فهشّمه، وهو يردد ذاهلاً:

ماذا فعلتما بها يا ولاد الكلب؟

ثم حملها بين يديه وأودعها سيارته، واتجه بها نحو أقرب مستشفى.

وقام مراد ممسكاً برأسه مُتألِّماً من دفعة عزت، ونادى على هشام وهو يرتدي حزام بنطاله في الصالة، لكنه لم يرد، فنزل مسرعاً وركب سيارته وسار بسرعة جنونية لا يُبالي بإشارات المرور التي كسرّها، كان عقله ذاهلاً لما حدث، تتردد بداخله هواجس مُظلمة، وبدأ تائهاً لا يدري ماذا يفعل.

وصل في وقتٍ وجيزٍ نسبياً إلى الفيلا بحدائق الأهرام، فتح
الثلاجة فأخرج منها زجاجة خمر وجلس أمام التلفاز المغلق يتجرع
كأساً بعد كأس في صمت!

حينما شبَّ عمر وبلغ الرابعة من العمر كانت أمُّه قد خاضت عدة
جولات قاتلة لمنعه من شرب الخمر، ولما يُئست منه وضعت حياتها على
المحك، هي وولديها أو زجاجة الخمر، وكان الحل الوسط أن يمتنع عن
شربها بالبيت، فالولد بدأ يقلده في التدخين بمسك السيجارة بين شفتيه
مثل أبيه، فكيف لو قلَّده في شُرْب الخمر!

أمسك الزجاجة والكأس في يديه ومدَّ قدميه على المنضدة
المنخفضة وألقى بجسده كله للخلف، وصب كأساً أخرى حتى أنهى
الزجاجة فرماها أمامه فتهشمت، ثم مضى إلى الثلاجة بقدمين ثقيلتين،
فأخرج زجاجة أخرى وعاد لجلسته، وظلُّ برهةً مُسدِّداً بصره في
الفراغ، تدور عيناه في محجريهما في زيغ وقلق، أصبح منتظراً خبراً سيئاً
قد تكون فيه نهايته، ربما كانت الأمور ستسير بوجهها المعتاد لولا
حضور عزت المفاجئ الذي لم يكن في الحسبان، لماذا أتى ابن الكلب ..
لم يكن وقته!

لا .. مهما يحدث فلن يتكلم عزت، ولن يشهد معها إن قاضته.

أنتَ انتهيتَ!

نفض عن ذهنه الهاجس السيئ وتجرع كأساً كاملة في رشفة واحدة، كان من الممكن تحطيمها وسحقها في أي مكان آخر بيد غيرك، لعنة الله على الشيطان.

نبت في ذهنه وجوهٌ ضاحكةٌ مُقهقهةٌ لمصيره المنتظر كان بينه وبينها بعض المتاعب، كلهم سيفرحون فيك، كلهم سيروق لهم رؤيتك خلف القضبان أو معلقاً بجبل المشنقة وأولهم يولاند .. ستقف على تخوم المملكة الخربة تتشفى بكل إساءة وبكل حماقة ارتكبتها في حقها، ستزول كل معالم العظمة، ستخرج من السلطة والسيطرة والهيمنة حسيراً كسيراً إلى مستقبل مجهول المعالم سيئ الطالع.

لكن وربي لن يكون!

أمسك بهاتفه واتصل بعزت لكنه رفض اتصاله، فاتصل بهشام ..

- أين ذهبت يا ابن الوسخة!

- ركبْتُ تاكسي وتتبعُ عزت.

- وأين ذهبَ بها؟

- إلى مستشفى في الشارع الخلفي.

- اسمع .. أريدك أن تخلصني من سوزي.

- لا أستطيع.

- نعم يا روح أمك، أنت شريكي في الجريمة وقد نُعدم بسببها.

القتل ليس سهلاً، وإزهاق الأرواح والتلوث بالدم خطيئة لم يُقدم عليها من قبل، ولا يتصور كيف يضغط زنادًا إلى رأس أحدهم أو يطعن بسكين ليقتل، فتاريخه الإجرامي في إيذاء الناس مرتبط إلى حد كبير بمراد، كان هشام فيما سبق بلطجي انتخابات، ويعمل بشكل منفرد في تجارة الحشيش، وتم القبض عليه، وتوسط له مراد ليخرجه أثناء عرضه على ضابط صديقه أثناء زيارته له بالقسم، فاصطفاه لنفسه لذكاء لمحبه فيه وجرأة بدت في عينيه، فكان يوفر لهم الحشيش والحبوب المخدرة والأدوية الجنسية والعاهرات، لكنه لم يطلق في حياته طلقة، كل ما في الأمر أن بيع الحشيش والبلطجة ليسا أكثر من عمل لكسب العيش!

- أنتَ جادٌ فيما تقول؟!

- نعم يا غبي.

فأغلق هشام هاتفه فجأة، فأخذ مراد يسبه ويلعنه بلا فائدة!

(٣٣)

دَقَّ نديم جرس الشقة، ففتحت نهى مُرَحَّبَةً، يتصبَّب الماء من
شعرها على الروب المبتلّ، فجلس واستأذنته حتى تُبدَّل ملابسها، كان
جسدُها لامعًا يتلألأ على ضوء الشموع الذهبية، فبدأ إهابها كشفق
الشمس يرخي على نفسه الملتاعة معاني السكون والدعة والراحة،
فتمنّى أن يقفل الليل مبكرًا، ويبزُّغ القمر المستدير الممتلئ من خلف
أستاره.

دارت عيناه في الشقة الفسيحة ومقتنياتها وأثاثها، تحفة فنيّة بكل ما
فيها، ظنّ أنه بإحدى أجنحة الفنادق التي شاهدها في التلفاز، الموسيقى
الهادئة تنبعث من كل مكان حتى إنه تسمّع ليعرف مصدر الصوت فلم
يهتدِ إليه، الروائح الزكية تغلّف الشقة، جهاز التكييف أحالها لجو ربيعي
مُنْعَشٍ.

ابتسم ساخرًا .. فلا صوت لضجيج الورش ولا الباعة الجائلين
ولا رائحة طعام ولا أواني تُغسل.

خرجت نهى من غرفتها حافية القدمين، ترتدي بنطالاً ضيقاً أصفر
قصيراً، و(بودي) أسود عاري الذراعين جسّم خصرها وثدييها وأظهر
سُرَّتَها، فجلست بجواره فاشتّم رائحة لم يعدها، استندت بمرفقها على
مسند الفتوة وألقت برأسها على كَفِّها، وقالت:

- وحشتني ..

فلاذ بالصمت وهرب بعينه عنها، فلا يزال تحت تأثير عبيرها
المثور ..

- ماذا تشرب؟

قالتها بعدما أدارت وجهه إليها بأطراف أناملها وثبتت عيناها في
عينيه.

- أي حاجة ..

فابتسمت، وسارت أمامه ببطء كمن تحمل كوب ماء ممتلئاً تخشى
بعثرة قطراته، يهتزُّ حُسْنُها المكتنز في ثوبها الرقيق الضيق المجسّم
وئوشك أنوثتها أن تتبعثر تحت قدميها، يفوح عيبرها الأخاذ فيلدغ
نفسه وتثير مكان ذكوره المبتسّسة بما تحمل من همّ.

وعادت بنفس مشيتها تحمل صينية بها زجاجة وكوبين فارغين،
فمالت عليه فكاد ثدياها يندلقان عليه فيغرقانه فيهما، فرجع وحول

بصره عنها، فضحكت بصوتٍ مرتفعٍ، فاهتزّت نفسه بشدة، ومع ضحكاتِها وتنهّدها المستمر تهتكت نفسه المتهرئة حتى لو قدفتها بحصاة لسقطت تحت قدميها.

أخذت الليلة تختلف بمرور الوقت، فبدت دقائقها كصبية الجنة المجنحة ترفرف في سمائها، فاحتسبا كأسين من نشوة الحب فارتوى فيهما ظمأ الفراق، وتبادلا قبلة ذابت على مرافئها لوعة الاشتياق، وانطلقت الموسيقى الهادئة تنساب من مكبرات الصوت كما ينساب الماء العذب من ينبوع صاف رقيق.

وتشابكت الأيدي، والتفت يداها الناعمة حول وجهه فقبلته، فطوّق خصرها النحيل المضطرب فهدأ وسكن، ثم احتضنها فذابت في صدره، يخالط تنهّدها صوت الموسيقى التي هدأت لتفسح المجال لعزف أنوثتها بين يديه.

حتى إذا هدأت ليلتهما على ضوء شموع الغرفة، وذهبت ثورة الجسد نام نديم، فتأمّلت وجهه بسعادة غامرة بادية عليها، لم يكن مختلفاً بدرجة كبيرة، كانت باستطاعتها أن تجد في غيره مقاييس مختلفة تُرضي أنوثتها وطموحها كامراً، لكننا بعد مرور العمر واستنفاد تجارب عديدة كانت نتائجها على خلاف ما نرجو، نعود بالذاكرة للخلف لنقف على نقطة سعادة حقيقية عشناها ونحاول أن نجترها أو نبعثها من جديد، كانت هذه النقطة بعد فشلها الماضي هي نديم.

(٣٤)

استيقظ مراد ثقيل الرأس وهو يشعر بصداع مزمن، فأخرج مسكنات من الثلاجة وتناول ثلاث حبات، ثم دلف إلى المطبخ فوضع كنكة البن على نار هادئة جداً، ثم دلف إلى الحمام فخلع ملابسه وفتح الصنبور بيد ضعيفة، فنزلت قطرات الماء الباردة على جسده فانتفض. كان هشام أول من حضر بذهنه، فجَزَّ على أسنانه وزفر هواء كثيفاً بغضب، ذلك الكلب الذي لم يُحسن رعاية سيده الذي آواه وأحسن إليه .. يغلق هاتفه .. هه.

صَبَّ القهوة التي أوشكت أن تفور في فنجان متسخ في قعره بقهوة جافة ثم أشعل سيجارة، سمع رنين الهاتف المتصاعد فتصاعدت معه دقائق قلبه، كان رقماً مجهولاً، فتردد في الرد حتى سكت الصوت، وما هي الا هُنيهة حتى عاد الرقم من جديد يظهر على شاشة الهاتف:

- مراد ماذا فعلت بسوزي؟

- لم أفعل شيئاً .. مَنْ معي؟

- أنا نادين يا مراد

- ماذا تُريدين؟

- أتصل بك لتأخذ حَذَرَكَ، فأنا الآن مع سوزي، هي في العناية
المركزة والأطباء يقولون إن حالتها سيئة جداً، ماذا فعلت بها؟

فرد بغضبٍ عارم:

- لم أفعل شيئاً!

وقطع الاتصال وجلس على الكرسي بالصالة، ووضع فنجان
القهوة أمامه بيدٍ مُرتجفة، وارتنخى وجهه همّاً بما سمع، لم يبقَ الآن إلا
البحث عنه والقبض عليه وتقديمه للمشنقة!

ضاقت الدنيا أكثر وأغلقت من أرجائها وعلا الغمام فسدَّ الآفاق
وأخذ يزحف على أقطاره فشمّلها وتشتت في وديان همّه، لن يجد مَنْ
يحنو عليه في كارثته، فهشام تنحّى جانباً وتوارى وأغلق هاتفه، وعزت
الجاهل شهد الحادثة بعينه فلن يُجدي الكذب عليه، ويولاند بها ما
يكفي منّي .. آه.

قام إلى غرفة النوم فأبدل ملابسه ونزل، ربما بعض الإصلاحات
في دوائره تفيد، كان أول من فكر به زوجته، فاتجه إلى شقة أمّها، ربما

حان الوقت للاعتذار مؤقتًا حتى تنسجم الدنيا من جديد، فلا يجب أن تكون الخسارة تامة، حتى لا تكون الشئانة تامة في عين نهي وأمه!

"أنا آسف يا حبيبي - وحشتني - لا أحبُّ أحدًا مثلك - أنتِ كل ما في حياتي - أعتذرُ عن كل ما مضى".

لكن كلمة واحدة من هؤلاء لم تنسجم مع نفسه التي ما اعتذرت قط .. فكيف يعتذر!

مرّ على محل ورد، فنظر إلى سلال الورد المنثورة حول المحل، وفكّر في ابتياع سلة أو (بوكيه) ليكون توطئة تلطف الجو وتهيئ سبيل الاعتذار، أو تحمل عنه مؤونة الاعتذار فلا ينطق به ويكون الورد كلمته لها .. أفف.

لم يشترِ وردًا في حياته، حتى لغة الورد لا يعرفها، ولا يدري تأثيره في نفس المرأة عند الرضا والغضب، كان يسخر دائمًا من الأفلام الرومانسية حينما كانا يشاهدانها معًا مصادفةً ويراها متأثرة بركة الورد وعناية الرجل باختيارها فيقول: ما الفرق بين الورد والبقدونس!

المرأة عنده ليست أكثر من جسد طري وطيء على لذة في أعماقه، يغوص فيه بذكره باحثًا عنها وقتًا قصيرًا حتى يرتوي ظمؤه، ثم لا تكون شيئًا بعد ذلك.

فانطلق بالسيارة رافضًا الفكرة حتى وَقَفَ أمام الباب، فتردّد في طريقه، كان يبسط يده ويقبضها، أخيرًا انبسط وجهه وطرق الباب، ففتحت الأم التي سكتت لما رآته.

- مساء الخير.

- مساء النور يا ابني .. تفضل!

دلف إلى الشقة وجلس، اقترب منه الطفلان اللذان كانا يلعبان في حذرٍ، فانفجرت أساريه في وجهيهما وخاطبهما بلهجةٍ طُفوليةٍ خصَّ بها عمر أكثر:

- حبابب بابا وحشتوني!

دلفت الأم إلى غرفة يولاند التي كانت راجعةً من البنك لتوها وهي تُبدِّل ملابسها وخاطبتها بصوتٍ خفيضٍ:

- مراد بالخارج.

- بالخارج! تقصدين هنا؟

- نعم مع نور وعمر.

- ثواني وسأخرج .. ماما أين كريم؟

- مع أصحابه.

خرجت الأم مُرحبةً به، وخيرته بين الشاي والقهوة، فطلب قهوة سادة، فذهبت للمطبخ تُحضِّرُها ليس لسببٍ إلا لأن القهوة ستأخذ وقتاً في تحضيرها.

منذ دخوله وهو يشعر بارتباكٍ وتوترٍ في جو البيت، تسلس إليه إحساسٌ بثقل الشقة على صدره وثقله هو على أهل البيت وثقل الموقف كله .. موقف الاعتذار!

كيف ستفعل إذن حينما تُحال للتحقيق خاضعًا لا تملك من أساليب
الكذب والمراوغة شيئًا؟

لغة (حماته) المتحفظة وهروبها من عينيه رفضًا لوجوده ليست
عادتها، فإن أيامًا لم ينسها كانت تحمله على رأسها عند حضوره، وتخدمه
وتهتم به أكثر من يولاند .. قبل أن تطفو دواخلك على السطح!

خرجت يولاند من غرفتها وأمرت الطفلين بالدخول للغرفة
بلهجة حادة فدخلوا، فأغمضت الأم عينيهما وهي تقف أمام الموقد تُحضّر
القهوة، وتمت أن تنتهي الأمور على خيرٍ وتمت:

هات العواقب سليمة يا رب.

كان مراد في حيرة من أمره، فكلمات الاعتذار، وإن كانت معروفة،
فإنها لم تخرج منه يومًا، فترددت عيناه بأرجاء الشقة لائذًا بالصمت، ثم
لم يجد بُدًا من الكلام فقال:

- أنا آسف.

فردت بسخرية:

- آسف! غريبة!

عليك الصمود أمام تفاهات النساء حتى تظفر بهن!

- ليس غريبًا أن يعتذر الرجل لزوجته إن أخطأ في حقها.

- للأسف يا مراد، وجودك في حياتي أصبح هو "الخطأ" وليس ما
يصدر عنه.

يا بنت الكلب.

- اعتذرُ مُجَدِّدًا، والمسامح كريم.

أحضرت أمُّها القهوة ووضعتها أمامه فقال محاولاً اجتذابها لصفه:

- المسامح كريم يا حماقي ..

فنظرت ليولاند وقالت بتردد:

- طبعًا يا ابني!

فأشاحت يولاند نحوه وقالت:

- ماما لا دخل لها في الموضوع، إن كنتُ سكتُ على خيانتك لي من أجل الولدين فلن أسكت على اتهامك لي بالخيانة.

- أنتِ مَنْ دفعتنني لذلك بعصيانك حتى ظننتُ أن هناك غيري في حياتك.

- أنا لن أخونك لأنني كرهتُ كل الرجال فيك.

لو كان الوقت غير الوقت لعلمتُك الأدبَ ولكن صبرًا:

- تكرهينني؟

لم ترد وأشاحت بوجهها بعيداً عنه، فالتقت عيناها بعين أمِّها الجالسة على أحد كراسي السفرة التي أشارت إليها بيدها أن تهدئ لهجتها!

أردف قائلاً:

- أخلاقي ساءت جداً، أعترف بذلك .. أعصابي غير متزنة بسبب
ضغوط العمل والبورصة وغيره ..

فتح كريم الباب ومع أول نظرة لمراد عبس وجهه، وقال بتبرُّم:
- أهلاً!

فقام ماذا يده قائلاً:

- حمداً لله على السلامة، متى نزلت؟

تجاهل يده الممدودة وجلس على السُّفرة بالقرب من أمه وقال:
- مِنْ وقت صَرَّيْهَا وطَرَّدَهَا من البيت.

فجلس وهو يقول:

- لم أطرِّدْها.

فضحك ساخرًا وقال:

- لم يطردْها (ثم تابع بعصبية) أَكُنْتَ تَظُنُّ أَنْ تبقى بالبيت وهي
مُهَانَةٌ مضروبة دامية، أنت حيوان؟!
قالت أمُّه:

- كريم .. احترم نفسك، عيب!

قالت يولاند بغضب:

- كريم.

- أزعجتكما كلمة حيوان .. وكلمات السَّبِّ والإهانة غير الضرب،
لا تزعجكم!

قالت الأم:

- الموضوع لا يخصُّك ..

- لا .. يخصُّني ونصف، واسمع يا مراد إن كنتَ حضرتَ لأخذها
فأنتَ واهمُّ، وورقة طلاقها تصلنا قبل انتهاء إجازتي يوم الخميس.

يا ابن الكلب .. وقتك قريب.

فابتسم وقال:

- إذا كنتَ مسئولاً عنها فيجب أن تحكِّم العقل وتنصحها أن بيتها
وولديها أولى بها.

يعرف طبيعة أمِّها وموقفها من الطلاق جيِّداً، ويعرف خوف
يولاند من فراق الولدين، لذا لعب على هذا الوتر.

- وقرَّ نصحك لنفسك يا مراد.

مراد! هه .. طيب!

قالت الأم:

- يولاند .. ما قرأك؟

قال كريم بعصبيّة وهو يقفُ:

- أي قرار؟ لن تتحرك من هنا مترًا واحدًا، يلعن أبو الزواج بهذا الشكل.

فقامت الأم ودفعته بعصبيّة تجاه الباب وهي تقول:

أنت قليل الأدب، اخرج برّة، ثم أغلقت الباب خلفه.

- أنا آسفة يا مراد يا ابني.

قالت يولاند بتحدُّ:

- أنا رجعتُ الشغل.

تجرع الكلمة وقال بابتسامةٍ مُصطنعة:

- كما تحين.

نظرت في عينيه وسكتت .. ليست مقتنعة بالتغير المفاجئ الذي طرأ عليه، لكن ربما! وعلى أية حال فلن يتغير شيء بداخلها فالرجوع لن يكون لسبب آخر سوى الابنين.

- لا أفهمُ سِرَّ هذا التغيّر!

- لأنني أحبُّك؟

ضحكت بحسرة وقالت:

- تحبُّني؟!!

ثم نظرت إلى أمّها وسكتت، وساد الصمت ثلاثتهم، فرغ مراد مبكرًا من كلمات الاعتذار وليس لديه شيء آخر يُضيفه، وأمّها واقعة بين نير ثقافتها التقليدية بأن المرأة ليس لها أفضل من بيت زوجها، ومأساة ابنتها مع مراد!

أما يولاند فحسمت أمرها وقالت:

- سأعود معك، ولكن ليس من أجلك ..

وأشاحت بنظرها نحو الغرفة التي أطلّ منها الطفلان برأسيهما، فالتفت للولدين وقال مبتهجًا:

- سنرجع اليوم للبيت يا أولاد.

فأدخلا رأسيهما وأغلقا الباب.

(٣٥)

دارت بعينها في أرجاء البيت، كان كما تركته، أجزاء الكاسيت المتناثرة، الأطباق المتكسرة، الطعام الذي تعفّن ولصق بالسجاد .. لا شيء تغير، تذكرت ما حدث، وجهه الغاضب تلقاء وجهها، صوته المزعج يصمُّ أذنها، فوهة مسدسه، صوت الطلقة، فأغمضت عينها وابتأست، وراجعت نفسها: هل كان من الحكمة أن أرجع؟!

ليس هناك دليل على ثمة تغير طرأ عليه، حتى كلمات الاعتذار لم تصل لقلبها، وأصبحت تكنّ لتلك الجدران ضغينة أكبر، ولا مت نفسها لرجوعها من جديد للزنزانة كما قال عمر!

كان الولدان جالسين أحدهما بجوار الآخر، فحملت حقيتيهما ودلفت إلى غرفتهما فتبعاهما، وأخذت تُرتّب ملابسهما في الدولاب، لاحظت في عيونهما تساؤلاتٍ عديدةً مشوبةً بقلق واضطراب فقالت لهما:

- بابا كان عليه ضغط الفترة الماضية في عمله، وستعود الأمور
أفضل مما كانت.

فقال عمر:

- يعني لن يضربك ويضربني من جديد؟
وقف الكلام في فمها فجأةً لما أرادت النطق به، وبعد نفسٍ عميقٍ
أرادت به استجماعَ نفسها قالت:
- بابا لم يكن يضربني، وعليك أن تكون مُطيعًا حتى لا تُغضب
والدَّك .. هيا أبدا ملاسَكما.

وأغلقت الباب بهدوء، لم يعد إنكارها يفيد كرامتها أمام الابنين،
صرخاتها من الأذى كانت تصل إليهما أينما يكونا في الفيلا سواء في
غرفتهما أو بالطابق الأسفل أو الحديقة، كانا يتجمعان حولها باكيين،
ويريان شعلة الغضب المتقدة في عين أبويهما.

هناك شيءٌ بالفعل يتغير، لكنه بداخلها هي .. تشعر به في روحها
ونفسها ينمو ويتحرك كالجنين الذي يستجمع عظامه من الدم الرخو
حتى يصير شيئاً.

رفض يتصاعد من أعماقها لكل ما حولها، تُذعن له مرغمة وتفتح
له الطرق حتى يعبر عن نفسه وذاته، ما الذي يحدث؟

هذه القوة الناشئة، ما مصدرها؟ رجوعها للعمل، أم خضوعه
الأخير!

لكن ذلك من شأنه أن يبعث في النفس بعض الرضا المشوب
بالارتياح، لا زيادة البغض والرفض والتمرد والتحدي!

فتمت:

ليكن ما يكون، فالعهد البائد استنفدت خلاله كل ألوان الحيل،
وسرت بكل السبل حتى يكون البيت ومن فيه "بيتاً" لا سلخانة
تعذيب.

مهما يحدث فلن يحدث أكثر مما كان!

ومرت أمام الشرفة مشتتة الفكر فترامى إليها صوته داخلها وهو
يتحدث في الهاتف:

- اسمعني يا "راضي" كل ما قيل كذب ولم يحدث (علا صوته
بعصبية) أنت تعرف أنها عاهرة كاذبة حقيرة ... تحقيق، أي تحقيق،
حاول أن تسوي الموضوع .. زوجها! ... تمام!

أخبره صديقه الرائد راضي عبد الله أنها اتهمته شفاهة، لكن زوجها
رفض تحرير محضر رسمي بالحادثة!

تابعت خطواتها البائسة حتى جلست على الأنثريه، وتعلقت عيناها
بالكاسيت المَهْشَّم وأجزائه المنثورة على الأرض، ثم رفعت رأسها باتجاه
البقعة السوداء التي أحدثتها الطلقة.

اتصلت بها أمُّها لتطمئنَّ على وصولها:

- الحمد لله يا ماما أنا بخير.

- يولاند .. لا تفكري فيما مضى، وحاولي أن تبدئي حياة جديدة من أجل ابنيك.

خرج من الشرفة غاضبًا، لا عنًا الدنيا ومن فيها، فوجد الهاتف على أذنها فألجأه مُسرعًا نحوها، وجذب الهاتف من يدها بعنفٍ ووضعهُ على أذنه، فسمع المرأة تقول:

- خذي بالك من زوجك وأبنائك يا ابنتي!

فوضع الهاتف على المنضدة أمامها ولما يهدأ غضبه المستعر، ثم دلف إلى الحمام، فتبعته ببصرها حتى أغلق الباب بوجهٍ بائسٍ كسيرٍ .. لم يتغير شيء.

قبل أن تهب لك المرأة المنحرفة بعض اللذة، تهدم في نفسك جدار الثقة بينك وبين كل امرأة تقع في محيط "عرضك".

لم تعد تكثر بعلاقاته النسائية المنحرفة، حتى إنها لم تحدثه عنها وقت "الاعتذار"، فالرجل الذي يرحل بشهوته عن امرأته، ليس له إلا النفي والإبعاد، أو استخدامهُ في أحط الأعمال على أطراف حياتها، فالولاء يثبتهُ الرجل أولاً بقلبه، ثم بشهوته ..

أغلقت الهاتف، وتزايد الرفض بداخلها لكل إهانةٍ، لم يعد مقبولا الطعنُ في شرفها بعد الآن!

قامت تُلمِلمُ الأطباق وأجزاء الكاسيت المكسورة، خرج من الحمام
مُتلفعاً ببرؤسبه فحدّجها بنظرة غير مفهومة، فقالت:

- ما لك!

فدلف إلى غرفته وأبدل ملابسه، وأخذت الشقة تعود إلى هيئتها
القديمة إلى حدٍّ ما، وما زالت تنظف.

- أنا خارج.

فقالت بغضب:

- لن أسمح لك بالطعن في كرامتي مرةً أخرى.

- ومن طعن في كرامتك.

- ما حدّث منذ قليل وأنا أتحدّث مع أمي.

فأنهى كلامها قائلاً:

- بوسع المرأة أن تفعل أي شيء.

ونزل مُسرّعاً على سلم الفيلا، فتبعته بنظرة غاضبة حتى خرج
وصفق الباب خلفه، فصرخت قائلة:

- أنت قليل الأدب.

فسمعها من خارج الباب ولم يعلق ولام نفسه؛ اتفقنا أن نتغير
مؤقتاً حتى ترجع الأمور كما كانت، ليس مفيداً أن تفتح على نفسك

جبهاتٍ متعدّدةً وأنت بمفردك وضعيف، ولم تكن بحاجةٍ إلى إحراجها
بكلمات لا طائل منها سوى تأجيج النار أكثر، ربما يكون شكُّك فيها في
غير محله، ولكن كيف؟

حدّث نفسه وهو يقود سيارته، ثم بدا مُتملِّمًا لأثر الفكر المستعر
برأسه؛ كيف تصبر امرأةٌ على الجنس كل هذه الفترة الطويلة، كيف
تصبر ألا يُداعِبَ خيالها الرجل وهو يعبُثُ بصدْرِها ومؤخَّرتها
وبظُرِّها؟

ألا تشتهي الإيلاج وقت الفجر حين يهدأ الكون، فتُخرج آهاتها
على ترانيم السحر؟! ألا تتشوق لشفتين متقدتين تلتهمان شفتيها؟! إنها
امرأة بالغة وجربت الرجل ولذّته فكيف تصبر على بُعده؟ كيف؟!

لا بد أن هناك مَنْ يشغل بالها وقلبها ويُسبِّع عاطفتها ورغبتها!
وقف في إشارة مرور بالقرب من أمين شرطة فأطلق آلة تنبيه
السيارة فاقترب منه الأمين فتلمح وجاهته فحيّاه وفتح الإشارة مبكرًا،
بعد إتحافه بخمسين جنيهاً.

لم تهدأ بذهنه العواصف التي أرهاقته حتى تساءل: لم لا أُطلقها؟!
وتذكر جملة: "لم ترغم نفسك على العيش مع امرأة يأكلك الشكُّ
تجاهها"!

أتركها لتذهب إليه على طبقٍ من ذهب فيعطيهما الحبَّ والجنس
والاهتمام بشكل شرعيٍّ؟ كلا!

وصل إلى نادي الشرطة وجلس إلى صديقه "راضي عبد الله"

- كنتُ أتوقَّع مجيئك.

- إذن لا تدعني في هذا الموقف، أنا قرفت ولا أدري ماذا أفعل.

- أنت مغرور زيادة عن اللزوم يا مراد.

- ولكنك تستطيع أن تعالج الموقف و ..

- الموضوع أكبر مِنِّي، ولا تنسَ أنني ضابطٌ صغير ..

وأمسك بجريدة وأشار بها نحوه:

- قرأتَ جرائد اليوم؟ أكثر من ثلاث جرائد نشرت موضوعك،

صحيح أنهم قالوا: "رجل أعمال صاحب أكبر شركة سيراتيك" لكن
الناس ليسوا بالغباء لكيلا يعرفوا مَن المقصود ..

- قل إنك تخاف على نفسك وأنا لا أهمُّك.

طرقَ على المنضدة وقال بعصبية مكتومة:

- الموضوع أكبر مِنِّي ومن الوزير نفسه، وربما يكون أكبر من

الرئيس ..

- يا سلام!

- أي موضوع يدخل في دائرة "انتهاك حقوق الإنسان" يقيم الدنيا

ولا يقعدُها، وهناك دول بنت ستين كلب تضع الداخلية المصرية تحت
المجهر حتى تُسيء للنظام وللدولة.

- يعني ..

- يعني لا بد أن يسير الموضوع في إطاره القانوني.

- أنا لن أسكت.

- لو كان أحد يستطيع إفادتك لأفدتك أنا .. نصيحتي لك أن تستكين للعاصفة حتى تهدأ ثم نحاول إصلاح ما أفسدته.

ساد السكون برهةً بينهما، كان مراد ينهار بداخله، فارتخى جسده على الكرسي وكأنه شل لا يقدر على الحركة، فأردف راضي قائلاً:

- الموضوع إلى الآن "كلام جرايد"، فزوجها رفض الحديث إلى النيابة!

فاعتدل مراد في جلسته وشاع في وجهه بعض الارتياح، فأردف راضي قائلاً:

- لكن ذلك لا يُفرح، أنت لا تعرف زوجها ولا دوافعه.

- زوجها؟

- نعم، رجل يزن برج القاهرة في الحزب، يستطيع أن يجعل منك بودة سيراميك في لحظة، فكن على حذرٍ.

فهز رأسه شاكرًا له، فأردف راضي قائلاً:

- لا تنس أن ترسل السيراميك والعمال إلى شاليه الساحل.

- حاضر.

(٣٦)

ربما أحدث رُجوعها للعمل بعض السعادة، وموقف الاعتذار عزّز بعض الشيء من شخصيتها التي أوشكت على الاضمحلال، بيد أنها تحمل في نفسها ذكرى سعادة لم تتحقق، وسكينة سعت إليها ففقدتها في مظانها، وأكثر ما يؤلم هذه الأيام أن تُحقّق شعورها فعلياً بأنها تحررت من الرجل حرية كاملة، فلا تربطها به نفسياً وشعورياً وروحياً أية علاقة مما تربط الإنسان بنوعه، فبداخلها انتهى، وانتهت معه "زوجة" فلم يعد لها "رجل" ترى فيه الحصن القوي، واليد الحانية، والمرفأ الذي ترسو عليه همومها وأوجاعها ..

(الزواج) ليس أكثر من كلمة ضعيفة تجمعها في هذا الجحيم .. ما أقسى الكلمات والحروف حينما تتعنت اللغة فتجعل من الكلمة الواحدة مادة للشقاء والسعادة معاً!

في طريقها لمكتبها مرّت بالبوفيه، فألقت تحتها على عم خير بوجهه بشوش، فحيّاها الرجل وسعد لرؤيتها، وقال: "حالا سيكون النسكافيه على مكتبك". وانشغل الرجل في ترتيب مطبخه وغسل ما أتسخ من أكوابه، ونظر في ساعة الحائط فتمتم: "ما الذي أخره إلى الآن؟"

ثم صبّ ستة أكواب شاي وينسون وقهوة ثم وضعها في الصينية، وقبل أن يحملها ليخرج بها فاجأه قائلاً:

- صباح الخير يا عم خير.

- أنت نديم.

- بعينه ..

- من أول يوم متأخر، والله عال ..

وأظنّب الرجل يحدثه عن أهمية الالتزام بالمواعيد لأنه يعمل في "بنك"، ثم ذكر له وصايا عن كيفية التعامل مع الموظفين.

وصلا إلى صالة البنك، فكان يقول له: "ضع الشاي للأستاذ فلان .. ضع القهوة للأستاذ فلان .. الينسون للآنسة فلانة" ... حتى وصل لأحمد وقبل أن ينطق خير قال نديم بابتسامة:

- أعرفه، أحمد جمال

فقطّب جبينه وقال:

- أحمد! اسمي الأستاذ أحمد يا بوفيه.

فانزوت ابتسامته وذابت في إحراجه، وقال بصوت ضعيف وهو
يزدرد ريقه بصعوبة:

- حاضر .. حاضر يا أستاذ أحمد.

ثم ترك الصينية وبها كوبان لم يصلا للموظفين ورجع، كان
الاستياء بادياً على عم خير لصلف أحمد، فمال عليه قائلاً بوجهٍ مُشمئزٍّ
منه:

- اسمع يا ولد

- ماذا؟

- ششش .. اسمع، أنت موظف جديد هنا وأستطيع أن أطرده
الآن خارج البنك، فيالك أن يتكرر ما حدث ثانيةً.

عرفوه من هو عم خير يا شباب.

قال أحدهم مبتسماً:

- قلبك أبيض يا عمنا.

انزوى في أحد أركان المطبخ كئيلاً حزيناً، فأطل عليه الرجل بوجه
مُبتسمٍ وهو يقول:

- أخذت لك حقك، ولو أردت أن أرفقه لفعلت.

- لا .. قطع الأرزاق حرام.
- لم ينسَ ذلك الرجل الذي تسبَّب في فصله من عمله.
- أنت دخلت قلبي.
- نَظَرَ إليه هُنيئَةً وسكت، فأردف الرجل وهو يخرج يونيفورم من دولاب صغير ملحق بالمطبخ:
- ارتدِ هذا.
- كان عبارة عن قميص أبيض وبنطالٍ أزرق.
- ثم تذكر فجأة:
- لقد نسيت نسكافيه نائب المدير ..
- كان نديم قد أنهى ارتداء ملابسهِ الرسمية فقال له الرجل:
- حضّر واحد نسكافيه في (المج) الأزرق واضربه جيّدًا، سكر مضبوط.
- ولمّا انتهى منه قال:
- احمل الصينية لأُعَرِّفَكَ مكتبها.
- طرق الباب مرتين ثم دلف إلى المكتب يتبعه نديم، لم يُبَدُ غير حجابها الأحمر من الدوسيه الذي غمست رأسها فيه باهتمام.
- صباح الخير يا دكتورة.

فأرخت الدوسيه فدا وجهها كاملاً، كقمر سطع فجأة من خلف
سحب أطبقت على نوره وبهائه وضيائه، فاتسعت عينا نديم لهذا الجمال
الذي ينطق بمعنى الطبيعة المكنون في امرأة.
ظل مشدوهاً ثابتاً، تتعلق عيناه بشفتيها لم تبرحهما، فوكزه الرجل
بصوت عالٍ:

- نديم، ضع النسكافيه للدكتورة ..
فوضعه بيدٍ مُرتجفةٍ وعينٍ متعلقة بأهدابها:
هاتفها الدكتور عادل:

- يولاند .. أريدك في مكنتي حالاً.
- حاضر.

ومضت أمامه دون انتباهٍ له، لكنها ألقت كلمة شكر لعم خير،
فتلمح مشيتها بعينٍ معجبةٍ وقلبٍ مسلوب الإرادة.
- الله .. ما لك يا نديم.

- هه .. لا شيء!

- اذهب إلى المطبخ وتابع الموظفين .. سأصلي الظهر في المسجد
المجاور.

ولما رجع إلى المطبخ كانت قد طُبعت في قلبه وتشعبت في نفسه، لا
يدري ما يحدث بداخله إلا أنه يريد أن يراها مرة أخرى، وتمنّى لو
تضغط على زر الاستدعاء فيطير إليها ..

وجلس على كرسي المطبخ وابتسم، وأعاد صورتها في مُحِيلته من جديد، ودقَّق أكثر في شفيتها ..

وعادت يولاند تحمل الدوسيه فوضعتَه على مكتبها، ثم رشفت رشفة من النسكافيه، وأمسكت بهاتفها وهَمَّت بالاتصال بجودي لكنها امتنعت، وأخذت تنظر إلى الهاتف، لكنها أخيراً اتصلت:

- مساء الخير.

- أهلاً يا حبيتي .. أخبارك؟

- الحمد لله .. جودي أين مكتب الدكتور بلال ..

- دكتور بلال محمود؟

- آه بالضبط.

- كنت متأكدة أنك ستطلبينه مني لذا أخذته منه.

وأخبرتها بالعنوان، فارتشفت رشفتين متتاليتين من النسكافيه، ثم أغلقت جهاز الكمبيوتر، ومرت من أمام البوفيه فلمح نديم طيفها، فقام مُسرِعاً ينظر إليها، فاصطدم بعم خير فتكسرت بعض الأكواب.

كانت الغرفة بسيطة كغرفة حمام، مكتب أمامه كرسيان وأنثريه جلدي ومكتبة مكتظة بالعديد من كتب علم النفس والأدب والروايات، ودولاب حديدي متوسط الحجم مغلق.

لا تعرف على وجه الدقة ما الذي دفعها للحضور، ربما تكون بحاجة إلى صديق، لكنها لم تكن ذات يوم صديقة لرجل أو نُجَّالِسُ رجلاً "أجنبيًا"، جودي تعرف عنها ذلك، لذا سرعان ما يجتمعان فيذهب سميّر زوجها.

لكن بلال محمود لا يجهل سبب حضورها، فلا أحد يدخل عيادة طبيب للتنزّه، إنما للشكوى وطلب العلاج. حدّثته عن تأثّرِها بمحاضراته بالنادي، وناقشته في بعض النقاط واستزادت منه، وعرضت عليه بعض خطوط ضعيفة من قصتها مع مراد، ففاجأها بسؤاله:

- ماذا تعني لك أمريكا؟

فاتسعت عيناها دهشة، وأيقنت أن السؤال ليس سياسيًا، فجابت بتلقائية:

- رجل نرجسي مزواج متسلط.

- وماذا تعني باريس وإسبانيا وفينا؟

فابتسمت وقالت:

- فينا .. نهر الدانوب كم أعشق تلك المناطق.

- جميلة فعلاً، مقاهي فينا، أجمل مقاهي في العالم.

تحركّ باتجاه الباب وهي تطنب في الحديث عن فينا، ففتحته وطلب من السكرتيرة كويين من نسكافيه، وألا يستقبل أيّ أصدقاء لباقي اليوم، ثم استدار نحوها مُبتسماً:

- الأزياء هناك تحفة، أعرف بعض بيوت الأزياء العالمية لا تقل رونقًا وجمالًا عن مُدن الموضة الخمس.

- فعلاً، اشتريت هذه البلوزة من هناك.

- ذوقك تحفة في اختيار ملابسك.

- لكنها لم تعجبه، مع إنها أعجبتة على الموديل التي كانت ترتديها أثناء عرض الأزياء.

فقال باهتمام:

- تستشيرينه في ملابسك قبل شرائه؟!

- بل استأذنه.

صمتَ برهةً، ثم قال:

- ماذا تعني لك؟

طُرق الباب مرتين فسكت ينتظر دخول العامل، فوضع النسكافيه وانصرف:

- نسكافيه!

أوماً بوجه مبتسم، فارتشفت منه رشفة فتغير وجهها قليلاً لسكّره الزائد:

- سكر زيادة ..

- بالطبع، أنا من أوصيتُ به.
- قاصداً؟
- نعم.
- مم، أنتم تعتمدون على إشارات ودلالات غريبة.
- قلتُ لك إنني صديق (وأشار إلى لافتة المكتب) ولستُ طبيباً نفسياً، ولا يوجد (شيزلونج).
- نظرت للافتة وابتسمت ..
- أنتَ طبيب؟
- دكتور جراحة قلب، كما ذكرتُ في المحاضرة السابقة.
- سكتت بُرهةً وقالت:
- الذين يزرعون قلباً صناعياً، هل بإمكانهم أن يحبوا ويشعروا؟
- تريدان فعل ذلك؟
- فشردت وأشاحت بعيداً، فأردف قائلاً:
- يستطيعون أن يحبوا ويشعروا كما كانوا قبل زراعة القلب.
- فعقدت حاجبيها مندهشةً وتساءلت:
- كيف؟

- اشربي النسكافيه.

- اعذرنى.

- أنا هنا لأسمع أعذارك وليس لأتقبلها .. اشربي.

فتقبّلت أمره وأمسكت بكوبها وارشفته، فأردف قائلاً:

- القلب الذي نشعر ونحبُّ به، ليس هو العضلة الموجودة بأيسر الصدر والتي تضخُّ الدم للجسم، فهذا موجود في الإنسان والحيوان على السواء، لكن القلب الذي يفعل ذلك هو شيء رباني زرعه الله في الإنسان لأجل العاطفة.

- كيف ذلك؟

- مثلاً .. لو أن أُمًّا زرعت قلباً صناعياً، هل معنى ذلك أنها لن تشعر بالأمومة تجاه أطفالها؟!

- بالطبع لا.

- هذا ما أقصده.

سكت برهة وقال:

- ماذا تعني لك مصر؟

- إنها أنا!

مضى على اجتماعهما ساعة، وقامت لتنصرف، قبل أن تضع يدها على مقبض الباب استوقفها قائلاً:

- مدام يولاند .. هل يمكنني مقابلة زوجك؟

فسكتتْ هُنيهةً وقالت:

- لا.

سدَّ بصره قليلاً تجاه الباب بعد خروجها، ثم جلس إلى مكتبه
وأمسك بقلمه وافتتح صفحة في كشكول كبير وكتب في منتصف
صدرها: مدام يولاند.

(٣٧)

دلفت إلى الفيلا تحمل أكياسًا بها طعامٌ جاهزٌ، فصفقت الباب خلفها بعنفٍ، كان الطفلان يُراجعان بعض دروسهما على طاولة السفرة، فقاما ينظران باتجاه السُّلم، فسألتهما:

- أكلتما؟

- لا.

- وأين بابا؟

فأشارت نور تجاه الشرفة، كان واقفًا يُدخن سيجارة وبجواره فنجان قهوة لا يشعر بشيءٍ حوله، فأدخلت الأكياس إلى المطبخ، وخلال دقائق معدودات كان الطعام على السُّفرة، ثم توجهت نحوه

- الغداء.

- لم تأخّرتِ؟

- كان عندي اجتماع.

فسكت ولم يرد! فيما مضى لم يكن موقفًا كهذا يمرُّ بسلام، تأخير خارج البيت، لا طعام بالمطبخ، تأخر موعد غداء الطفلين، كلهما لا يشفع فيها عذرٌ للإفلات من العقاب!

- ما لك؟

عزم على إخبارها، فبأي حالٍ ستعرفُ، فهي تتابع الأخبار وتقرأ الجرائد، أو ربما تكون عرفت وتُنكِرُ!

- ربما أُسَجِّنُ.

فقطبت جبينها، ونظرت له بعينين متسائلتين، فأردف قائلاً:

- كما سمعتِ.

- ولم؟

توقّفت الكذبَةُ في فمِه، لا يدري أتصدقها أم لا، فهي تلتقط الكلمة الكاذبة من بين الجُمْل كما ينتقي الرادار السيارة المخالفة من سيل السيارات.

- كنتُ داخلًا في مناقصة كبيرة، وعندما فازت بها شركتي دفع بعض المنافسين امرأةً لتتهمني أنني اختطفْتُها واغتصبْتُها.

- معقول!

- نعم .. يفترون عليّ لأنني الأنجح بينهم، وسمعة شركتي لا
تُنافس في السوق.

فقالت ساخرة:

- أعود بالله من الكذب.

فسكت، لم تعد به طاقةً لإكمال حديثه، فهرب من سخريتها قائلاً:
- سأغسلُ يدي.

لو غسلت يدك بماء النيل كله لن تنظف .. أهذه هي المشكلة التي
أهمتك وأوقفتك مكاني، نفس المكان الذي كنت ألوذُ به منك .. سبحان
الله!

كان دخوله الحمام هروباً من أسئلتها، ففتح صنبور المياه ولم يغسل
يده، واستند بكفيه على الحوض مطأطئ الرأس إلى الحوض مُلقياً بصره
في موقع سقوط الماء، يتساقط مع كل دفقة منه شيءٌ من نفسه المتداعية ..
تجرات يولاند على السخرية منه في أشد وقتٍ يمرُّ به، لم تلتمع عيناها
حُزنا ولم تواسيه بكلمة .. هه، وأنا من كان يلوم نفسه لقسوته عليها!

لا يُصلح النساء غير البطش، وإبقاؤها دوماً في حالة "دونية" دائماً،
فإن كانت على علم وثقافة فيجب أن تحدثها فيما تجهله، وإن كانت جميلة
يجب مقارنتها بمن هي أجمل منها، وإن كانت غنية فضروري أن تسفّه
تصرفاتها وعيبتها!

ربما لا تعود الأيام على ما كانت عليه، القوة والرغبة والسطوة،
حتى ليتجرأ عليك كل "كلب" ويعاملك الناس كغيرك من دوابّ
الأرض .. وما حقوق الإنسان هنا التي ظهرت فجأة التي تُحدّ من
عملنا، بل أين "الإنسان" يا راضي الزفت!

سمع صوت رنين هاتفه فبلّل يده وأغلق الصنبور وخرج، والتقط
الهاتف ونظر في شاشته، فدلف إلى الشرفة وأغلق بابها الزجاجي خلفه،
وقال بصوت خاضع:

- نعم يا راضي بيك.

- نعم!

تبعها الرجل بضحكة قصيرة ساخرة وسأله بنبرة تأنيب:

- كيف حالك الآن؟

- أرجوك يا راضي .. أنا .. أنا مُحطّم ..

فقال بنبرة هادئة:

- سوزي خرجت من المستشفى وسافرت باريس لتستجمّ.

- ماذا تعني؟

- وزوجها التزم الصّمت.

- أنا لا أفهم شيئاً .. ماذا تعني؟

- ذلك يعني أنك قانونًا لا شيء عليك إذ لم يتهمك أحد بشيء، أما زوجها فكل الخوف منه، فأنا أظن أنه يريد اللعب معك خارج دائرة القانون.

- المهم لا قضية.

- المهم أن تحترس من زوجها.

- طز في زوجها .. لا أدري كيف أشكر.

أنهى اتصاله معه، وسرت فيه مشاعر الرضا والارتياح وانجلي همُّه، ثم فتح باب الشرفة وأطل برأسه ناحية السُّفرة، كانت يولاند ترفع أطباق الطعام.

- المشكلة انتهت ولا قضية.

- مبارك.

قالتها ببرود، فحدَّجها بنظرة جامدة وقال:

- لم يطل الوقت لتستمتعي بالشَّماتة.

فقوَّست فمها لأسفل مزموماً، وهزَّت رأسها يميناً ويساراً، وقالت:

- بجد ربنا يشفيك.

كاد أن يقذفها بهاتفه، لكنه لمح نور عائدةً من الحمام فقبض يده، فأمعنت نظرهما فيه ثم توجَّهت نحو المطبخ.

(٣٨)

وَقَفَ أمام البنك منشرح الصدر مشرق الوجه، تلتمع عيناه بسعادة غامرة، وترتسم على وجهه ابتسامة هادئة، وعند اقترابه أكثر سرت قشعريرة بجسده، وانتابت قلبه خفقةٌ دَوَّت في أركانه الفارغة.

كانت الليلة الماضية أثقل من جبل على صدره، تمر دقائقها على قلبه كالساعات والأيام، لكنها لم تخلُ من سعادة واستبشار لانتهاء خريف القلب وبزوغ ربيع من بعيد بقبابه الوردية النّدية.

"يولاند" ما أجمله من اسم ومسمّى! قضى وقتًا طويلاً في ليلته يتفنّن في زخرفة اسمها في كشكول مذكراته الذي عاد إليه من جديد بعد هُجران.

إنه الاسم الذي تجلت عليه معاني الجمال، فأصبح فتنة سماعية تأخذ القلب وتقوده لعينيها مرغماً، فجماها ليس وحدة واحدة من هندسة

الجسم وبديع الوجه ورونق القوام وامتشاقه، ليست بكل ذلك جميلة، بل كل شيء على حدة جميل بديع فاتن يستقيم معنىً وشكلاً، فلا يمكن وصفها مُجملاً، وهل يوصف الربيع مجملاً! فأين أزهاره وأشجاره وماءٌ جداوله وخُضرة رُباه وتلاله ونسيمه العليل؟!

وهل توصف السماء في ليلها مجملّة؟ فأين القمر والنجوم والطير الليلي والأشعة الممتدة في جنباتها كما تمتدُّ هي بجملها في جنباتِ نفسي فتُنبتَ فيها قلوباً أخرى تحبُّها وتعشقها.

إنها هي .. نعم هي .

- صباح الخير يا أجمل خير في الدنيا.

- لا يا شيخ!

- وحشتني جداً.

- وحياة أمك!

ابتسم نديم وسكت، وشرع في ارتداء ملابسه فتابع "خير" قائلاً:

- ما لك يا ولد؟

استدار له باسمًا وهو يضبط (البايون) وقال:

- لا شيء.

- السعادة على وجوه الشباب لا يرسمها إلا المال أو الحب.

- أنت مشكلة!

- يبقى الحب!

انفجر ضاحكًا، وشغل يده في غسل الصواني والأكواب، فتسلَّل
صوتُها من الإنتركوم:

- النسكافيه لو سمحت يا عم خير.

فتوقَّف فجأة ونظر بعينين مشرقتين تجاه الصوت المنبعث، وذاب
في روعة الحضور وهو يقدم لها النسكافيه، وتجلت لعينه كنجمٌ بازغٍ
في سماء خالية إلا منها.. كيف هي اليوم؟ وبأيِّ أثواب الربيع جاءت؟
وبأيِّ طلاءٍ شفاهٍ لَوَّنت شفتيها الناعميتين؟ أيقدر اليوم على أن يقدم لها
ما كتبه في شفتيها اللتين أسرا لَّبه واستحوذا على خياله طوال ليلته
الماضية؟

الورقة في جيبه، فهل يتجاسر على إخراجها!

- ارحمني يا رب.. يا ابني ما لك؟

يبدو أن الرجل كلَّمه كثيرًا، لكنه لم يشعر به، فردَّ بصوتٍ هادئٍ لما
انتبه له:

- نعم.

- نعم الله عليك، حضَّر النسكافيه للدكتورة يولاند.

يولاند.. ليس اسمًا، بل وخزّة لطيفة في القلب توقظه كلما غفا.

طرق الباب برفق، ودلف إليها، فطالعت وجهه وقالت:

- أنت جديد هنا؟

- نعم.

قال وهو يضع المج على المكتب:

- تريدان شيئاً آخر؟

- شكرًا.

وضع يده في جيبه، لكنها لم تشأ أن تخرج بالورقة، وكأنها تبيست فاعتصرها بعنف لتطيعه، لكنه لم ينجح.

قال مرةً أخرى:

- تريدان شيئاً آخر.

- شكرًا!

ماذا لو توقّف الزمن، وسكن الوجود أو خلا من كل ما خلّق فيه
سوانا .. أطيلي الكلام .. اسأليني أكثر، قولي: ما اسمك؟ لمّ تسأليني
عن اسمي، أو أين تسكن؟ ما هواياتك؟ أنا أكتب الخواطر وبعضاً من
الشعر الركيك، اسأليني: ما رأيك في لون شفتي؟ في ملبسي؟ في نظارتي
تلك؟ في لون عيني؟ في حجابي؟

انتزع قدميه من الأرض ومضى نحو الباب فقالت:

- لو سمحت يا ..
فقاطعها باشتياقٍ قائلاً:
- نديم حسنين توفيق.
فاندهشت لذكره اسمه كاملاً:
- النسكافيه زيادة.
- تحبي غيره لك.
- لا، ولكن انتبه المرة القادمة أن يكون مضبوطاً.
فقال مبتسماً:
- حاضر.
وعادت لأوراق تطالعها، فأرف متسائلاً:
- تريدن شيئاً آخر!
فرفعت حاجبها وحدّجته بنظرة قصيرة عادت بعدها لأوراقها
فانصرف.
سعد بالحديث القصير، كان تقدّمًا لقلبه نحو تخومها المجهولة، لم
يكتشف شيئاً أكثر إلا أنه ازداد تعلّقاً بها.
"المرة القادمة!"

عاد إلى المطبخ، وطفق يغسل الأكواب التي عاد بها عم خير من
صالة البنك بصمت لا تندُّ عنه كلمة، فتأمل الرجل سكوته ولم ينبس
بكلمة معه.

لم تطاوعني يدي بإخراج الورقة، كيف لم أجروء على ذلك؟
ولكن كيف أعطيها إيّاها؟
خذي هذه الورقة!

هذه الورقة كتبتُ فيها كلماتٍ من وَحْيِك!
أسرّني شفتاكِ فكتبتُ عنها!

ولكن .. ماذا لو انتهى الأمر برفتي من العمل .. إنها نائب المدير،
وأنا في أمس الحاجة إلى المال لعلاج البنت وكُلفة الحياة الكئيبة.
من كان مثلي عضته الحياة حتى أدمته ليس بحاجةٍ للحب ليضيف
همًّا إلى همٍّ، وجراح إلى جراح، لكنه بحاجةٍ للموت ليستريح!
تنهَّد في أسَى، وارتسم على وجهه حزنٌ وكآبة، كان خير يقف على
الباب ناظرًا إليه ولا يشعر بوجوده:

- ما لك يا ابني .. من الصبح وأنت كالبحر لا تثبت على حال!

سكت نديم، فأردف خير بعد برهة:

- إن شعرت أنك بحاجة للكلام فأنا "مُعْتَقِل" الأسرار.

فتكلّف ضحكةً وقال:

- ربنا يستر.

جاء صوتٌ ضاحكٌ من الإنتركوم قائلاً:

- القهوة تأخرت يا خير.. لو أحضرتها بدون "وش" سأضع
"وشك" مكانه.

فضحك وقال:

- حاضر.. أنا في الطريق.

ثم توجّه لنديم بالحديث:

- دكتور عادل صديق طفولة وبلدياتي، لكن أنا ربنا أكرمني
وجعلني بوفيه، وهو كما تراه "مدير بنك"!

كان الرجل يتحدث بفخر واعتزاز عن مهنته، فقال نديم:

- لا تخجل من كونك بوفيه؟

- "أخجل"؟! ولم؟

فهزّ كتفيه وسكت، فأردف الرجل:

- إذا خجلت من عملك فيجب أن تخجل مرتين، أولهما من
عقلك، قيمتك ليست في مسماك الوظيفي، بل في مدى إتقانك
لوظيفتك.

وحمل الرجل الصينية وانصرف، وظل نديماً ثابتاً ينظر مكان عم
خير وكأنه لم يذهب ..

ماذا يقول رجل قد أنهى رسالته في الحياة ووصل إلى باب الخروج،
وعاش أيامه في ربيع هذا البلد فتنعم بخيره زمناً.

جفَّ يديه وجلس على الكرسي يُطالعُ ما كتبه عنها .. لو تعرفين
كيف وقعت في نفسي وقلبي.

قد يكون الحبُّ من أول نظرة كالموت من أول صدمة!

(٣٩)

لم ينجح في ملأ الفراغ الذي أحدثته ميسرة خلفها، حتى على سرير مرضها الذي كانت تنسُّ عليه بالليل والنهار، لم تثبت عليه امرأة أكثر من ساعة أو ساعتين لتتركه وحيداً عليه، يتابع كل واحدة منهن بعد إفراغ مائه وهدوء شهوته وسكون تأثيرته وهي ترتدي ملابسها وتتأهب للخروج أمام المرأة ويده سيجارته ينفث دخانها بغضبٍ مكتوم وحرقةٍ سارية في نفسه.

ذاق كل أصنافهن، وارتشف رحيقهن فلم يبق منهن واحدة بعيدة المنال إلا نهى المستعصية المشغولة! بينه وبينها موانع من فولاذ لا يدري كيف يحطمها، أو كيف يتسور حوائط مملكتها وعلى أبوابها مراد!

ثم شخصيتها الجاحمة وتكوينها المعقد غير المفهوم، لكن كل ما فيها يدعو لغزوها مهما تكن الكلفة، لكنه يتردد ويتردد حتى يأخذه شعورٌ الهزيمة، ويُطيح به قبل خوض المعركة!

امرأتان خيمتا على عقله وقلبه، وتركتاه في مأساة ذكورية ونفسية طاحنة لا يفيق منها، فبين زوجة هربت فحملته خيبةً وحُزنًا، وأخرى يتمناها في خياله ومقطوع بينهما سُبُل الوصال.

تعودُ شقَّتُهُ شيئًا فشيئًا إلى ما كانت عليه قبل أن يقوم هشام بتنظيفها، لكنه يدركها كل مرة باستدعاء زوجة البواب لتنظيفها وتهندمها حتى لا تنضح على نفسه كآبة فوق ما فيها.

خرج من غرفة نومه بعدما وضع على جسده عدة رشات كثيفة من زجاجة (برفان) كي تنعش نفسه وتضبط مزاجه ليتسنى له مواصلة تحضيره لمحاضرات الجامعة، ثم جلس على مكتبه خلف رصات الكتب المختلفة، يطالع الفهارس ورؤوس الموضوعات ذات الصلة بموضوع المحاضرة، عليه صاعدًا أن يتجنب الخروج عن "النص" والالتزام بالمنهج المقرر كما نصحه دكتور رحمي في آخر مرة كان في الجامعة، قال له الرجل: "يا عزت .. أنتَ لن تغير شيئًا، المناهج عندنا غرضها أمرٌ واحدٌ .. ما دام عندنا وزارة تعليم فيجب أن يكون هناك متعلمون".

فأشهر سيف الاحتجاج، ورام الدفاع عن فكره وآرائه وما يعتقده، فقطع عليه الطريق: "يبدو أن أيامك هنا باتت معدودة كما قيل لي". ولم يُفصح عن مصدره ولا من قال، وأخبره أن واجب الصداقة حتمٌ عليه تنبيهه، لكنه توقَّع من يتبعه وهدد بفصله لدكتور رحمي إن لم يسر في الحارة المخصصة للمثقفين والمعلمين ومن على شاكلتهم!

ترك الكتاب من يده، وأشعل سيجارة ودَّخَنَها، وحدَّجَ الكتب
أمامه بنظراتٍ بائسةٍ حاقدَةٍ، ثم قال لنفسه: "وما ذنبُ الكتب؟!"
أشار صوتُ الهاتفِ إلى استلام رسالةٍ، ففتحها فبرَّقت عيناه
ودُهَشَ وامتلاً وجهُه دُهوًلاً للمفاجأة:
"أنا بخير .. أتمنَّى لك حياة هادئة".

لم يفكر في أحدٍ غيرها .. ميسرة!
اتصل من فورِهِ بالرقم الذي أرسلتُ منه الرسالةُ، مدة نصف
ساعة كان الرقم مشغولاً، وأخيراً ردَّ عليه شاب:

- مَنْ أَنْتَ؟

- حضرتك من اتصلت، ماذا تريدُ؟

- جاءني رسالة من هذا الرقم.

- حضرتك هنا سنترا.

فقال غاضباً:

- أين عنوانك؟

- باب اللوق.

- أرايتِ المرأة التي أرسلتِ الرسالة؟

جاء الصوتُ مُرتجفاً خائفاً:

- يا أفندم الزبائن هنا أكثر من أن أتذكرهم سواء أكان مَنْ
يستخدم الهاتف رجلاً أم امرأة.

فأغلق الهاتف وبدأ عليه الشرود لا تندُّ عنه كلمةٌ إلا "ميسرة"،
تخرجُ منه بصوتٌ خفيضٌ منكسرٍ، فأبدل ملابسَه واتَّجه لَباب اللوق.

(٤٠)

مع بلوغ الثامنة مساء كان نديم على موعد مع عصام بالمقهى
بالقرب من بيته، سعى قبل الميعاد بثلاث الساعة، وكأنه على موعد معها
وليس مع صديقه، يحمل بقلبه حباً ثقل عليه، لا يدري كيف يحمل
أخباره وحده، وليس أقرب من عصام ليبوح له بما تُكنّه نفسه، وما
يختلج بصدرة السعيد.

فحينما نحُبُّ، فليس أحب إلينا من الثروة عن المحبوب، وكأنها
متلازمة طبيعية، فلا يهدأ القلب إلا وقت الحديث عنها.

رشف بضع رشفات متقطعة من كوب الشاي حتى فرغ دون أن
ينتبه وابتلع ثمالته، فبصقه من فمه وسعل بحدّة، ثم تبعه بشربة ماء

- ما لك ...؟

- أهلاً عصام، لم تأخرت؟

- تأخرت! الساعة لم تبلغ الثامنة.

حضر النادل أمامه فطلب نرجيلة وقهوة مضبوطة، ثم أردف قائلاً:

- تبدو عليك سعادة من نوع خاص.

- معقول!

- طبعاً معقول، لست بكأبتك المعتادة.

ضحك نديم ضحكة هادئة ولم يرد، فتابع عصام قائلاً:

- وهذه الضحكة الصافية أكبر دليل .. قول لي: هل تعرفت إلى إحدى (المطربات)؟

فضحك ضحكة عالية، وانتظر النادل حتى يضع الجمر وينصرف:

- يا أخي .. لا يوجد برأسك غير النساء!

- وهل هناك أفضل منهن لأنشغل به .. يا ابني النساء أفضل أنواع المخدرات التي تخرجك من الهم والحزن.

- وأحياناً يكن سبب الهم والحزن.

- إذن "فداوني بالتي كانت هي الداء".

وتبعها عصام بضحكة مجلجلة كالمسطول فضحك لها نديم .. ثم غاصت ضحكته في ذبول شفتيه، وأخذ يدخن النرجيلة في صمت وهو

ينظر في الفراغ أمامه، كمن يتتبع خطوات عمره الذي بدأ في التحرُّك
للأمام ببلوغه الرابعة والثلاثين وهو واقف مكانه، صحيح أنه تلهَّى
طيلة حياته بالنساء ولا يجد عائقاً دون إحداهن، لكنهن في نهاية الأمر
دَوامة تقود للأسفل دائماً، لكنه لا يقف كثيراً عند حاجته الفطرية
للاستقرار مع زوجة وإنجاب أطفال ورعايتهم والتنعم بعاطفة الأبوة
كغيره ممن يعرف حتى لا يُحمِّل نفسه ما لا تطيق، ويعلل لنفسه دائماً أن
ما باليد من حيلة، وأنه لم يملك زمام أمره بداية ولا دفعة سفينته حتى
يكون له قرار الوجهة، فالزواج مكلف، وأعباء الحياة بعده أشد كلفةً،
والعجز عن ذلك ماثلٌ بتبجُّح في كل مَنْ يعرف.

انتبه لصوت نديم وهو يقول:

- قابلتها ..

- مَنْ؟

- امرأة الأحلام.

فقال عصام ساخراً:

- لكنك قلت أنها ليست موجودة على الأرض.

- ولكني رأيتها.

- وأكد أحبتها.

- بالطبع .. وقعت في قلبي من أول نظرة.

- أنت متأكد؟

- لا يخفى عليّ أمر الحبّ.

فقال ضاحكًا:

- صحيح .. أنت "حيّيب" قديم!

شعر نديم بالملل من صديقه فجأة، وعزم على السكوت .. يحتاج العاشق عند الحديث عمن يحب إلى كلام مختلف عما يدور بين الناس، كلام جديد خلق لساعته لم يُنطق به من قبل، يريد أن يُجبر الناس على سماعه أطول وقت ممكن وهو يتحدث عنها، ثم يُبدون له غبطة لهذا الحب وتلك المحبوبة، فالعشق ينشئه خلقًا آخر في تكوينه وتفكيره وإحساسه ولُغته.

- أخبرتها؟

- لا، أحتاج بعض الوقت فقط لأستجمع شتات نفسي، ولتمتليّ روحي بها حتى تدفعني لمصارحتها

- أنت خائف!

- قلت لك أحتاج بعض الوقت .. لن أسمح للزمن بأخذها مني مهما تكن الأسباب.

- وأين قابلتها؟

- هي نائب مدير البنك.

فتزع خرطوم النرجيلة عن فمه، وقال بدهشة:

- يخرب بيتك! أنت مجنون .. قد تُفصل من عملك إن صارحتها.
- ذلك مُتَوَقَّع، ولكن .. ليكن ما يكون، أنا أحبُّها .. أحبُّها،
أتفهم؟

- ولكن العقل يقول ..
- العقل في كل شيء يُحسِّنُه إلا الحب.
فهزَّ رأسه نافيًا:

- أتعس الحب نتيجة هو ذلك الحب الذي لا عقل معه.
- قلتُ لك فيما مضى إن الإنسان هنا تمثُرُ حياته بعدة مراحل
ونسيت يومها أن أذكر لك أن "الحب" مرحلة أيضًا، والمرور بها
حتمي.

- لكن "هنا" تعقبه الانكسار.

ورجع نديم إلى بيته مشتتًا تائهاً، كضالٍّ في مفترق طرق لا يدري
أيها أهدي سبيلًا، فالزواج أهون من الحب، فالرابط بين الرجل والمرأة
في أغلب الأحيان "كلمة" أما الحب فيُحمِّل القلب أبعد ما يجترّهُ الرباط
المقدس من هموم وملذات معًا.

"الآن أنت تحبُّ" قالها لنفسه وهو يدخل الشقة ويضيء أنوارها،
ذلك الشعور المهيمن على قلبه طيلة سني عمره، حتى أصبح مكوّنًا

رئيسًا لشخصيته، لكن الذاكرة ما كانت لتدعه حتى تذكره بقصص فاشلة مرّت، فتراكمت في نفسه كسواد كالح أظلم عليه، فلم يبصر من النساء وقت زواجه إلا وفاء فتزوجها، كان وقتها مشوّش الرؤية فتزوجها "بمفهوم خاطئ للحب"، تلك التراكمات والذكريات والإخفاقات جعلته يتطلع إلى مثل أعلى ونموذج أسمى للمرأة، كان يربطه دائمًا بحوريات الجنة حتى يهدأ القلب ويسكن، لكنه لما رآها اهتزّت أركانه وغزته بقوة وعنفوان لا مثيل له، وتشعبت فيه، فلم تدع نُدبة في نفسه أحدثتها إحداهن فيما مضى حتى ملأتها.

يراها قادمةً عليه حاملة بين يديها سعادة ليس لامرأة أخرى أن تقدمها له، كالربيع تعجز الفصول كلها أن ترتدي ثوبًا من أثوابه، أو تتمثّل به في بعض ألوانه وصفاته.

أثقله الفكر، فاستلقى على سريره واضعًا يده بين رأسه والسرير، وأخرج الورقة التي كتبها في شفيتها اللتين أسرتاه وقرأها بعينه فلا يمر بكلمة إلا تمثلّت له عند كل حرف وكل جملة.

فأغمض عينيه مبتسمًا، ورأى يديه تمتدّ نحو يديها الناعمتين وهي خجلة لا ترفع نحوه عينًا، فالتقت أناملهما في رجفة سرت فيهما لما أمسك يدها وقال: "أحبك".

رنّ هاتفه وطال رنينه حتى التقطه من جانبه وردّ على وفاء:

- آلو.

- لم تتصل الفترة الماضية لتطمئن على ابنتك؟
- كنت مشغولاً جداً ..
- مشغول؟ أنت عاطل لا شغل ولا مشغلة.
امتعض ولم يرد، فعلى أية حال يشعر بخطئه لانقطاعه الفترة الماضية دون اتصال يطمئن عليها وعلى ابنته، فقال بصوت هادئ:
- لك عندي مفاجأة.
- وهل كنت تنتظري أتصل حتى تُفاجئني، لم تتصل أنت؟
تجبر غيظه واغتصب ابتسامة من نفسه التي ناءت بحديثها:
- وجدتُ عملاً.
- فعلاً؟ ألف مبروك، أين؟
- في بنك.
- بنك! ألفين مبروك، وماذا ستعمل في البنك؟
سكت قليلاً ثم قال بصوت خفيض:
- عامل بوفيه!
تجاوزت "بوفيه"، وسألت:
- كم الراتب؟

أخبرها براتبه وأنه سيتنظم في العمل من الغد فاستبشرت، وطلبت أن يمر عليهما بعد انتهاء العمل لاصطحابهما إلى البيت، لم تعلق على بوفيه، وفرحت بالراتب، ألم يكن الأجدر بها أن تواسيني، أن تُصبرني على ما صار إليه رجل الاقتصاد والعلوم السياسية!

تذكر قول عصام "البنت أو المرأة عموماً تبحث عمن يريحها من شقاء الأيام، ويؤمّن حياتها من غدر الزمن بغض النظر عن سنّ الرجل أو هيئته أو ملامحه، المهم يريحها."!

ربما لا أملك خبرة كافية بالحياة.

ورجع إلى ورقته، وظلّ ينظر إلى سُطورها كأنه يطالع صورتها، ها هي قد بدأت، وبدأ أول سطورها في قلبه، قصة جديدة لكنها تختلف كل الاختلاف عما سبق، لكن كيف ستنتهي؟

أسوأ الأخطاء التي يقع فيها العاشق أنه لا يضع الفراق في حسبانته، فمن جهله العاطفي يُطبق قلبه على مَنْ يحبُّ كالحبة في قُشورها، فيكون مصيرُه الكسر والألم.

(٤١)

مضت تَشُقُّ الرواق نحو مكتبها بخفةٍ كأنها يحملها نسيم الربيع
الليّن لما أبدت من تحدّد لم تجرؤ عليه يوماً، استعادت بعده شيئاً كبيراً من
شخصيتها المبعثرة، ودبّت فيها روح الحياة التي ذبلت بداخلها، فغمرتها
بسعادة كأنها طفلة تطأ بقدميها عشب المروج لا أرض الرواق.

توقفت عند البوفيه وقبل أن تطالع مَنْ بداخله قالت:

- صباح الخير يا عم خير.

كانت مشرقة الوجه، يلتصع في عينيها بريقُ السعادة والارتياح.

فقال نديم الذي لم يوجد غيرُه بالبوفيه متلعثماً:

- صباح الخير دكتورة يولاند.

فجفلت ابتسامتها قليلاً وقالت:

- أين عم خير؟

- سيحضر بعد قليل.

فهّمت بالانصراف فاستوقفها قائلاً:

- أحضر لك النسكافيه؟

لم تستطع أن تفسر نظرة الشاب الحاملة البادية في عينيه، كانت نظرة بريئة متطلعة وشغوفة، كطفل يشاهد الأضواء الساهرة لأول مرة، فأمعنت النظر في عينيه هُنيهةً وقالت:

- لكن لا تكثر من السكر.

فقال بصوت رقيق:

- حاضر.

بدأت على وجهها دهشةً وتعجّب لتلك النظرة التي شغلّتها حتى دخلت مكتبها، بينما رقت نديم سعادة طافت بقلبه وغمرته، وفي أسرع من المعتاد كان قد حضّر النسكافيه ومضى نحو مكتبها، ثاقلت خطاه فجأة وتساءل في نفسه: "ترى أرأت الورقة وقرأتها أم لا؟" .. فحقق قلبه بشدة لما قد يتمخض عنه ما فعل، فدلف إلى المكتب ووضع الكوب بجوار الورقة، ونازعته نفسه بأخذها، فعلى ما يبدو أنها لم ترها بعد لانشغالها بالحديث في الهاتف بجوار النافذة مع إحدى صديقاتها، لكنه سحب يده ولم يأخذها "ليكن ما يكون .. لا بد أن تقرأها".

قالت وهي تجلس على كرسيها:

- شكرًا يا نديم.

للمرة الأولى تنطق اسمه، نزلت حُرُوفه على قلبه بردًا وسلامًا،
وخرج من المكتب وأغلق الباب خلفه، واستند بظهره عليه واضعًا كَفَّه
على صدره يتنفس الصعداء.

لمحت الورقة المطوية وعليها اسم "نديم".

نَحَّتْها جانبًا وتابعت رشف النسكافيه، ظَنَّتْ أنها وقعت منه سهوًا
وهو ينظف المكتب، فكادت أن تضغط زر الإنتركوم ليحضر فيأخذها
فتراجعت، وبشيء من الفضول فتحتها ..

"أما شفتاكِ فهما في عيني كبريق القمر في ليلة شاتية غارت
نجومها، أو كزهرة تتفتح بأحضان الربيع ناثرةً عيرَها، وكأنَّ بسمتها
هي الدليل في الحياة أن لهموم العاشقين دواءً.

شفتان .. ما إن يتحركا مُؤذِنَتين بالكلام إلا رأيت لهما تمأيلًا كتمايل
الأزهار إذا داعبتها نسائم الأسحار، ثم أتبعُهما وأتلمح رونقهما ودقة
حسنهما، فلا أجد بين عينيي إلا خلافًا يمزق القلب، أكان حديثها
أجمل، أم وهي تكتسي الصمت أنتظر ابتسامتها!

فأيُّ شعرٍ يصدق فيهما! وأيُّ كلماتٍ ترتقي لهذا الحُسن الساكن
بينهما! وأيُّ عباراتٍ تُرفرف بمعانيهما الفاتنة في سماء الحب والعشق
والجمال!

إنه السكوت فقط معلنًا العجز أمامها.

ثم شفتاك في عيني أجمل وأجمل.

يولاند"

قرأت كلماته فاحمرَّ وجهُها واتقد كأنه بقعة دم، وشهقت شهقةً كأنها في اليم أوشكت على الغرق. وارتعشت يدها حتى لم تكد تسيطر على اهتزازها العنيف لولا أن ألقت الورقة على مكتبها وشبكت يدها واعتصرتما بعنفٍ، وظلت تنظر إلى الورقة دون أن تقربها أو تمتدَّ لها يداً، وتتابع أنفاسُها لاهثةً كمن كُتِبَ لها النجاة من الغرق، تدور عيناها في الغرفة عابثةً حتى تهرب من حروفه التي تنظر إليها حاملةً من بين السطور، ثم ترجع مُرغمةً إليها وتُجاهدُ يدها حتى لا تمتدَّ نحوها، ثم ثبتت نظرها عليها بُرهةً وتنهدت فوضعت يدها على صدرها وكأنها تردُّه مكانه.

كان جالساً بالبوفيه قلقاً مُرتبكاً، يفرك يديه إحداها بالأخرى بعنف، رشف عدة أكواب من المياه وغسل وجهه عدة مرات، أخذ يترقب الباب من وقت لآخر متحيناً الوقت الذي ستدخل فيه لتُسمعه ما يكره قبل أن يغادر البنك مفصلاً، فنكث رأسه وانتظر، لكن نفسه لم تُبدِ أسفاً على ما فعل.

تخسرج صوت الإنتركوم وانبعث صوتها قائلاً:

- عم خير لو موجود تعال ومعك الموظف الجديد.

فانتفض واقفاً، وحرار في الرد .. تحققت ظنونه!

فمضى نحو مكتبها لا يشغله شيء إلا "الفشل" معها، تلك المرأة التي صاغها الفكر وحكمة العقل زمناً، تلك المرأة التي أحبها قبل أن يراها .. ستذهب كغيرها.

إن كل عاطفة مضت سواء كانت من القلب أو من الجسد إنما كانت توطئةً للحب الأعظم، ومِراناً للقلب حتى يستوعبها ويتحمل تجليها عليه وقت لقاءها، لكنها الآن هبطت كالقنبلة التي خلّفت تشوّهات وفتوات لن تذهب بتوالي الفصول على القلب.

فتح الباب، وخطا نحوها بقدمين ضعيفتين من ثقلِ الهم الذي يتوقعه، فلما رآته احمرّ وجهها خجلاً، فجاهدت نفسها كي يتحول احمرار وجهها إلى حمرة غضبٍ:

- أين عم خير؟

- لم يحضر بعد.

فالتقطت الورقة المطوية من أمامها وقالت:

- ما هذا؟

فسكت ولم يرد، وشعر بالضيق لا شيء أكثر من جهل "الأنثى" بداخلها التي تقابل كلمات الرجل الرقيقة بعاصفة لا معنى لها، ماذا كان سيحدث لو تجاهلت الموضوع برمّته دون أن تضعني وشعوري في هذا الموقف!

- انطق!

- هي كما قرأت.

- ولم هي هنا؟

- ...

أردفت بغضب:

- قل إنها ليست لي وإلا ..

فقاطعتها قائلاً:

- بل هي لك، كتبتُها فيك من أول يوم رأيتُك.

- أنت قليل الأدب.

فقال بصوتٍ هادئ:

- لا .. أنت لا تفهمين، قلتُ ما أحسسته نحوك فحسب.

ثم رفع رأسه قليلاً وثبت عينيه الحاملتين في عينيها قائلاً:

- كل حرف فيها أنت صاحبتُه، وأنتِ وحيه.

سكتت هنيهةً، ثم قالت بغضبٍ:

- اخرج برة.

فشاعت في وجهه ابتسامةٌ صافيةٌ استغربت لها، وخرج وهو يقول:

- بعد إذنك.

- ولا تدخل هنا مرة أخرى.

لا يبالي بما قد يحدث، كل ما قالته كان مُتَوَقَّعًا، وهو ينتظر الآن
الفصل والطرْد، لكن ذلك أمرٌ لا يشغله، فسعادته بمصارحتها طغى
على كل شعور سلبي آخر، وكأنه نبي مرسل مُكَلَّف بتلك الرسالة إلى
تلك المملكة!

لكن السعادة لم تدُم طويلاً، بهت بمرور دقائق لاستذكاره كرسية
الشاعر في صَفِّ البطالة، وما يستتبع ذلك من هُمووم المعيشة!

(٤٢)

مضت إلى البيت ولا شيء يدور بذهنها سوى ما حدث صباحا من
الشاب، تتردد كلماته في رأسها كدوي عصافير حديقته، فتتحسس
شفتيها بيدين رقيقتين في مرآة السيارة، شعورٌ ما يتصاعد بداخلها
فتكبته، فما حدث لم يكن غير عاصفة أطاحت بأسنمة جبال الجليد
الممتدة على مرامي البصر في حياتها، ثم نازعها شعورا بالوجع والألم!
كانت نور تشاهد الكرتون بالقرب من عمر النائم، فسألتها:

- أكلتما؟

- عمر عمل سندوتشات جبنة نستون.

- عمر!

قالتها بإعجاب، وأشاحت بوجهها نحوه مبتسمة، ودلفت إلى
غرفتها لتبدل ملابسها فتلاشى صوت ابنتها مع صوت التلفاز وهي

تحكي عن اليوم كيف كان، ووقفت أمام المرأة بُرهةً دون حراك، ثم أرخت بصرها تجاه حقيبتها، وأخرجت الورقة وأطالت النظر فيها وهي مطوية، ثم أودعتها مكانها، وخرجت ويدها الهاتف تجاه الشرفة، واتصلت بجودي وعرفت أنها بالمول فعزمت على الذهاب إليها.

ودخلت إلى غرفتها، فانتقت ملابس حرصت أن تبدو فيها أنيقة أكثر من اللازم والمعتاد.

أنهى الولدان طعامهما بالمول وذهبا برفقة رضوى باتجاه ملاهي الأطفال، بينما جلس سمير بمفرده على منضدة في أقصى الكافيه يدخن النرجيلة.

- يبدو أن هناك أمراً مهماً.

- هناك شابٌ أقدم على مغازلتني اليوم.

سكتت جودي كأنها تستوعب ما قالته ثم أطلقت ضحكةً عاليةً لا إراديةً وقالت:

- وماذا في ذلك؟ أنت جميلة ومستفزة.

فحدجتها يولاند بنظرة غاضبة، فأردفت جودي:

- أقصد ليست المرة الأولى التي يحاول البعض التقرب منك بكلمات غزل حتى إن بعضهم كان يطلبك للزواج.

- الأمر مختلف.

- مختلف في طريقة تعاملك مع الشاب؟ شاب تعيس فعلاً أن يتعرض لعاصفتك المعتادة كلما تقرب لك أحدهم، أنا مُشفقةٌ عليه.

قالتها بدعابة، فمن عادة يولاند أن تصدَّ كل رجل يحاول التقرب منها بكل صلفٍ وغُرور، وتعطيه درسًا قاسيًا يجعله لا يعاود الكرة من جديد.

أخرجت الورقة من حقيبتها وقالت:

- عامل بوفيه، وُظف بالبنك من شهر، يصغرنى بشاني سنين تقريباً .. انظري ماذا قال.

قرأت الورقة بعينيهما وارتسم على وجهها التعجب والذهول، لكن ابتسامة شفيتها لم تتوقف:

- "فأي شعر يصدق فيهما وأي كلمات ترتقي لهذا الحسن الساكن بينهما".

أتمت قراءتها وطوت الورقة وأردفت:

- يا بختك!

فاتسعت عينا يولاند دهشة، فأردفت جودي قائلة:

- طبعاً .. الرجل الذي يشغل باله بامرأة ويكتب فيها مثل هذا الكلام ويمرُّ على كل تلك المخاطر التي قد تحدث له، هو رجل نادر الوجود.

فنظرت تجاهها مغتاظة وأشاحت بوجهها عنها، فأردفت بجديّة:

- يولاند .. الكلام لمسك.

نفث على الفور قائلة:

- قلت لك إنه عامل بوفيه.

- مشكلة المرأة الشرقية أنها كثيراً ما تتكلم عن الحبّ واحتياجها

له، لكنها "مناقفة" بطبعها، لا تنظر ماذا في قلب الرجل نحوها بداية، بل تنظر في أي جسم وضع القلب نفسه.

فقالت بحزم:

- جودي .. أنسيت أنني مُتَزوجةٌ .. يبدو أن حياتك في أمريكا

مسحت عقلك وبدّلت مبادئك.

نالت منها هذه الكلمة "بدّلت مبادئك"، فحوّلت وجهها نحو

الأطفال، وساد السكون بينهما، فاستشعرت يولاند خطأها:

- أنا آسفة.

لم تكثرث بأسفها، فأردفت:

- جودي ..

فالتفتت نحوها وهي مقطبة الجبين، فتابعت قائلة:

- ليس أنتِ ..!

ليس أنتِ من تغضبين مني، وليس في هذا الوقت بالذات ..!

فندّت عنها ابتسامة خفيفة لم تنفرج لها شفتاها وقالت بنبرة هادئة:

- أنا لا أقصد التخلي عن أخلاقك ومبادئك، كل ما أتمناه أن تعيشي حياة أفضل لأنك تستحقين ذلك .. أقول لك سِرًّا، حينما أكون مع سَمير في حالة هادئة فيضممني إلى صدره ويحيطني بحنانه ومودته وحبّه أذكرك وأتمنّى لك ما أنا فيه .. نحن لن نعيش إلا مرة واحدة.

- الحياة لن تتغير بكلمتين ساذجتين من شابٍّ متهور.

- أنا لا أقصد الشاب ولا ما كتب .. أنا أقصد ما وراء ذلك.

- وماذا وراء ذلك؟

- أنك امرأة مرغوبة، وما زالت الحياة أمامك، الشاب ليس أكثر من تنبيه، "كالحلم" الذي نراه في النوم، لكنه يختلف عند تفسيره ليدلنا على أشياء نجهلها من قَدَرنا.

نظرت لها ثم أشاحت بوجهها نحو الأطفال ..

فقالت لها جودي لما رأتها تمنع النظر في نور وعمر:

- سيتوهان في الزمن عمًّا قريب، دفء الولد وونس البنت لن يظلا طويلاً، سينتهيان في دوامة الحياة، ولن يبقى لك بعدهما إلا العذاب والألم صافيًا معه.

لمحت يولاند مراد في الطابق الرابع حيث دار السينما الملحقة بالمول
برفقة امرأة، فحافظت على تعبيرات وجهها حتى لا تُلفت الانتباه،
ووقف مراد مستنداً على السور الحديدي ليجري مكالمته ..
رنّ هاتفها فلم ترد، فهزّت جودي رأسها عجباً لتوقعها أن مراد
المتصل:

- ألن تُردّي؟

فقال باستهانة:

- لا.

(٤٣)

مرّت عدة أيام على ما حدث، وظلّ قلبه مُعذَّباً لمنعه من الدخول عليها، فقد طلبت من عم خير ألا أحد غيره يُحضِرُ لها ما تطلب، ولما سأله إن كان حَدَثَ منه شيءٌ أغضبَها قال له: أنه لا يضبط لها السكر!

كان الوقت يمرّ على قلبه ثقيلاً، فما القرب منها مع الصدود إلا وخزات مبرحة في القلب والروح، ولا يدري كيف الولوج إلى قلبها المُغلق، لكنه على أية حال "قريب" مهما تكن درجة القُرب ونوعه، هكذا خدع نفسه!

كان يأتيه كل يوم صوئها: عم خير .. النسكافيه لو سمحت. فينظر له عم خير نظرة غير مفهومة، ثم يُشرع في تحضيره ويقدمه لها، ثم يعود فيرمقه بنفس النظرة وهو يضع الصينية على الحوض فيتلهّى نديم في غسل الأكواب والصواني.

في إحدى هذه المرات التي ذهب فيها "خير" لتقديم النسكافيه ترك هاتفه بالقرب من الحوض، فتوقفت يدا نديم عما أشغلت فيه من غسيل، وظلَّ يمعن النظر إلى هاتف خير حتى انتهى إلى تجفيف يده بأسرع ما يمكن، ثم أخذه وفحص الأسماء المسجلة عليه حتى وصل إلى "يولاند" فابتسم، ولما سمع خطوات عم خير تقترب نقل الرقم بسرعة وضغط اتصال ثم غلق ليسجله فيما بعد، وترك الهاتف مكانه، لكن قرار الاتصال بها كان صعباً لا يدري كيف يتخذه، ربما إن غضت الطرف عن (إساءته) الماضية، لكن اتصاله لن يمر على خير!

فظلَّ أسابيع ممتدة يُقاسي فيها وحدته القلبية التي اشتدت وحمّت، وانتظر من القدر تصريحاً آخر لما يكنّه لها، ومشية تُصلح الطريق إليها، لكن شيئاً لم يحدث، ولم يعد يرى وجهها مُطلقاً، حتى إنها امتنعت عن إلقاء تحية الصباح على عم خير المعتادة بالبوفيه، ولم يكن يتجاسر أن يخرج رأسه من الباب لينظر إليها خوفاً أن يلفت نظر خير لشيء.

فكتب ورقة وعلّقها على باب البوفيه:

"حتى نلتقي: ودارت دورة القمر، وعاد من جديد واكتمل، وما زلتُ أنتظرُ قمري يُشرقُ في نفسي بنوره القدسي البديع، فيتلاً في روحي وكأنه يضع فيها أرواحاً عديدة كفرصٍ أخرى للحياة. وأنظرُ بسمتها الساطعة كشمس الضحى الذهبية على ربوعي وتلاي، فتتميل لها سنابل الروح والنفس، وتتغنى لها بلابلي في دوحة القلب الحزين المنتظر.

وتمرُّ الليالي الكوابد، والأيام الأوابد، فأناجي النجوم وأسأل القمر
عن قمري، فيعللني أنه منها أتى ومن جماها أشرق، ومن لطف رُوحها
ابتسم في ليل العاشقين الحزين.

ويحين السحر ويقرب، وتهبُّ نسائمه عازفة على أوراق الورد
وأغصان الشجر فتنال من جمراتي فتشعلها، ويمتدُّ هُبُّها إلى عقلي فيثور
التساؤل من جديد: متى تأتي؟

ويتساقط الندى في كفي، كعينيك إذ يداعبها نسيم السحر الرطب
فيدمعهما، فتساقط على صدري، لكنها الآن في كفي مفردة تبكي
وحدثها معي وتبحث عنك مثلي .. وتنتظر.

ويطول ليلى وتئنُّ كواكبُه لحالي المؤسف، وما زالت الذكرى
تراقص أمام عيني مجسَّدة، فأكتب في وجه الخُلُقَاء رسالتي إليك، لعلك
تنظرين إلى القمر ليلة فترينها.

وينصدع الصباح بجماله الإلهي من رحم الليل الحزين، وكأنه أمل
خرج من ظلام أحزاني، فأتنفس رحيقه البكر النَّدِي قبل أن تدنسه
أنفاس الكاذبين والمنافقين.

حتى إذا هدأت هجعة الليل الممتدة مع تباشير الصباح، وعلت
صرخات الضجيج من حولي، غرزت وردة أخرى في جبهة الوادي
حتى إذا التقينا تنصَّلت من طينها إلى نورك شوقاً ورغبةً، وذهبت إلى
حيث الانتظار الثاني، انتظار الليل يأتي حيث أنتظرُك مع القمر يا
قمري".

ظَلَّت الورقة معلقة مدة أسبوع ولا يدري أقرأتها أم لا؟ رأتها أم لا؟ وظنَّ أنها بأية حال لن تقف أمام البوفيه لتقرأ ورقة، حتى لو لمحتها أثناء مرورها ستظنُّ أنها ورقة تعليمات كعشرات الأوراق المعلقة في كل مكان، لكنه في اليوم الثاني من الأسبوع التالي وعند دخوله إلى البوفيه لم يجدها، فسأل عم خير إن كان نزع ورقة من الحائط، فردَّ الرجل: أي ورقة!

حتى خير لم يَلَحْظْها لوقوعها بجوار عدة أوراق عديدة ملصقة تحمل تعليمات مختلفة.

فسيطرت عليه وشغلت تفكيره حتى كاد أن ينسى زوجته وابنته، فقلَّ بينهما الاتصال ولم يذهب لإحضارهما كما وعد أكثر من مرّة، استحوذت يولاند على قلبه وتفكيره، ولم تدع مجالاً ولا مكاناً لأحد غيرها، وهكذا المرأة في قلب الرجل، إن دخلته تمكَّنت منه وأصبحت كالثوب لا يصلح إلا لجسد واحد.

مرَّ عليهما في بيت أبيها، واصطحبهما للبيت، قالت مع أول نظرة للشقة بعد إضاءتها:

- طول عمرك فوضوي.

فابتسم قائلاً:

- حمداً لله على السلامة

دارت عينها في أرجاء الشقة لتلمح الفوضى المنتشرة في كل مكان،
وتحسب "نفسياً" كمّ المجهود اللازم لإعادتها إلى ما كانت عليه.

- والله حرام عليك.

- اعملي شاي.

- شاي؟ بعد تنظيف الشقة.

فجز على شفتيه ومضى إلى الغرفة فأبدل ملابسه، وعاد ليُحضّر
الشاي لنفسه، كانت وفاء قد دخلت في حربها مع الشقة، واستقرت مها
أمام التلفاز منتظرة عرض الكرتون بكل انتباه، فوقف في المطبخ ورمق
مها بنظرة استراحت على وجهها الذي بدأ يتعافى، وتنقل بعينه بينها
وبين أمّها التي قيّدت رأسها بحجابها، فالتقت عيونهما فجأةً فابتسم لها،
فقالت:

- اعمل لي شايًا معك.

فرفع حاجبيه مبتسمًا وقال:

- يا سلام.

فابتسمت وقالت:

- يا سلام .. ومن الآن فصاعدًا أنتَ المسئول عن المشروبات.

فضحك ضحكةً صافيةً لا يدري من أي جوانب القدر تسربت إلى

نفسه:

- حاضر.

ثم لم تهدأ ابتسامته حتى رمته نفسه بتساؤل: أهى خيانة أن يميل قلبُ الرجل إلى امرأة أخرى غير زوجته؟ فتنهّد، وسكن بصره على كوب الشاي وهو يُذيبُ السكر فيه، وخرج يحمل الكوبين بين يديه فوضع أحدهما أمام التلفاز، فقالت:

- شكرًا يا حبيبي.

فقدر لها ذلك، وتوجّه بحديثه إلى مها:

- أتشرين شيئًا يا حبيبتى؟

فقالت مُداعبةً بصوتٍ مُجهّد:

- شكرًا يا حبيبي.

فمال عليها وقبلها، ثم دلف إلى الشرفة وأشعل سيجارة، وما زال السؤال يصرخ كطفل جائع بين جوانحه والصراع محتدم، أهى خيانة؟

الخيانة أنت أقدمت عليها بالفعل فيما مضى، واستمتعت بها مع سعاد ونهى، لكنك وقتها لم تشغل بالك بما فعلت، ولا ما ألحقت بكرامة زوجتك من شروخ، أنت وحدك من يرى تلك الشروخ ينساب منها الأسف بينما هي تنظر لك بعينين صافيتين عاشقتين!

كانتا ثمرتين محرّمتين، ماذا لو أقدمت زوجتك على فاكهة غيرك!

"الرجل غير المرأة" .. في أي شيء، ما وجه الخلاف بيني وبينها،
أليست امرأة لها شهوة وعين يمكنها أن تطلقها في الرجال فتشتهي
وتتمنى؟

ربما لو فعلت ما فعلت أنت لكنت قتلتها، ولألحقت بها العار حتى
بيت أبيها وفضحتهم جميعاً، أما أنت فرجل!

يجب أن تصون نفسك، فأنت تعلم أن الرجل الذي يطلق العنان
لغريزته في الأعراض يكون أقل الناس غيرةً على عرضه، فلو حام ذئب
حول حماء لن يشعر بمخالبه وهي تمزقه، فتعدد الأعراض على النفس
تطمس البصيرة وتُفقد الغيرة حاسة الشَّم، ويكون الرجل كالفلّاح
الغبّي، يرى كل الزروع من حوله فاسدة معطوبة، ويظن أن شجرته
الوحيدة صالحة خالية من كل عيب!

فتأفّف بشدة ودلّك عنقه بيده، وحاول طرد الخاطر عنه، وعاد إلى
يولاند فانبسطت نفسه قليلاً، "هي ليست كغيرها".

يحبّها بطهر ونقاء، ولا يسرح فيها خياله الطائش حتى وإن قاربها
ومسّ ثوبها ثوبه، حتى وإن تعانقت الشفتان في الخيال، فهو لا يرى فيها
أقل من زوجة، ولا أكثر من ملكة على كل من دونها من النساء.

(٤٤)

عند انعطافها باتجاه شارع أبي الفداء صدمت أحدهم بسيارتها
صدمةً خفيفةً أطاحت به خلف الشجرة على الرصيف، فوقفت تنظر في
المرآة فلم ترَ أحدًا، فمضت نحو البنك وظنّت أن خُيِّلَ لها لشرودها، ولَمَّا
دخلت مكتبها جلست باتجاه النافذة موليّة ظهرها للباب وهي عصبية
المزاج تلوم نفسها لأنها لم تنزل من سيارتها لتتأكد فربما صدمت أحدهم
وكان بحاجة لنقله إلى مستشفى.

وأخرجت ورقة مطوية من حقيبتها وفتحتها، فكان في صدرها
"حتى نلتقي" فلمعت عيناها وهي تطالعها وأشرق وجهها وانزاحت
كأبته فبدا صافيًا.

سمعت حركة خلفها فأطبقت الورقة واستدارت بالكروسي تجاه
الداخل، فقالت غاضبةً:

- ألم أنه عليك ألا تدخل هنا مرة أخرى!
- عم خير ليس هنا، ألمته قدمه بشدة يوم أمس ونصحه الطبيب بعدم الحركة.
- فتطلعت فيه بعين غاضبة، ولاحظته يميل إلى اليسار في وقفته
فقالت:
- قف مضبوطاً.
- لا أستطيع .. يبدو أنني سألحق بعم خير قريباً.
- ...!
- حضرتك صدمتني بالسيارة منذ قليل.
- فتلعثمت قائلة:
- أهو أنت ؟ يا الله .. أنا .. آسفة، كنت مشغولة.
- فابتسم وقال:
- المسامح "نديم".
- فأحنت رأسها، ودفعت ابتسامة كادت أن تفلت رغماً عنها،
وأخرجت بعض النقود ومدّت بها يدها.
- مجرد اعتذار عمّا ألحقته بك.
- فغربت بشاشته وأظلم وجهه فجأة وقال:

- لو فعلها غيرك كنتُ أخذت منه حقي في الشارع حتى دون اللجوء للشرطة .. وفّرني نقودك .. شعور التسامح والصفح لا يُشترى بالمال يا دكتورة.

وخرج ضعيف الخطأ لما بنفسه وقدمه من ألم، وما زالت فاردة يدها بالنقود، فقبضتها ورمت بالنقود على المكتب وأسندت ذقنها على كفّها المشبكيتين إحداهما بالأخرى وقالت:

- ولا الشعور بالحب والرحمة والوفاء يُشترى ..

ودخلت لوجي فجأة فألقت على يولاند تحية الصباح وجلست وتابعت قائلة:

- أولاً: عندنا اجتماع بعد انتهاء العمل

- وثانياً؟

- سمعت "خالو" يمدحك ويشني عليك ..

- خالو؟

- دكتور عادل يبقى خالي.

- آآآآآآه.

- ماذا؟

- لا شيء .. لوجي، وفّرني عليّ تفاهاتك الصباحية.

- مميم طيب .

ثم قامت وانصرفت، فأسندت ظهرها للكرسي، وألقت برأسها على مخدعه، ثم استدارت باتجاه الشُّرفة فلمعت عيناها البنيتان في ضوء شعاعها الأصفر المتسلل عبر النافذة الزجاجية.

تمتت: فرص أخرى للحياة ..

"إنك امرأة مرغوبة، وما زالت الحياة أمامك، الشاب ليس أكثر من تنبيه، كالحلم الذي نراه في النوم لكنه يختلف عند تفسيره ليدلنا على أشياء نجهلها من قدرنا".

تنفرط الحياة كحبات العقد بلا معنى ولا فائدة، لم يحقق لك الصبر يوماً إنجازاً، بل بدا كنتوء في يد الرجل ذي العمل الشاق .. يا كل تلك الأيام التي مضت كيف مضيت!

من كان أجهل منك حينما جعلت أحلامك كرسالة شاردة على صفحة البحر لربما صادفت فارسها فحققتها .. ذلك في دنيا العقل سداجةٌ وسخفٌ.

طاف الشابُ بخيالها، فطالعت نظرة عينيه الحالمتين وابتسمت، ولم تتجهم لنفسها كعاداتها، وبدت حائرة الفكر أمام المدّ المجهول، لكنها على أية حال أيقنت أن قد أصابها رذاذه!

وحينما دقت الرابعة عصرًا ملّكت متعلقاتها ومّرت بالبوفيه، كان نديم أمام مرآة في قبالة الباب يهندم ياقة قميصه بعدما أبدل ملابسه مستعداً للرحيل.

رآها في المرآة فدَقَّ النظر، وقَرَّب وجهه من المرآة ليتأكَّد فلمح ابتسامتها، فاستدار لها:

- تؤمري بحاجة يا دكتورة؟

- لا .. جئتُ أعتذر لك عمَّا حدث في الصباح.

وذهبت ولم تفارق الابتسامة وجهها، فوقف في البوفيه ساكنًا بُرهةً ثم فتح فمه وأخذ شهيقًا عميقًا ونفثه بعنفٍ.

استقلت سيارتها وانطلقت تشقُّ الطريق من الزمالك حتى حدائق الأهرام مُنتشية الروح، هادئة القلب، لا يعكر صفوها شيءٌ، وبدأ لها الطريق خاليًا فدبَّت في روحها مرح وخفة، وتلوَّنت الحياة على جانبي الطريق وفي الناس، وأرهفت سمعها لأغنية "كلمات" لماجدة الرومي، وأخذت تُردِّدها بصوتٍ خفيضٍ، حتى انتهت إلى "كلمات تقلب تاريخي تجعلني امرأة في لحظات"، فتوقَّفت شفتاها عن الحركة، وتابعت الكلمات إلى نهايتها دون همس، فتوقفت بسيارتها جانبًا، وأغلقت الكاسيت، فامتلاً وجهها حُزنًا غاضبًا، وأخرجت حبة أنبرامين وابتلعتها، "يا ابن الكلب"!

ماذا بعد كل هذه المهدئات إلا مستشفى المجانين يا واطي؟

أمعنت النظر في علبة أنبرامين وألقت بها بعنف بجوارها، وأعادت سبَّه من جديد، وانتابتها حالةٌ عصبية لتذكِّره، ذلك الذي مزَّق نفسها بمرور الزمن وتحوَّل من ربيع زاهٍ إلى خريفٍ بشع، ولوَّت أجواء حياتها بنسيمه الوسخ.

رَنَّ هَاتِفُهَا، كَانَ رَقْمًا غَيْرَ مُسَجَّلٍ فَلَمْ تَرُدْ، وَلَمَّا عَادَ الْهَاتِفُ لِرَنِينِهِ
أَجَابَتْ:

- أَلُو

- مَسَاءُ الْخَيْرِ يَا يُولَانْد.

- نَعَمْ يَا دَكْتُورْ مَنِير.

قَالَتْهَا بَعْصِيَّةٌ، فَرَدَّ الرَّجُلُ بِنَبْرَةٍ كَالْمَعْتَذِرِ:

- كُنْتُ أَطْمَئِنُّ عَلَيْكَ فَحَسَبْ.

- لَيْسَ بَيْنَنَا أَيْةٌ عِلَاقَةٌ كِي تَطْمَئِنَّ عَلَيَّ .. سَلَام.

وَأَغْلَقَتْ الْهَاتِفَ وَانْطَلَقَتْ بِسَيَارَتِهَا بِمَزَاجٍ سَيِّئٍ وَرُوحٍ مَلْبَدَةٍ
بِغَيُومِ الْمَاضِي الْمُسْتَمِرَّةِ، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ تَشْعُرُ أَنَّهَا "عَارِيَّةٌ" بِكُلِّ مَا تَحْمِلُ
الْكَلِمَةَ مِنْ مَعْنَى .. أَتْنَى عَارِيَّةٍ.

رَجَعَتْ إِلَى الْبَيْتِ وَوَجَّهَهَا يَدَايَا مَا بِنَفْسِهَا مِنْ حُزْنٍ وَأَلَمٍ، كَانَ
مِرَادَ بَرْفَقَةٍ رَاضِي عَبْدِ اللَّهِ فِي صَالَةِ الْبَيْتِ.

- مَسَاءُ الْخَيْرِ.

لَمْ تَزِدْ عَلَيْهَا، وَلَمْ تُبْدِ اهْتِمَامًا لِأَحَدٍ، وَدَلَفَتْ إِلَى غُرْفَتِهَا وَأَغْلَقَتْ
الْبَابَ وَأَلْقَتْ جَسَدَهَا عَلَى السَّرِيرِ.

- عَلَيْكَ أَنْ تَكْتَفِيَ الْأَمْنَ أَكْثَرَ عَلَى مَصَانِعِكَ وَمَخَازِنِكَ، فَلَا تَدْرِي
مِنْ أَيْنَ تَأْتِي ضَرْبَتُهُ.

- ممكن أن يصل الأمر إلى البلطجة؟

فأطلق راضي ضحكة عالية استفزت يولاند في مرقدتها بالداخل،
وقال:

- يا رجل .. أنت من بدأت بالبلطجة مع زوجتي، ثم إنه يملك
تحت يديه جيشاً من البلطجية لا يعصونه في أي أمر.

- لكنه بلا شك سيخشى على سمعته إن اقترف ما تظن وانكشف
أمره للدخلية.

ودّ لو أمّن على كلامه فيطمئنه ويهدئ ارتبাকে ويوقف تعرّقه، لكنه
قال ضاحكاً:

- هو صديق شخصي لسيادة الوزير.

وقام راضي لينصرف، فاستوقفه مراد قائلاً:

- وما العمل؟

- لا أعرف، لكن لا تنس أنه سيلعب معك خارج دائرة القانون.

وحينما وصل إلى الباب خارجاً قال وهو يُشير له بسبابته:

- ربما يستحسن ألا يشاهدك أحد الفترة القادمة معي، لأنه بكل
تأكيد حكى لصديقه ما حدث، وأنا لا أريد مشكلات، أنا ضابط صغير
.. شكراً على السيراميك والعمّال.

بعد نزول راضي طَرَقَ بابها عدة طرقات فسمحت له بالدخول، لم تكن تتوقعه فاعتدلت في جلستها وقالت بصوت كسير:

- نعم!

- لا تنسي غداء الطفلين!

فحدقت فيه قليلاً ثم تركها وخرج، لم يلتفت لنبرة صوتها وما يحمل من شجنٍ، ومضى دون انتباه لما يتغير بداخلها "كأنثى"، فسال دمعُها ..

يظنُّ أنها لا تملك في أنوثتها قوةً مانعة أمام ذكورته المتسلطة، وأن غاية حزنها شلال ينهمر يُحدث بعض الضجيج ثم يستقيم نهراً راضياً بصفته مهماً تضيق عليه، لكن الشلال قد يكون في بعض الوقت ناراً قادمة من فوهة بركان غاضب تجرف الحياة أمامها بكل ما فيها .. حتى الأطفال.

فالدمار الذي تحدته القنابل إثر انفجارها ما هي إلا محاكاة لنفس الإنسان حينما تفيض بما فيها ولا يكون فيها متسع لاستقبال آلام وهموم جديدة، فتتصدع النفس من أقطارها وتنفجر محدثة دماراً إنسانياً اجتماعياً لا يقلُّ شأنه عما أحدثه "سويني" بهيروشيا وناجازاكي.

(٤٥)

راقصة تهتُّ على أنغام صاخبة كقرع الحديد على الحديد، وفتيات
خليعات يدرن على المناضد يضيئها بوهج أثنائهن العارية، وفرقة
الكؤوس الذائبة في صوت الموسيقى المزعجة كأنات المرض ووخزاته في
نفسه، سمع أحدهم ينادي في هذيانه منادياً من بعيد: "دكتووووور"
فأغمض عينيه وابتسم بمرارة، دكتور جامعي كان محترماً، وزوجاً كان
سعيداً، ذهب كل ذلك وبقيت هنا.

وكزه النادل بهدوء فنظر له، كان يناديه ليصبَّ له كأسه الفارغة في
يده:

- صُب.

قالها مراد وهو يجلس أمامه، فصبَّه النادل، وتعلّقت عيننا عزت
بمراد، "ما لك؟" سأله مراد فلم يرد، وتعجب لشحوب لونه وارتحاء
عينيه ولحيته الخفيفة المبعثرة.

- ماذا نفعل هنا؟

قالها بتلعثم.

- ماذا بك يا عزت؟ نحن هنا للفرفشة.

- أية فرفشة؟ ولماذا لا نقضي وقت الفرفشة في بيوتنا!

سكت مراد ريثما ينتهي من هذيانه، وأمر النادل أن يصب له كأساً، فقال عزت:

- أنت رجلٌ جاحِدٌ خائنٌ، لا تشكر نِعَمَ الله عليك.

أنزل الكأس من يده قبل أن تلامس شفثيه، واتسعت عيناه بغضبهما وقال:

- لا تتدخل في حياتي الشخصية، لا شأن لك بها.

- أجبني ماذا نفعل هنا، أنت رجلٌ أعمالٍ مُتزوج بامرأة جميلة ولك أطفال، وأنا دكتور جامعي مرموق اجتماعياً، ما الذي يدفعنا لهذا الخيض والتمرُّغ في هذا الروث!

- أنت بحاجة للراحة، هيا بنا.

نزع ذراعه من يده، وقام صارخاً بجوار الراقصة:

- ماذا تفعلون هنا؟ ارجعوا إلى بيوتكم وزوجاتكم، حافظوا على حياتكم، دعموها حتى لا تسقط وتضيع منكم وأنتم لا تشعرون..

فأتى الأمنُ مُسرَّعاً فحمله خارجاً وسار خلفه مراد وهو يُنبِّههم ألا يسيئوا إليه.

(٤٦)

لا تمرُّ ليلةٌ إلا وأعاد ذهنه عليه مشاهد اليوم بتمامه، فيسترجع
انتظاره واشتياقه إلى لدخول عليها، ووقفته أمامها، ومطالعة وجهها،
ثم تقبض على قلبه بنظراتها وهمساتها وابتسامها، فيستقل الليلة وتمرُّ
بطيئةً قاتلة، ينتظر الصباح حتى يُبكر إلى البنك، لا يدري له عملاً أهمَّ
من انتظارها ورؤيتها.

أمسك بقلمه وكشكوله، وتجلَّت له صورتُها، وأمعن النظر في
الصفحة الفارغة وابتسم ابتسامة هادئة وحدث نفسه: متى أُهدي لها
كشكولي فتقرأ ما فيه؟

ثم ابتسم، وكتب فيها:

"وإنني لأراها كل يوم كنجمة بازغة طغت بأنوثتها على ضوء
الشمس المفتعل، فخالطت بسحرها حرارتها فأرسلتها للوجود نسيماً

لطيفاً باردًا، وانسكب بعض من فتنها على لونها، فاستحال كما الربيع
فاجأ الوجود بسحره، وكأنها امرأة خلقت من مادة الجمال المنسكبة على
الطبيعة، أو كأنها هي مادة الجمال ذاته، ولكنه صيغ في ثوب إنساني
بديع، ثم كان أنثويًا .. ثم كان هي ."

لكن القلم توقف فجأة، وانتبه بئسًا، أخشى أن أكون الآن في نزوة
عابرة أطفأت نشوتها عيني وعقلي، وأن تكون كالنسمة الربيعية الهادئة
تمرّ بأكام خريفية بصحرائي القاحلة فتغير ألوانها وتبدّل طبيعتها وتنشئ
فيها طبيعة أخرى لم أعدها، وبعد أن تتمكن من نفسي وتكتب بأنوثتها
على جدرانها أفتح عيني فلا أراها، وتصبح ذكرى قاسية.

أحنى رأسه لأسفل وهو مُغمض العينين، تتردّد بصدّره مخاوفه
وتعصف به، ولا يدري ما نتيجة هذا الحبّ وكيف ينتهي، ولا ما
أضمّره الغيب لقلبه خلف أستاره المسدلة على مصيره معها، ولا يعرف
كيف يطرد وساوسه التي خيمت بالهم على صدره فثقلت عليه ..

حاول عبثًا أن يقنع نفسه بما لديه من معارف سابقة أن الحبّ إذا
صدق في القلب فلا ينمو وحده، فینبت معه الخوف والأمن، والهدوء
والانزعاج، والعقل والطيش، والرغبة والرغبة، ولو حلّ الحب إلى
جزئيات لم يخرج عن هذه المتناقضات.

لكن تلك الدبلة الذهبية في بنصرها بيدها اليسرى، والتي تشرق
كالشمس في ظلمات أوهاك ألا من وقت لتنتبه لها!

- نديم .. ما لك؟

انتبه لوفاء الواقفة بجواره وهي تنظر لوجهه البائس بعينٍ متعجبة:

- أنت متعب؟

- أنا بخير، كنت أفكر في أمرٍ ما.

أنزلت كُمَيَّها المشمَّرين المبتلَّين، وقالت:

- الشاي جاهز.

فابتسم وقام خلفها، ولَمَّا جلسا في الصالة قالت وهي تنظر نحو التلفاز ويدها كوب الشاي:

- مَن السيدة التي ساعدتنا في علاج مها؟

تحكَّم في ارتبائه فأخرجَه في ابتسامَةٍ وتساءل :

- لمَ تسألين؟

- يعني .. أريد أن أعرف.

- كانت تربطني بها علاقة عمل قديمة، كانت صاحبة "سوبر

ماركت" كبير في السيدة زينب.

- كم عمرها؟

- ثماني وخمسون سنة.

فقبلته في خده فابتسم، وتمنى لو كانت القبلة من يولاند!

رَنَّ هَاتِفُهُ فَأَخْرَجَهُ مِنْ جَيْبِهِ، وَنَظَرَ فِي شَاشَتِهِ فَكَتَمَ صَوْتَهُ وَلَمْ يَرُدْ،
فَحَدَّجَتْهُ وَفَاءٌ بَعِينَ تَقُولُ: لَمْ لَا تَرُدْ!

وَبَعْدَ هُنَيْهَةٍ عَادَ رَنِينَ الْهَاتِفِ مِنْ جَدِيدٍ فَأَغْلَقَهُ، وَلَمْ يَسْعِفْهُ الْوَقْتُ
لِيَتَّقِيَ كَذِبَةَ مَنْطِقِيَّةٍ، فَقَالَ:

- إِنَّهَا "الْحَاجَةُ" نَهَى الَّتِي سَاعَدْتَنَا فِي عِلَاجِ مَهَا.

فَابْتَهَجَتْ وَقَالَتْ:

- كُنْتُ أَوْدُّ شُكْرَهَا بِنَفْسِي.

- أَنْتَ أَهْمٌ عِنْدِي الْآنَ، لَا أُرِيدُ أَنْ يَفْرُقَ جَلِسْتُنَا أَحَدٌ.

فَابْتَسَمَتْ وَأَشَاحَتْ بَوَجْهَهَا لِلتَّلْفَازِ، فَابْتَلَعَ رَيْقَهُ بِصُعُوبَةٍ، وَوَضَعَ
الْهَاتِفَ فِي جَيْبِهِ، فَرَنَّ جَرَسَ الْبَابِ، فَوَضَعَتْ حِجَابَهَا عَلَى رَأْسِهَا، وَلَمَّا
فَتَحَهُ وَقَفَ كَالصَّنَمِ بِلَا حَرَكَ، فَقَامَتْ وَفَاءٌ لَتَرَى مَنْ، كَانَتْ نَهَى تَقْفُ
مِنْ دَهْشَةٍ لِسُكُونِهِ بِلَا تَرْحِيبٍ، وَبِيَدِهَا لَعِبَةٌ أَحْضَرَتْهَا لَهَا، فَقَالَتْ وَفَاءً:

- مَنْ؟

- أَنَا نَهَى، جِئْتُ أَطْمَئِنُّ عَلَى مَهَا.

فَعَقَدَتْ حَاجِبَيْهَا وَهِيَ تَنْظُرُ لِنَدِيمِ الَّذِي قَالَ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ:

- الْحَمْدُ لِلَّهِ هِيَ بِخَيْرٍ.

قَالَتْ وَفَاءً.

- تفضلي.

قالت وهي تجلس:

- أرجو ألا أكون أزعجتكم.

لم يرد نديم، لا يزال تحت تأثير الصدمة، ودارت عيناه وفاء بين نديم ونهى فقالت متسائلة:

- مَنْ تكونين حضرتك؟

- أنا نهى التي اتصلت بمكتب وزير الصحة لإدخالها إلى المستشفى.

فقالت وفاء بنبرة ساخرة كمن تذكرت شيئاً وهي تنظر لنديم:

- الحاجة نهى! سلامات يا حاجة.

ثم قامت ومالت على أذن نديم الذي وضع وجهه بين كفيه وقالت:

- صاحبة السوبر ماركت؟!

ونظرت إلى بنطالها القصير، وقدميها البيضاوين، وإلى صدرها الممتلئ المكتنز أسفل "البودي" وشعرها المتهدل على ظهرها وأردفت قائلة:

- ثماني وخمسون سنة!

اندهشت نهي لتصرفاتها، فأردفت وفاء قائلة:

- لا تشغلي بالك يا حبيبتى .. أتشرين شيئاً؟

فقامت وقالت:

- لا شكراً، أين مها؟

- نائمة.

- "أوكي" ألف سلامة عليها.

ثم أخذت العلبة من الأرض وأعطت وفاء إيّاها.

- هدية بسيطة لمها، وألف سلامة عليها.

ثم نظرت لنديم فلم يتبّه لها، فمدت يدها أمامه وقالت:

- سلام.

فمدّ يده الثقيلة نحوها فسلم عليها وعيناه متعلقتان بوفاء التي
بدت كقرص الشمس الكئيب وقت الغروب.

فتح عينيه عصرًا، أراد النهوض فلم يستطع، شيء ما يشدُّ للوراء
ليبقيه مكانه، ربما إرهاب، فجسده واهن مفسّخ الأعصاب من ليلته
الماضية العاصفة.

نظر حوله نظرات عابثة وهو يلهث، لا يدري كيف مرّت الليلة،
ولا ما سيأتي بعدها ..

وحيداً الآن، تركته وفاء بعد شجار عنيف وصل صده لأغلب
الجيران، ثم اصطحبت البنت التي استيقظت على صوت أمها المرتفع
فأخذتها ورحلت بعد أن قالت:
أنتظرُ ورقة طلاقِي.

قام متوكِّئاً على الحوائط حتى خرج إلى الصالة، ودارت عيناه بها فما
رأى إلا صوراً متداخلة، كمريض في فترة النقاهة ظل مذاق المخدر في
حلقة وتأثيره في جسده.

ترجّل ببطء تجاه الثلاجة، فأخرج حبة من شريط برشام ليسكن
الصداع الذي هشم رأسه، ثم توجه للمطبخ فأوقد النار ووضع كنكة
البن عليه، "في ستين داهية". كلمة صرخ بها فجأة في المطبخ بعدما
أطاح بعدة أوانٍ على رخامته، ثم أتبعها قائلاً يهدئ نفسه: "هكذا أفضل
.. هكذا أفضل".

وأخذ فنجان القهوة وجلس في الصالة، وعيناه جاحظتان لا
يرفعهما عن الأرض ..

لم تكن المرة الأولى التي تطلب الطلاق، لكنه كان يرفض دائماً
حفاظاً على لمّ الشمّل، لكن هذه المرة شعر أنه بحاجة لأن يطلقها،
فالشمّل الذي كان يُراعيه دوماً لم يعد الآن ذا معنى ولا قيمة، فبمرور
الوقت شعر بالعزلة والوحدة، وتبخرت لذة الحياة، وأول ما تبخر منها
لذته بها كأنثى!

ربما يكون الوقت مناسباً - قبل أن يمر أكثر - لتصحيح الأخطاء،
مهما سينجم عنه، فتعديل المسار له آثاره الجانبية لا شك، لكن فوائده
ستكون أكثر مما تتخيل!

إن كانت تريد الطلاق فأهلاً وسهلاً، وكفاك عبثاً بنفسك أكثر من
ذلك، أنت تعرف من نفسك أنك "تائه" شريد، وإن كنت تنكر وتحاول
الصمود، لكن لا ينبغي اصطحاب الآخرين وتضليلهم معك خصوصاً
إن كانت ابتك بينهم.

يجب أن تُنهي كل هذا العبث حالاً، كل المسائل العالقة يجب أن
تنتهي .. فوراً!

زوجتك ويولاند ونهى وسعاد!

وربما سعاد حامل منك الآن!

حتى مبادئك .. ذلك الصنم الخاضع له .. تحطمه أيضاً!

دلف إلى الحمام فغسل وجهه واشتدَّ بيده على مقلتيه وهو يغسلهما
ثم جفّفه وخرج إلى الصالة ..

تجرأ دون رجوع على الاتصال بيولاند

قالت:

- آلو .. من؟

- أنا نديم.

- نديم؟ كيف حصلت على رقمي؟ ولماذا تتصل؟

قالتها بعصبية وغضب فقال بصوت مرتفع:

- اسمعي ..

سكتت فجأة، فتابع قائلاً:

- أريد إخبارك بشيء واحد .. أحبك.

فقال بصوت مرتفع غاضب:

- أنت قليل الأدب.

- عارف .. سلام!

ثم أجرى اتصالاً ثانياً:

- لم أتيت بالأمس دون ميعاد؟

قالت نهى:

- كنتُ أودُّ الاطمئنان على مها، واتصلت بك وأنا في الشارع

لكنك لم ترد..

- الله يحرّك، الاستئذان يكون قبلها بيوم وليس وأنتِ أمام

الباب.

- نديم .. عيب كده.

- أنت خربت الدنيا.

- آسفة لو سببت لك مشكلات.

- مشكلات .. هه!

فقال بصوت متهدج:

- بصراحة كنت أودُّ أن أراك.

سكتَ بُرهةً لاحظ أنه تعدَّى حدود الأدب معها، وتذكرَ ليلته
الماضية معها فرأى أنَّ ليلةَ أخرى سترمم أركانه المتداعية

- سآتي إليك الليلة!

- ما رأيك لو تقابلنا أولاً في كازينو بشارع الهرم في الثانية عشرة؟

- يكون أفضل .. سلام!

(٤٧)

حينما استيقظت اليوم كأن شيئاً ما قد تغيّر، تُنكر في نفسها كل ما حولها، الشعور بالغربة عن المكان يسري مع كل قطرة دم تتدفق في عروقها، دارت في أرجاء الفيلا كأنها تتعرف إليها من جديد، دفعت باب غرفة مراد برفق فلمحته نائماً عارياً يغطُّ في نوم عميق، فأمسكت بتلابيبها وأغلقت أزرارها، وسترت المكشوف من جسدها!

ودخلت الشرفة فتسلّلت أشعة الشمس الهادئة للداخل فغمرتها، وتلوّن أثاث الصالة بضوئها، ونظرت إلى الحديقة والشجر وحبّات الندى على أوراقه.

مستقبلنا جزء من ماضينا أو تطوّر له وليس خروجاً عنه، حتى في أسعد مفاجآته الزمنية لا تشدُّ هذه المفاجآت عن جذور الماضي، فهي كالعقار الممتد، الدور الألف يشبه البدروم حتى لو تغير شكل الواجهات في بعض الأدوار ولونها، لذا فالتغيير الفعلي هو الهدم

الجزري الذي لا يستطيعه الكثيرون، وذلك يفسر عجز الأكثرية عن الرجوع عن أخطائهم، لكن أن تهدم الألف دور ولا يسعفك العمر إلا لبناء دور واحد فتعيش فيه سكرات موتك مستريحاً خيرٌ لك من أن تترك خلفك بناءً مُشوَّهاً.

حاولت دفع تلك الفكرة بشيءٍ من المنطق لكنها لم تستطع، وظلت ساهمةً أمام ملفاتها وجهاز الكمبيوتر، إلى أن فُتح عليها باب المكتب، ودلف نديم بعد طرقتين على بابه وهو يحمل النسكافيه. قال مُبتسماً:

- صباح الخير يا دكتورة.

- أهو أنت؟

فهز رأسه كنعم، فأردفت بغضبٍ:

- كيف تجرؤ على الاتصال بي، وأن تقول ما قلت؟!؟

- كان عليّ أن أصرحك بما أشعر به.

- ألا تخاف أن أفصلك؟

- لا، ولكنني خشيت أن أذهب من هنا وفي صدري شيءٌ لم يخرج.

- كنتُ أظنُّ غيابك اليومين الماضيين خوفاً من ذلك.

ابتسم وشعر بالارتياح لأنها لاحظت تغييه، وقال بهدوء:

- لا .. وحتى لو فصلت من هنا فلن يمنعني ذلك من أن أحبك.

احمرَّ وجهُها خجلاً، وقالت بصوتٍ مُرتجفٍ:

- تأدَّب في كلامك.

فاستند بكفيه على مكتبها ومال نحوها وقال بثقة:

- أحبُّك.

فتراجعت حتى التصق ظهرها بالكُرسي، وقالت بصوت ضعيف
كاد ألا يخرج:

- اخرج ... برة.

- حاضر.

مالت جودي للخلف وهي تضحك، فقالت يولاند بغضبٍ:

- ما المضحك فيما قلتُ؟

- تخيلت احمرار وجهك وارتباكك.

سرحت يولاند قليلاً ثم عادت لتقول:

- بُغضه يتصاعد في قلبي هذه الأيام بشكلٍ غريب.

انتبهت جودي وأصغت أذنها بجدية، وأردفت يولاند:

- للمرة الأولى أكره البيت لأنه يجمعني معه، أريد الفرار
والتملُّص من كل شيء يجمعني به ..

سكتت بُرْهَةً ثم أكملت:

- أظنُّ أنني أصبحتُ أكره نفسي.

نظرت لوجه جودي، وانتظرت منها تعليقاً على ما قالت، لكنها أشاحت بوجهها إلى المسيح المكتظ بالأطفال، وساد بينهما صمت بُرْهَةً قطعتهُ جودي بصوتٍ هادئ:

- أتعرفين ما معنى ذلك؟

فقالت بصوتٍ مهموم:

- أعرف.

- وماذا ستفعلين؟

- لا أعرف.

- أمامك أمران لا ثالث لهما .. إما أن تطلبي الطلاق بجديّة وتنفصلي عنه لتُقبلي على حياتك، وإما تصارحيه بحقيقة شعورك تجاهه وكيف أفسده لتصلحي ما بينك وبينه.

- لا فائدة من مصارحته.

لا تنسي أنها صارحته أكثر من مرة، وأوقفته على مواقع الخلل في علاقتها، فكان يستهين بما تقول له، ويرد بعنجهية: "ماذا تريدان أكثر مما أنت فيه - أنت زوجة فلان الفلاني - أي امرأة تتمنى نصف ما أنت فيه".

- يجب أن تحسمي أمرك.

فركت وجهها فأتقّدت وجنتها وقالت:

- ماذا تفعلين لو كنت مكاني؟

- أنت تعرفين الإجابة.

امتعضت لردّها لأنها تعرف رأى جودي جيّدًا، لكنها تريد أن تذكر لها كلامًا مُفصّلًا، لا أن تذكرها برأي قديم.

فقالت جودي لما رأت تغيّرها:

- كنت طُلّقت وبدأت حياتي من جديد، سواء مع هذا الشاب أو غيره، أو بمفردي .. لا يهم، المهم هو إنسانيتي ووجودي.

فسكتت برهة كأنها تفكر بأمر ما، ثم استأذنت وقامت دون أن تخبر جودي بوجهتها وتركتها متعجبةً لأمرها دونما ردٍّ أو إشارة لما استقر في صدرها تجاه حياتها، وخرجت من النادي بسيارتها وهي تحاكم نفسها بكلمات قاسية ..

كل شيء يتغير حولها إلا هي، ساكنة بلا حراك، تقاتل في ميدان مهزوم وأرض مسلوبة ..!

فأخرجت شريط أنابرامين وقالت:

ليس بعد اليوم.

وألقت به في الشارع تحت عجل السيارات ففتّته، وفتحت أزرار القميص العليا فداعب صدرها نسيمُ الليل الهادئ فأنعش نفسها، وقامت بتشغيل إحدى أغاني "عبد الحليم حافظ" ورددتها خلفه، وما هي إلا لحظات حتى انبعث من هاتفها صوت رنين الرسائل فقرأتها، كانت كلمة واحدة من نديم "وحشيتني".

فتوقفت بالسيارة ونظرت مليًا إلى شاشة الهاتف، فنَدَّت عن شفيتها ابتسامةً صافية، ولمعت عيناها بسعادة مفاجئة، فردت برسالة مماثلة تحمل كلمة واحدة "وأنت!"

ثم اتصلت بجودي وقالت:

- جودي نديم أرسل إليّ رسالة ...

ربما تكون المرة الأولى التي تنطق فيها اسمه بهذه الطريقة، انسابت حروفه مضيئة من شفيتين مبتهجتين .. أصبح واقعًا في حياتها!
- قال إنني وحشته.

كان صوتها مرتفعًا، شأن السعادة حينها تغمر القلب تُضحّم كل شيء فيه حتى الصوت، وتُلَوّن كل شيء لعينه حتى القبيح منها.

- وبِمَ رددتِ؟

- قلتُ إنه أيضًا وحشني.

قالت جودي:

- أواثقة ممّا تفعلين؟

- واثقة من سعادتي.

- سألقاك في النادي بعد غد.

- أوكي .. مع السلامة.

وقبل أن تضع الهاتف على الحامل أمامها رنّ، وبدأ على شاشته اسم مراد، فأغلقت الاتصال عابسة الشفتين، ثم تعلقت عيناها بالهاتف لحظات ثم صاحت مبتهجة لما فعلت ..

كل شيء يؤدي إلى لا شيء، وكل معادلة بينهما أصبحت بلا نتيجة، تظن أنه لن ينجر كثيراً بفقدانها، فعلام يبحث الرجل في المرأة؟ الجنس والجمال والأنوثة والثقافة؟ نصف ذلك حصل عليه من العاهرات، أما النصف الثاني فلا يرغب فيه.

فأصبح البقاء معه بحكم القدر الذي لا فكّك منه، وأصبحت تتمنى الانفصال عنه، ولكن ليس عن طريقها أو لطلبها، لأنها تخشى مع الزمن البعيد أن ينال الطفلين أيّة مضارّ بسبب الانفصال فيرجعون لها باللوم والعتاب، ويوخزون روحها وضميرها حتى بعدما فهموا الحياة واكتملت نفوسهم وأرواحهم ومشاعرهم وأيقنوا أن كان مستحيلاً أن تتحمل أمهم أكثر من ذلك!

مع الوقت بدأ (رجلها) يتناقص في عينيها، ويتبخّر وجوده من داخلها مهدراً، كان احترامه وتوقيره أول ما فقدته، وتبعته أشياء أخرى كثيرة وصلت إلى الرفض الكلي له.

أوصل الأمور إلى أماكن مظلمة معقدة، تستحيل فيها رؤية الحياة معه من جديد أو تخيلها فضلاً عن استشعارها، بينما كان كل تفكيره أن المرأة ما دام قد توافر لها السكن الملائم والإنفاق المناسب فلا شأن لها بتصرفات الرجل، بل إن انحرافه ونزواته طبيعي لطبيعته كرجل! قالت لها جودي ذات مرة: "كيف لامرأة مثلك بأخلاقك وتقواك أن تقع في شباك رجل مثله؟!"

في البداية البعيدة لم يكن يظهر عليه شيء مما تُنكر عليه الآن، حتى جودي السائلة كانت شاهدة على تلك الفترة الجميلة وقت خطبتها، وكانت تحسدها على حظها، ثم سافرت بعد زواجها هي الأخرى بعد عام من زواج يولاند وعادت لتفاجأ بما تحكي لها! لما يُقدم الرجل المنحرف على الزواج من امرأة ذات أخلاق مغايرة لأخلاقه وسلوكه المنحط؟

أغلبهم لا يفكر في صلاح نفسه بارتباطه بذات الأخلاق، ولكنه يرى أنه لو فسد الفساد كله فلن تنحرف زوجته مثله، لأن أخلاقها كجهاز مناعي معنوي بداخلها حتى لو تحطمت صورة الزوج في عينيها وبلي ثوب الوفاء والإخلاص على جسده. لكنه لا يعرف أن فيروس الخيانة أشد التهاماً للأخلاق والحب من فيروس الايدز للجهاز المناعي المادي.

وصلت إلى الفيلا ودلفت إليها، كان جالساً مع الطفلين يلعبون، فحيثهم ودلفت إلى غرفتها فخلعت ملابسها من فوق حتى بدا جسمها

البُصُّ ناصعًا متلألئًا، فدخل عليها فجأة فارتدت الروب بحركة سريعة
وقالت:

- استأذن قبل الدخول.

- أنت زوجتي.

قالت كم تذكرت شيئًا:

- آه .. صحيح، المأذون قال ذلك!

فاقترب منها وحاول أن يلمسها فتراجعت فقبض أنامله، ورجع
خطوتين وجلس على السرير

- لا أعرف امرأة في الوجود تمتنع عن زوجها إلا إذا كانت ..

فقالت بلهجة يائسة لا تعبر أيَّ شيءٍ قدرًا:

- إلا إذا كانت على علاقة برجل آخر.

فقال صاغراً:

- يولاند .. أنا لم أقصد، ولكن ..

- ولكن لا فائدة من الكلام، أنت زوجي بالفعل ولكن على
الورق، أما زوجاتك اللاتي ينلن عطفك ولطفك فهنَّ أي امرأة خارج
هذا البيت كنادين ورحاب وهناء ونوفا وعليا وغيرهن وغيرهن ..
أظنُّ أنني حجر لا يشعر .. تصور أنني تمنيتُ ذات مرة لو تعاملني
معاملة العاهرات .. آه والله العظيم.

حاول الخروج من عاصفتها قائلاً:

- يا اياه .. أنت تكنين لي الكثير من الغضب وربما الكُره .. أهنأك
امرأة تكره زوجها لهذا الحد، تغيرت كثيرًا يا يولاند.

لم تعباً بما قال، وتابعت ما كانت تقول:

- قلت لك تزوج أكثر من مرة، ووالله كنتُ على استعداد أن أختار
لك عروسًا بنفسني كما تحب.

فقاطعها قائلاً:

- وقتها كنت ستطلبين الطلاق وتقولي إنني خائن!

فضحكت ضحكة حزينة لكلمة "خائن" وقالت:

- على الأقل كنتَ ستكون معي "زوج" وهي "زوجة"، وكان
البيت سيظل مفتوحًا لك بكل احترام حتى لو أبديتُ لك بعض
الغضب لزواجك .. ولم أكن لأجرو أن أقول على شرع الله خيانة.

فعاود الكرة من جديد ليهدئ أجواءها:

- إذن سأتزوج.

فقالت بحزم:

- فات الميعاد.

فحدّجها بنظرة جامدة برهته ثم قال:

- طز فيك

- طزين!

(٤٨)

تمرُّ الحياة سريعاً، قد يكون أحد أيامها في حكم النفس عامًا كاملاً،
بما يحمل من هموم وأوجاع، فيرخي على النفس ظلالاً قاتمة، ويُمطرُها
بذكرىات أليمة محزنة، هكذا مضت الأيام بعزت بعد فقد ميسرة التي
طالما تمنى فقدتها، فبدا بجوار الشرفة المشمسة بغرفة التدريس كهلاً،
لحيته طويلة بيضاء خالصة، ارتخت عيناه بما يحملانه من همٍّ، وتهذلت
وجنتاه فبدتا قاسيتين.

استدرّت هيئته عطفَ رحمي، فتساءل بشفقة:

- ما لك يا عزت؟

لم ينتبه لشروده، وظلَّ مسدّداً بصره خارج النافذة، ثم التفت بنظرة
عابثة تجاهه فوجده يشبث نظره عليه فقال له:

- ما لك يا دكتور رحمي!

- ما لي أنا! يا رجل ارحم نفسك.

فنظر مرة أخرى خارج النافذة وتاه من جديد، وبعد دقائق أحضر محمود القهوة، لكنه لم يلحظ وجودها أمامه، ثم دخل بعده أحمد سلطان الذي أمره دكتور رحمي بالقاء محاضرة بدلاً من عزت لما رأى عليه من هموم، فأحدث جلبة وهو يمزح مع محمود الساعي، فانتبه ولمح القهوة تلفظ أبخرتها الأخيرة المتصاعدة من الفنجان في ضعف، فتحسس جيبه فلم يجد به سجائر، فناوله الدكتور رحمي علبة فأشعل سيجارة وارتشف قهوته.

أشار دكتور رحمي بيده لأحمد بالذهاب فانصرف.

- أنت السبب في كل ما أنت فيه.

قالها دكتور رحمي وهو يضع عن سيجارته رمادها المتآكل في المطفأة، فأخذ عزت نفساً من سيجارته ونفثه بهدوء وقال مدافعاً عن نفسه:

- أودعتها المستشفى ودفعت ..

أشار له بيده ليسكته:

- شششششش

فاستغرب عزت للهجة الدكتور رحمي، واستغرب أكثر للملامح وجهه التي بدت غاضبة منه بعض الشيء.

- أنت يا عزت لم تُراعِ زوجتك حقَّ الرعاية، ولم تقم معها بحقِّها وقتَ المرض.

- يا دكتور رحمي أحضرتُ لها ممرضة ..

قاطعته مرةً أخرى بوجهٍ مُحتدٍّ غاضب:

- ألسْتَ خجلاً من نفسك، أحضرتُ لها .. دفعتُ لها ..

وساد بينهما صمتٌ بُرْهَةٌ، ثم أردف قائلاً:

- وأين أنت؟ أين الرحمة والمودة والاهتمام؟ أين لمعة الحزن في عينيك لما كانت تنُّ وتتوجع؟!

استدار له عزت وواجهه في جلسته وقال:

- وهل هناك رجل لا يحزن لمرض زوجته؟!

فأشار له بسبابته كالمتهم وقال بحدة:

- أنت يا عزت .. كنتَ ترح بين أندية العاهرات، بينما هي تنُّ وتتوجع، للأسف كنتَ أظنُّك على خُلُق .. ليتني ما خطبْتُها لك.

طفرت عيناه بدموعها ندمًا، وقال بصوتٍ بائس:

- كفى يا دكتور .. أقسمُ بالله أحبُّها أكثر من نفسي حتى لو ظلت طول العمر مريضة.

فقال بطريقةٍ مصطنعةٍ تنمُّ عن عدم الاقتناع:

- لا أُصدِّقُكَ.

- أرجوك لا تُكذِّبني، فما عدتُ أحتمل .. وصدقني لو قلتُ لك
إنني فكرتُ في الانتحار، ولكنني خِفْتُ، ليس من الموت ولكن حتى لا
أموتُ كافرًا، فما فعلتُ من ذنوبٍ في حقِّها كافٌّ لحرقني في الجحيم.

- ها هي فرّت منك، فما فائدة ما تقوله الآن .. مع إنها كانت تحبُّك
لآخر لحظة، حتى في أشدِّ الأوقات ألماً، كانت تستر رأسها حتى لا تنفّر
منها.

انتبه عزت فجأة، واتسعت عيناه دُهولاً بما سمِعَ:

- من أين عرفتَ كل ذلك يا دكتور رحمي؟ انطُق.

اجتاحته ثورةٌ عارمة، وبدا للدكتور رحمي كالمجنون، لكنه لم يرد
عليه، فتابع عزت قائلاً:

- هل تعرف مكانها؟ لو اتصلت بك، أرجوك أخبرني أين هي.

ومال على يد الرجل يُقبِّلُها، فنزع الرجل العجوز يده المُجعَّدة
وربت على كتفه:

- ميسرة .. عندي.

نزلت كلمة رحمي على مسامعه ككلمة النجاة على قلب من أيقن
بالهلاك، لم يخطر بباله السؤال "منذ متى، لم لم تُخبرني؟" حتى إنه لم يسأل
عن صحتها وحالها، فلن يفرق معه إذا كانت لا تزال مريضة أو معافاة،

فكل ما خطر بباله أن يراها حيّة، أن يُقبّل يدها وجبينها، أن يقول ..
آسف.

- هيا يا رحمي .. لنذهب إليها .. فليس بالعمر بقية.

فقام الرجل مستندًا على ساعدي الكرسي لكهولته، وانطلقت
السيارة باتجاه التجمع الخامس حيث فيلته، كان يرمق عزت بنظرات
رضا لما أيقن فيه من صدقٍ ونَدَمٍ، أما عزت فكان يستبطنُ السيارة
ويطلب من رحمي الإسراع، فأشار إلى عدّاد السرعة الذي تخطى السرعة
المُقرّرة بكثير وقال: "لو أوقفنا لجنة الآن ستسحب الرخص، نحن
مررنا على ثلاثة رادارات".

كان رحمي تفاهم مع زوجته وميسرة منذ يومين على رجوعها إليه،
لما كان يرى على عزت من همٍّ لفقدائها وندم على ما فعل فكانت ترفض،
ولما ألحّا عليها بكت وقالت: "إن كنت ثقلت عليكما فسأذهب".

- تعرف يا عزت أنني رجل غني وكذلك زوجتي غنية جدًا.

لم يفهم مرمي كلامه، فسكت، فأردف قائلاً:

- لكنها لا تنجب، تأكدنا مرارًا من ذلك في بداية زواجنا.

تجمّدت ملامح عزت، وشعر أن الكلام يمسُّه من أحد الوجوه،
فنظر لدكتور رحمي بوجه متسائلًا، فأردف الرجل قائلاً:

- أعرف أنك تريد أن تسأل: ولم لم أتزوج لأنجب وأنا غني، وهذا

حقّي؟

فهزّ عزت رأسه كنعم، فأردف رحمي:

- لأنني أحبُّها، ولا أريدُها أن تشعر أن في حياتي امرأة أفضل منها بشيء ما .. تعرف ماذا كانت نتيجة ذلك .. حياتنا امتلأت بنا، أصبحنا كأخوين وصديقين وحييين، كرجلٍ وابنته، أو ولدٍ وأمّه فضلاً عن زوجين عاشقين، ربما لا تتصور أو تقتنع بما أقوله ولكنها الحقيقة.

شعر بالحجل لكلام الرجل، فقال:

- ربنا يزيدك يا دكتور.

فقال الرجل مُداعباً:

- ويزيدك يا حبيبي.

ودلفت السيارة إلى الفيلا البيضاء ذات المساحة الخضراء الرحبة، فنزلا وتوجَّها لداخلها، لمح عزت امرأة جالسة بجوار المسبح فلم يعبأ بها واستمر في طريقه متشوقاً لرؤية ميسرة.

جلسا مدة نصف ساعة دخن خلالها عدة سجائر، وهو يستمع إلى ما حدث بعدما خرجت من المعهد، وكيف تابعت العلاج، فأخبره رحمي أنها كانت في حالة سيئة لما قابلته عند الجامعة فاصطحبها للبيت، وعرف منها ما حدث بشأنها معه وشأن جلسات الإشعاع، فلم يطمئن قلبه للعلاج في مصر، فبحث على الإنترنت، فوجد بحثاً منشوراً في مجلة "إنجلترا الجديدة للطب" قام به باحثون أمريكيون في معهد "دانا فاربر" يشير إلى وصولهم لعقار جديد "إبروتينيب"، له قدرة هائلة على

إضعاف الخلايا السرطانية، ولا يضرُّ بالخلايا السليمة كما يفعل
الكيماوي، فذهبت بها زوجته للندن وتلقت العلاج هناك.

لم يدرِ كيف يُعبِّرُ عن شكره فسكت، فهوّن عليه رحي مازحًا:
- ارحم نفسك يا أخي، كفاك تدخينًا.

فقال مرتبكًا:

- لا أُصدِّقُ أنني سأراها.

فابتسم الرجل ولم يرد، فتابع عزت قائلاً وهو ينظر في عيني دكتور
رحمي:

- تُرى، أهي مُتَشَوِّقَةٌ مثلي لكي تراني؟

- بصراحة لو صَرَبتُكَ في أسنانك فلن يلومها أحدٌ.

أحضرت الخادمة فنجان قهوة للمرة الثانية، وجاءت زوجة دكتور
رحمي بوجه تعلوه مسحة غضب، فسلمت بجفاء عليه، فنظر عزت
لرحمي بدهشة، فقال عليه مبتسمًا وهمس له:

- أصل الفيلا باسمها.

ثم قال لزوجته:

- عزت خلاص عرف خطأه.

ثم قال لعزت:

- من يوم دخول ميسرة هنا وهي تعتبرها ابنتها بلا مبالغة (ثم بلهجة ذات مغزى) أنت فاهم طبعًا.

فهزّ رأسه لتفهّمه موقفها وتبنيها لفكرة الأمومة تجاه ميسرة بنت الثلاثين عامًا.

ثم قال رحمي لزوجته:

- أن أضمنه وهو على استعداد لطلب يدها من جديد.

ودّت المرأة العجوز أن لو كان ذلك حقيقياً وليس مجازاً، لكنها تملّصت من الشعور بالأسف حتى لا يملكها، فوقفت بإحدى نوافذ الفيلا المطلة وأشارت بيدها، ثم قالت لعزت:

- أقسم بالله لو أذيتها أو اشتكت منك لأقف لك بنفسي، أنت لا تعرفني ولا تعرف مدى نفوذي.

أقبلت ميسرة وقد دبّت فيها الحياة من جديد، ينسدل شعرها الأشقر على ظهرها وكتفيها كعهدها القديم، مستوية القوام لكنها مُنْهَكَةٌ قليلاً يبدو على وجهها بعض التعب، فرمقته بنظرة ثم طفرت دموعها:

قال رحمي وهو يقوم:

- طالما بدأت بالبكاء يبقى الباقي خير.

واصطحب رحمي زوجته واتجهها للباب، فكفكت دموعها وتماسكت قليلاً وقالت:

- طلقني .

فاندهش ثلاثتهم، فقال رحمي :

- ميسرة، ماذا حدث؟

وقالت زوجته:

- أقسم أنه يحبك ..

فقاطعتها قائلة:

- عزت لا يستطيع التمييز بين المشاعر، فليس الحب ما جاء به،
ولكنها عقدة الذنب، يريد أن يكفر عن حسنه معي، يريد أن يثبت
لنفسه أنه رجل ذو شهامة ومروءة .. فات الميعاد.

فقال رحمي:

- ميسرة!

- لن أرجع، هذا قراري، وحقيتي بالغرفة مجهزة وأرض الله
واسعة.

حاول عزت أن يتكلم فتلعثم ولم يوفق، فتنهد رحمي وتمتم
مستغفراً، واصطحبه للخارج ولما وقفا على باب الفيلا الخارجي، قال له
بخيبة أمل:

- طلقها.

فقال مستسلماً بائساً:

- حاضر.

(٤٩)

وَقَفَ نَدِيمٌ مُتَرَدِّدًا مَرْتَبًا فِي خَطَوَاتِهِ بِالْبُوفِيهِ، فَرَمَقَهُ عَمَّ خَيْرِ
الْعَائِدِ مِنْ مَرَضِهِ بَعِينَ مَتَعَجِبَةً، وَلَمَّا زَادَ قَلْقَهُ وَارْتَبَاكَه قَالَ لَهُ:

- يَا ابْنِي مَالِكُ .. اسْتَهِدِي بِاللَّهِ وَرَكُزِي فِي شِغْلِكَ.

فَتَابَعَ غَسَلَ الْأَكْوَابِ، كَانَ يَشْغَلُهُ تَأْخُرُ يُولَانْدِ، فَالسَّاعَةُ أَوْشَكَتْ
عَلَى الثَّانِيَةِ عَشَرَ ظَهْرًا وَلَمْ تَأْتِ، وَدَّ لَوْ رَأَاهَا بَعْدَمَا قَالَتْ إِنَّهُ وَحْشَهَا،
لَكِنْ أَيْسَأَلُ عَمَّ خَيْرٍ عَنْ غِيَابِهَا؟ وَمَا هِيَ إِلَّا لِحَظَاتٍ حَتَّى انْبِعْثَ
الصَّوْتُ مِنَ الْإِنْتِرَاكُومِ:

- هَاتِي لِي شَايَ يَا نَدِيمُ.

فَتَمْتَمُ بِصَوْتٍ مُنْخَفَضٍ:

اللَّهُ يَحْرِقُكَ عَيْلٌ.

كان أحمد جمال، فطلب نديم من عم خير أن يذهب بالشاي بدلاً
منه فوافق الرجل، ومع خروج عم خير جاء الصوت ينساب قائلاً:

- النسكافيه لو سمحت.

فخفق قلبه بشدة، وأمسك على شفتيه بعنف كي لا تخرج سعادته
فُيَفْتَضَح أمره مُبَكِّراً.

رجع خير أمام الإنترنت كوم وقال:

- مساء الخير يا يولاند.

- عمّ خير حمداً لله على السلامة نورّت البنك.

- الله يسلمك يا ابنتي حالاً سأجهز لك النسكافيه.

- لا، تعال فوراً أنت وحشتني جداً، ودع النسكافيه لنديم يحضره
على مهله.

فأعطى نديم الصينية وقال:

- اذهب لأحمد ولا داعي للمشكلات.

فابتسم نديم ومضى في الرواق متجهاً إلى صالة البنك تحمله ريح
طيبة لينة، فهم منها ما أرادت أن يفهمه، أنا من وحشها وتريدني أن
أذهب لها بالنسكافيه .. اللهم لك الحمد.

نَهَرَ أحمد حينما وضع كوب الشاي لسقوط بضع قطرات أمامه،
فقال له: "اخرس" ومطّ شفتيه ليغيظه، ورجع إلى مطبخه وشرع في

تحضير النسكافيه حتى انتهى منه، ووقف بجوار الإنتركوم ينتظر صوتها
أو حضور عم خير ليذهب لها، فمضى وقت لكن خير لم يأت ولم ينبعث
صوتها المنتظر حتى برد النسكافيه!

وأخذ يفكر لم هذا التأخير، ومضت برهة حتى حضر خير يتساقط
الماء من رأسه ووجهه وهو يتمم بالاستغفار، فحدّق فيه النظر
وتساءل:

- لم كل هذا التأخير؟

- كنت أصلي الظهر.

فحمل الصينية وهم بالخروج قائلاً:

- سأذهب بال..

- ليست هناك..

قالها الرجل وهو يُجفّف ما علق بجسده من ماء الوضوء، فتساءل:

- أين ذهبت؟

- استأذنت.

بدا على خير الضجر من سيل الأسئلة فتأفّف، فقال نديم:

- والنسكافيه؟

فقال الرجل صارخاً:

- يوووه، يا أم النسكافيه .. هات.

وأخذ الرجل الكوب وأفرغه في فمه دفعةً واحدةً ثم قال بوجهٍ
مغيظ:

- استرحت!

ومرت ثوانٍ والرجل يُحمِلُ غضبٍ في وجه نديم، ثم انفجرا
ضاحكين، وهدأت ضحكته على شففتين عابستين حزينتين فتعجب
الرجل لتغيره المفاجئ، وخرج بصينية عليها فنجان قهوة وكوب شاي،
ووقف نديم بمفرده بائساً، عليه أن ينتظر إلى اليوم التالي ليراه، ما
أصعب مرور الوقت! وما أصعب الانتظار!

وانتبه فجأة من تيهه كأن شيئاً يناديه من داخله، فأخرج الهاتف
وبعث لها برسالة "النسكافيه برد".

فكر كثيراً ماذا يكتب، حتى انتهى إلى ما أرسل، فامتعض عندما
رأى جملة "تم الإرسال" هل كانت رسالة موفقة؟

ربما أي كلماتٍ كان سيحاكمها وينتقصها، فليست الكلمات
مقصودة لذاتها، ولكن الرسالة كانت تأكيداً لنفسه أن بينهما رسائل،
ومن ثم .. علاقة ما ليهدي قلبه.

فجاء الردُّ بعد دقيقة "طراً أمر مهمٌ فذهبتُ" وأتبعته الكلام برمز
مبتسم.

فلمعت عيناه لردها ولابتسامتها الإليكترونية التي تخيلها بدقة
كيف كان ارتسامها على شفيتها وقت كتابتها، وغمرته سعادة طفولية
طغت على نفسه، فاهتزَّ طرباً كعود أهيف وهو مغمض العينين، ثم نظر
فجأة ليتأكد أن رسالتها حقيقةً وليست وهمًا، فأخذ يقفز من شدة فرحه
برسالتها، فتفاجأ بعم خير الواقع ينظر إليه، فسكن ولم ينبس بكلمة،
فقال الرجل:

- يا ابن المجانين!

وانخرطاً في هزلهما حتى دمعت عيونهما، حتى فاجأهما صوتها:

- قهوة لو سمحت يا عم خير.

فاتسعت عيننا نديم دهشة، وكظم سعادته لعودتها، فقام مسرعاً
فأمسك بالكنكة وشرع في تحضير القهوة وهو يخفي تعبيرات وجهه عن
عم خير، وتساءل بصوتٍ متحشرج:

- ألم تقل إنها ذهبت؟

- نعم، كانت في مشوار قريبٍ من هنا وقالت إنها ستعود بعد
نصف ساعة.

يا ابن الـ.. ولما لم تقل!

- سأعد لها القهوة.

- طيب.

وشرع الرجل في تبديل ملابسه ثم ودّع نديم ومضى، وانتهى نديم
من صبّ القهوة مُحافظاً على "الوش"، وقبل خروجه من البوفيه قالت:
"شكراً يا عم خير، ألغ القهوة".

فتسّمّر مكانه ناظراً بتعجب للأنتركوم، وقال:

- يا سلام...!

ومضى إليها حاملاً الصينية، لم ينتبه لزوال "الوش" لمشيته السريعة
المرتبكة، قابله أحمد فاندesh لمشيته.

كانت بالمكتب تهنّدم بعض الأوراق أمامها استعداداً لرحيلها،
فوقف أمامها بفنجان القهوة المنسكب أغلبه في الصينية.

- القهوة.

كان الفنجان شبه فارغ واغتسل بما فيه، فنظرت إلى آثارها التي
أصابت بعض الأوراق وسطح المكتب فضحكت وقالت:

- أين القهوة؟

فقال ضاحكاً:

- في الصينية.

- إذن خذ الفنجان واترك الصينية.

فضحك ضحكة عالية فبرّقت عيناها وقالت:

- على شغلِكَ.

- سأكلمك الليلة على الهاتف.

فقلت بإصرار:

- على شغلِكَ.

فأخذ الفنجان وهي تنظر إليه نظرة متعجبة:

- على العموم كنتُ أريدُ أن أراكِ فقط.

- دع الفنجان.

- لا .. القهوة مُضَرَّة بالصحة.

وخرج وهو على يقين أن شعورًا ما تكنه له، يا للسعادة ..!

نسيت أنها كانت بصدد الذهاب إلى البيت، فجلست مرهفة
الحس، مهتزة الشعور مطربة الوجدان، لا تحاكم نفسها على ما تشعر به،
ولا على الإحساس الجديد اللامع في أغوارها الذي يتزايد ويكبر،
وسرت بها رعشة ملأت ثناياها سعادةً، فأغمضت عينيها ثم فتحتها،
كانتا لامعتين متلألئتين كنجمتين ساطعتين بجوار القمر.

فقامت وعلقت حقيبتها في يدها، وأمسكت بهاتفها ومضت تشقُّ
الرواق باتجاه الباب الرئيس، فمرت بالبوفيه وألقت عليه نظرة هادئة
حاملة رافقتها ابتسامة مُشرقة بدت خلالها ثناياها تشعُّ دلالاً وفتنةً،

فاتسع وجهه بدهشته، وبدت على عينيه المفاجأة فوقف ذاهلاً، حتى إنه لم يبتسم!

كانت ابتسامتها تقول: "نعم".

هكذا قال لنفسه وهو على سريريه محاولاً رسمها: (شفتين باسمتين)، هاتان الشفتان اللتان عشقتهما، كم أحبك!

وتجلّت لعينيه كقطعة من القمر نزلت لترافقه أوهامه السعيدة، ولتذكى في نفسه ألم الاشتياق المستعذب، فأمسك بقلمه وكتب: "وفي المساء حين يهجع الكون، ويسكن معنى الحياة في كل نفس، تتجلى لعيني صورتها المرمرية، وتترأى لروحي كوحي من الجنة تنزل على قلبي في ثوب حوراء بديع، فأحدّثها بكلامٍ لا أعرف منه شيئاً قبل رؤيتها.. هو وحي آخر تجلّى معها.

فأمدّ لها يدي فتقترب، وأناجيهما فتستمع، حتى إذا انقطع مني الكلام أفاضت عليّ سحراً، فأبّى امرأة هي! فلله كيف تجتمع الطبيعة بجملها ورقتها! والحسن ودقته في جسد أنثوي لا تدع لغيرها بعدها شيئاً.

وإنها في عقلي وخيالي كلمة الحب الكاملة المشكّلة المعرّبة .. مبنية دائماً على الضمّ.

يفوح من فمها إن اقتربت لاثمة رائحة ليست مما عهدتُ في امرأة قبلها، وكأنها هي المرأة وكل من دونها ظلُّ لها، وكل حسناء غيرها مقدمة وبشير بين يديها."

(٥٠)

اطمأنت على الولدين في غرفتيهما وهما نائمين بوداعة تملأ فرشهما،
فأغلقت الباب، ومضت تجاه غرفتها، فاستلقت على فراشها وأمسكت
بكتابٍ تقرأه.

رنّ هاتفها فشقّ سكون الليل المخيم على الفيلا فكتمت صوته،
وأخذت تطالع الرقم الذي تحفظه عن ظهر قلب وهي تبتسم حتى
تفاجأت بانقطاع الاتصال فقطبت جبينها، وظلت مُمسكةً بالهاتف تنتظر
اتصاله مرة أخرى .. فاتصل:

- مساء الخير يا دكتورة

فسألت وهي تعرف الإجابة:

- مَنْ؟

- نديم.

فتصنعت الجدّية وقالت:

- ماذا تريد؟

فتجاهل جدّيتها وقال:

- أنا سعيد جدًّا لأن القدر وضعك في حياتي.

فاحمّرت وجنتاها وابتلعت ريقها، ولم تبدِ ردًّا، فأردف:

- تعرفي .. كل يوم أنتظر مرور الليل على مضض ليشرق النهار فأراك، أما الليلة فما استطعت تحملها فاتصلت بك.

فاستجمعت نفسها وقالت بلهجة شبه ممتاسكة:

- من أين أتيت برقم هاتفي؟

- من هاتف عم خير يا دكتورة.

- هو أعطاك إياه؟

- لا .. قلتُ من هاتفه وليس منه هو.

- سرّفته؟

فقال مبتسمًا:

- سرقة بيضاء يا دكتورة.

فقال باستنكار:

- دكتورة دكتورة دكتورة!

- ماذا أقول؟

كان ينتظر تلك المرحلة أن تأتي بأسرع ما يكون (إزالة الألقاب)
لتُذهب أية عوائق نفسية بينهما.

- يولاند.

فابتسم وقال:

- اسمك جميل جدًا.

- شكرًا.

- أهو عربي؟

- لا، أسماني به والدي وهو في بريطانيا، كان ملحقًا عسكريًا هناك.

- ماذا يعمل والدك؟

- كان لواء مدفعية بالجيش .. الله يرحمه.

- ربنا يرحمه.

وسادَ بينهما صمتٌ بُرْهَةً، سأل نفسه خلالها: أأقولها صراحة؟
فقطعت الصمت قائلة:

- أين تسكن؟

- إمبابة.

- تعيش مع والديك أم بمفردك؟

أرادت أن تستشف أخلاقه، لو كان بمفرده فذلك سيكون أدعى
لفساده وسيكون كغيره.

فرد عليها ردًا غير متوقع:

- أعيش مع زوجتي وابنتي.

فسكتت دقائق، تغَيَّرَ خلالها وجهها فاحتقن بدمه، وقالت بصوتٍ
ضعيف:

- أنت متزوج؟

- نعم.

- ولم تقربتي إليّ وأنت متزوج؟!

كانت الدموع تنهمر من عينيها كسحابة ماطرة، أكل الرجال
كلاب إلى هذا الحد، كلهم خائنون لا يكتفون بامرأة واحدة، إنها لا
يمكنها أن تكمل معه طريقًا - لم يبدأ - فتكون كباقي النساء اللاتي رافقن
مراد فأفسدن حياتها.

أراد أن يرد فقالت بعصبية:

- أنا لا يمكنني أن أكون سببًا في فساد حياة امرأة أخرى.

- اسمعيني ..

- لن أسمعك .. كيف ظننت أنه يمكنني أن أجني على امرأة
وأحطّم بيتها؟

- يولاند.

لم تدع له فرصةً ليكمل كلمة واحدة، كانت العصبية والدموع
يخيّبان بكآبة عليها فأنت المكالمة بقولها:

- أرجوك لا تكلمني مرة أخرى.

وأغلقت الهاتف، ودموعها تنساب على وسادتها.

(٥١)

"بحبك".

رسالة استقبلها هاتفها في الحادية عشرة مساء السبت، فتردد شعورها بين الغضب والكراهية لكل شيء، لكنها لم تستطع التنصل من الشعور الذي سيطر عليها الفترة الماضية وأقعدتها في بيتها: من حقها أن تُحب .. أن تُعشق .. أن يُشعرها رجلٌ بوجودها وكيانها، من حقها ألا تدع الأيام تمر أكثر من ذلك دون وعي لوقوعها تحت تأثير واقعها القبيح.

سألت جودي: ماذا تفعل؟ لكنها أمسكت عن إبداء أي رأي، ولم تقل أكثر من أنها صاحبة القرار وإن كانت جودي تميل ألا تتركه!
"أحبك" كلمة من حقي أن أسمعها، ومن حقي أن أقولها، ومن حقي أن أعيش معانيها كاملة.

اتصلت به، ثواني وقال لها قبل أن تهم بالكلام:

- أحبك يا يولاند.

فسكنت، وكأن كلمته ماء سقط على نار مشتعلة فأطفأها، فتابع:

- أحبك أكثر من نفسي، ربما تكذبتني لو قلت لك: إنني أحببتك
قبل أن أراك .. ولكنها الحقيقة.

...

- يولاند.

قالت بصوت خفيض:

- نعم.

فقال بعد صمت دام ثواني:

- ليس لأي إنسان سيطرة على قلبه، فكم رأيت نساءً غيرك،
ولكنك الوحيدة التي فُتح لها قلبي المغلق من سنين على أمل أن أقابلك.

- ولكنك كغيرك من الرجال زائغ العين لا تقتنع بواحدة.

- الفرق بيني وبين الرجال الذين تعين أن عين قلبي هي التي
زاغت، ولم تزغ لامرأة قط إلا عليك، أما الآخرون فعين شهواتهم
البهيمية هي التي تزوغ!

- وكيف لي أن أصدقك.

- الصدق لا يحتاج لدلائل، هو كالشمس دائماً.

- مع السلامة.

آية سلامة؟ تساءل في نفسه، ثم صرخ بها وأطاح بالهاتف من يده،
فهل السلامة إلا بتجاوز ما تحاسيني عليه أنه (خطأ)؟ وهل السلامة
إلا أن نكون معاً؟ وهل السلامة إلا طرح ما يُثقل كواهلنا التي لا ذنب
لنا فيها؟

واستلقت يولاند على فراشها وربعت ذراعيها على صدرها
وسددت بصرها للسقف، أنت الآن على البرّ، وفي غنى عن تجربة
جديدة قد تزيدك آلاماً جديدة، لكنك تحببته، لا تستطيعين إنكار ذلك
.. ولكن هناك امرأة ستُظلم، سأكون السبب في تغييره عليها وتعامله
معها، وهل عاهرات مراد استشعرن الحرج منّي؟ وهل مررتُ
بخاطرهن وهنّ يهبن له أجسادهن رخيصةً وهو لا امرأة أخرى؟

إلى متى تفكرين في غيرك ولا أحد يفكر فيك أو يشعر بك أو تهمة
سعادتك، إنني بحاجة لأن أُحب، لأن أُعشق، لأن أسمع "أحبك"،
لأن يقبل شفتي ويعتصرني بين ذراعيه شوقاً لا جنساً، دون أن يتصب
ذكره لأنني إنسانة، وليس "مبولة منوية".

هو صادق، أشعر بصدقته في صوته لا يخفي ذلك عليّ، ولكن ماذا
بعد؟ ماذا يريد منّي وكلانا متزوج؟

أيّ سخريةٍ رمانى بها القدر!

وما الفارق لو لم يكن متزوجًا؟

عجزتُ عن إجابة نفسها، وندتُ عن شفيتها ابتسامة ساخرة، ودار
بصرُها في الغرفة الهادئة، فتسلل إليها شعورٌ بالغربة والانفصال عنها،
وكأنها بخيمة وسط صحراء شاسعة مترامية تسمع صفير الرياح وعواء
الذئاب خارجها، فانكمشت وجفل جسمُها وتقارب بعضه من
بعضٍ..

هي بحاجة الآن ليأخذها بين ذراعيه فيطمئنها، أن يتحدث بصوته
في أذنها فيبدد خوفها المخيم في قلبها، أن يقول بوجوده: أنا هنا اطمئني.

لكن أين هو الآن؟

كان مراد بصحبة راضي عبد الله بشقة المعادي جالسين على
الأرض وبين أيديهما هشام يلف سجائر الحشيش، تتمايل أمامهم فتاتان
برقصاتٍ خليعة.

فتساءلت: أين مراد؟ وتغيّر وجهها كمن يشعر بألم عضوي،
وتحسست هاتفها بجوارها حتى أمسكت به، كان هاتف مراد بجوار
هاتف هشام على المنضدة الصغيرة التي يلفُّ عليها الحشيش، فلما رنَّ
الهاتف أمسك به هشام في سُكره ظنًّا منه أنه هاتفه:

- آلو.. آلو.

لم تعرف مَنْ يرد، لكنها سمعت صوت الأغاني الصاخبة وضحك
الفتيات المتكسر فأنهت الاتصال، ووضعت الهاتف بجوارها، اشتدَّ

صوت الصغير بالخارج، وعوت ذئاب الليل تنادي رفاقها، فقامت
مُسْرَعَةً إلى مكبس الإضاءة فضغطته، ثم وقفت هُنيئَةً أمام المكبس تنظر
إليه نظرةً حانقةً أحزنتها، نفس المكبس ونفس المكان في غرفته المجاورة
صدمَ رأسها فيه وشجّه وأسال دمها!

قلبها يخفق بشدة في تلك الجزيرة المنعزلة عن الوجود، لا تذكر آخر
مرة خرجا معاً للتنزه أو للتسوّق، الحياة بينهما تسير بشكلٍ ميكانيكيٍّ لا
روح فيها ..

فأمسكت الهاتف لتتصل بنديم الذي كان يتنفس بإجهادٍ، يسحب
الهواء من رئتيه للخارج بصعوبة كمن يسحب دلوًا ثقيلًا من غور بئر
عميقة ..

البيت كله ساكن، التلفاز مغلق، لا ينبعث من الهاتف بعد تركيبه
من جديد أية موسيقى أو أغانٍ كعاداته، فقط وضعه أمامه بجوار
كشكوله وغاص في السكون، لا يدري كيف يصل إليها، كل ما مرّ لا
يؤكد الحب ولا يفسر القطيعة.

رَنَ الهاتف فمال إلى الأمام بلهفةٍ متوقِّعًا أن تكون هي .. فكانت.

- وحشيتني.

فأغمضت عينيها وتنهدت، فأردف قائلاً:

- لو أمكننا التحكُّم في كل شيء فلن يمكننا التحكم في شعورنا
وقلوبنا، فهما ليسا في حكم الإرادة.

كان تبريراً أراحها قليلاً لميلها نحوه.

- ماذا تريد مني؟

- أريدك زوجتي.

- ولكنني متزوجة وأنت أيضاً.

- لو أردت أن أطلقها لفعلتُ.

- لا لا لا، أنا لا أبني سعادتي على تعاسة غيري.

"سعادتي" كانت إشارة أومضت في روحه المظلمة بعض الأمل،
فقال ببعض الارتياح:

- كل ما تريدينه سيكون، ولكن -والله- أحبك من أعماقي.

- ولكنني أكبرك بثماني سنين، وربما أكثر.

كان يعرف أنها وقتاً ما ستفتح موضوع فارق السن بينهما، ولأنها
تملكت قلبه وكيانه فقد عاجله بداخله بطريقة شعورية شاعرية، وكتب
عن ذلك في كشكوله الذي فتحه على عجل ليقرأ منه:

- أنت أصغر كالعصفور إذا غرّد وشدا، وكبيرة كالقمر إذا استدار
واكتمل، وأنت بين الاثنين صورة فنية بديعة الخلق والتكوين يمتدُّ فيها
الغصن في وجه القمر في ليلة هادئة حالمية، تنزوي خلالها الهموم لتُفْسَح
طريقاً بين عاشقين عذبتهما لوعة الفراق، فتهدأ قلوبهما لعبث الشفاء
وحرارة العناق.

"عبث الشفاه وحرارة العناق"! لا يدري كيف تلفتت منه تلك
الكلمات، وقد عزم أن لا يقولها، فخشى رد فعلها وأن تسوء الأمور
مبكراً ..

فتوردت وجنتاها واحمرت شفثاها واتقدتا، ثم قالت بلهجة هادئة
تعترض اعتراضاً خفيفاً عذباً على هذا الغزل:

- أنت قليل الأدب، احترم نفسك.

فقال مبتسماً:

- حاضر.

خرج عمر متجهاً إلى الحمام، فسمع همساً في غرفة أمه فاقترب منها
وتسمع ما يدور، وبعد سكون كانت تستمع خلاله لنكتة يلقيها عليها
نديم انفجرت ضاحكة، فاقترح عليها الغرفة فتفاجأت به فأغلقت
الهاتف، وسكنت برهة ثم انفجرت فيه غاضبة:

- قلتُ مراراً أن تستأذن قبل الدخول لأي غرفة مغلقة.

فلم يكثر الطفل لغضبها، وسألها بثبات:

- مع مَنْ كنتِ تضحكين في الهاتف؟

- لم أكن أتكلّم مع أحدٍ، كنت .. كنتُ أحلم.

فأمسك الهاتف من جوارها وقال وهو يشير به إلى وجهها:

- أنت تكذبين، رأيتُ الهاتف على أذنك.

ثم رمأه بعنفٍ على الأرض فتفكَّك، فضربته ومَهرتهُ على الإساءة
التي وجهَّها لها وما فعل، ففرَّ إلى غرفته باكياً وأغلق الباب.

وخرجت إلى الشُّرفة فاستنشقت عبير الفجر، ثم زفرته بعنف
وغضب، وارتسمت اللامبالاة على وجهها وقالت: "ظُر!"

ثم دلفت إلى غرفتها، ومع شروق الشمس كان مراد يصعد سُلم
الفيلا بقدمين غير متزنيتين، فأشعل إضاءة الصالة، واتجه إلى الحَمَّام،
فاستوقفه نسيجٌ آتٍ من غرفة الطفلين فذهب إليه مُسرعا - فاصطدم
بكرسي فكاد أن يسقط - ففتحتها فوجد عمر على سريرهِ مُحْتَبِئاً وهو
يبكي بينما غاصت نور في نومٍ عميق.

فجلس بجواره وقال:

- ماذا حدث .. لماذا تبكي؟

- ماما .. كانت تتكلم مع رجل غريبٍ في الهاتف منذ ساعة وهي
تضحك، ولما رأته أنكرت فهشمتُ هاتفها فضربتني.

فاتسعت عينا الرجل واحمرَّتا، فازدرد ريقه بصعوبةٍ، "الأطفال ...
تكذب".

فقال غاضباً:

- أنت قليل الأدب، أمك امرأةٌ شريفة ولا تفعل ذلك، نَم.

فسكت عمر وتمدد على وجهه واضعاً كفيه أسفل وجهه فوق
الوسادة، لا تندُّ عنه حركة ولا همسة، وقام مراد خارجاً إلى غرفة يولاند
وفتحها دون استئذان فقامت فزعةً:

- ماذا تريد؟

- من الرجل الذي ضربت عمر من أجله؟

- رجل .. أي رجل، أنت سكران؟

فقال غاضباً:

- الرجل الذي كنت تتحدثين معه منذ ساعة وتضحكين.

- لا بُدَّ أنه كان يحلم.

لم يصدق، فأمسك هاتفها فرأى خدشاً بارزاً في جانبه

- وهذا الكسر كان حلماً أيضاً!

فقامت ووقفت أمامه وقالت:

- هذا الكسر أنت من أحدثته، أنسيته؟

فتهدلت يده بالهاتف وسكت، هو من أطاح به من يدها في إحدى

الليالي فكسره، فأمسكت بيده وأخذت الهاتف منه وقالت:

- أما إن كنت تريد أن تعرف من الرجل الذي كنت أحدثه فهذا

هو ..

ووضعت شاشة الهاتف أمام عينيه مفتوحةً على سجل المكالمات
الصادرة، فقرأ اسمه هو، ودقّق أسفل الاسم فرأى الخط الدقيق الذي
يشير إلى مدة المكالمات فكانت سبع عشرة ثانية.

طوال الليلة وهو سكران غائب عن الوجود ما بين سكرة الخمر
وسكرة الحشيش وسكرة النساء، فلا بد أن سبع عشرة ثانية كفيّلة أن
تفهم خلالها ما كان يفعل وكيف مرّت الليلة ..

- لكن .. لم تصلني منك مكالمات!

- ردّ عليّ صوت بشع كصوت البلطجية، وكان هناك أيضًا
أصواتٌ أخرى ناعمة.

قالتها وهي ترفع حاجبها الأيسر وتحذّ له النظر، فلم يجد شيئاً
يقوله، باتت تعرف تماماً حقيقته وسلوكه، فأى كذبة مهما كانت
متناسكة فلن تجدي، فخرج وهو يتمتم:
الأطفال تكذب.

(٥٢)

كان مراد في شدة غضبه عندما وجّه أوامره لمجلس إدارته قائلاً:

- لا يمكن أن نقع، سنصمّد مهما تكن التكاليف، وإن كنّا نُحارب بالسلطة، فسنحارب بالمال وبعض السلطة وكل شيء، ولن نعجز عن الدفاع عن الشركة ومصانعنا ومخازننا، سنضاعف الأمن أكثر، ليس أمّناً كهؤلاء الذين نراهم نائمين بجوار كوب الشاي في مداخل العمارات، ولكن ستتعاقد مع شركة أمن محترفة، وكل مَنْ يقترب من أي مصنع أو مخزن على بعد خمسين متراً ستجري تصفيته.

وأبهى الاجتماع، وظلّ وحده على المائدة البيضاء الممتدة في غرفة الاجتماعات الفسيحة، وفكّ رابطة عنقه قليلاً ليسمح لזفرات غضبه بالمرور حتى لا تنفجر أوداجه المنتفخة من الغيظ.

اتصل براضي عبد الله، وأخبره أن ثاني مصنع يحرق له خلال عشرة أيام، فضحك وذكره أن "حمد السعيد" سيُلاعِبُه خارج إطار القانون.

لم يجرؤ على اتهامه مع تأكده أنه الفاعل، فمع كل مصنع كان يحترق
تصله باقةُ ورد مكتوب عليها: "الجولة الأولى .. ح.س".

ولم يكن مصادفة أن يرى في الصحيفة خبر حرق مصنعه على
اليسار، وعلى اليمين صورته مع سوزي وهو يلفُ خصرها بيده أثناء
افتتاحه دار أيتام تخصه!

"ابن الكلب" تتم بها، ثم قال في نفسه: سنرى من اليتيم أنا أم أنت
يا عرص الشرموطه!

فاتصل بهشام وطلب منه الحضور إلى الشركة بسرعة، وانتظره مراد
بمكتبه على مضضٍ، وهو يُجاهد الإرهاق بالمزيد من القهوة والسجائر،
لكنها لم تنجح في تصفية فكره وجلاء نفسه، حتى حضر هشام وجلس
أمامه خاضعًا.

قال مراد:

- لا بد من وجود طريقة ما للإيقاع به.

- كما تعرف، إنه لا يملك مصنعًا ولا شركة، فكل استشاراته
شراكات من الباطن.

فقال غاضبًا:

- وأنت ومن معك، ألا تستطيعون فعل شيءٍ مُقابل ما يفعله
معي، إنني على وشك السقوط، والرجل له قلب لا يُشفى من الثأر.

كان هشام أملاً أخيراً، استخدمه كسيف بمن معه من البلطجية الذين جنّدهم لإلحاق الأذى بحمد السعيد لكنه فشل، ودارت الحرب من طرف واحد، ومراد الخاسر الأكيد.

- كل ما استطعنا فعله أن حرقنا سيارته أسفل العمارة بجوار النيل، ولكن ..

فقاطعه مراد غاضباً:

- ولكن اسمع الآن، أنا أعرف كيف الوصول إليه وضربه في مَقْتَلٍ، له بنت في الإعدادية، أليس كذلك؟
- تريد أن ...؟!

- لا، سنخطفها إلى أن ينتهي التفاوض الودي بيني وبينه، ويعوضني عن الخسائر التي ألحقها بي.
- ولكنه ليس من النوع الذي يخضع أو يتفاوض.

قالها بلهجةٍ واثقةٍ وخبرة بالرجل، فضيَّقَ عينيه وهمَّ على مكتبه وقال:

- وكيف عرفت .. "نوعه"!

فارتجف صوته وهو يقول:

- لأنه رجل ذو نفوذ وسطوة وكبرياء بغض.

فاعتدل في جلسته، واستند بظهره على الكرسي وقال بتحدٍّ:

- سنرى!

بعدها بيومين قرأ في جريدة الأهرام خبر اختطاف ابنة "حمد السعيد" وقد حرّر الرجل محضراً بقسم مصر الجديدة بذلك، ويعرض مكافأة ثلاثة ملايين جنيه لمن يجدها أو يرشد عن مُحْتَطِفِهَا.

فاتصل بهشام:

- اختطفت البنت دون إبلاغي؟

- أي بنت؟

- ابنة حمد السعيد.

فقال كمن نسي:

- وهل أمرتني باختطافها؟

- ركز يا حيوان على الصبح، عندما كنت عندي بالشركة وأمرتك باختطافها.

- آه، معذرة يا مراد، فما زلت نائماً، ولكنني لم أختطفها.

- إذن من اختطفها، إياك أن تكون كاذباً وطامعاً في مكافأته، وإلا والله سأقتلك يا هشام.

- لا تظن بي يا مراد، بالتأكيد له أعداء غيرنا.

فأغلق الهاتف في وجهه.

لم يكن هشام نائماً كما ادّعى، بل كان نشيطاً يستعدُّ للنزول من شقته، ولما أنهى المكالمة فجأة، ضحك بأعلى صوته، وأغلق الهاتف، وأخرج منه بطاقة الذاكرة، وظلَّ ينظر إليها بإعجابٍ وهي مرفوعة أمام عينيه.

وخرج هشام من شقته مُتجهًا إلى حمد السعيد ودخل عليه، كان يجلسُ إلى كرسي مكتبه وحوله بعض رجال الأمن ممن يعملون لديه من ذوي الصدور البارزة والأذرع الممتلئة بالبطش والقوة، فألقوا الرعب بهيئتهم المتوحشة ووجوههم المتجهمة في نفس هشام الذي حاول مرارًا طرد هواجسه من حمد السعيد أن يؤذيه بما ساهم في تعذيب سوزي زوجته وهم يستمعون إلى التسجيلات التي بثَّها له عن مراد ..

كان وجهه جامدًا لا تندُّ عنه أية تعبيرات، اكتفى بترديد النظر بين جهاز الكمبيوتر ووجه هشام، ثم التفت إلى أحدهم عن يمينه بعدما أوقف الصوت وقال:

- هذا يكفي جدًّا.

فهزَّ الرجل رأسه موافقًا، ثم تحوّل نظره تجاه هشام وحدّق فيه برهةً كانت كافيةً لأن يسقط في غور بئر سحيقةٍ مظلمةٍ، فقام الرجل وجلس إلى الكرسي أمامه، وقال بهدوء:

- كل ظنونك صحيحة ..

فنظر هشام إلى عينيه كالمسائل: كيف، وأنا من أهداك رقبة مراد!

فُتِحَ باب المكتب وأُطلت سوزي باسمّة إلى زوجها، ولمّا رأت هشام أصابتها هستيريا غضب انتهت ببكاء بعد تهجّمها عليه، وتدخل رجاله فأخرجوها.

ثم قال حمد السعيد بغضب بنفس هدوئه وهو يشعل سيجارة:
- أنتم لستم أكثر من خفافيش بالليل وكلاب بالنهار..
- لكن أنا ساعدتك .. قلت لي إنك ستساعني وسأكون أحد رجالك.

فأطلق الرجل ضحكة ساخرة مكتومة:
- ظننت ذلك فعلاً وصدّفته؟ يا لغبائك!
ثم أمسك بتلابيبه وجذبه نحوه، وحقق فيه بعينين ممتلئتين غضباً:
- أسامح مَنْ انتهك حرمتي؟ مَنْ اختطف زوجتي لرجل آخر
ليعذبها؟ أسامح الجلّاد؟ أسامح مَنْ قيّد قدم زوجتي ورفعها في الهواء
ليهوئ عليها رجل آخر ضرباً وقهراً يا ولاد الكلب؟
واشتدّ غضبه عند سبّه، وترك قميصه ليصفعه على وجهه، ثم نظر
إلى رجاله وقال:
- خذوه إلى المخزن وقيّدوه، سأرسل سوزي لتُشفى غليلها منه،
ثم اقتلوه.

(٥٣)

دلف نديم إلى غرفة مكتبها حاملاً صينية بها كوب نسكافية وقطعة
شيكولاتة، بدت كوردة متفتحة في وجه الشمس، عليها نضارة طفولية
رائقة، ترتدي حجاباً أخضر زانَ وجهها وأوقَدَ حُسْنَهَا.

- صباح الخير.

- صباح النور.

- وحشيتني ..

فابتسمت وتلّهت في الصينية وقالت:

- أنا لم أطلب شيكولاتة!

- أنا مَنْ أحضرها.

- وكيف عرفتَ أنني أحبّها؟

فقال بتلقائية:

- لا يوجد بنتٌ في العالم لا تحب الشيكولاتة.

فابتسمت قائلة:

- على شغلك.

- هكلمك بالذ..

- على شغلك.

قالتها وهي تبتسم ابتسامةً طفولية، وتابعته بعينين راثقتين حتى خرج وأغلق الباب، واستعادت نفسها كلمة "بنت"، تلك الكلمة التي ظلت بداخلها ولم تتغير.

وفتحت الشيكولاتة فوجدت بها ورقة كتَبَ عليها: "كلُّ يومٍ يمرُّ ولا أراكِ هو في عمري عُمر".

أثلجت العبارة صدرها، وفتحت لروحها نوافذ عديدة على الحياة، وأغمضت عينها ملياً لترى الحياة خارج الصندوق، وقبل استرسالها في خاطرها اتصل بها عمر، مرّت عدة أيام على ما حدث بينهما، اقتنع خلالها الطفلُ أن أحدهما كان يحلم..

- نعم!

- أنا آسف يا ماما.

- خلاص، ساحتك يا حبيبي.

- ماما .. أرجوك، لا تضربيني مرةً أخرى، أنا أحبك فلا تكوني كأي.

- بابا يحبك أيضًا يا عمر لا تنسَ ذلك، وأعدك، لن أضربك مرةً أخرى.

- مع السلامة يا ماما.

أغلقت الهاتف، وتلبّدت سهاؤها، وضاق عليها الخناق أكثر، فقامت تاركةً خلفها الجريدة على مكتبها مفتوحةً على خبر حريق مصنع مراد.

وركبت سيارتها، واتصلت بالدكتور بلال محمود تستأذنه في الحضور فأذن لها، ومضت تشقُّ الطريق بذهنٍ مُشتَّت، لا يجتمع لها حدثٌ سعيدٌ مُكتملٌ، لا بد أن يُنغص من إحدى جوانبه، هذا الطفل الذي كذّبه وكان صادقًا، ليس على هذا ربيته، لكم قلت له: اعترف بخطئك مهما تكن عواقبه!

فهل من الممكن أن أعترف أنا الآن!

ولكن ما عواقب خطئي؟ الطلاق؟ وهل أنا متزوجة .. من زوجي؟

أم سيقْتلني؟

- طز!

الحُبُّ لا يصنع المعجزات، فغاية قُدراته (الخارقة) أن يجعل زوجين يتخطيان المستحيل نحو المأذون ليخرجا من عنده بورقة كورقة العداء الأول في مسابقة ما، أما بعد مرور الوقت فما أبشعه من ترهّل يصيب الجسد بعد حصوله على الجائزة، لكن المعجزات فمتعلقة بالهوايات والأهواء والميول والأفكار المشتركة، ثم الاهتمام.

لذا فليس غريباً أن ينفصل زوجان ويجمُلُ كُلُّ منهما للآخر عاطفة، فالحُبُّ ليس صنماً، بل هو كقطعة السكر الحلوة في ذاتها، لكن من الضروري أن تذوب في كأس المعاملة والاهتمام ويسقيها كُلُّ منهما، وقتها قد لا يقول أحدهما للآخر: أحبك، فالحب تحول إلى شكله الطبيعي .. المعاملة، وقد لا نرى وقتها مكعب السكر لكنه موجود.

وصلتُ إلى عيادة الدكتور بلال محمود ولا يزال ذهنها يعصف بها، فاستأذنت لها السكرتيرة، ثم دلفت إليه، كان بيده أجندة سوداء مكتوبة بخط اليد يقرؤها، فنزع نظارته وقام لها مُرحِّباً، اعتذرت عن تأخيرها وجلست وسكتت ريثما يقوم ويضع الأجندة في إحدى جوانب مكتبه، ثم يطلب لها النسكافيه، لكن أمراً من ذلك لم يحدث، بادرها قائلاً:

- أَلْحَظْ عَلَيْكَ تَغْيِيراً ما!

فرفعت حاجبها متعجبةً من ملاحظته التي تظنها دقيقة:

- وكيف لاحظتَ فيّ التغير وأنتَ لم ترني ..

فابتسم مقاطعاً:

- رأيتُكِ في المحاضرة للمرة الأولى والثانية هنا، وكنتِ ترتدين ألوانًا غامقةً، أما الآن فأنتِ ترتدين الأخضر على رأسكِ رمز البهجة والحياة.

- كنتُ أعشق الأخضر ولكن لم أُرْتِدِه من زمن!

- منذ زواجكِ تقريبًا؟

- لا .. بعده بستين أو ثلاث.

دخلت السكرتيرة تحمل، صينية عليها كوب نسكافيه وفنجان قهوة، فوضعتها وانصرفت، فطلبت أن تأخذ القهوة، فناوله إياها.

- تدخين؟

- لا.

- جميل .. التدخين له آثار نفسية سيئة.

تطلعت إلى الاسم المكتوب على غلاف الأجندة فلم تستطع قراءة أكثر من "مذكرات مدام .."، فوضع كتابًا على الأجندة، فأخرجت وتلته في فنجان القهوة.

- هل من جديد بينكِ وبين زوجكِ؟

- لا ..

وسكتت لكنها تريد أن تقول شيئًا، لا حظ عليها ترددها ولما طال صمتها قال:

- مدام يولاند .. أنتِ هنا لتتكلّمي، فإن كان هناك ما يجب أن تُخفيه، فما كان يجب أن تأتي إلى هنا.

فقامت غاضبة وقالت:

- ماذا تعني؟

- على طريقة الكمبيوتر نحن نقوم بإخفاء أشياء لا يجب للآخرين الاطلاع عليها، هذه الأشياء يجب أن تحذف فوراً، فالإخفاء ليس أمناً، بل ألماً ساكناً في ظلام الذاكرة.

فنتهدت وجلست .. وساد بينهما صمتٌ برهّة، لم يشأ أن يشقّ ضبابها فجأة، فرشفت عدة رشفات من كوب النسكافيه، وسحب الأجندة من أسفل الكتاب وقام إلى دولابه الحديدي ففتح قفله ووضع فيه الأجندة بين عدد كبير من الأجنادات مختلفة الألوان والأحجام.

- بخصوص الذاكرة تصور أنني فكرتُ أكثر من مرة بإجراء عملية لاستئصال "قرن آمون".

فالتفت إليها بعدما أغلق الدولاب، وعلى وجهه دهشة لما قالت:

- المسئول عن الذاكرة! تُريدِينَ محو ذاكرتك!

فهزت رأسها لتؤكد ما قال، فترجّل نحو كرسي مكتبه، وقال:

- إن ذلك لا يكون ولم نسمع به من قبل.

ثم سكتَ هنيئاً وأردف قائلاً:

- إذن لا جديد بينكما ..!

فهزّت رأسها نافية، فقال:

- هل فكرت أن تقومي أنت بإزالة المنغصات في حياتكما؟

- حاولتُ كثيرًا في البدايات ولكنني فشلتُ.

- ماذا كنتِ تفعلين؟

- كنت أقرأ كتبًا كثيرةً عن السعادة الزوجية، وعن دور المرأة في

إسعاد البيت وغيره ..

- والنتيجة؟

- صفر.

- لماذا؟

- لأن هذه الكتب تفترض أن الزوج إنسان "سويّ" ولا يعرفون

أنه مُتسلّطٌ بهاله ونفوذ، ولا أنه خمورجي وحشاش وداعر (وابتسمت بحزن) لذا تفشل هذه الكتب دائمًا.

وبعد بُرهةٍ من الصمت تناولت فنجان القهوة وأخذت منه رشفةً،

أمسك قلمًا ودفترًا، وسألها:

- هل تسعدين برؤيته؟

فأجابت بحنق:

- لا.

"لا" كاملة، بكل ما تحمله من معاني الرفض، حتى إنها خرجت
بنبرة من يلفظ طعاماً سيئاً خالط جوفه غصباً.

- كيف تجدين نفسك مع وجودك معه تحت سقف واحد؟

- أُصابُ بضيقٍ في التنفس.

- هل تمنيتِ ولو مرة أن يخرج ولا يعود مجدداً، بالطبع دون
إصابته بسوء؟

- نعم.

- هل يعرف مشروبك المفضل؟

- كان يعرف، ربما نسي الآن.

- هل قام بتحضير كوبين منه لكما؟

- نعم، منذ ست سنوات أو أكثر.

- كيف تشعرين لو رأيته يقف بانسجام مع امرأة أخرى؟

- لا شيء!

- ألا تغارين؟

- أغار بالطبع.

- بعقلك أم بقلبك؟

- بعقلي.

- ما الفرق؟

- الغيرة بالقلب تكون حينما نستشعر أن إحداهن ستزاحمنا على قلب من نحب، أما غيرة العقل فهي ثأر الأنوثة وكرامتها.

- عمومًا الغيرة شعور تلقائي إذا استشعرنا تهديدًا ما لعلاقتنا بالآخرين لوجود مَنْ يريد أن يعتدي على حقوقنا فيهم.

- وأخذ رشفة من كوب النسكافيه، وأمسك بعلبة سجائره وأردف:

- ممكن أدخن سيجارة؟

- لا..

فابتسم محترمًا رغبته، وسألها:

- كم مرة قام بتحضير الطعام ليُريحك، ولتعرفي خبرته بالطعام وإعداداته؟

- ولا مرة.

- حتى أثناء الحمل من باب الشهامة ..

- كانت أياها مؤسفة.

- كيف ترين فكرة الإنجاب منه ثانية؟

- سخيفة ومستحيلة بالطبع.

- حديثني عن الأبناء.

"أبنائي ثمار معطوبة مُعلّقة على أغصان نبت سييء، سيسقطون حتمًا مع أول موجة خريفية تعصف بحدائقنا المفتتة. فكم من ألمٍ نائمٍ في صدري تمتدُّ ظلاله على أوراقهما الهشة! لا أستطيع دفع مشاعري السلبية في الاتجاه الآخر كي لا تبدو، فداخلي امتلأ وفاض وهذه مأساة أعيشها، فإن كنتُ أجتهدُ أن أستمّر كشجرةٍ نزع الخريفُ أوراقها ولم يبقَ لها من زيبتها الشجرية شيءٌ، فإنها شجرة تقف العصافير على أغصانها العارية حتى وإن لم تُغرّد حزنًا لمرور الربيع، لكنهما يشعران بتغيري، يربان في عيني دمعا متجمدا كجليد لا تذيبه نارُ الجحيم.

تسألني ابنتي الصغيرة بصوتها الهادئ الساذج: ما لك؟ فأغضب دومًا ابتسامةً مُنافيةً وأتبعها بجملة كاذبة: أنا بخير.

تتركني وتذهب إلى لعبتها غير مقتنعة، ومع الوقت امتنعا عن سؤالها، حتى أحدهما لو وجدني بحال مختلفة وسأل ماما ما لها، تندّر الآخر قائلًا: أنا بخير.

هناك أشياء مهمة يجب أن أنجزها لهما لا تقل أهمية عن كي الملابس وتحضير الطعام، كالقبلة الصباحية قبل نزولهما إلى المدرسة.. قبلتي لهما افتقدت حرارتها فأصبحت كقبلة الأعراب، فكيف أنجزها على وجهها الصحيح وهي نابعة من الأمومة، والأمومة مكوّن رئيس من مكوناتنا كوني أنثى!"

أرادت أن تقول ما دَوَّنته منذ أيام في مذكراتها فامتنعت، وردَّت ردًّا اعتياديًّا: "بخير الحمد لله"، فلم أتت إذن؟ ربما مال شعورها لحظةً إلى عدم الثقة لا تدري لماذا، فإن كانت الفضفضة غاية أمرها، فجودي لا تكلُّها ولا تملُّها، أم إنها أرادت مشورة "رجل" في جهل و صلف و غباء رجل آخر!

لكن اليوم - وعلى وجه الخصوص - أرادت أن تتكلم عن نديم، تؤدّ لو يفتح موضوعًا ما بشكل طبيعي تدخل من خلاله إلى الحديث عن حبّها الجديد لرجل آخر، لكنه سأل في أمرٍ مختلفٍ:

- فكّرت في خيانتّه من قبل؟

تفاجأت بسؤاله، فسكتت بعض الوقت، ثم قالت:

- سأكذب إن قلت لا ..

ثم أردفت وهي ساهمة البصر باتجاه فنجان القهوة:

- فكّرتُ أن يكون في غيابه، أو في وجوده .. أتركه في البيت وأذهبُ لرجلٍ غيره، تخيلتُ ذلك الرجل فكان قويًّا جسيمًا ضخمًا يبتلع جسدي بين ذراعيه القويتين، يُذيني بعُنْفوانه وفُحولته لأذوق المتعة كاملةً بكلّ لذةٍ وكلّ ألمٍ، لتخرج مع كل صرخةٍ مني وأنا أسفل منه ذكرى سيئة مع زوجي.

قال بثقة:

- لم تكن نيتك المتعة ولكن تلويث شرفه؟
- بل قَسَمَ ظهره وتلويثَ ثَوْبِهِ الْمُطْمَئِنِّ دَائِمًا لنظافته وهو يخونني.
- وَلِمَ لَمْ تَفْعَلِي؟
- لأنه ليس شرفه وحده، بل شرف أهلي وأبي في قبره من قبل،
وشرف ابني وابنتي من بعد، ثم إنه حرامٌ قبل كل شيء.
- معك حقٌّ ..
- ثم سألها بعدما أفرغ آخر قطرات كوبه في فيه قائلاً:
- لو تملكين كلمة الفراق كنتِ قَلْتِهَا؟
- لا.
- هل تودين سماعها؟
- نعم.
- هل تخشينها؟
- نعم.
- البعض لو امتلك الاختيار لاختار فَقْدَهُ، ليظلَّ هادئ البال، ينعم
بإحساس العجز الذي نشأ فيه وشبَّ عليه.

- لو ابتعدت العينان إحداهما عن الأخرى ستتيمترات قليلة
لتشوشت المعلومات لدى المخ، ولم يتمكن من رؤية الواقع على حقيقته.

- ماذا تعني؟! -
- لا شيء، مجرد معلومة طيبة لا أدري لما حضرتُ بذهني الآن.
- كانت تنظر تجاه الدولاب لما تجرأت وسألت:
- لأي مدام كانت المذكرات؟ -
- هذا الدولاب مقبرة أسرار، ولا يمكنني نشر رُفاته على الملأ.
- ألا تخشى سرقتها، فتستخدم استخدامها دنيئًا ضد أصحابها؟ -
- لا، فأنا أنزع من عليها الأسماء، فتصبح كخريطة لعالم مجهول.
- قامت وهي تمدُّ يدها ببطاقتها التعريفية، فنظر فيها وقال:
- نائب مدير بنك الشرق! أنا عميلٌ لدى هذا البنك منذ سنوات طويلة، خدماته ممتازة.
- فابتسمت وقالت:
- يتشرفُ البنك بكونك أحدَ عملائه.
- كنتُ هناك منذ أيام، وسأكون هناك خلال هذا الأسبوع أيضًا.
- أبلغني قبلها لأحضرَ لك أجندي، فالفترة القادمة ستكون ممتلئةً بها يكفي.
- بسبب التغيير الجديد؟ -

(٥٤)

اتصل بها في حدود الثانية صباحًا، تلَقَّفت الهاتف خشية أن يكون
نديم، فكان، فترددت لحظاتٍ: ماذا تفعل مع المكالمة المفاجئة مع خطر
الظرف وتوقيته.

كانت تريد أن تكلمه وتسمع صوته، ومشتاقة إلى كلمة "حييتي"
تطرق أذنها في الوقت المتأخر مع وجود زوجها!

فأخذت الهاتف ودلفت إلى الحمام وكلمته بصوتٍ خفيضٍ هامسٍ:

- حبيبي وحشتني.

مع شوقها لكلمة الحب إلا أنها كانت أكثرهما ترديدًا وقولًا للآخر

..

لذة مدغدغة تسري بأوصالها وتسبح في دمها كقارب مُشَرَّع في
وجه القمر إذ حدثته خلصة في وقت متأخر ومع وجود زوجها، وتزداد

تلك اللذة كلما فاجأها وهي تُحدِّثه فتستلذُّ بالكذب عليه وخداعه أنها
صديقَتُها فلانة ..

أنتِ أيتها الجليلة الجميلة يلفحك الهوى من فراشك ليُلقي بك في
الحَمَام!

ليس لها ذكريات مراهقة تُماثل ما يمر بها من أحداث، حتى خبرتها
(الورقية) التي حصلتها من الروايات ليس بها عاشقة تتكلم في الهاتف
بالحَمَام.

ولو! هي تصنع تاريخًا للحُبِّ، أو الحب يصنع لها تاريخًا ستتذكره
في غدها البعيد مهما تكن نهاية قصَّتها معه التي لم تفكر فيها من قبل.

- كيف حال ابنتك؟

- بخير ..

- كم أشتاق إلى رؤيتها! أودُّ أن أحتضنها وأقبلها.

- وأبوها، أليس له نصيبٌ من هذا الحب؟

- اخرس.

أراها صورتها من قبل، كانت متشوقة لرؤيتها، والآن أشد شوقًا
لتري كيف هي، ما طولها وعرضها، ما لون عينيها وشعرها وبشرتها
على الحقيقة.

تودُّ رؤية كيف روح من خرج منه ..

كيف سيكون أبنائها منه إن تزوجا!

ضحك بصوت عالٍ، وتوَعَّدها بقبلةٍ حارةٍ عندما يراها، فتورَّدت
وجنتاها وقالت بعد شهيقٍ عميقٍ أبعدت الهاتف خلاله عن فمها محاولةً
تغيير اتجاه الكلام:

- أغلب الكتاب يصفون القبلة بالحرارة ويسكتون، كأنهم يتركون
للقارئ التخيل، أو لَسَعَ شفتيه بالنار ليشعر بها.

- إذن دعيني أصف لك القبلة الحارة كيف تكون ..

- إياك وإلا أغلقتُ ..

فقاطعها قائلاً:

- سأصف ما كتبتُه منذ يومين وأنتِ معي في دنيا الخيال، فلتسمعي
أو أبعدي الهاتف عن أذنك.

فاعترضت وهي مشرقة الوجه لما سيصف، فتقول له: اسكت
بشفتين كاذبتين وعينين تتلألآن تقولان تكلم بأعلى صوتك، اصرخ في
روحي، اغسل قلبي بكلماتك وضعها على حبال سطورك تحت حرارة
قُبلاتك لربما جفَّ دمعُه السخين.

فتجاهل اعتراضاتها الهشة، وقال بصوته الرخيم:

- أراهما بثوبهما الأحمر وكأنهما الشمس في شفقتها تتصنع الهَمَّ مُتدلِّلةً
على عاشقها المسكين، فيحار في الوجود حوله وقد انطمست معالمه

وأنكره في نفسه وتاهت فيه معاني الحياة إذا لم ترَضْ، وكأن روحه ساكنة
بين شفتيك وليس بين جنبيه، وكيف يُكتب تاريخ الجمال إن لم تكن
شفتك دفتي كتابه.

آه لشفتيك أيتها الحسناء! لو تنظرين إليهما بعيني، لرأيت أن الجمال
كله لو اختُزل في كلمتين لكان شفتيك .. وشفتك آه لوجود خلا منهما،
فهل تشرق الشمس ويتلألأ القمر ساطعاً إلا في غفلة منك إذا ابتسمت!
وكان القمر إذا أريد له أن يُخلق من وجه بشري لكان وجهك
الحسن، ولو أريد للجمال عنواناً ودليلاً على وجوده في الأرض لكان
شفتيك الناعمتين عنوانه ودليله.

أراهما في ثوبهما الأحمر ذائبتين كالشمس في شفقها، ثم ترسل عليهما
قبل الرحيل ابتسامة ذهبية من أشعَّتِها، فأراهما كخاتم يتلألأ يزهو، ثم
أرى الشمس كوردة ربيعية يانعة تدنو منك في خَفَّةٍ وهُدوءٍ ودلالٍ،
وأراها باسمَةً وقد انفرجت عن مثل لآلئ منتظمة في عقد حوراء، ثم
يصل إليك من أنفاسها كريح هادئة طيبة لينة، تتسلل إلى روحك
وقلبك، فتضع عليه من جناحها لمسة، فيها هدوء القلب وسكينته حتى
إذا استبد الشوق ولهفته، أمعنت النظر .. فوجدتها لهفى ظامئة،
ووجدتني أهفو إليها في ظمأ أشد، ولهفة أعنف، وشوق أقوى، فتقترب
شفتا من شفتيك، فأرى الصمت يُحيي على شفاهنا وكأنها أحبة التقوا
بعد غربة، فسكنت عيونهم لهول المفاجأة، ثم تكلم الظمأ بينهما ..

فتعانقت شفاهُنا، ولثمتها قبلَةٌ فكأنها امتدت بنا من عمر الزمن
سنين، ورحلت بنا إلى أفقٍ غير الواقع وغير الخيال، وانفرجت شفتاي
وضمّت إحدى شفتيك فلاكها فمي، وكأنها -ومذاقها- في فمي ذائبة
كقطعة الحلوى اللينة، ثم اشتيتها أكثر فقضمتها، فكان العشق والهوى
تبدّي لعيني في شفتيك شيء مادي مجسد. ثم احتضنتها شفتاي من
جديد، وأسكنتُهما فمي وصافحتهما لساني جيئةً وذهاباً، ثم جذبتُ
لسانك العذب فتقطر في فمي شهداً، كأن ملكته أخرجته من عبق الجنة
وعبير ورودها لتوّه.

ثم أطبقتُ شفتيّ على شفتيك حتى تلاصقت وكأنهما تحتضناهما،
وقضمتها معاً، وظللنا هكذا إلى أن غابت الدنيا عنا بهمومها وولّت،
حتى إذا رحلت شفتاك عني وادعةً، تركت قبلك في قلبي رسم كفمك
ورسم كشفتيك، ثم كانت كالقفل الذي لا يوضع إلا على كل ثمينٍ فلا
يُباح لأحد غيرك.

كان لا يسمع لها همساً أو صدًى.

- يولاند!

كانت قد بلغت أوج حرارتها، واشتعلت جمرتها فأضاءت وجهها
بحمرة كأن الدم ينطق فيه قائلاً: كفي، وثقلت كلماته وحديثه على
عظامها فتجمّدت مكانها، فأعاد نداءه، فبأيّ صوتٍ ترد .. إنها ليست
هنا!

لو استطاعت الكلام ل قالت: أعد عليّ قبلك، وزد في حرارتها.

- يولاند هل نمت؟

فاستجمعت نفسها ولملمت روحها المنشورة بين كلماته وقالت
بصوتٍ خافت:

- أنت قليل الأدب.

وأغلقت الهاتف فجأة في وجهه، فنظر في هاتفه ثم خرجت سعادة
الدنيا ونشوتها في ابتسامة من شفثيه.

وقامت تنظر إلى المرأة، تتلمح وجهها وتقاسيمها، ترى أنها خلقت
من جديد، "يولاند"، كأنها تسمع اسمها لأول مرة كلحنٍ جميلٍ عذبٍ،
وشاعت في وجهها نضارة الشمس المشرقة الباسمة بعد ليلة ماطرة،
وقالت لصورتها في المرأة:

- كم تمنيت أن أكونك أيتها الجميلة!

ثم قبّلت صورتها في المرأة، وهمّت بالخروج لكنها توقفت أمام
صورتها مرة أخرى، وقالت لنفسها في همسٍ وكأنها تُسرُّ لصورتها بسرٍّ
خطير وتُحذِّرها من إفشائه:

- حرارة قبلته أفضل.

وغمزت لصورتها بعينها اليسرى وخرجت، فقابلها مراد ذاهباً إلى
الحمام فنظر لها بإمعانٍ نظرة رجل، فتجاهلته تجاهل أنثى ..

- ماذا كان يفعل الهاتف في الحمام؟

- خشيت أن تقطع الكهرباء.

- الكهرباء لا تنقطع عن حدائق الأهرام.

فردت بروحٍ مرحةٍ لم تتغير لرؤيته:

- وجدته مبتلاً فأدخلته الحمام.

وتركته ودلفت لحجرتها وأغلقتها بالمفتاح، وأبدلت البجامة
بقميص نوم أبيض يظهر صدرها كله، ووقفت أمام المرأة فتحسست
صدرها وخصرها برهةً، ثم استلقت على فراشها واستدفأت بغطائها
لتتقي برودة الغرفة بفعل جهاز التبريد، واحتضنت دُميتها القطعة،
ونظرت لها بعينين ساجيتين وقبّلتها، وقالت:

- اعذريني .. ليست حارة.

(٥٥)

في مرآتها الصغيرة ارتسم فمها منفرج الشفتين وهي تزينه بطلاء
أحمر وقَّاد، فبدا كشفق دامٍ غاضبٍ يوشِكُ أن يلتهم ذكورة رجلٍ نائرة
بأنوثتها الصارخة المتبجحة.

كانت نشطة مريحة، صَفَت رُوحها والطبيعة حولها، وتبدَّلت
حديقته فبدت مُزينةً مُبتهجةً مثلها، حتى الشمس أشرقت ذلك اليوم
هادئةً لطيفةً، ارتسمت أشعتها كابتسامة في فم حوراء نرجسية مغرورة.

كان الولدان بالمدرسة، ومراد لا تعرف عنه شيئاً، ولا تريد أن
تعرف، كان ذلك كافياً ليعبّد طريقها ويسهله عليها.

ذهب نديم إلى المكان الموعد يحثّه الشَّوقُ، وطويت الأرض تحت
قدميه فلا يدري كيف وصل!

كان سابقها إلى هناك، فجلس على ضِفة النيل يتابع طيوره على
صفحتيه، فتطربه ترانيمها الندية العذبة .. لمحها قادمة نحوه تترنَّح من

ثَقُلْ أُنُوثَتِهَا، لَا تَرْفَعْ قَدَمًا وَتَضَعْ أُخْرَى إِلَّا تَنَاثَرَتْ بَعْضُ فَتْنَتِهَا تَنَاثَرُ
رِذَاذِ الْعَطْرِ، فَبَدَتْ بِأُنُوثَتِهَا كَشَجَرَةٍ مَثْقَلَةٍ بِشَارِهَا، تَرْتَدِي ثَوْبًا رَمَادِيًّا
يُنَاسِبُ طَبِيعَتَهَا غَيْرَ الْمَفْهُومَةِ، وَقَمِيصًا أَسْوَدَ، وَتَلَفَّعَتْ بِحِجَابِ
حَرِيرِي أَحْمَرَ، وَاخْتَبَأَتْ عَيْنَاهَا خَلْفَ نَظَارَةِ بَنِيَّةٍ شَفَّتْ عَنْ سِحْرِ كَامِنٍ
جَذَابٍ.

هِيَ مَنِ اخْتَارَتْ وَقْتَ الظَّهِيرَةِ لِلِقَائِهَا، لَا يَدْرِي سَبَبَ اخْتِيَارِهَا
الْوَقْتَ الْحَارَ! رُبَّمَا أَرَادَتْ اتِّصَالَ مُنَاطِقِيًّا بَيْنَ حَرَارَةِ الْقَلْبِ وَحَرَارَةِ الْجَوِّ
مِنْ حَوْلِهَا.

وَلَمَّا جَلَسَتْ أَطَالَ فِيهَا النَّظَرَ وَقَالَ:
- أَحِبُّكَ.

فَابْتَسَمَتْ وَأَشَاحَتْ بَوَجْهَهَا إِلَى النَّيْلِ، وَظَلَا صَامَتِينَ رِيثًا يَنْتَهِي
النَّادِلُ مِنْ وَضْعِ أَطْبَاقِ الطَّعَامِ الَّذِي طَلَبَهُ نَدِيمٌ فُورَ حُضُورِهِ.

كَانَتْ هَذِهِ الْمَرَّةَ الْأُولَى الَّتِي يَدْعُوهَا لِمَائِدَةٍ، فَلَبَّتْ دَعْوَتَهُ دُونَ
تَفَكِيرٍ، هِيَ تَرِيدُ أَنْ تَرَاهُ كَيْفَ يَأْكُلُ، كَيْفَ يَتَنَاوَلُ طَعَامَهُ!
أَلَيْسَ يَأْكُلُ كَبْقِيَةِ النَّاسِ؟

ضَحَكَتْ أَمْسَ حَتَّى تَلَأَتْ عَيْنَاهَا لَمَّا سَأَلَتْ نَفْسَهَا هَذَا السَّؤَالَ،
تَرِيدُ أَنْ تَرَاهُ وَحَسَبَ!

أَمَّا هُوَ.. فَقَدْ وَصَلَ حُبُّهَا بِقَلْبِهِ إِلَى حَدِّ الْإِدْمَانِ الْمَزْمَنِ الَّذِي لَا
يُجْدِي مَعَهُ دَوَاءٌ، يَرِيدُ أَنْ يَسْتَكْمَلَ بِأَقْيَمِ الْمَوَاقِفِ الَّتِي يَفْتَقِدُهَا فِيهَا

كتناولهما الطعام وغيره، حتى يسرح فيها بخياله وقت انفراده بطعامه
فتكون جليسته.

فأصبح صَدْرُهُ مرسماً لما رأت عيناه فيها ومنها، وعلى جدارِ قلبه
صور لكل حالة رآها عليها: في المقدمة صورة كبيرة ترفع فيها حاجبها
وتبتسم، وأخرى جسدت براءة الأطفال في عينيها، وأخرى لأسنانها
الثقية البيضاء، وفمها منفرجٌ بفتنته ضاحكة، وأخرى لوجهها وهو
ساكن هادئ يتموج على صفحته الحُسن بخفةٍ كحركة ماء النيل بالقرب
من قوارب الصيد الملونة.

هي كل شيء في قلبه، ولا يزال يطلب المزيد من الصور.

- أنت جائع لهذه الدرجة؟

قالتها ضاحكة بعد انتهاء النادل من وضع الطعام على المنضدة،
فابتسم وقال:

- تفضلي.

- أنت أولاً.

فابتسم وتناول الشوكة بيده اليمنى، والسكين بيده اليسرى:

- افتحي فمك.

كان جاداً وهو يشير إليها بقطعة لحمٍ صغيرةٍ في شوكتِه، فقالت
بلهجةٍ جادةٍ مُتكلفةٍ أقرب إلى المزاح:

- هل يمكنني أن أضع شوكتي في عينك؟
- بكل تأكيد.
- ومال نحوها بعينين مفتوحتين جدًّا، فضحكت وقالت:
- مميم المسامح كريم.
- افعليها إن استطعتِ ... لم أكن أعرف أنكِ جبانةٌ.
- لستُ جبانةً ولكنها شفقة حتى لا تصبح "أعور".
- ويقولون وقتها "أعور يولاند" كما قيل عن قيس: "مجنون ليلى"!
- فضحكت بشدة حتى وضعت يدها على فمها ودمعت عيناها:
- أنتَ مشكلة وربنا.
- وأنتِ حلها.
- وتلفَّتْ حولها وتفرَّست وجوه زبائن الكازينو خشيةً أن يُوجَدَ في
مُحيطِها مَنْ يعرفها، فقال:
- سيأتي اليوم الذي نسير معًا في كل مكانٍ وأيّ وقتٍ دون قلق
يساورنا.
- ابتسمت ولم ترد، فمتبع بعينه مراكب النيل ثم تطلع إلى برج
القاهرة، ثم شبَّك يده ووضعها أمام ذقنه وقال:
- لمَ لا تُسمِّي القاهرة يولاند؟

فانفجرت ضاحكةً ووضعت الشوكة والسكين من يدها:

- اسكت ولا تتكلم مرةً أخرى ..
- وتابعت ضحكها الطفولي، فأردف قائلاً:
- ويكتب ببطاقتي الشخصية: محافظة يولاند، ويُقال في نشرات الأخبار: وتُعدُّ مدينة يولاند من أكثر المدن العالم ازدحامًا ..
- قالها بصوتٍ إذاعيٍّ أجش وهو يضع الشوكة أمام فمه كاملايك، فتابعت:
- ضحكتها ثم قالَت:
- تريد أن تغير اسم العاصمة، سأبلغ عنك الشرطة.
- أليس يولاند أجمل وأرق وألطف!
- ليس هناك أجمل من القاهرة أيها الشارد، انتبه فأنا وطنية متشددة.
- فتحوّل بصره إلى النيل ليقع على مركب زاهٍ، تنبعث منه أغاني بصوتٍ هاديٍّ، فقالت مازحة:

- ماذا؟ ألا تحبُّ وطنك؟
- أنسى وطني.
- فرفعت حاجبها الأيسر وابتسمت، فأردف قائلاً:
- حينها نحبُّ يختلط الأمر على القلب ويختلُّ نظامه، فلا يعرف فرقاً بين
- الوطن وبين حبيته.
- كانت كلماته صادقةً واثقةً، فسألته:

- كيف ذلك؟

- الإنسان دأب على البحث عن مُفردات السعادة أو بعضها،
فتخيلها مرةً في المال ومرةً في السلطة ومرةً في الملكية، وكلما أضناه
البحث يسكن لامراته لتزيج ما علق بجسده ونفسه من هموم، حتى
كان يقول لها أحياناً: إنني أحبك مثل وطني، لكن الأشدَّ صدقاً
والأكثر فهماً كانوا يقولون: أحبُّ وطني كزوجتي.

- وأيُّهما أحبُّ إليك، مصر أم زوجتك؟

- أنت أفضل من الاثنين

- أفضل من مصر؟!

- نعم، فالحياة في مصر الآن أصبحت كالراقصة المستنّة، كلما
أمعنت العري حتى تُظهر ما واره الزمّن من جمالٍ منسيٍّ، إلا كان
إمعانها في إبراز قُبْح مستتر خلف ما تنزع من على جسدها، أما أنتِ
فوطنٌ حقيقيٌّ أتمنى الهجرة إليه مهما يكلفني الأمر.

- كم أنت قاسٍ على وطنك!

- ليست قسوةً، ولكنها حقيقة مجتمعت الشيزوفرنيا ..

وتنهّد مستعيداً في ذاكرته وقفاته على أبواب السفارات، وسيره
بشارع المعز حاملاً النحاس، وشهادة البكالوريوس وتمزيقه لسيرته
الذاتية وتغييره لمسمى المؤهل فيها.

فأردف قائلاً:

- لا معنى لأي شيء في هذا المجتمع، كلنا ننتظر النهاية والانهيار
الحتمي، لكن من حُسْنِ حظِّه أن الوقت يمرُّ ببطء شديد.

لاحظت غضبه وتفهمته، فابتسمت في وجهه وهي تنزع نظارتها
وقالت:

- دعك من السياسة ولا تُحدِّثني عنها مرةً أخرى ..
وأردفت بغلظةٍ مصطنعة:

- كُلْ.

انجلت كآبة نفسه لما رأي عينيهما تشرقان من خلف نظارتها، فتناول
سكينه وشوكته وراح يأكل، ثم أرجعت النظارة كما كانت كي تتأمل
ملاحه دون إحراج، له حاجبان مقوسان قليلاً في المنتصف مُتَدَانِ حتى
النهاية كجناحي طائر حُرٍّ في سبائه، وعينان كورقتي الشجر يبرز منهما
رموش طويلة، لكن بهما حدة وصفاء، وشففتان ممتلئتان، وبشرة نيلية
كأغلب سكان مصر.

شيءٌ ما كان يجذبها نحوه، ليست صفات خلقية خارقة لا تتوافر في
غيره، بل كان بسيطاً إلى حدِّ الذوبان في طابور من عشرة أفراد، لكن
الميل لا يعوزُّه أسبابٌ ظاهرة ملموسة، لذلك كانت تسأل دائماً إن
حكّت لها صديقة عن حبها: "ما الذي أعجبك فيمن تحبين وهناك من
هو أفضل منه؟" أما الآن فهي تعرف إجابة السؤال الساذج، فالحب

تجربة إنسانية شخصية فريدة، لا تشابه بين فصولها الموزعة على كل خلق الله.

اغتسلت رُوحها على ضفة النيل بين يديه، ومضت سعيدة لا يعكر صفوها شيء، وتمنت لو تحمل هذا النيل بالمنضدة البلاستيكية البيضاء إلى حدائق الأهرام، و.. وأن تُسمى القاهرة يولاند ..

أطلقت ضحكة عاليةً ماجنةً وهي تقود السيارة راجعة إلى مملكتها، وأدارت مؤشر الراديو، فانطلق بأغانٍ "شديدة اللهجة" فتمايلت مع موسيقاها الصاخبة كشابٍّ مراهق في العشرين من عمره.

وتساءلت: كيف مضى الوقت الطويل سريعاً!

ومع صفاء السماء وجلاء سحابها، بزغ لها القمر كاملاً دافئاً، فطاب لها السكون إليه، وللمرة الأولى لا تشكو، بل تصارحه: أنا أحبه، وتلفتت نحوها بخفية وعادت إليه باسمه، وتساءلت: أين كان قبل لقاء الحيوان؟ ثم ضحكت بصوتٍ خفيضٍ وقالت: أصبحت أقول شعراً.

تذكرت فجأةً عمر ونور، فمضت إلى غرفتيهما فوجدتهما نائمين بملابسهما، لا بد أنهما قضيا أغلب النهار بمفردهما، فأيقظتهما حتى يبديا ملابسهما ..

قالت نور:

- أين كنتِ كل هذا الوقت يا ماما؟

- أنا هنا يا حبيبتى .

- تسألك: أين كنت؟ وليس أنت الآن؟

قالها عمر دون أن يرفع وجهه من فوق وسادته، فتلهت بالاقتراب منه والمزاح معه، وقالت:

- أنت وحشتني .. لن أتأخر ثانية في الشغل.

ثم قالت لنور:

- متى نزل بابا

- لم نره منذ الأمس.

لم يأت! إذن بقيا طوال النهار بمفردهما، كيف أكلا؟ وكيف قضيا كل هذا الوقت؟ وكيف مرّ عليهما الوقت دون أحدا معهما؟

(٥٦)

كانت متغيرةً، لم يخفَ عليه شيءٌ من خلجات نفسِها، ربما حَدَثَ
بينها وبين زوجها أمرٌ لتأخُّرها وامتعاضها في أول اليوم، أو ظهر عليها
شيءٌ لم تستطع السيطرةَ عليه أمامه، ربما تلعن نفسها الآن وتلعنني، ما
الذي أوقعني في طريقها؟

فوضع النسكافيه على مكتبها ومضى دون كلمةٍ، فقالت يولاند:
- شكرًا.

فالتفت إليها قبل أن تصل يده إلى مقبض الباب فتوقَّف، واستدار
نحوها فرأى وجهها مُحتلِّفًا، مبتسمةً، تلتمع عيناها بسعادةٍ غامرةٍ،
فسألها:

- لمَ تتصلي بي عند رجوعك البيت؟

فابتسمت بعينين حالمتين، وبين شفيتها قلمٌ:

- لأنني لم أكن بحاجةٍ إلى نسكافيه!

فابتسم، دخلت لوجي فجأةً ويدها ملفٌ أزرق، فتلهَّى في مسح
المكتب بجوار الكوب:

- أنت هنا يا بيك؟! صباح الخير يا لولو.

لم ترد، وتابعت بعينها الحوار "اللطيف" ..
أردفت:

- أحضر النعناع إلى مكتبي ولا تنسَ ستكمل لي بقية قصة النسر
وبيض الدجاج.

فمالت يولاند برأسها ورمقته بنظرةٍ غاضة ..

وعند انصرافها مرت أمام البوفيه ونظرت إليه بجمود وغضب،
فانتبه لها عم خير، ومضت قبل أن ينفض يديه من الماء فيعرف سرَّ
غضبها، فعاد لنديم يسأله: أَصَدَرَ مِنْهُ شَيْءٌ؟ فنفى، وسَرَتْ فِيهِ سَعَادَةٌ
واطمئنان، وتأكَّد أنها تغار عليه.

وقادت سيارتها وهي جمره مشتعلة، تشدُّ على أسنانها وتحزُّ على
أضراسها، تبدر منها كلماتٌ غاضبةٌ رَغْمًا عنها، لكنها لم تحتمل، لا بد أن
تُوبَّخَ وتغلق الهاتف في وجهه، وتُحدِّره من التعرُّض لها مجددًا أو محاولة
مُحَادَثَتِهَا، فتوقَّفت بسيارتها بجوار الرصيف وأغلقت زجاجها،
واتصلت به، لكنه لم يرد مرةً بعد أخرى.

كان هناك شابٌ يمسح لها مقدمة السيارة، فأشارت إليه أن يبتعد،
ولم تدع له الفرصة ليتحرك من أمامها فانطلقت مسرعة حتى كادت أن
تدهسه لولا أن تفادها بأعجوبة، فأتبعها قائلاً بصوت مرتفع:

- يا بنت المجنونة!

ورجعت إلى الشركة ومرت بالبوفيه فنظرت فيه فلم تجد إلا خير
يُنظف الأكواب:

- يولاند! لماذا رجعتِ يا ابنتي؟ أنسيتِ شيئاً؟

- آه، هناك بعض الملفات نسيْتُ حفظها.

- هل ضايقتِ نديم، سألته أكثر من مرة: أصدرَ منه شيئاً
أزعجك؟ فرحلَ قبل أن يخبرني بعدما تشاجرَ مع أحمد المحاسب.

"رحل، وتشاجر!"

فاتجهت نحو الباب، فاندesh الرجل لمجيئها ورحيلها فجأةً،
ووقف مَشدوها لا يفهم شيئاً.

كان نديم يسير مُتمهلاً بجوار سور جامعة القاهرة ضيق الصدر،
مخنوق الخيال، تتردد بصدره كلمة أحمد جمال: "طز في مؤهلك، أنت هنا
عامل بوفيه، تنظف المكاتب، وتحضر لنا الشاي والقهوة".

كلمة ظلت تطحنه من الداخل، تنزل على نفسه ككرباج متقد
مشتعل.

- يا ابن الوسخة.

قطعت عليه استرساله في معركته وسبّه لأحمد باتصالها فلم يرد،
لكن الهاتف ألحّ عليه مراتٍ عديدة:

- أرجو أن نتكلم وقتًا آخر ..

- ماذا حدث بينك وبين أحمد؟

- لا شيء، وأرجو أن نتكلم في وقتٍ آخر.

ساد السكون بينهما بُرهةً، لم يكن من لياقته معها أن يُنهي المكالمة،
كان ينتظرها دائمًا أن تقول "مع السلامة" لكنها قالت:

- أريد أن أراك!

فاندesh لطلبها ولم يصدق ما سمع، فوقف بجوار السور وسدَّ
أذنه بإصبعه وقال:

- أعلي صوتك، ماذا قلت؟

- أريدُ أن أراك.

- متى؟

- وقتما تريد، ولكن أتمنى أن يكون قريبًا.

- سأحدثك ليلاً.

- سأنتظرك.

على إضاءة البار الخافتة، جلس مراد وندى يجتسيان كأساً لربما
أبردت نفسه الملتاعة، نظر إليها بعينين حمراوين ورأس مهتز، قائلاً: هيا،
فردت وهي تنظر إلى عمق الكباريه كأنها تتحقق من شيء ما
- انتظر قليلاً ريثما أنهي كأسي.

فامتدَّ به الجلوس، وعبَّ عدة كؤوس في حلقة حتى لم يعد بجوفه
متسعاً لقطرة أخرى، ودار رأسه أكثر فسقط على البار، فأجلسته، فألحَّ
عليها:

- قومي ..

لمحت أحد عمال الكباريه قادماً من غوره المظلم مُشيراً إليها برأسه
"كنعم" فابتسمت وتساهلت معه حتى دلفا إلى غرفة بمفردهما، تفاجأ
مراد بالغرفة بعد تجديدها، كانت تُشبهُ غرفة نوم "نادين" التي طالما
زارها فيها بشقتها، فنظر لها متسائلاً عن التشابه بينهما، فألهته ولم ترد.

تلاشي مراد من ذاكرتها الأنثوية بصفته رجلاً، ومن حياتها زوجاً،
ولم يبقَ بداخلها منه إلا كآثر البقعة السوداء في الثوب الأبيض، كيف

تتطهر منه ومن دنسِه وما أوصلها إليه، ألم يكن الأولى به أن يحافظ على
أسرته ويشدّ من دعائمها!

أهذه حياة التي اختارها لنفسه ويضحى بكل شيء من أجلها؟
كيف يطمع في بيت هادئ وزوجة عاقلة، وأبناء حسان دون تأثر بها
يفعل؟

ولكن صبرًا، فلعل نديم مكافأة أنعم بها القدر عليّ، لا أريد أكثر
من ذلك أيها القمر الجميل.

نظرت في هاتفها فوجدت الساعة تعدت الإثنين صباحًا، فترددت
في الاتصال به، لكنها اتصلت بمقدار إشعاره باتصال، وأغلقت خشية
إزعاجه إن كان نائمًا، ومَرَّت خمس دقائق لكنه لم يتصل بها.

وماذا لو كان نائمًا، إن لي فيه وعليه حقًا، أوقظه وقتما أشاء مهما
يكن متعبًا مُجهَّدًا، أليس كذلك؟ ونظرت إلى القمر بعينين رائقتين
تنضحان بنشوة لم تعدها من قبل، وأطالت الاتصال به، فردّ:
- أحبُّك.

تدغدغت مشاعرُها، وسرت بنفسها قشعريرة هزّت كيائنها، فكم
في تلك الكلمة من نشوة وسعادة:

- سأقول لك اليوم اعترافًا ولا تسألني مرةً أخرى.

فأرهف سمعه ولمعت عينه متوقِّعًا ما قد تقوُّله، فأردفت:

- أحبُّك!

معقول؟!!

كأنه في حالة بين النوم واليقظة، أقالت: "أحبُّك" فعلاً؟

هل نجح للمرة الأولى في حياته، وفي أعظم شيء تمنَّى لو يتحقق
حتى في أحلامه!

ولمَّا لم تأنس منه ردًّا بعد طول صمتٍ قالت قبل أن تنهي المكالمة:

- ألقاك غدًا في السابعة مساءً.

(٥٧)

لم يكن دكتور رحمي يتوقَّع أخبارًا سيئة في يومه المشرق الجميل الذي بدأ بقبلةٍ على خدِّ زوجته وتحية رقيقة من ميسرة على المسيح وهي تذاكر لتستكمل دراستها حتى الدكتوراه.

وصل إلى كرسيه العتيق بجوار النافذة فألقى جسده عليه متنهدًا لفرط سعادته، كان محمود قد سبقه فحضّر قهوته ووضعها على المكتب بالقرب من النافذة، فأشعل سيجارة ورشف من قهوته رشفة، وتأمل سعادته التي غمرته بها ميسرة لوجودها بالقرب منها، وفكّر في الإنجاب، تلك المتعة التي حُرّمها عمره كله، أن يسمع طفلًا يُناديه: "بابا" كما تفعل ميسرة الآن.

لو عرف الآباء قَدْرَ نعمة الله عليهم حملوا أبناءهم فوق رؤوسهم، وقبلوا الأرض واحتلوا بترابها شكرًا لله.

- يا سرحان ..

تفاجأ بالدكتور وفيق واقفاً عن يساره قابضاً على فنجان قهوته،
فأخذه من يده وقال:

- يا رجل أنت دكتور، حاول أن ترتقي في سلوكك وأن تحترم
خصوصيات الآخرين.

- يا رحمي ليس بيننا خصوصيات.

ومدّ يده إلى الفنجان مرة أخرى، فنهزه الدكتور رحمي على ما
يفعل، وقرر عليه أنه "الدكتور" وألا يناديه باسمه مجرداً، ولما تهدأ
عاصفته بعد حتى حضر أحمد سلطان قائلاً:

- دكتور عزت استقال!

- استقال!

نطق بها رحمي بصوت خفيض، وتساءل وفيق باستياء:

- لماذا.. لماذا؟!

- رأيته من بعيد خارجاً من الباب الرئيس له حية كثيفة، وأطال
شعره، فهرولت خلفه وناديته فلم يقف، وقال إنه لم يعد دكتوراً
واستقال.

قال رحمي كأنه يحدث نفسه:

- أنا أعرف السبب، لكنني لا أأتمنئ بعد اليوم على نفسه.

(٥٨)

قدّم لها نديم فنجان قهوة، وللدكتور بلال فنجان نسكافيه.

- أنا مَنْ سيشرّب القهوة، ولك النسكافيه الزيادة يا دكتور.

فضحك الرجل، فانفعل نديم بداخله لتلك العلاقة التي لا يدري
مداها ولا نوعيتها بهذا "الدكتور"، ورمقه بنظرة غريمٍ حاقِدٍ، وطفّت
على نفسه وروحه غيومٌ الغيرة فلم يبصر.
انتبه ليولاند وهي تُحدّثه:

- شكرًا يا نديم.

فهزّ رأسه ساهمًا ولم يرد، ولمحها وهو ينصرف تخرج أجندةً لبنيةَ
اللون من حقيبتِها وتعطيه إياها.

- هذه هي.

ظَلَّ يتردّد بين البوفيه والرّواق الذي يقع فيه مكتبها، حتى رآه خارجاً وهي تُودّعه، فأسرع إلى البوفيه وحمل صينية عليها كوب شاي، واصطدم به عن قصد فسقطت الأجندة، فاعتذر وأمسك الأجندة فقراً "مذكرات يولاند" وأعطاه إياها، ثم تابع اعتذاره وتأسّفه، وعرض عليه مشروباً فرفض الرجل، وهمّ بالانصراف، فسأله:

- حضرتك دكتور بشري؟

- نعم، دكتور قلب.

- وأين عيادتُك؟

فأعطاه بطاقتين، على إحداهما عنوان العيادة ومعرّف أسفلها دكتور جراحة القلب بالقصر العيني، والأخرى: الصديق بلال محمود استشاري علاقات إنسانية.

لم يسمع من قبل عن "استشارات علاقات إنسانية"، فسأله:

- طبيب نفسي؟

فابتسم الرجل وهو ينصرف

- لا ..

وبعد انتهاء العمل في الثانية ظهرًا، والاتفاق أن تلقاه في السابعة مساءً على "الكوبري الدائري" بالقرب من المعادي، اتجه إلى المعادي وجلس على أحد المقاهي ريثما تمر الخمس ساعات المتبقية، فطلب

نرجيلة على غير العادة وقهوة، وأخذ يتابع الطريق في مللٍ مُستثقلًا
مرور الوقت، وكأن الدقائق كسيحة تحبو.

اتصلت به وفاء فنظر في شاشة الهاتف وأمعن النظر في الاسم حتى
انتهى الرنين، مضى وقتٌ طويل لم يتكلما أو يسأل عن مها، لكنها
كعادتها تبدأ بالكلام والصلح حتى وإن كان هو المخطئ!
تُهرول إليه دائمًا وتتأسف لأنها من أغضبته، فاضطرته لسلوكه
السيئ معها!

تؤمن بداخلها أنها تتدين "بعلاقة حسنة مع الزوج" مهما يكن
خطؤه، ومهما يكن سوؤه، لم يكن يعجبه ذلك منها، ولم يرَ فيها امرأة
قط، كان يراها دائمًا "خادمة" لا شخصية لها، تمنى أن تُجَادِلَه في الخطأ،
تصرَّ على غضبها حتى يعتذر، أن يرى فيها مخلوقًا موازيًا له، لا امرأة
دونيةً ينظر إليها من فوق.

لم يشعر بفارق لغيابها، فمنذ سنوات وبينهما "خرس زوجي"
مزعج مؤرَّق، لا يتكلمان ولا يتهاامسان إلا في (الطعام جاهز .. ما رأيك
في طبختي تلك .. الغسيل نظيف .. البنت مريضة .. لا تدخن
المزيد...)

هذا كل شيء!

رنَّ الهاتف مرة أخرى والنادل يضع قطع النار فوق حجر
النرجيلة، فأجاب:

- أهلاً عصام .. عدتُ من الغردقة! حمداً لله على السلامة ..
أجنبية؟ (وضحك) أرزاق .. بالليل إن شاء الله .. سلام.

كانت وفاء على "الانتظار"، فتأفف وأسكت رنينها، ثم لمح
التوقيت، فوجدَه يُشير إلى السادسة فلم يطق صبراً حتى اتصل بها،
كانت بغرفتها أمام المرأة توشك أن تنتهي من هندمة ملابسها، ارتسمت
بأنوثتها في فستان أبيض مرصع بورِدٍ أحمر بأوراقه الخضراء، و"بوليرو"
وحجاب أحمر، فرحت باتصاله وأجابته قائلة:

- لن أستطيع النزول اليوم.

فقام واقفاً، واستنكر قولها:

- ماذا تقولين؟

ففتحت الساعة الخارجية ووضعت الهاتف على التسريحة كيما
يتسنّى لها وضع أحمر الشفاه، وقالت بدلال:

- أمزح معك.

فزفر نفساً عميقاً وجلس ساكتاً، لاحظ ترُدُّد الصوت في أذنه أثناء
الحديث، فسألها: أستخدم مُكبّر الصوت بالهاتف؟ فأجابت:

نعم.

فسألها:

- وأين زوجك؟

فرفعت حاجبها ونظرت للهاتف نظرةً لائمةً لذكره، وقالت
بضجر:

- هو ليس هنا.

لوي عرف الرجل كيف ينتهي في نظر المرأة إلى (هو)!
(هو) عند المرأة ليست في دائرة الرجولة ولا الإنسانية ولا الاهتمام،
إذ إن الرجل يصبح في نفسها كالمريض الصديق ميؤوس الشفاء حتى
عندما يقربها بجسده، تشعر به كدبّات المرض في عظمها ودمها، فمهما
تتاوّه أو تتوجع إنما لصبرها على صديقها المؤلم، وليس نشوة لفحولة الـ
(هو) إن ظنّ ذلك.

- لا تتأخري، أنا هناك منذ خمس ساعات.

فسكتت، واتسعت عيناها تدريجيًا بنشوة مراهقة، ينتظرها منذ
خمس ساعات!

فنظرت إلى الهاتف، ثم أمسكت به وقالت له بصوتٍ حالم:

- سأكون هناك بسرعة الريح.

وانتهى الاتصال، ونظرت لنفسها مليًا في المرأة، طفلة عادت من
غور البلوغ الآثم، خالية من كذب الأنوثة وادعاء السعادة.

إنها تدرك الآن أنها "أنثى"، وكل ما مرّ لم يكن إلا كرسم الورد، لا
رائحة له، بل رجعت مراهقةً صغيرةً، تتدلّل وتكذب على عشيقها
المُلتاع، ثم تهدئ من رَوْعه فتقول الحقيقة بعد كذبة بيضاء.

واستدعت من الذاكرة سلوك المراهقات رغماً عنها، بملابسها
المُتحرّرة من الوقار الزائف، فودّعت الألوان القائمة، حتى العطر الذي
رشته كان "بنك شوغر" لتؤكد هويّتها المراهقة.

ولما انتهت ابتعدت عن المرأة قليلاً لترى قوامها كاملاً وهي تعلق
حقيبتها بذراعها.

ثم أخذت نظارتها وخرجت، كان الطفلان أمام التلفاز بصوت
المرتفع كالعادة يشاهدان الكرتون، ويبد كل منهما طبقاً يأكل منه،
فقبلتهما وخرجت.

لم يسألاها: إلى أين تذهب؟ انتهت هذه العادة ..

سار نديم على الكوبري الدائري مُتمهلاً واضعاً يديه في جيبه ريشما
تنتهي نصف الساعة المتبقية، يرجو ألا يزدحم الطريق فتتأخر، يرمق كل
شيء حوله بسعادة، ولا يفتأ يُكرّر النظر إلى الهاتف للاطلاع على الوقت
وكم بقي.

كأنك قبلها كنت على شاطئ الحياة بلا أمل ولا مجدف، ترجو
الرحيل العصي فلا يكون، ولما شاء لك القدر أبحرت بقارب مُتهرئ
مُمزق الشراع، أترأك الآن على سطح سفينة محكمة راسية، أم على موجة
هائجة تكوّنت من أدخنة خيالاتك السجينة؟!

وقف ناظرًا إلى النيل منتفخ الصدر، يشعر بسعادة لو قُسمت على
أهل المكان لكفتهم، تتردد بداخله بهجة مزينة من صنع الواقع لا من
صنع الخيال المحروم والأمني المعذبة.

دنا موعدهما المرتقب ولم يبقَ إلا القليل القليل، فانشرح أكثر وتهلّل
وجهه حتى علتة مسحة جمال أنثوية، كأنه ينظر للوجود من خلالها، أو
من كثرة تطلعه للصورة التي أهدتها له انطبعت ملامحها في وجهه.

هو يعرف الآن .. يُخلّق بجوار البلب الشادي الذي يمرُّ فوقه، لا
يرى أنه من أهل الأرض أو يُشبهه هؤلاء في شيء، وكأنه أحرزَ ميرَ
السعادة المفقود ويتمتع به وحده .. معها.

وقبل أن يصل إلى اللافتة الكبيرة الموعودة، التفتَ فَرَعًا لآلة التنبيه
العالية المزعجة التي تدقُّ خلفه فتتخى فَرَعًا حتى لا تصدمه السيارة
التي وقفت، فأمعن النظر فيها فكانت هي.

جلس بجوارها ومدَّ يده مُسلمًا، فمدتها على حياء ولم تستو في يده
وابتسمت وأشاحت بوجهها خارج السيارة، وتحركت لا تدري إلى
أين، ولم تسأله إلى أين، المهم أنه معها!

لم تفارق عيناه هذا الوجه الملائكي وتقاسيمه، إنها ليست
كإحداهن إذا تفننت في زينتها وأبدع الشيطان في رأسها فألقى بمُخيلتها
معاني الجمال الأنثوي الذي يشغف قلب الرجل، فيأخذه هاويًا إلى
أسفل معاني الحيوانية الحديثة كما ترسمها (الفتريات)، بل امرأة تبدو

لكل عين كشمس الضحى في مقتبل يوم شاتٍ قد فتت برده ساعاته
ودقائقه. وكأنها قمر في ليلة صيفية مزيّنة، لم يغب عنها إحدى نجومها.

وهي في تاريخها الأنثوي تتصل بالنور من إحدى الوجوه، فكان
هذا النور تجسّد فتحوّل إلى لحمٍ وعظمٍ فكان هي، أو كأن النور أراد أن
يَبْرُزَ للإنسانية في ثوبٍ ويتجسد ليكون أقرب لغةً وفهمًا إلى القلوب
والعقول فكان إهابها، فما تراه منها وفيها وعليها لا يرتبط بالإنسانية إلا
من حيث الاسم فقط.

- أنت جميلة جدًا.

ابتسمت ولم تحوّل نظرها عن الطريق، ازو بكلامك نبتتي لعلها
تُزهر من جديد، ضَع عليها من رحيقك ورُوحك، قل لي: أحبك أكثر،
ارو عظام روعي الهالكة، ونضد نسيج نفسي المتهرئ، فأنا امرأة بين
يديك لا أعرفها، وأتمنى أن أكونها بعدما ينتهي اللقاء إلى آخر العمر.

وتوقّفت السيارة بجانب الطريق بعدما نزلت من الدائري، وساد
الصمتُ بينهما ..

قال بصوتٍ خفيضٍ:

- أريدُ أن أسألك ..

فقاطعته قائلةً:

- تسألني عن الدكتور بلال محمود، أليس كذلك؟

فسكت، فابتسمت وأردفت قائلة:

- تغارُ عليّ؟

لم يرد، وبدأ عليه الضيق، فقالت:

- هو صديق لا أكثر.

وابتسمت، وثبتت عيناها في عينيه، فأشاح بوجهه مبتسمًا لتلك النظرة، فقالت ضاحكةً:

- أنت تحجل؟!!

فنفى ذلك عنه فرددتها عليه فعاد لإنكاره وسكتا، ثم استأنفا الحديث بينهما فسألته عن نفسه وأسرته، عن أبيه وأمه وإخوته، عن زوجته وابنته، عن حياته كلها، فحكى رحلته كلها بلا كذب إلا قليلاً، فقد عاهد نفسه على الصدق والنقاء معها، فهي الحلم والأمل الذي لا يُخدع ولا يُتجمل عليه.

كل شيء ذكّره كان على حقيقته بالأبيض والأسود، فمهما يعشقها، فممن حقّها أن تعرف بحقيقته، حتى لو استبشعت أيّ وجهٍ من وجوهها، ثم تكلمت، فذكرت النزر اليسير عن حياتها، أدرك من أول وهلة أن زوجها ليس جديرًا بها، فمن يبلغ حظه من النساء مثلها فجديرٌ به ألا يدعها تفرّ من يده، ولسببٍ ما لا يعرفه، فاجأته بإخراج صورته من حافظتها وناولته إيّاها وقالت:

- هذا هو .. اسمه مراد.

ابن الكلب السافل، أهذا زوجك؟ كتم شعوره بصعوبة شديدة،
لكنها لاحظت عليه فسألته: ما لك؟

فأجاب:

- لا شيء، أظن أنني رأيته قبل ذلك.

- ربما في الجرائد فهو رجل أعمال.

ليس رجلاً بل كلباً ابن ستين كلب، ضربني وأهانني، وشعر أنه في
ورطة حقيقية، نهى أخت زوجها!

تُرى كيف لو عرفت أنه على علاقة بزوجة أخيها؟

قد تفضح علاقتهما أمامه انتقاماً منه!

- هل يمكن أن تتركني؟

تفاجأ بسؤالها، وقال بتلقائية صادقة:

- قلبي موحد عليك وبيدك مفتاحه، فلن تخرجني منه إلا
بإرادتك.

وقف نديم على درج السلم ليتأكد من الدور الذي يقع فيه المكتب،
فكان هو، فوضع البطاقة بجيبه ونظر نحو اللافتة هُنيئاً التي تُشير إلى
عيادة الدكتور بلال محمود، ثم دارت عيناه في الرواق متلمحاً سبيلاً
للتفاد داخلها فلم يجد، فصعد إلى السطح، الذي يبعد عن الدور

بطابقين، ونظر في "المنور" فرأى نافذة المطبخ مفتوحة، فنزل على
مواسير الصرف الصحي، ودَلَفَ إلى الشقة المظلمة، فمشى بخطى
وثيدة على ضوء هاتفه، حتى وصل إلى غرفة المكتب، وأشعل نورها،
كان يبحث عن الأجندة اللبّنية فراها على سطح المكتب، نسي الرجل
وَضَعَهَا في الدولاب.

"مذكرات يولاند" شعر بخسّة لتجسّسه على أسرارها، لكنه لا
يملك لذلك دفعًا، ولا يستطيع أن يقرر ماذا سيستفيد حينها يعرف
خباياها، فالعلم بذلك جهل وحماسة يرتكبها.

فجلس إلى المكتب وفتح الأجندة، على رأسها اسم الشهر والسنة،
ثم التاريخ واليوم، مرت ثلاث ساعات وهو يقرأ قراءة سريعة كمن
يلتقط للصفحات صورًا بعينه ويخزّنها في ذاكرته، كان وجهه يتلوّن
ويتغيّر من الغضب المُستعر الذي يمرُّ به، ويجزّ على أضراسه، تتفخ
أوداجه، يعصر قبضة يده، فاجأه الدكتور بلال على رأس الغرفة شاهراً
مُسَدَّسه، فوقف غير مبالي بفوهيته، ووضع الأجندة جانباً وقال بصوتٍ
هادئ:

- لستُ لصاً.

تذكره فأخفّض مسدسه

- أنت عامل البوفيه في بنك الشرق!

- نعم أنا هو ..

أدار نظره في الغرفة فوجد كل شيء مكانه كما تركه منذ سويغات،
فوضع مسدسه وقال مُداعبًا بوجه جامد الملامح:

- إذا أتيتَ بعد ذلك فلا تجلسُ فوق المكتب، فذلك يُضايقني.

وجلس إلى كرسيه، وأشار إليه بالجلوس فجلس، وأخرج سجائره
فناول نديم واحدة، ثم أخذ الأجندة فوضعها أمامه ونظر إليها برهةً،
ثم أخرج مسدسه وأشار به نحو رأسه:

- أليس من حقِّي الآن أن أقتلك؟

فسكت ولم يرد، فوضع المسدس جانبًا وأردف قائلاً:

- ولكنني لن أفعلها لأنك ستعذني بألا يخرج حرفٌ واحدٌ مما قرأتَ
هنا لأي مخلوقٍ مهما يكن .. حتى نفسك.

- أعدكَ بشرفي.

- تمام .. أنت أتيتَ لتقرأ هذه المذكرات، وعرضتَ نفسك إمّا
للقتل أو السجن، أليس ذلك ثمنًا باهظًا؟!

- أتكنتم سِرِّي إن صار حُتُّك؟

ضحكَ قائلاً:

- حافظتُ على حياتك، أفلا أحافظُ على سِرِّك!

- إنني أحبُّها .. أعشقُّها بجنون فوق الجنون، أحببتُ أن أعرف
عنها كل شيءٍ، كيف تسير حياتُها بعيدًا عني؟

سكتَ هُنيهةً، ثم أردف قائلاً:

- لأكون البديل الطبيعي لها، ولأتفادى كل شيء يضايقها،
ولأعرف ما الأشياء التي تُسعدُها فأفعلها، والأشياء التي تكرهها
ونُحزُّها فأُتجنبها.

- لم تكن بحاجةً للتجسُّس عليها ..

فسكت، فأردف الدكتور كمن يُلقي نصيحةً لطفلٍ صغير:

- نحن لسنا مضطرين لذلك مع مَنْ منعنا أسرارَه؛ لأنه ليس من
حَقِّنا، لقد سرقتَ مرتين هنا.

فردَّ بصوتٍ كبَّله الحياءُ كطفلٍ صغير:

- لا أدري كيف أعتذر، ولكن .. آسف.

- أنت تعيش حلمًا لا تدري عند يقظتك منه كيف سيكون تفسيره.

- قد يتحقق في الواقع .. أملُ ذلك، ولكن ساعدني.

- للأسف لا أستطيع مساعدتك، أنت حالةٌ من ضمن حالاتٍ

قليلةٍ مُشابهةٍ لا أستطيع مدَّ يدي نحوها.

فنظر إليه بعينين متسائلتين، فأجاب:

- "اخترْ ورقك بعناية قبل أن ترسم حلمك" نصيحة أرَدُّها دائماً

على الشباب المراهق عندما يطلب نصحي سواء في الحب أو اختيار

العمل ..

- تقصد أنني لم ..

- أنت تعرف إجابة السؤال، ولكنك تعلق على القدر أن يساعدك فيما تفعل من خطأ.

فقال ببعض الحدة:

- قد تنفصل وتزوج.

تجاهل "قد"، واستأنف كلامه قائلاً:

- عليك أن تلقي بأحلامك من فوق برج القاهرة .. هذا ما عندي.

وخرج نديم من باب العمارة وهو يتمتم:

ربما لا يتحقق الحلم .. ربما! يكفيني أنني وصلتُ إليها، حققتُ حلمًا خياليًا لو صارحت به "أحمد" أو "عم خير" لاتهموني بالجنون.

حقاً أنت مجنون، وما في ذلك من فخر!

إنك تُعذِّبُ نفسك، تؤلمها كعدوٍ طال به الوقتُ وهو ينتظر سُقوطها في شبابه حتى ظَفَرَ بها، أيُّ إنسانٍ أنتَ، تعيش كفيلسوفٍ في مجتمع خَرَفٍ، أو كمتصوفٍ في وقتٍ جَفَّ فيه التصوفُ، لا تسمع لعصام ولا لذلك الرجل لأن الحقائق تؤلمك، تؤد لو عِشتَ عمرَكَ نائمًا لا تستيقظ من حلمك الباهت، تطيل نومك وتطيل، وتنشر على فتراته الممتدة التفاصيل حتى لا تُصدم في النهاية.

فلا تنزعج إذا عرفتَ في النهاية أنك أمضيتَ أيامك تسير في كذبةٍ
كبيرةٍ مُلوّنةٍ زاهيةٍ خدعت بها عينيك، لا تنزعج إذا رأيتَ الحائط
الأصم يقف في نهاية الطريق شاححاً سامقاً يحول بينك وبين وهمك
وخيالك المريض المُسمّى بالحلم والحب والأمل والطموح، لا تنزعج
وقتها، فقط اضحكُ ساخرًا من بلاهة نفسك وسذاجة قلبك وضلال
عقلك، أو املاً فمك ببصقةٍ، وأودعها وجه ذلك الأبله الذي تراه في
مرآتك كل يوم.

دلف إلى الشقة بائساً، كانت وفاء بمطبخها، ومها على أريكة
الصالة تشاهد قناة الأطفال، فطارت نحوه لما فتح الباب فاردة
جناحيها، وهي تردد:
بابا بابا.

كانت الشقة قد عادت لقواعدها من حيث النظافة والترتيب
والرائحة .. وأيضاً عادت وفاء لمطبخها وأوانيها!
صوتُ اصطكاكها المزعج أصبح يُورِّقُه كمصاب بمرض عصبي،
لا يطيقه، إذ كل نقرة تذكره دائماً بها، بالمختلف بينها، بالمرأة هناك
والخادمة هنا!

من أجلك وابتتك أطبخ، لعنة الله على الطعام والشراب، فهل
خُلقنا لتكون بهائم نأكل ونشرب لنعمل فنعود بالمال لننفقه على الطعام
والشراب الذي يعيننا على العمل!

"أفّ".

قالها وهو ينفث دخاناً كثيفاً من فمه بالشُّرفة، بعدما دَلَّ ابتته على مضضٍ، وألقى تحيةً وقُبلةً بائسةً على خد وفاء.

عودة جديدة للشرفة .. هه!

جدرانها المشوّهة شاهدة عليك، نفر طلاؤها لشدة شعاع الشمس المتراكم عليها من سنين، لمْ لا تياس مثلها وألم الواقع يشقُّ رأسك ويَجِلْدُ ظَهْرَكَ منذ قرون!

ربما تسخر منك الآن، تتحدث أحجارها ويسمونك الأبله ..
المجنون .. العبيط.

بعد كل لقاء بيننا كان يتأكّد لي الحبُّ، أنني بداخلها أمرٌ واقعٌ لا شكَّ فيه، ويتأكّد لي أيضاً أنه لا أمل، حتى لو انفصلت، فلن يتم الزواج، لن يكون تفسير الحلم بذلة سوداء وكوشة وفستاناً أبيض يكسو جميلتك أيها الحمار.

أيُّ شيءٍ من أحلامك الماضية تحقق؟

لماذا تثق بحُلمك الآني وهو أصعبها على الإطلاق؟

لأنني حمار.

- كفى سجائر!

أتاهُ الصوتُ من الخلف، فتجمَّع الغضبُ في حنجرتِه وخرج دفعةً واحدة كقنبلةٍ واسعة المدى عالية الانشطار

- أنت مال أمك، إياك أموت وأستريح، لا تتكلمي مرة أخرى عن السجائر ..

كانت تُراقِبُه من ظهرِه قبل أن تطالبه بشفقةٍ بتقليل التدخين، لم تنزعج مما قال، فقط انفرجت شفتاها بابتسامةٍ ساخرةٍ باهتة، فما أوقد جمراته سوى امرأةٍ يريد التدفئة بها.

لم يستطع إطالة النظر في عينيها، فذهب مُسرِعاً إلى عُرفَتِه فتبعته:
- تزوج إن أردت.

تركته وذهبت، أهي الحاسة السادسة، أم توقع؟
- ماذا قلت؟

- تعالي يا مها كي تنامي.

قامت البنْتُ مُستسلمةً لأوامر أمِّها دون النظر إليه، فانفعل قائلاً:

- مها .. ألن تُقبلي أباك قبل النوم!

ترجَّلت نحوه بقدمين ثقيلتين وألقت على خدِّه قبلةً كالتي وضعها على خَدِّ وفاء!

- إذا أردت أن تتزوَّج فتزوَّج .. أنت حُرٌّ، ولكن احذر فالبنْتُ ما زالت مريضةً.

دلفت إلى غرفة مها واستلقت بجوارها، تاركةً الطعام على الموقد
ساخنًا، فأطفأ إحدى عيونه التي نسيتهَا، ثم نظر لوجهه بمرآة الحَمَّام،
وأطال النَّظَرَ ..

لا تقلقْ، لا تحكم على المستقبل من الآن، قد يتغير شيء ما في
المُعادلة فتكون النتيجة كما تحبُّ، هيا ابتسمْ، اضغط همومك بحذائك
لتقبرها ولا تعود، أنت لها وهي لك!

(٥٩)

كانت يولاند أسعدَ حالاً من حبيبيها البائس، تتبخَّرُ كُلَّ همومها
وأوجاعها في كلمةٍ منه عبر الهاتف، وفي اللقاءات كانت تغتسل بمائه
وبرده، ويزيدها مناعةً أقوى ضد مراد وتفاهاته وصلفه وغُروره، تتمدَّدُ
أنوثتها الناشئة على يديه أكثر، سواء أكان هذا حبًّا، أم هروبًا لذيذًا من
جحيم مضنى! لا فارق، فتلك المرأة التي تتشكل، والأنوثة التي تنضج
في مناخه لا يجب أن تُواجه بتلك الأسئلة السخيفة!

"إنه الرجل الذي أتغنى به كل مساء"

قالتها لجودي فردت بابتسامةٍ قلقة، فأردفت: "أرجوكِ .. إياكِ
وكُلومي ونُصحي!"

لا تريد أن تستيقظ ..!

تريد أن تكمل القصيدة حتى النهاية .. أن تُمَلَّ من معانيها فلا
تُفَيق.

كل صوتٍ غير ذلك هو نشازٌ بغيضٍ يُورِّقُها، آه لو تعلمين يا "جودي" حقيقته داخلي التي لا أخفيها عليك لأنها سرٌّ، ولكنني لا أستطيع البوح بها بخلاً، نعم، فلا أحدٌ غيري أحقُّ بهذه المتعة مني حتى الحديث عنه، أو لعلك لن تفهمي قولي، فالحبُّ ألقى على لساني لغةً أخرى غير التي أعرف، لغةٌ جديدة لا تصلح للخطاب ولا للتفاهم إلا بين حبيبين.

آه لو تعرفين أنه الرجل في عيني وما دونه أشباه وظلالٌ.

في شُرْفتي أجلسُ كل يوم إذا دنا الأصيلُ، وتذهبت الشمس ولمعت بين جدائي أضواؤها المذهبة، أصرحُ معي كوبَ النعناع، وأنظر إلى الطريق الممتدة لعيني، وأفسحُ قلبي لكلِّ نفسٍ يحمله النسيم إليَّ لعله له فأنثني، وتُسرجُ مُهجتي لقُرب القُدم، حتى يتبين لي أنه ليس هو فأرجع إلي الانتظار من جديد والانتظار من جديد..

هل تصدقين أنني أنتظره هو؟ أنتظر نديم!

أنتظره يدخل عليَّ فجأةً وأنا في عُرفتي بابتسامته وعينه الصافيتين، وأنا بمطبخي أحضّرُ له طعامه فيحتضنني من الخلف ويُقبلني، وأنا أقرأ كتاباً أو روايةً فينزعهما مني بمزاحه اللطيف.

آه .. تعرفين أنه يحبُّ الروايات والكتب مثلي، إنه قارئ أكثر مني، لا يحترم المرأة غير المثقفة، وله رأي في المرأة مرّته له دون مناقشة، قال لي: "المرأة هنا تُقدّم نفسها للرجل كفريسةٍ لأنها تعلم جيداً ما عندها،

فتتزيّن وتبتذل وتقصّد أماكن الرجال كي تقع في نفس أحدهم
فيتزوجها، لكنها تجهل ما الذي يمكن أن تكونه؟ وكيف ستكون لو
اعتبرت نفسها مخلوقاً كاملاً مُستقلاً مثقفاً واعياً؟ وكيف تُسهم في تقدّم
المجتمع، لا في زيادة أفرادِه وفقط!"

كان لقاءنا الواحة التي نلوذ بها كلما اشتدّ علينا هجير الواقع،
وقيظ الشّوق وحرقته، فكان مجلسنا روضة غناء ذات أشجار باسقة
يانعة على حافة بحيرة عذبة رائقة يطوف بها النسيم فيتخلل كل غصن
فيها، وتطرب له كل ورقة، آه لو أمكننا السّفر إلى الخيال، وقاربنا مدن
أحلامنا، واقتربنا من قصورها وفتحت لنا أبوابها وقيل لنا: ابقيا هنا.

في إحدى المرات أبطأت عليه في الرد واللقاء، وكنت مُتغيبّة عن
البنك، كنت أختبر -كمراهقة- مدى شوقه إليّ، ولما التقينا قال لي:

- كانت الأيام الماضية ثقيلة على النفس ثقل الجبال.
فابتسمت مُتدلّلة وسألته عن الذي أبطأ سرعتها، فتنهّد بحرقة عاشق،
كأنما يتنفّس قلبه من لوعة، وأخذ يشرح لي أن الوقت في حياة العاشق
ليس كغيره من الناس، إذ إنها لا يستقيمان على علاقة، فمرة يكرهه أشدّ
الكره، إذ إنه يقف حاجزاً بينه وبين معشوقته، وفي ذلك الحين لا يسعُ
العاشق إلا تسور حائطه البغيض فيرى بخياله لقاءنا، ويشعر بهجته،
ومرة أخرى يجد نفسه عند أعتاب الوقت راجياً ألا يمرّ، يتوسّل إليه بها
وما يعلمه في نفسه من حبّ واشتياق ولهفة وذلك حين يلقاها.

فابتسمت لشرحه، فبادلني صفاء ابتسامتي حتى هدأت على شفّتين
مرتجفتين تتناجيان، وسكنت في عيون متألّثة يتجلى فيها الشوق
واللهفة، ومد يده بلطف حتى لامست أنامله أناملي، فرفعتُ كفي حتى
تتشابك الأيدي، فقال لي: "أحبُّك"، فنظرتُ في عينيه فقالتا لي صدّقيه
فأنتِ فاتنته وهو مجنونك.

ثم أمسك بيدي، وقبلها ظاهراً وباطناً بشفتين حارّتين كاللّتين
وصف لي من قبل فتنهّدتُ، ورجعت بظهري لأستند على الكرسي،
فكأن بيني وبينه مسافة لم أقدرها هويت خلاها، وما اطمأنتُ حتى
لامس ظهري واستشعرتُ دِفْأه، فأغمضتُ عيني وتنهّدت .. فقلتُ له:
"صف لي التنهّد" فقال: "هو نفس لهذا القلب الذي يتميز عشقاً،
ولولاه لانفث القلب".

ففتحتُ عيني مُتعبجةً مذهولةً لرده، هذا الوصف سمعته أو قلتُه
من قبل في أحد أحلامي، ورجعتُ بظهري مرةً أخرى إلى الكرسي وقد
أيقنتُ أنه هدية القدر لي، ثم قلتُ له: أريدُ أن أهديك شيئاً، ولكن أي
شيءٍ أهديك، فاخترَ مرآتي الصغيرة وخُصلةً من شعري.

وظفّقنا نذهبُ إلى كل مكانٍ أحبيته في صغري وتمنيتُ زيارته في
كبري، ولم يكن يجادلني، كان يُشعّرنِي دائماً أنه معي ليُسعِدني، لا ليُلقي
عن كاهله "واجباً أُسرياً" بتنزيه الأسرة والتسرية عنها.

لكن ..

كنت دائماً أخرج مجروحةً، تُصيّني غُصَّةٌ إذا حكى لي كيف هو في بيته وأسرته، تعرفين .. إنه يشارك زوجته في إعداد الطعام، يغسل الأطباق، ليست لديه مشكلة أن يأكل طعام الأمس، يوطئ ظهره لابنته كحمار لتركبه، ينزل إلى السوق ويشترى الخضراوات، كل ذلك أقارنُه بما كان يحدث معي فأتألم، أتوجع، أتساءل: لم لم يفعل ذلك معي؟ لم جعل حياتنا جحيماً؟ كنت معه كيفما يريد وأكثر، ولم يكن لنا كبعض ما نريد أو أقل، لم يكن شيءٌ يؤثر فيه من لُطفي ورعايتي، كنتُ كمن يرسم الموناليزا لأعمى، أو كمن يعزف كسّارة البُنْدُق لأصم، كل شيءٍ كان يضيع هباءً.

وكان كالبرق، أخافُه دائماً، إلا أن البرق يُنشئ في النفسِ خوفَ الصواعق ورجاء المطر، لكنني لا أرى له غيثاً ولا ندىً، ولا يتفصد زئيره وغضبه عن شيءٍ نافعٍ لنا.

حُجَجُه واهيةٌ مثله: العمل وضغوطه ومشكلاته وصراعاته في المال، إن المرأة لا تحتاج من المال أكثر مما يريدُه الطفل الصغير من طعام، إضافةً إلى دفء الصدر الذي يرضعه وحنانه وطيبته ولُطفه.

لكن كيف صبرتُ؟ لا أدري .. وعرفتُ أن أكبر عدوي هو أنا، لم أدرك هذه الحقيقة إلا متأخراً. وأدركتُ أن العالم لا يستقيم بأيِّ حالٍ مع المثاليين، فليسوا أكثر من وقودٍ تُنضجُ بهم الإنسانيةُ مأساتها بلا دخانٍ يدر الدموع، إذ إنهم خارجون عن حدِّ المألوف، والعالم لا يتعاطفُ مع السُّذج كما لا يتعاطفُ مع فراء الخروف المُدرَّج في دمه في وادي الذئاب.

(٦٠)

لم يختلف كثيراً اجتماع مراد هذه المرة بمجلس إدارته عن المرات السابقة منذ ثلاثة شهور، كان عصبياً حاد المزاج والقول، وصل إلى السبِّ واللَّعن على إثر تلفُّظ أحدهم بكلمة "استحواذ".

شركة "لهب" التي لا يعرف عنها أحدٌ أيَّ شيء، أو يسمع بها رجلُ أعمالٍ، نهضت في أقل من شهرين، لها مصنع أو مصنعان، ضعيفة الإنتاج ذات رأس مالٍ ضخيم، وكلُّ عملِها مُنصبٌّ على شراء أسهم شركة "مراد" للسيراميك حتى أوشكت على الاستحواذ التام على أصول الشركة، ولم يخف على مراد من وراء ذلك، الحربُ القذرة بدأت، ولن تنتهي حتى أتحمّل قذارتها كاملة وأتلوث بها، أسأتُ تقديرَ الرجل، واغتررتُ بقدراتي في البداية.

لكنَّ أحدًا لم يُعلّق على إساءاته المتكررة في تلك الاجتماعات، نظرًا لما يمرُّ به من ظروفٍ نفسيةٍ ظاهرة على جوارحه، أحدثها وصول

صندوق يشبه الطرد منذ أيام، عليه لاصقة عريضة كُتِبَ عليها "خاص جدًا".

ولما فتحه وجدَ رأس هشام وبجواره ورقة، فأصابته نوبةٌ دُغِرَ وهَلَع، وتقدَّم بحذرٍ تجاه الصندوق فأخذ الورقة: "إذا مات الوزير تبعه الملك ولا بد، ولكنني لا أراك سوى بيدقٍ حقير، ماذا لو أبلغتُ البوليس الآن أثناء قراءتك لهذه الورقة؟!".

ح.س

فأغلق الصندوق وحمله بين يديه ووضعهُ في صندوق سيارته، ثم أوغل في الصحراء، ونزل منها وترجَّل في عُمقِها دون التأكد ألا أحد يتبعه، وخلف تلٍّ صغير حَفَرَ حُفْرَةً بيديه وغَيَّبَ رأس هشام.

وقضى أغلب أوقاته ما بين الشركة وشقة المعادي، وأفرط في تناول الخُمور والمخدرات، حتى نَحَفَ جسده قليلاً، ولازم الاحمرار عينيه دائماً، وارتسم حولهما هالتان دكناوان، وانطفأ بعض بريقه المعتاد، ولم يعد يزور حدائق الأهرام إلا نزرًا يسيرًا في مراتٍ مُتباعدةٍ زمنيًا، حتى إن يولاند كانت تجيب الطفلين إن سألاها عنه قالت: "مسافر"، ولما نبهته لذلك قال: "قولي لهما مات .. كل شيء سيتهيئ عمًا قريب".

وغداً لا شيء يُذكر، ولم تُثر كآبته في نفسها شيئاً وهو خارج من الفيلا يحمل بعضَ الملابس التي أتى مخصوصاً لأخذها في غيابِ الأولاد، فتبعته بوجه جامدٍ الملامح وحاجبٍ مرفوع، حتى انتهت

خطواته الثقيلة على درج السلم الرخامي وصوت اصطكاك الباب الخارجي للفيلا، فنظرت من شرفتها تجاه السيارة المجاورة لشجرة الياسمين الذابلة حتى خرج من الفيلا وانعطفت السيارة من الشارع الممتد أمامها وغاب عنها، همّت بالدخول فانتبهت لأحواض الورد بجوار سور الفيلا، لم تر سمة الطين تحيط بألوان الزهر، بل جذوع دقيقة مهشمة، ودوائر ترابية رمادية مستكنة لضوء الشمس، أما شجرة الياسمين فكما هي، جذع يبكي ذكرى الربيع والمطر .. هل أخطأت شجرة الياسمين إذ لم تُظللّه بأغصانها .. العارية!

لم نجدُ بدءاً من توظيف "مديرة منزل"، فالولدان بحاجة ماسة لوجود أحدٍ بجوارهما نظراً لتغيّب مراد المستمر في شركته، وتغيّبها في البنك!

ولما سألها عن تصرفها دون الرجوع إليه قالت: "نحن نتغيّب عنهما وقتاً طويلاً، وهما بحاجة لمن يهتم بطعامهما وذهابهما وإياهما من المدرسة".

فقال بغيط مجّهّد: "أحضرت لهما أمّاً بديلةً؟"

لم تجادل وقتها، "هم بحاجة إلى أبٍ من زمن"، قالت لنفسها. ثم تركته يعتصر أصابعه المرتعشة بعصبية مفرطة، ولم يُثر الموضوع بعد ذلك وكأنه لم يكن، وعلى أثره استشعرت قوة جديدة دفينة انبعثت بداخلها لا تدري كيف ولا أين كان اختبائها، فلو كان الوقت مختلفاً

ربما كان أنفذ رصاصته هذه المرة برأسها بدلاً من الكاسيت، فوقفت أمام مرآة عُرفتها بشموخٍ وأنفةٍ، يعلو وجهها سعادةٌ طاغيةٌ.

"هند" كان اسم المربية التي أحضرتها، امرأة في الأربعين من عمرها، ممتلئة الجسم، هادئة الملامح، طيبة الطباع، روحها مريحة، كأنها ما خلقت إلا لرعاية الأطفال، تعجبت يولاند من قُدرتها على إضحاك الطفلين ومُلاطفتيهما وحُسن العناية بهما مع اختلاف البيئة هنا وبيئتها الريفية التي انحدرت منه من شمال مصر، فسألتهما عن ذلك، فقالت بتلقائيةٍ: "ورائي أطفالٌ أيضًا"، لم تفهم وقتها ما تعني فصرفتها.

تخفت أخيرًا من عبء الأطفال، وشعرت بخفةٍ تسري بروحها وهي تستقبل مرحلةً جديدةً في حياتها، ولكي تتأكد أكثر من صحّة طريقتهما ذهبت للدكتور بلال محمود، فلاحظ فيها المرح والسعادة، فسألها:

- ألم يحن الوقت لتقولي سرّ السعادة الجديدة؟

فردت بابتسامةٍ هادئةٍ:

- ومن أين عرفت أنها جديدة؟

- على ضوء ما سلف (أشار إلى الأجندة بيده) فلا شيء مُبهج ..

ضمت رجليها أكثر حتى التصقتا، ووضعت كفيها على الحقيبة فوق قدميهما، وانكسر نظرها نحوهما بخجلٍ كمراهقةٍ وهي تقول:

- إنني .. أحبُّ ..

- ومنْ سعيد الحظ الذي أوقع بامرأةٍ مُتزوجةٍ؟

سألها باستنكار، فرفعت حاجبها وهي تنظرُ إليه مُستنكرةً أيضًا
طريقته:

- ومنْ قال إنه رجلٌ آخر غير ..

- المرأة لا تعترف بالحبِّ دائماً حتى لزوجها وأبنائها، فحبُّها دائماً
يظهر عملياً في القيام الجاد على شئون الأسرة التي تعرفينها جيداً ..

- أنتُ مُخادعٌ، لستَ صديقاً ولا يحزنون.

قالتها وهي تقومُ وتلتقطُ الأجندة بعنفٍ من فوق المكتب، فهبَّ
واقفاً وألقى على وجهه ابتسامةً وهو يقول:

- لأنني صديقٌ يجب أن أتكلَّم معك بما يُفيدُك.

- أنا لستُ طفلةً.

فاتسعت ابتسامته وقال بهدوءٍ:

- أعرفُ .. فضلاً منك، اجلسي.

فجلستُ، وسكتا برهةً، وضعت الأجندة مكانها وقالت:

- أنت لا تعرفُ ما حلَّ بي فيما مضى وإلى الآن، قرأتَ الكلام لكن

لم يصل إليك في أيِّ ظروفٍ كُتِبَ، ولا في أيِّ حالةٍ نفسيةٍ كُنْتُ، غاية ما
قلت: "لا شيء مبهج"، تُهاجِنِي لأنك رجلٌ مثله ..

فقال مُدافعًا:

- لا .. طلبتُ منك مرارًا التواصُل معه لكنكِ رفضتِ.

- نعم رفضتُ، وأكرّرُ رفضي دائِمًا، فجراحُنا مِلْكٌ لنا، لا ينبغي البوح بها، ولا أن نتسول بها العطف من غِلاظ القلوب الذين وطئوا دمائها النازفة ومضوا عليها في سكون.

- أنا أقدرُ ما مررتِ به، ولكن لا بديل عن لقائه، هكذا نُحلّ الخلافات.

فقالتُ ساخرةً:

- "خلافات" هه!

وضغطتُ على شفتيها السفلى، وكأنها تقضمها، ونظرتُ إليه بعينين غائمتين، وأردفتُ:

- يَدَاكِ في الماء البارد ..

- قرأتُ كلمةً لأحد الأدباء تقول: "بعض الصواب في الخطأ، لا يجعل من الخطأ صوابًا".

- ماذا تعني؟

- لا شيء، مجرد كلمةٍ أدبيةٍ تُعجبني.

فحدجته بعينين مستدبّتين وقالت بصرامةٍ:

- لا .. أنت لا تقصد ذلك أيها الـ .. صديق، في مرةٍ سابقة ذكرت شيئاً عن تباعد العينين، وأثره على المخ كـ ... معلومةٍ طبية، لكنك كنت تقصد أن أظلل فيما أنا فيه بالقرب منه لأجل الطفلين، والآن تذكر (معلومة أدبية)، لتهوّن ممّا أنا فيه، وأترك مَنْ أحببتُ.

- بالعكس .. ما أنت فيه شيءٌ يُرثى له، ولأصارك بأمر: إنني كرهتُ زَوْجَكِ ولم أرهُ!

هدأت قليلاً بعد تصريحه بكرهيته لمراد وتضامنه معها، ثم طفرت عيناها بالدموع وقالت:

- يا رجل، شجّعني على فراقه.

- أنت لا تريدين فراقه، ولعلك تذكرين حوارنا قبل ذلك بهذا الشأن.

- لكنني الآن واثقة أنني أعشق نـ ..

فقال بنبرة هادئة:

- أنا أقدرُ ما مررتِ وتمثّرين به، ولكن لا أستطيعُ تشجيعك للاستمرار في علاقةٍ كذلك لأنها خاطئة.

- قد نفعل الخطأ أحياناً مضطرين، ونحن نتمنى أن لو أُتيح للصواب نفس مساحة الخطأ أو بعضها.

- مهما تشتدّ النار على الذهب يظلُّ كما هو .. لأنه عصيّ على النار أن تُبدّل طبيعته.

- لست بحاجة لنصائحك ..

أخذت الأجنده مرة أخرى وعلقت حقيبتها في يدها ثم أردفت:

- ولست بحاجة للحضور هنا مرة أخرى، أنا أحبه وهو يُحبني،
يكفيني ذلك.

استوقفها قبل خروجها:

- لن تكوني مُتصالحة مع نفسك.

انفجرت ضاحكة، وتركت مقبض الباب، فاندesh لها، وقالت
وهي تواجهه:

- باستمرار كنت أنام باكية وأنا مُهانة، ين جسي من الضرب،
وقتها لم أكن مُتصالحة مع نفسي فعلاً، وكنت أتساءل: ما الذي يُقيني؟
والآن أنا أعرف رجلاً غيره، أحبه ويُحبني، يُريد أن يكون زوجي وأنا
أريده، وأيضاً لست مُتصالحة مع نفسي، ترى يا دكتور .. أي المربعين
أولى بالمكث فيه؟

فهز رأسه قائلاً:

- أمل أن يهديك عقلك إلى الصواب.

كانت لهجته حانية ناصحة صادقة، فقالت ساخرة:

- شكرًا يا أمي.

(٦١)

مرّ أسبوعٌ ولم تحضر إلى البنك، ولا تردُّ على اتصاله ..
عم خير لا يعرف السبب، يسأله عنها فيردُّ: "العلم عند الله يا
ابني".

"ماذا حدث" يسأل، يتردّد السؤال داخله بقوة فيحدث خدوشًا
بجدران الهشة بعد كل يوم لا تمر فيه أمام البوفيه كالعادة، ففكر أن
يذهب إلى حدائق الأهرام ينتظرها على بوابتها، ثم عدل عن ذلك،
"ولكن ما العمل وكل الطرق مغلقة؟"، فأعطاهم مهلة لا تتعدى
يومين، وسيذهب حيث هي .. وغريمه اللدود!

وفي سكون الليل كانت يقظة عندما أطلق هاتفها رنينًا يُنبئها
باستلام رسالة جديدة، فأغمضت عينها بشدة، وتجرعت ريقها
بصعوبة، لعلها بالمرسل العاشق الذي أسهره حبُّها، لم تمتد يدها

للهااتف لترى ماذا يقول، ثم فتحت عينيها بعد هُنيهةٍ، ففاضت دموعها، فتأففت، دموع باستمرار، "مللتُ هذه الدموع"، قالت لنفسها. ثم تناولت الهاتفَ بتحدٍّ أرعن، فقرأتُ رسالته: "إن لم تأتِ في الغد، سأتي أنا إلى حدائق الأهرام".

فابتسمتُ وأمعنت النظر في الرسالة بُرهةً، تسلَّلَ إليها صوتُ عمر ينادي ورأسه لأسفل في بهو الفيلا حيث غرفة هند:

— ماما هند .. ماما هند!

فاتسعت عيناها دهشةً واستنكارًا، وتمتمت: "ماما هند!؟" فقامت مُسرعةً، وأجابت المربية من أسفل:

— نعم يا حبيبي.

— أريدُ أن أشرب.

— حاضر.

"حاضر" كأنها تسمع هذه الكلمة للمرة الأولى في حياتها، فجثت أمام عمر المنتظر ..

— ماذا تريدُ يا حبيبي؟

فقال الطفل بتلقائيةٍ وهو يأخذ كوبَ الماء من هند الناعسة:

— لا شيء، طلبتُ كوب ماءٍ من ماما هند.

— ولكن أنا ما ..

قاطعها بلا مبالاة وهو يردُّ الكُوبَ لهند قائلاً:

- شكرًا ماما هند.

ودلفَ لحجرتِه دون قُبلةٍ، وانتظرت هند أيةَ أوامر منها، فقامت ونظرت إليها بعينين تلتمع فيهما الدموعُ ..

- أتؤمرين بشيءٍ يا هانم؟

فجرت نحو حجرتها وأغلقتها، وارتمت على الفراش باكيةً مُتَحَبِّةً، شعرت فجأةً أنها سُرقَت، سُرقَ منها أعزُّ ما تَمَلِّكُ، الشيء الوحيد الذي تحمَّلت لأجلِه أَلَمَ السنين وهوانها، وخاضت لأجلِه كل حُرُوبها .. سُرق.

وفي الثامنة صباحًا كانت على مكتبها، وكذلك هو بالبوفيه ينتظرُ، مرّت ساعةٌ لا يستجيب لأمرٍ من أوامر عم خير، حتى انبعث الصوت من الإنتركوم:

- فنجان قهوة على الريجة يا عم خير.

كانت اللهجة جادةً أكثر من اللازم، "يا عم خير" أرسلت مشفرةً ففهمها، لكنه تساءل: ماذا حدث؟

ولمَّا وضعها خير على الصينية جاءه صوتُ المدير:

- خير .. تعالي بسرعة!

فامتعض الرجلُ وأعطى نديم الصينية وقال:

- خُذْهَا إِلَيْهَا وَلَا تُغْضِبْهَا، واعتذر عني.
"أَغْضِبْهَا"، آه لو تعلم أيها العجوز كيف هي هنا .. في قلبي!
- قلتُ يُخْضِرُهَا عم خير.
قالتُها بلهجة جامدةٍ دون النظر إليه، فقال بقلبي:
- طلبه المدير في أمرٍ عاجلٍ ويعتذر إليك.
قالت دون أن ترفع عيناً عن أوراقٍ أمامها:
- شكراً.
قلتُ بمعنى انصرف، فوقفَ وسألها:
- ماذا حدث؟
فرفعت عينيه وقالت:
- سأقابلك اليوم في نفس المكان ونفس الميعاد بالقرب من المعادي.
لم تكن لهجتها كما سَبَقَ أثناء ترتيب اللقاءات الماضية، فاستشفَّ أن خبراً بائساً بانتظاره، فنبلة جديدة على وشك الانفجار ستطيح بالطريق ومعاله ليتوه من جديد، لكن هذه المرة ستكون الأخيرة، سيضع سيف النضال مع الحياة، سيستكين وينكس رايته حُزناً لآخر العمر .. فلا جدوى بعدها لأي شيء.

أَتَتْ فِي الموعِدِ المُحَدَّدِ، لَمْ تَسْتَطِعِ كِتْمَانَ سَعَادَتِهَا لِرُؤْيَيْتِهِ عَلَى كَمِّ مَا
يَكْتَنِفُهَا مِنْ ضَجِيجِ الْأَفْكَارِ وَتَلَاطُطِ المِشَاعِرِ، فَمَدَّتْ يَدَهَا مُسَلِّمَةً،
وَعَلَى شَفَتَيْهَا ابْتِسَامَةً مُجْهِدَةً، فَابْتَسَمَ وَجَلَسَ بِجَوَارِهَا، وَشَعَرَ أَنَّ بَعْضَ
أَفْكَارِهِ كَانَتْ خَاطِئَةً، وَتَقْدِيرُهَا لَمْ يَكُنْ فِي مَحَلِّهِ.

- وَحَشْتَنِي.

لَمْ تَرُدْ، وَاكْتَفَتْ بِابْتِسَامَةٍ، فَأَرْدَفَ قَائِلًا:

- تَعْرِفِينَ .. لَوْ أَقْسَمْتُ أَلَّا رَجُلَ أَحَبَّ امْرَأَةً مِثْلَ مَا أَحْبَبْتُكَ
لَكُنْتُ صَادِقًا، أحيانًا أَتَأَمَّلُ قَلْبِي وَأَسْرَحُ فِيهِ مَفْكَرًا، كَيْفَ لِهَذِهِ الْقِطْعَةِ
الصَّغِيرَةِ أَنْ تَتَمَدَّدَ وَتَتَسَّعَ لِكُلِّ هَذَا الحُبِّ، أَتُخِيلُ أحيانًا أَنَّ قَلْبِي
كَالْقُنْبَلَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَنْفَجِرُ فَتُحْدِثُ دِمَارًا كَبِيرًا، وَكَذَلِكَ قَلْبِي لَوْ
انْفَجَرَ سَيَفِيضُ حُبًّا لَكَ يَمَلَأُ الْأَفَاقَ بِلَوْنِهِ وَلَوْنِكَ.

- وَيَغْرُقُ النَّاسَ فِي الحُبِّ!

- أَكِيدُ .. ذَلِكَ أَفْضَلُ مِنْ غَرَقِهِمْ فِي الكِرَاهِيَةِ الَّتِي نَرَاهَا.

انْطَفَأَ وَجْهُهَا قَلِيلًا وَقَالَتْ مَهْمُومَةً:

- الحُبُّ كَالْكَهْرْبَاءِ، تَضِيءُ حَيَاتَنَا، وَتَقْتُلُنَا أحيانًا!

عَادَتْ إِلَيْهِ شُكُوكُهُ وَهُوَاجِسُهُ فَجَاءَتْ، فَتَسَاءَلُ:

- مَاذَا تَقْصِدِينَ؟

- لا شيء، ولكن الحبَّ كالماء أيضًا، يحملنا من مكانٍ إلى مكانٍ،
وليس لنغرق فيه فنموت!

فقال مُلاطِفًا:

- أنا أفضِّلُ الغرق فيه حتى وإن طلبت النجدة فلا ينقذني أحدٌ.

أشاحت ببصرها تجاه الطريق، وقالت دون أن تلتفت:

- إن كان لا مفرَّ من الموت غرقًا فأنا أفضِّلُ الكراهية ..

اتسعت عيناه دهشةً لما قالت، وانتظرها تُفسِّره، لكنها سكّت،

فقال:

- تُفضِّلين الكراهية .. بعد أن عرفتني؟

نظرت إليه بشفتين حزيتين لكنهما تبسّمان سُخْريَّةً من واقعها:

- الموت بالكراهية أفضِّلُ لأنه مرة واحدة، فمراة الكراهية

وضيقها تُعجِّلُ الموت، أما الموتُ بالحبِّ فهو مُتكرِّرٌ بشكل يومي،

يجعلك تحتضن النار الحارقة بالحبِّ، وتشرب السُّمَّ بالحبِّ، وتُطلِّقُ على

رأسك الرصاص بالحبِّ، وتُشعلُ النارَ في جسدك بالحبِّ ..

اشتدَّتْ عصبيَّتها في آخر كلامها ومع نهايته انفجرت باكيةً،

فاقترب منها ووضع رأسها على صدره، فدفعَتْ يده من فوق كتفها،

فوضعها ثانيةً فسكنتُ على صدره، وظلَّتْ تبكي وتتنجَّبُ، حتى انقطع

بكاؤها بصعوبةٍ، وهو يحاول تهدئتها وإسكاتها، ويُربّت على ظهرها.

قال بصوتٍ مهمومٍ:

- أعرف أن الأولاد يستحقون أكثر من ذلك، يستحقون دائماً أن
نموتَ لأجلهم.

- ولكنني أحبك ..

أغمض عينيهِ وتوقفت يده على ظهرها، هل قالتها بالفعل.

تابعت قائلة:

- فهل أخطأت يومَ أحبيبتُك!

لم يردّ، يحبُّ امرأةً متزوجةً وتعترف له بحُبّها.. هل يجروء على
إجابتها بنعم.

لأول مرة يشعر أن الحبَّ لعنةٌ لا يستطيع أن يستمتع به حتى في
الخفاء خلصة دون أن يراه أحدٌ، فقامت من على صدره ووجهها مبتلّ،
وما زالت عيناها مثقلتين بهائهما:

- لماذا لا تردّ، أنا أخطأت؟

فظلَّ صامتاً ساكناً، فأردفتُ:

- إذن كنتُ مخطئةً .. فعلاً أنا مخطئةٌ .. وأنتَ مُخطئٌ في حقِّ زوجتِكَ
لأنك ..

فقاطعها بحزم:

- لسنا مُحْطئين!

زَمْ شفْتيه وهو يحوّل بصره نحوها، بينما رَسَتْ عيناها عليه وانقطع
ماؤهما، وظلّا صامتين بُرْهةً، يدور بين العيون حديثٌ انتهى إلى أن
ضمَّهما بين ذراعيه، فأخذت تَكْرِزُه بيدها وهو يردد:

- لا عليك حبيبتى .. لسنا مُحْطئين.

يؤمن أن الرجل مهما يعرف من نساء، فستظلُّ امرأة ما في خياله
هي المثال الأسمى، والجمال الأقوم والمثال المتفرد، فربما يُقابلها وربما لا،
وذلك الذي يدفعه للنظر إلى كل امرأة يراها في أي مكان، فيمعن النظر
في الصدر والأرداف والقوام والخصر ولون العين والشعر، إذ إنها
متفرقة بشيء منها في كل امرأة.

حتى رآها، فصدّق الواقع رَسْم الخيال، وأيقن من نظرتِه الأولى أنها
هي .. امرأته الخيالية. فسعى نحوها بقلبٍ جريءٍ، قلب وَضَعَ فيه
الحب كل معاني الشجاعة، وقتل في نفسه خوفاً ما قد يُصيبُه من محاولة
الاقتراب من هذه المملكة الأنثوية المحاطة بجيش الملك.

"أنا لست مُحْطئاً، لست مُحْطئاً في حقِّ أيِّ إنسانٍ حولي .. إنني أحبُّ
.. ذلك كل شيء".

ولكن هل تُجدي تبريرُك بمرور الوقت، هل ينفع صوتُك
الصارخ الأهوج في وجه الضمير.

دائمًا لا نعجز عن إيجاد المبررات إذا كنا نحن المخطئين، أما إن
سُئِلنا عن غيرنا، فأيضًا لا نعجز ولكن في إيجاد دلائل خاطئة. "نحن
مخطئان" قالها لنفسه في جُرح الليل وهو يسير مُتمهلاً على طوار
الكوبري الممتد فوق النيل، ولكن ماذا... أفعل، أيمكنني تركُّها..
تركُّها؟ بعدما وجَدْتُها ونَعِمْتُ بِقُرْبِها وبادلتي الحبَّ.. أتركُّها؟! لكن
قلبي ليس مطمئنًا، فهي بداية لشيء سيئٍ أخشاهُ، وسأدفعه عني ما
استطعتُ. هي لي، أمَّا زوجها فليس أكثر من ورقةٍ.. ستُحرقُ عمَّا
قريبٍ.

إنه ضيق الحياة، أو فرص الحياة الضائعة التي ترحل عنا كل يومٍ
وهي تنظر لنا من أعلى باحتقارٍ دون ذنبٍ فعلناه، أيمكنُهما الاحتفاظ
بالفرصة السانحة التي نسيتهما الحياةُ الغاربة في رحلها، أم يقذفانها
لتلحقَ بباقي الفرص؟!

(٦٢)

قالت لها نور أيضًا: ماما هند!

فتحفظت كقطعة غاضبة تمتدُّ الأيدي لأخذ صغارها، فهأت في وجه الجميع، وأولهم نور وعمر، أوقفتهما أمامها وكانت غاضبة حازمة لم تدع لأحدهما مجالاً للرد: "أنا أمُّكم، لا أمَّ لكم سواي، أما هذه فخادمة تتقاضى أجرًا لقاء وجودها هنا".

وصرفتهما من أمامها، وطردت هند، وعلى أثرها تقدّمت بإجازة قصيرة مدة شهر من البنك فوافق عليها دكتور عادل عبد المقصود مدير البنك بصفة ودّية، وتفرّغت لرعاية الابنين وإزالة ما علّقَ بنفسيهما خلال الفترة الماضية حتى وصل بهما الأمر أن يقولوا لامرأة غريبة لم تتجاوز معرفتهما بها شهور يا ماما!

وفي أحد الصباحات طالعت "الأهرام"، وتقلّت بين الأخبار حتى وصلت إلى الحوادث، فوجدت خبر "القبض على القاتل

الصغير"، جحظت عيناها فجأة لما رأت الصورة، تعرفه جيداً، علي فؤاد ابن نشوى عبيد زميلة الجامعة، تزوجت في صفها الأول، وطلّقت بعد التخرج، وأثناء زيارتها ليو لاند قبل زواجها لم تستطع فهم شيء من أسباب الطلاق لقلة خبرتها في الأمور الأسرية وجهلها بأخلاق الرجال، وكيف تتغير بعد الزواج، قالت لها: "تزوج بعد أن طلقني بأسبوع"، فقالت لها: "مسكين علي ومسكينة أنت ستعيشان بمفردكما"، فضحكت نشوى، وقالت: "ومن قال إنني سأعيش بمفردي، سأتزوج بعد انقضاء العدة".

تزوجت بعد انقضاء العدة بالفعل، وتركت "القاتل الصغير" مع جدّته العجوز، ونشأ بلا أب ولا أم، بعد أن أنجب الاثنان وكونا أسرتين جديدتين، وانشغلا بحياتيهما.

عرفت من تفاصيل الخبر أن القتل حدث خطأ، كان ابنها يتشاجر مع صديق له على سيجارة حشيش! انقبض قلبها، وفاض خوفاً وقلقاً على نور وعمر وهي تنظر نحوهما وهما مرتديان زي المدرسة مبتسمين يلوحان لها بكفين رقيقتين: بالاي.

اتصلت بمراد فلم يرد، ظهر اسمها "يولا" على شاشة هاتفه فأغلقه، لوجوده بمكتب حمد السعيد بحضور سوزي التي كانت جالسة فوق المكتب واضعة رجلاً على رجل في احتقارٍ وازدراءٍ لمراد، فقامت وأبدلت ملابسها واتجهت إلى البنك.

في الطريق اتصل بها نديم فلم ترد، كانت تقسم بالله كل صباح أنها لن تتصل به أو ترد على اتصاله، واتصلت بجودي:

- قابليني اليوم بالنادي.

- أنا مُتعبٌ جدًّا يا يولا ..

"يولا" لم تسمع التدليل بهذا الاسم من زمن، دلَّ لها به مراد أولاً
ثم انتشر بينهم.

- أتيْتُ بالأمس من شرم الشيخ وكلنا متعبون .. لم تسألني عني
طيلة المدة الماضية يا ..

قاطعتها:

- ليس وقته يا جودي، سأمرُّ عليك في الشقة.

- سأنتظرُك.

تابع نديم اتصاله بها فأغلقت الهاتف، ووصلت إلى البنك فسَلَّمت
على لوجي ودلفت للدكتور عادل، فقطَّبَ جبينه ليستشف ما وراءها،
فأخرجت من حقيبتها ملفاً بلاستيكيًّا ومدَّته نحوه:

- استقالتني.

- كفاكِ جنونًا، أكملِي إجازَتَكَ ولا داعي للاستقالة.

- قراري الأخير.

- مراد ..

قاطعته بهدوءٍ:

- لا دَخَلَ لمراد بالموضوع.

- إذن .. كما تحبين.

ورمى بالملف في دُرَج المكتب بدون أيّ اهتمام، آملاً في نفسه أن ترجع يوماً ما.

- شكراً يا دكتور.

- تحت أمرك في أي وقتٍ يا ابنة الغالي.

انصرفت "يولا" وضغط زر الإنتركوم في جانب المكتب، طالباً قهوة من خير.

أمّا نديم فظلّ جالساً في رُكن البوفيه على الكرسي القديم منذ أن مرّت أمام البوفيه دون أن تُلقِي تحية الصباح على من فيه، لا يستطيع القيام بأي عملٍ، تائهاً لا يدري ما يحدث، لا يعرف كيف يعرف، فلا تردُّ على اتصالٍ ولا تستجيبُ لرسائله، وعم خير لا يعرف شيئاً كلما سأله، حتى رَجَعَ من مكتب مدير البنك بوجهٍ مُبتسِّسٍ، وقال:

- يولاند استقالت.

(٦٣)

ضحكة خليعة كالتى اعتادها منها في الكباريه وغرفته، لا يدري لم
ظهرت بوجه مُتبرِّجٍ فاضحٍ بطلائه وزينته كالتى تظهر بها في عمق الليل
بين الرجال والخمور!

تجلس بنفس الملابس الخليعة أيضاً، تجلس على المكتب واضعةً
رجلاً على رجلٍ مُوجَّهةً إليه، خلفها زوجها على كرسيه، وخلفه رجال
أمنه يقفون منتصبين يُشكِّلُون نصف دائرة حول ظهرهما.

"هل ظننتني وأنا هكذا ليلًا، أنني ضعيفة مهضومة في
مجتمعك؟!".

ربما أرادا أن يوصِّلا له هذه الرسالة، ولكنه لم يكن يفهم -ومن
زمن بعيد- لم يُطلق حمد السعيد الحبل لزوجته لتعيش على هواها؟
حتى جاءت الإجابة من عزت ذات مرة: "هؤلاء يتزوجون أمثال

سوزي كواجهته اجتماعية، يكفي أن يتأبط أحدهم جميلته في الاجتماعات أو المؤتمرات الاقتصادية لتفتح لهم الأبواب المغلقة، لا يرجو منها متعة لعجزه عن القيام بها، ولا أولادًا لأن لديه أبناء كبار، مقابل أن تكون حرة وهي بعيدة عنه، قابلت أمثالهن كثيرًا في المؤتمرات".

كان حمد السعيد ينتظر ردّه بعدما أسمعته تسجيلات صوتية بينه وبين هشام تأمره باختطاف ابنته، ثم تسجيلًا يأمره بقتله، ثم تهديدًا آخر بأنه سيقتل هشام.

ثم على شاشة البلازما الكبيرة عرّض له فيديو وهو يدفن رأس هشام، ثم أيدي تحفر مكانها وتخرجها وصبّوا عليها الماء حتى بدت ملامحها واضحة، فأتسعت عيناه دهشةً وبدأ عليه الخوف والهلع، وازدرد ريقه بصعوبة، فكررت سوزي ضحكته.

فقال حمد السعيد:

- أعرف أننا أثقلنا عليك بمكالمات مُزعجة، وصورٍ وفيديو أكثر إزعاجًا ..

وأشعل سيجارةً وتابع وهو ينفث دخانه:

- وأعرف أنك تحبُّ اللحظات السعيدة.

وضغط على الريموت فعرض مشهدًا له مع نادين وهما في غرفة الكباريه بعد تجديدها، وهو يتهجم عليها بعنفٍ وهي تدفعه عنها، حتى اغتصبها وبدوا عاريين تمامًا.

فهم الآن سرّ تغيير الغرفة حتى بدت كغرفة ندين بالضبط.

قال الرجل ضاحكًا:

- أغمضي عينيك يا سوزي.

فضحك الجميع إلا مراد، الذي رفع وجهه الملبّد وعينه الغائمتين
ليسأل:

- وماذا تريدُ الآن؟

- ماذا تريدُ أنتَ؟

أجاب حمد، ثم أطفأ سيجارته وأشعل أخرى، وأردف:

- لك حقُّ الاختيار .. أنا رجلٌ ديمقراطي!

- خُذْ كل ما أمْلِكُ، فلديّ طفلان لا يجب أن يرياني بهذا الشكل،
أرجوك!

فقال حمد:

- أنت لا تملك شيئًا، "لهب" قامت بالواجب وزيادة،
واستحوذت على كل ما تملك .. كان من الممكن أن أدفعك لإشهار
إفلاسك، لكن لهب ستتولى إدارة الشركة وستكبر حتى تكون أكبر
شركات السيراميك في الشرق الأوسط، وستشاهد ذلك بعينيك يومًا
ما.

وأردف بعد ضحكةٍ لا معنى لها سوى التهكُّم عليه، وهو ينظر إلى
سوزي:

- أليس كذلك يا رئيس مجلس الإدارة؟!

فحدّجت مراد بنظرة احتقارٍ وقالت:

- أكيد، وربما أعينّه بوّابًا على أحد مصانعها.

نظر لها مراد وسكتَ، وتحوّل نظره تجاه حمد، فقال حمد جادًا:

- بأي تهمة تريد أن تدخل السجن: اختطاف، تهديد بالقتل، قتل،
اغتصاب وامرأة حامل منك وغيره وغيره ..؟

- حامل؟!!

- نعم، لذا أرجوك ساعدني واختر في أسرع وقتٍ، نادين تلحّ عليّ
بالإجهاض وأنا أؤخرها.

"مراد، التهور سيقودك للانهيار، حاول أن تُسيّر أموركَ بالعقل"

دوّت كلمات عزت في أذنيه في وقتٍ لا تُجدي فيه نفعًا!

- أنا آسف يا حمد بيك أنا ..

- يا ابني .. هذه أشياء لا ينفع فيها الأسف، فكن مستعدًا، فراضي
عبد الله سيقبض عليك قريبًا جدًّا!

تمتم بصوتٍ خفيضٍ:

راضي!

ثم قال بصوتٍ مُجهدٍ:

- أعرِف أن ما فعلتُ كبيرٌ جدًّا، ولكن اعتبرني رجلاً من رجالِك
وسترى أنني رَهْنُ أصبعِك.

فقام واقفاً وقال غاضباً:

- ولا كلباً من كلابي.

- تؤ تؤ تؤ .. لا تغضبْ عليه يا باشا فهو "كلبي الأليف".

قالت سوزي، ونزلت عن المكتب ونفثت دُخانها في وجهه وقالت:

- شيءٌ واحدٌ يُنجيك من كل تلك المصائب.

فقال بلهفة:

- ما هو؟ أنا موافق .. موافق.

- تأتي بزوجتك فأفعل فيها ما فعلتَ بي .. تُقيّد .. تُضرب .. تُهان

.. و .. تُغتصب.

(٦٤)

رجعتُ إلى قواعدها القديمة "الست ليس لها إلا بيت زوجها-
الصبر مفتاح الفرج-الأولاد هم ضحية الانفصال-الأولاد هم
الضحية- ظلّ رجل ولا ظل حائط- كل الرجال هكذا"، ترسخت في
ذهنها حكْمُ الأم وتعاليمها لتجتاز المرحلة بأقل صعوبات مع القَسَمِ
اليومي بعدم الاتصال بنديم أو الرد عليه، واقتنعت بأن ليس هناك
رجلٌ وُفِّي، بل هناك رجلٌ لم تأتِه الفرصة للخيانة، ونديم خير شاهد على
ذلك أيضًا، لا فارق بينه وبينهم في شيءٍ.

ركنتُ سيارتها في جراج العمارة، قابلها سمير خارجًا من المصعد
فتبادلا التحية، وأخبرها أن جودي بانتظارها، كانت رضوى بصُحبته
فقبَّلتها.

اسمّر وجهها من ماء البحر وشَمِسِه:

- كُنْتُ أُمْنَى أَنْ تَكُونِي مَعِي أَنْتِ وَالْوَلَدَيْنِ.

- وَدَعْتُ الشَّوَاطِئَ مِنْ زَمَنِ.

- مَمَم، أَمْ تَخَافِينَ عَلَى نِصَارَةِ بَشْرَتِكَ يَا يُولَا؟

- أَرْجُوكَ .. لَا تَقُولِي "يُولَا" مُجَدِّدًا.

فَسَكَنْتُ هُنَيْهَةً وَقَامْتُ، فَأَحْضَرْتُ عَصِيرًا مِنَ الثَّلَاجَةِ وَقَرَّبْتَهُ
إِلَيْهَا، فَاعْتَذَرْتُ، فَطَلَبْتُ مِنْهَا بَلُطْفٍ أَنْ تَشْرَبَ، فَشَرِبْتُ عَلَى مَضْضٍ،
كَانَتْ جُودِي تَلْمَحُ تَغْيِرَاتٍ عِدَّةَ عَلَى وَجْهِهَا، فَسَأَلْتُهَا عَنْهُ، فَأَشَاحَتْ
بَعِيدًا، فَهَزَّتْ رَأْسَهَا وَتَمَتَّتْ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ:

رَبَّنَا يَسْتَرْ.

- تَعْرِفِينَ ..

ثُمَّ سَكَنْتُ مَبْتَسِمَةً بِحُزْنٍ كَأَنَّمَا تَذَكَّرْتُ شَيْئًا، فَضِيقَتْ عَيْنُهَا،
وَهِيَ تَنْظُرُ نَحْوَهَا مُتَسَائِلَةً، فَأَرْدَفْتُ قَائِلَةً:

- "تَعْرِفِينَ" هِيَ أَكْثَرُ كَلِمَةٍ كَانَ يَقُولُهَا فِي بَدَايَةِ كَلَامِهِ مَعِي، كَأَنَّهُ
سَيُعَلِّمُنِي شَيْئًا جَدِيدًا لَا أَعْرِفُهُ فَكُنْتُ أَنْصِتُ إِلَيْهِ وَبِقَلْبِي سَعَادَةٌ غَامِرَةٌ
ثُمَّ تَنَهَّدْتُ، وَهَزَّتْ رَأْسَهَا أَسْفًا، وَحَاوَلْتُ عَبَثًا طَرْدَ الذِّكْرِ مِنْ
رَأْسِهَا، وَطِيفَهُ مِنْ خَيَالِهَا ..

- يُولَانْد .. مَاذَا حَدَّثَ بَيْنَكُمَا؟

نَظَرْتُ نَحْوَهَا بَعِينٍ اكْتَحَلَتْ بِحُزْنِهَا وَقَالَتْ:

- مَنْ تَقْصِدِينَ مِنْهُمَا!

ارتبكت جودي وتلعثمت، ولم تدرِ كيف تردُّ، فأردفت يولاند
قائلةً:

- وفري على نفسك، أليس من الظلم أن تكون إحدانا مُتململةً بين
رجلين، كالشبكة بين قائمين تتلقَّى كل الضربات وتحمِّل كل الآلام
وحدها؟! كم كنتُ أتمنَّى أن يكون سؤالك عن مراد، كنتُ أتمنَّى أن
يكون نصف هذا الشاب الذي خَلَقَ أنوثتي من جديد، كم كنتُ أتمنَّى
أن يكون مراد ببعض ذوقه وإحساسه معي، لكم سألتُ القدرَ: هل
كانت الدنيا ستزول لو أعطانيه زوجاً بدلاً من مراد؟!

كانت تتمتم مُستغفرةً ومُحولةً، وهي تُنصتُ لحديثها:

- ماذا حدث بينك وبين نديم، أساء إليك؟ لا أفهم سرَّ هذا
الحزن!

- نديم لا يمكن أن يُسيءَ إليّ، ليس لأنه يُجنُّني فقط، بل لأنه لا
يعرف كيف يُسيءُ، تخيّل أن إنساناً لا يعرف أن يسيء! تخيّل أنه يعشقني
إلى هذا الحد!

فقالت بتردُّ:

- تركك وعادَ لزوجته؟

- أنا مَنْ تركته.

- معقول ... أي جُنُونٍ أصابَكَ اليوم!

- كانت نزوةً عابرةً، كأساً محرمةً ارتشفتُها في لحظةٍ ضعيفٍ، مرحلة
بائسة خسرت فيها من
نفسي الكثير.

- وهل تخلصتِ من ضعفك الآن؟

فرمّت شفتيها ودفعت دمعها بقوةٍ، وقالت بسخريةٍ:

- "يولا" كأي امرأةٍ شرقيةٍ لا بد أن ترضى بقدرِها مهما يكن.

- وماذا عنه .. نديم!

- كنتُ قاسيةً معه إلى حدِّ اللامعقول، استشعرتُ حقيقةً أننا نحن
النساء أصبحنا أغلظ قلباً من الرجال، هل هذا يعود إلى ما لقينا من
الرجال عبر تاريخنا الأسود معهم؟! أم أنني برغبةٍ دفينَةٍ داخلي كنتُ
أُفرغ فيه ردّ فعلي المكبوت عشرة أعوام مضت؟ فمنّ مِنّا تصدق أنها بعد
كل هذا الحُمق وكل هذه القسوة والجفاء والصلف والغرور تجد رجلاً
بكل هذا الحنان والعطف والرجولة والتواضع والحب.

مدّت لها يدها بكوب العصير، فأخذته وظلّ في يدها:

- إذن ستكملين حياتك كما هي؟

فقالت بابتسامةٍ ساخرة:

- مُجبر أخوك ..

- اعذريني إن كنتُ انقطعتُ عنكِ الفترة الماضية، رأيْتُها فرصة جيدة للبعد عنكِ لما عرض سمير الذهاب لشرم الشيخ، قلتُ لتخض التجربة بمفردها، بصراحة لم أحبَّ أن ألعبَ دورَ "الناصح"، فنحن اعتدنا على خوض التجارب مهما نكن نعرف نتائجها.

- كنتِ تعرفين ما قد يحدث؟

- كنتُ متأكدةً لأنك متديّنة.

ثم ربت على يديها برفق وقالت:

- سأسافر قريباً إلى أمريكا، أودُّ أن أراك سعيدةً قبل أن أسافر.

(٦٥)

تذكرها نديم مع أول همسةٍ للقمر أرخت بظلاله الساهرة على
أطراف نافذته المفتوحة، سكن الوجود من حوله، وفاضت أرواح
البيت إلى بارئها، لكن روحه ما زالت كما هي، مُقيّدةً بخيط شعوره،
مُعلقةً في أذياله، أيُّ شيءٍ يدفع عنه هذا الموت البطيء، أي طريقةٍ ترحمه
فيستطيع على ضوء هداها أن ينسحب بفكره بعيداً عن نُحومها إلى أرضِ
النسيان.

تترأى لك الآن أكثر جمالاً وفتنةً، يُنشئها الحرمان في فكرِك امرأةً
أخرى وكأنها فريدةُ الدهر لم يُخلق مثلها، آه لو عادت أيامها! آه لو بسَطَ
القدر راحةَ عطفه وكرمه ومنّ بتحقيق الحلم! هددت العين الباكية،
واستراح القلب المُلتاع، وعادت الروح الأَبقة، وهددت النفس
المكلومة، ولكنّ إنساناً من جديد.

ياااه، كيف هي الآن؟ أهى نائمة؟ ماذا ترتدي؟ على أيّ جنب تنام؟ كيف إضاءة حجرتها؟ أي حُلْم يُداعِبُ جفونها الرقيقة؟ أم مُستيقظة؟ هل تأكل أم تقرأ؟ لكم حَدَّثتني عن حبّها للروايات والأدب! وكم ذكرتُ لها أنها شاعرةٌ ظلمتْ نفسها بسجنِ شِعْرِها خوفاً من الجرأة عليها والظنَّ بها.

أم تُشاهدُ التلفاز؟ ربما، أو ربما تشاهد شارلي شابلن كعادتها في قضاء وقتِ كابتها المرهقة، ترى هل تضحك الآن؟ "أضواء المدينة" فيلمُها المفضل لا بد أنها تضحكُ بمُجونٍ سافرِ الآن، فهي كزجاجة العطر، لا يمكنُها مهما تجتهد أن تحبِّي هذا الجمال، إذ ما تلبث أن تندَّ عنها ابتسامةٌ فترتسم شفتاها كوردتين بضاحية الربيع مهتزة لنسيمه الخلاب، أو تحين منها لفتة فتبدو العين كغم الزُّق إذ انسكب عنه فتنة مخمرة.

ترك فراشه ودلف إلى الشرفة ينظر إلى القمر حيناً وإلى أغصان الطريق البعيدة المصفوفة بنظام رتيب مُنمَّق، كانت أشعته الفضية تغسل أوراقها وتُزينها بين نسيم الفجر العليل الذي ينسكب على الجراح فيزيدها اشتعالاً ويبعث في القلب ابتهالاً، فنَهَلَ منه ما استطاعه صدره، مطعماً بأنفاسها الخُلوة يومَ جلوسها بجواره، وتجلَّت عيناها بين السحاب الأبيض، نفس النظرة الفاتنة التي حفظها قلبه في أحشائه، وتجلَّت شفتاها الباسمتان بطلائهما القرمزي تتهادى كفراشة بين أزهار.

سمِعَ بُكاءَها فهُرِعَ إليها لربما أعوزها الدواء، فدلف إلى الغرفة بوجهٍ تجلَّد من النسيم البارد، إلا أن اكفهراره لم يَغِبْ مع غياب القمر

عن عينيه، إذ الوجه مرآة القلب ترسم فيه خبيئته فتسفر للوجود دونها
حيطة أو حذر.

كانت الطفلة على فخذ أمها، أشارت إليه بيدها أن اسكت، فقد
أوشكت الطفلة على الغوص من جديد، فهمم بالرجوع إلى قمره،
فهمست إليه فتقدم نحوها، وأشارت إلى فراشها، فحملها بين يديه في
حذر شديد إلى السرير المقابل، وشد عليها الغطاء، فخرجت منها عدة
أهات متوالية هدأت حدتها في آخرها ثم انتهت، وتاهت الطفلة في
ملكوت آخر، هم مرة أخرى بالخروج، فهذه المناظر تزيده عذاباً فوق
العذاب، وتحشد عليه من أرض الأحزان أحزاناً، زوج غير وقي؟ طالما
أرقه هذا التساؤل الأليم؟ فيجيب ضميره المزعج بأنه بشر ليس بيده
زمام قلبه، لا يدري متى ولا كيف دب حبها فيه، إن ضائرتنا تصرخ
عند مقارفة الذنوب التي نعرف أننا سنعاقب عليها فينادي علينا من
أعماقنا لا تفعل، يستصرخ فينا كل جوارحنا المؤمنة لا تفعل، ولكننا ..
نفعل.

أخرج هاتفه وقرأ مرة أخرى وأخرى آخر رسائلها:

"كل شيء انتهى، أتمنى لك حياة هائلة، تذكرني بخير دائماً".

(٦٦)

دلفت إلى الفيلا المظلمة فتعجبت من سُكونها الذي لم يقطعهُ إلا
خريزٌ ضعيفٌ بجوار الشرفة، فضغطت مكابستها فانتشر النور في
أرجائها، فتفاجأت بوجود مراد جالساً على الكرسي بالقرب من الشرفة
يملاً كأسه من زجاجة الخمر، فاسعت عينها بغضبها لعودة السُّكر
والخمر إلى البيت، وتردّد بصرها بين الزجاجة وغرفة الأطفال،
وتساءلت بازدياء:

- هل رآك أحدهما بهذه القذارة؟!

فقام مترنّحاً بغضبةٍ حانقةٍ، ولطمها على وجهها قائلاً:

قذارة يا بنت القذرة.

فأسقطت الحقيبة من يدها، ولطمته بكلّ قُوّتها على وجهه فسقطَ
على مخدع الكرسي فأثر في جنبه، واتجهت إلى غرفة الطفلين، فأشعلت

نورها فلم تجد طفليها، فنادت كالمجنونة: أين نور عمر؟ فأتاها الصوت مكتومًا من داخل دولا بهما مُستنجدًا بها:

هنا يا ماما.

ففتحته، كانا مُتعرِّقين يكادان يُحتقان، فربتت على ظهريهما مُرددةً:
"لا تخافا، سنرحل من هنا".

ومالت على الأرض لتأخذ حقيبتها والطفلين ينتظرانها بذعرٍ بادٍ في عيونهما وهما ينظران تجاه والدهما المُسجى المُتأم، فأمسك بها فجأةً وجذبها نحوه فسقطت عليه فصرخت، حاولت التملّص منه لكنها لم تنجح، وأمسك بشعرها بكلتا يديه وهزّها بعُنفٍ وهو يهذي: "لن نُفْلتي بالولدين يا بنت الكلب، لن تتزوجي منير ولا أحمد ولا أي أحدٍ غيري يا شرموطة". ثم توالى صفعاته عليها، وانخرط الطفلان في نوبة بكاءٍ وضراخٍ هستيريٍّ حتى سقطت نور أرضًا، فنزعت نفسها بكلّ طاقةٍ ممكنةٍ وهي تقول: "البنت أغمي عليها يا ابن الكلب". فقام خلفها، وأمسكها من ذراعها ودفعها على السُّلم، فحاولت أن تتماسك، لكنها سقطت على الأرض في آخره، ونزل خلفها مُترنحًا يضع يده على جنبه، فأمسكها من شعرها وجرّها على الأرض الرخامية، وطردّها، وأغلق الباب وهو يصرخ: "برة.. أنتِ طالق".

وفي اليومين التاليين كان مراد قد أنهى إجراءات السفر بصُحبة عمر ونور، كان راضي عبد الله بانتظاره بالمطار بصُحبة رجال الصحافة والإعلام، فألقي القبض عليه، ووُضعت القيود في يديه: "لا تنسَ أنني

حذرْتُكَ". قالها راضي همساً في أذنيه، ثم دفعه للأمام وخلفه الطفلان
بيكيان بهستيريا لا يفهمان ما يحدثُ حولهما، ولا يعرفان مَنْ الرجال
المتجهمون الذين يرتدون الزِّيَّ الأسود؟ ولا لماذا قيدوا أباهما بالحديد؟
ولم يقترب أيُّ من رجال الأمن منهما ليهدئهما، بل كانوا يفسحون
الطريق حتى يظهرها بكل تفاصيلها في الكادر.

كان مراد نائماً على جانبه الأيمن على الأرض، واضعاً غطاء رأسه
الأزرق فوق عينيه بجوار عدد من السجناء الآخرين وكلهم نائمون،
فتح الشاويش باب الزنانة فأحدث صوتاً مُزعجاً..
- ما شاء الله، ما زلتم نائمين! نائم عند أمك أنت وهو، قُمْ يا زبالة
منك له، عندنا تفتيش، يلعن أبوكم ولاد كلب.

تمت